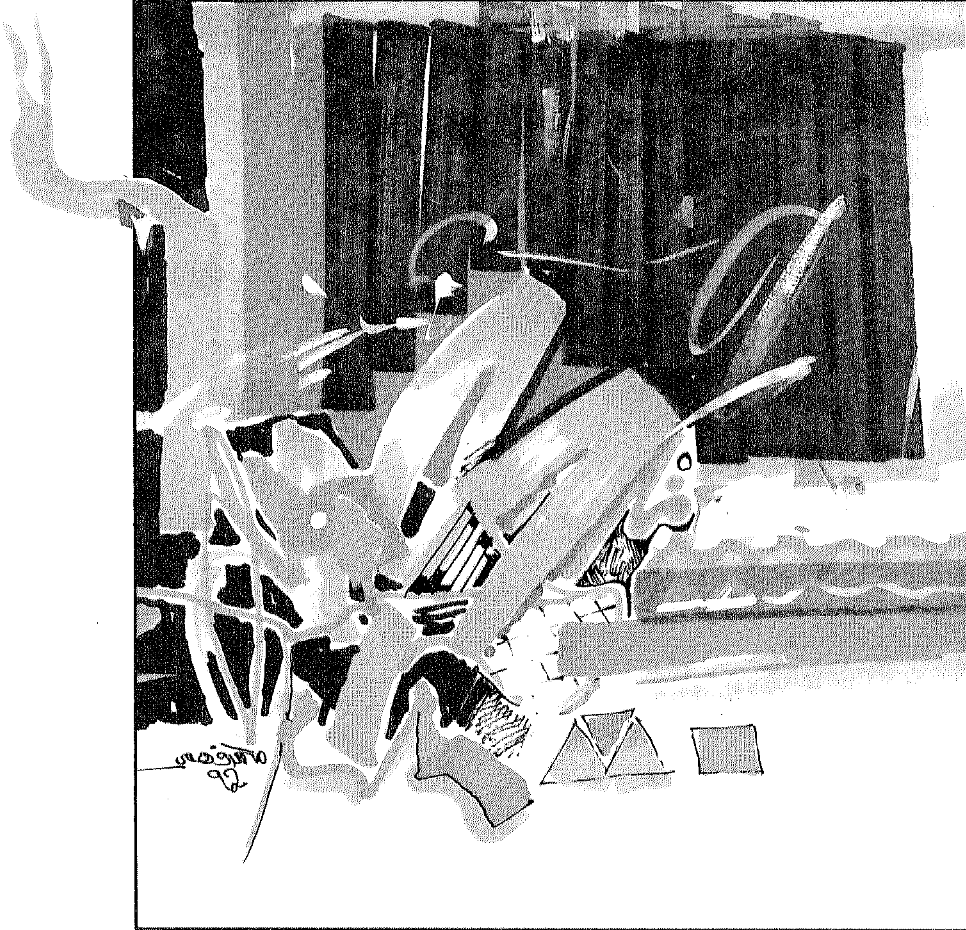
ممثلو الكوميديا



رواية

غراهام غرين

ترجمة : مصطفى كمال

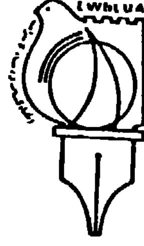
ممثلو الكوميديـا

روايـــة

ممثلو الكوميديـا

غراهام غـريـن

تـرجمـة : مصطفى كمال



منشورات اتحاد كتاب وأدباء الإمارات

الطبعة الأولى

1992

تصميم الغلاف والإخراج : محمد فهمي

المقدمــة

جراهام جرين. هو عميد الأدب باللغة الانجليزية على جـانبي المحيط.. اعترف به الاميركيون بعد غياب نجم هيمنجواي وسقـوط شتـاينبك، وكما يقول عنه البريطانيون أهل بلده: انه آخر العمالقة بغير نزاع.

ولد سنة ١٩٠٤ وتلقى تعليمه في مدرسة بركهامستد حيث كـان أبـوه ناظرا لها ثم التحق بكلية باليول بجامعة أوكسفورد.

وقبل ان يتخرج أصدر أول أعماله. وكان على شكـل ديـوان من الشعـر الحر. وعقب تخرجه التقطته صحيفة التايمز ليعمل بهـا مسـاعـد محرر. وبدأ ينشر قصصه. واحدة فثانية فثالثـة. ولكن قصتـه الـرابعـة «قطـار اسطنبول»هي التي رسخت قدمه في الصف الأول من كتـاب الـروايـة. وان كان هـو يصر على أنهـا كـانت «مجرد شيء» للتسليـة ليميـز بينهـا وبين أعماله الأكثر جدية.

وفي عام ١٩٣٥ قام برحلة في أدغال ليبيريا وسجلها في كتابـه «رحلـة بدون خرائط»، وعندما عاد اختطفته صحيفة سبكتاتور ليعمل بها نـاقـدا أدبيا وفي عام ١٩٣٨ زار المكسيك ليغطي أحداث الفتنة الدينية هناك، وعاد ليكتب «طرق الخروج على القانون» و«القوة والمجد» حول أسـاليب القمـع الوحشي للكاثوليك هناك.

وفي نفس العام اصدر رواية «برايتون روك»... ومع ارهاصات الحرب العالمية الثانية التحق بوزارة الخارجية وارسل الى سيراليون حيث قضى الفترة من ١٩٤١ الى ١٩٤٣ وكتب هناك واحدا من أحسن أعماله بعنوان «أصل الحكاية».

وتوالت بعدها مؤلفاته، وكلها نجوم بارزة في سماء الأدب الانجليزي يحضرنا منها الرجل العاشر الذي سبق ان قدمه اتحاد الكتاب «ورجلنا في هافانا» و«أغلق الملف»، وامرأة مستحيلة.. والسيد كيشوت...الخ، لتصل في مجموعها الى ٣٠ رواية وعشرات من كتب الاطفال والتسالي وأدب الرحلات..

أما الكوميديون، أو ممثلو الكوميديا فتدور أحداثها في هايتي.. في فترة من أبشع فترات الحكم الدكتاتوري..

الفصل الأول

1

عندما ترد الى خواطري كل تلك التماثيل الكالحة المنتصبة في ميـادين لنـدن للعديد من الجنرالات على صهوات خيولهم، أبطال الحروب الاستعمارية، ورجال السياســة بستراتهم الطـويلـة ذات الـذيـول ممن غـاصت مـلامحهم في أعماق النسيان، لا أستطيع ان أجد مبررا للاستخفاف بذلك الحجر المتواضع الذي اقيم تخليدا لذكرى «جونز» على الطرف الأقصى من الطريق الدولي الذي عجـز ذات يوم عن عبوره الى بلد بعيد جـدا عن وطنـه. وان كنت حتى هـذه اللحظـة لست متأكدا تماما ـ من الناحية الجغرافية ـ أين يقع وطن جونز. فهو على الأقل دفع حيـاتـه ـ ربما رغم أنفـه ـ ثمنـا لهذا النصب التـذكـاري. في حين ان أولئك الجنرالات ـ كقاعدة عامة ـ عادوا الى وطنهم سالمين، واذا كانوا قد دفعوا شيئا في مقابل تماثيلهم فقد دفعوه من دماء آخرين. أما فيما يتصل برجال السياسـة فمن ذا الذي يعنيه كثيرا أن يتذكر ما هي القضايا التي اشتهروا بها؟ واذا كانت «حرية التجارة» أقل مدعاة للاهتمام من بعض حـروب الأشـانتي، فـان اسراب الحمام في لنـدن لا تـرى فـرقـا بين الاثنين! واسمحـوا لي أن أقـول إنني كلما سـاقتني أعمالي ـ المستهجنـة في رأي الكثيرين ـ الى شمال مـونت كـريستي. ينتابني احساس خاص بالفخر لأنني سـاعـدت ببعض جهـدي على قيـام هـذا النصب التذكاري في مكانه.

* * *

في حياة معظم البشر لحظة يمكن ان نسميها «نقطة اللاعـودة»، ولكن اكثـر الناس لا يستطيعون ان يلحظوها في حينها. وما حدث كان أنني ـ أنا وجونز لم نع هذه اللحظة عندما أتت، مع أننا ـ هو وانا ـ مثل قادة طائرات عصر ما قبـل النفاثات ـ كان يفترض أن نكون مدربين على قوة الملاحظة بشكل أفضـل بحكم طبيعة أسلوبنا في كسب العيش. والذي لاشك فيه أنني لم أنتبه الى هذه اللحظـة بالمرة عندما مرت بي ذات صباح كئيب في شهر أغسطس لتغيب في أمواج المحيط الأطلسي مع الزبد المتطاير وراء مؤخرة « «ميديا».. و«ميديا» هذه سفينـة شحن مملوكة لشركة البواخر الهولندية الملكية كانت في طريقهـا الى هـايتي وبـورتـو برينس قادمة من فيلادلفيا ونيويورك.

وفي تلك الفترة من حياتي كنت لا أزال أنظر الى مستقبلي بجدية ـ حتى فيما يتصل بمستقبل فندقي الخاوي على عروشه، وقصة حب لعلها تكـاد تصـل الى نفس مستوى الخواء. ولم تكن لي عـلاقـة ـ بقـدر مـا يسعني القـول ـ لا مـع جونز، ولا مع سميث، فهما مجرد رفيقي سفر، لا اكثر ولا أقل. ولم تكن لـدي أي فكرة عن الحفل الجنائزي الذي أعداه لي في رواق السيد فرنانديز، ولو كـان قد قيل لي وقتها لكنت قد ضحكت بـلا شك تمامـا كما أضحك الآن على الأيـام الخوالي.



كان سطح شراب الجين الوردي يتمايل في كأسي مع تمايـل المـركب كما لـو كان الكأس جهازا لتسجيل صدمات الأمواج، حينما قـال مستر سميث بصيغـة الجزم وهو يجيب على جونز.

ـ أبدا يا سيدي.. أنا لم يحدث لي أبدا ان عانيت من دوار البحر. كـلا، وانما هذا نتيجة الحموضة. ان اكل اللحم يسبب الحموضة. وتنـاول الكحـول يفعـل الشيء نفسه.

كان مستر سميث من أسرة سميث المعروفة في وسكونسن. غير أني عرفته منذ البداية مسبوقا بلقب «مرشح الرئاسة»، حتى قبل ان أعرف اسمه عندما قدمته لي زوجته بينما كنا متكئين على السياج في ساعتنا الأولى بالبحر، وهي تطوح ذقنها بحركة قوية في اتجاهه كأنما لتؤكد أنه لو فرض وكان هناك أي مرشح اخر للرئاسة على ظهر المركب فانها لا تعني الا هذا الرجل دون سواه.

- إني اقصد زوجي هذا الواقف هناك.. مستر سميث... كان مرشحا للرئاسة في عام ١٩٤٨. انه مثالي. ولهذا السبب بالذات لم تكن لديه فرصة للفوز.

ولكن ماذا كان موضوع حديثنا الذي قادها الى الادلاء بهذا البيان؟
لقد كنا في حالة استرخاء نتأمل من فوق سياج السفينة صفحة البحر المعتمة الممتدة لمسافة حدود الثلاثة أميال كأنما هي حيوان خطر مستكين في قفصه منتظرا اللحظة التي يستطيع فيها ان يظهر جبروته خارج القفص. ولعلني كنت اتحدث اليها عن صديقة أعرفها كانت تعزف على البيانو، وربما جعل هذا خواطرها تقفز الى ابنة الرئيس ترومان ومن ثم الى السياسة والانتخابات. فقد كانت أوعى سياسيا بكثير من زوجها. وأعتقد أنها كانت تؤمن عن يقين أنها لو رشحت نفسها للرئاسة بدلا من زوجها لكانت فرصتها اكبر.. وعندما نظرت الي حيث أشارت ذقنها وجدتني مستعدا للاقتناع بوجهة نظرها.

كان مستر سميث في هذه اللحظة يخطر خلفنا بخطى وئيدة خلفنا على سطح المركب، مرتديا معطفا باليا للوقاية من المطر، وقد قلب ياقته ليحمي أذنيه الطويلتين البريئتين من الريح، وتتوج رأسه خصلة شعر بيضاء منتصبة في الهواء كأنها ايريال تليفزيون.. وثمة بطانية سفر يحملها على ذراعه. وكان من الممكن ان أتصوره شاعرا من شعراء الأقاليم، أو ربما عميدا لكلية مغمورة في مكان لا يعرفه احد، ولكن من الصعب ان اتصور أنه رجل سياسة. ولقد

حاولت أن اتذكر.. أجل.. بالتأكيد لقد كان منافس ترومان اسمه ديوي وليس سميث. وفيما حملت الريح جملها التالية والقتها في أمواج المحيط خيل الي أني سمعتها تذكر شيئا حول الخضروات.. ولكن الكلمة بدت لي بعيدة عن سياق الحديث..

أما جونز فقد قابلته بعدها بقليل في ظروف محرجة. ذلك انه كان متورطا في محاولة لرشوة عامل الغرفة ليستبدل قمرتي بقمرته. كان واقفا على باب غرفتي ممسكا باحدى يديه بحقيبة سفره وبيده الأخرى ورقتان من فئة الخمسة دولارات، وهو يقول:

ـ انه لم ينزل بعد. ولن يصنع من الأمر مشكلة. هو ليس من هذا النوع من الناس، حتى لو لاحظ ان هناك فرقا بين الحجرتين.

كان يتحدث كأنما يعرفني. وحاول عامل الغرفة أن يناقشه قائلاً:

ـ ولكن يا مستر جونز...

كان مستر جونز رجلا ضئيل الحجم بادي الأناقة، يرفل في حلة رمادية فاتحة وصديري مزدوج جعلته يبدو بعيدا عن أي شيء يتصل بالمصاعد وزحمة المكاتب ودقات الآلات الكاتبة. كانت الشيء الوحيد من نوعه على سطح مركبنا المتواضع الزاحف على صفحة البحر الكئيب. ولم يغيرها أبدا. وقد لاحظت ذلك، حتى كانت ليلة الحفل الموسيقي الذي أقيم بالسفينة فمن يومها بدأت اتساءل، ما اذا كانت حقيبته تضم أية ملابس أخرى؟ وبدا لي كأنه اضطر الى اعداد حقيبته على عجل فارتدى زيا لم يكن يقصده، لأنه بالتأكيد لم يكن يريد ان يبدو ملفتا للنظر الى هذا الحد. ولعلني توقعت في البداية أن يكون فرنسيا. نظرا لشاربه الأسود الصغير وعينيه العسليتين. وربما كان يعمل في البورصة. ولذلك فقد كانت مفاجأة لي ان اسمع الرجل يناديه باسم مستر جونز واسمعه يصحح له.

ـ ماجور جونز من فضلك..

كان في لهجته نبرة لوم غير خافية.

أحسست بحرج يكاد لا يقل عن حرجه. ففي سفينـة شحن لا يـوجـد على ظهرها سوى عدد قليل من الركاب لا يكون من الحكمة في شيء أن تثير حفيظـة أو موجـدة.. المهم.. أن المضيف ابى ان يمـد يـده للنقـود واستطـرد قـائلا على الفور.

ـ الحق اني لا أستطيـع ان أفعـل شيئـا في ذلك يـا سيـدي، فهـذه القمـرة محجوزة باسم هذا السيد.. مستر براون.

سميث، وجونز، وبراون؟!

انه حقا موقف غير معقول.. أنا على أية حال ربما كان لي بعض الحق في أن اسمي نفسي بهذا الاسم الكئيب. ولكن.. ماذا عنه هو؟

غلبتني ابتسامة لوضعه الحرج.. ولكن روح الدعابـة لـديـه ـ كما اكتشفت فيما بعد كانت من فصيلة اكثر بساطة. فقد التفت نحوي بنظرة جادة قائلا:

ـ هل هذه قمرتك حقا يا سيدي؟

ـ اعتقد انها كذلك..

ـ بعضهم قال لي انها شاغرة..

وتحرك الرجل قليلا حتى يعطي ظهـره لحقيبـة ثيـابي الكبيرة التي كـانت منتصبة كـالشـاهـد في الـداخـل على عتبـة البـاب مبـاشرة ولاحظت ان ورقتي البنكنوت قد اختفتا، ربما في كمه، لأني لم أر يده تتحرك في اتجاه جيبه.

سألت.

ـ هل أعطوك قمرة سيئة؟

ـ أوه... كل ما في الأمر أنني أفضل الجانب الايمن.

ـ آه وأنا أيضا. وخصوصا في هذه الرحلة بالذات. هنا يستطيع المرء أن يبقى الكوة مفتوحة..

وكأنما على سبيل التأكيد لصدق ما أقول، بدأت السفينة بالفعل تدور بحركة بطيئة وهي تتقدم نحو عرض البحر.

وبادرني جونز بقوله:

ـ ما رأيك في كأس من الجن الوردي؟

صعدنا السلم سويا، لنجد القاعة الصغيرة والمضيف الأسود الذي انتهز أول فرصة وهو يضيف بعض الماء الى كأسي ليهمس في أذني.

ـ أنا رعية بريطانية ياسيدي..

لاحظت أنه لم يدل بمثل هذا البيان للمستر جونز.

دار باب القاعة ليفتح وأطل علينا مرشح الرئاسة بطلعته المهيبة بالرغم من أذنيه البريئتين. طافت عيناه بالقاعة كلها قبل ان يتزحزح جانبا ليتيح لزوجته ان تدخل من تحت ذراعه وكأنه قوس النصر، تماما مثلما تخطو العروس تحت السيف الممدود. وكأنما أراد ان يتأكد أولا من عدم وجود صحبة غير مناسبة. كانت عيناه صافيتي الزرقة، ومن أنفه وأذنيه تطل شتلات رمادية ظاهرة السذاجة. كل ما فيه يؤكد انه مادة خام ـ اذا جاز لي القول. شيء على النقيض تماما من مستر جونز. ولو كان قد عن لي أن أفكر في أمرهما أصلا في ذلك الحين لكان رأيي ان الماء والزيت أقرب الى أن يمتزجا معا من هذين الرجلين.

ـ تفضلا بالدخول...

كان القائل هو المستر جونز. (لا أدري لماذا لم أستطع ان أطوع نفسي على التفكير فيه بلقب ميجور جونز). قال:

ـ تعال.. خذ لك حبة فرفشة!

لا أدري، لماذا بدت لي عبارته السوقية ـ كما تبين لي فيما بعد ـ وكأنها بعيدة عن المألوف وعفا عليها الزمن، كما لو كان قائلها تعلمها من قاموس للمصطلحات السوقية.. قاموس ليس من أحدث طبعة!

أجاب مستر سميث بلطف...

ـ أرجو أن تسامحني.. ولكني لا ألمس الكحول أبدا..

قال جونز:

ـ وأنا أيضا لا ألمسه.. أنا أشربه فقط!

وتناول جرعة كبيرة ليؤكد تطابق قوله مع فعله قبل ان يضيف.

ـ الاسم جونز.. ميجور جونز

ـ أنا سعيد بلقائك يا ميجور... اسمي سميث.. ويليام أبيل سميث.. هذه زوجتي.. أقدم لك ميجور جونز.

وتطلع نحوي متسائلا. فأدركت أني قد تأخرت نوعا ما عن عملية التقديم.

ـ براون..

قلتها في حياء، وانا أحس كما لو كنت ألقي بنكتة سخيفة.. ولكن أحدا منهما لم ينتبه للأمر.

قال جونز

ـ دق الجرس مرة أخرى.. وكن أنت رجلا طيبا!

ها أنذا أرتقي بسرعة الى وضع الصديق القديم! ومع أن مستر سميث كـان أقرب الى الجرس الا أنني اجتزت الصالون حتى ألمس الجرس. وعلى أية حـال، فان مستر سميث كان مشغولا بحبك بطانية السفر بعناية حول ركبتي زوجتـه (ربما كانت هذه طقوس زوجية).

وكانت هذه هي اللحظة التي أدلى فيها المستر سميث ببيانه المذهبي في سياق الرد على تأكيدات جونز بأنه لا شيء يحفظ المرء من دوار البحر مثل كـأس من الجين الوردي. قال:

ـ أنا لم أصب أبدا بدوار البحر. أبدا يا سيدي، فانا نباتي. طول حياتي، وأنا نباتي.

وتوجت زوجته هذا البيان بقولها:

ـ لقد قمنا بحملتنا على أساس هذا الموضوع.

تساءل جونـز بحـدة، كما لـو كـانت العبـارة قـد ايقظت اللقب العسكـري (ماجور) في داخله:

ـ حملتكم؟

ـ أجل.. حملتنا في انتخابات الرئاسة عام ١٩٤٨

ـ هل كنت مرشحا؟

أجاب سميث مبتسا بلطف... وتواضع:

ـ أخشى ان فرصتي كانت ضعيفة جدا، فالحزبان الكبيران...

قاطعت زوجته بقوة:

ـ كانت اشارة رمزية، ويكفي أننا أريناهم رايتنا.

التزم جونز الصمت. لعله أخذ بما سمع، أو ربما راح مثلي يحاول ان يتذكر اسمي المرشحين الأساسيين المتنافسين حينذاك وأخيرا أخذ يدير عبارته بلسانه في فمه كأنما أحب مذاقها في فمه قائلا:

ـ مرشح الرئاسة في ١٩٤٨؟ أنا فخور جدا بلقائك

استطردت مسز سميث:

ـ لم يكن لدينا تنظيم. كان هذا فوق طاقتنا. ومع ذلك، فقد حصلنا على اكثر من عشرة آلاف صوت..

قال المرشح الرئاسي:

ـ لم اكن أتوقع أبدا كل هذا التأييد.

ـ ولم نأت في ذيل الاقتراع، كان هناك مرشح أظن له علاقة بالزراعة... يا عزيزتي؟

ـ أجل ـ لقد نسيت اسم حزبه.. ولكنه كان من أتباع هنري جورج على ما أذكر.

قلت:

ـيجب ان اعترف انني كنت اعتقد ان المرشحين الوحيدين كانا المرشح الجمهوري والمرشح الديمقراطي... آه... كان هناك مرشح اشتراكي ايضا.. اليس كذلك؟

قالت مسز سميث:

ـ المؤتمرات الانتخابية هي التي تجذب كل الشهرة رغم ما فيها من سوقية مبتذلة.. هل يمكن ان تتصور مستر سميث وحوله كل هذا العدد من الضاربات على الطبول؟

قال المرشح الرئاسي بنفس اللطف والتواضع:

ـ أي شخص يمكن ان يرشح نفسه للرئاسة. هذا هو فخر ديمقراطيتنا. وصدقني لو قلت لك انها كانت تجربة رائعة بالنسبة لي. تجربة عظيمة.. تجربة لن انساها ما حييت.

★★★

2

كانت سفينتنا مركبا صغيرا جدا. وأعتقد ان حمولتها الكاملة لا تزيد على أربعة عشر راكبا، وهي لم تكن كاملة العدد بحال من الأحوال فنحن لسنا في الموسم السياحي.. وحتى لو كنا في الموسم السياحي فان الجزيرة التي نقصدها لم تعد تمثل أية جاذبية بالنسبة للسياحة.

كان من بين الركاب زنجي بادي الأناقة، بياقة عالية شديدة البياض وأكمام منشاه وعوينات مذهبة، في طريقه الى سانتو دمنجو. وكان منطويا على نفسه في اكثر الأحيان. وعلى مائدة الطعام يجيب فقط بأدب اجابات غامضة بكلمات من مقطع واحد. مثلا، عندما سألته ما هي الشحنة الأساسية التي يحتمل ان يأخذها القبطان في تورجيلو ـ آسف»، صححت نفسي «أعني في سانتودومينجو أومأ برأسه بحركة وقورة ثم قال «أجل» ولم يزد حرفا. ولم يحدث أبدا ان بادر هو بأي سؤال، وكأن تحفظه هذا نوع من تأنيبنا على فضولنا السخيف.

وكان هناك مسافر آخر ينتمي الى مؤسسة لصناعة الأدوية. وقد نسيت السبب الذي برر به عدم سفره بطريق الجو. ولكني كنت واثقا أنه ليس السبب الصحيح. وأنه يعاني من بعض متاعب في القلب يفضل أن يحتفظ بها لنفسه. وكان وجهه شاحبا مهضوما متوترا يعلو جسما ضحما بالنسبة لرأسه، ويقضي ساعات طويلة في قمرته.

أما السبب الرئيسي الذي حدا بي الى الوجود على ظهر هذا المركب وهو نفس السبب الذي كثيرا ما تصورت انه لدى جونز ـ فكان «الكياسة».. ففي المطار ينفصل المرء عن طاقم الطائرة بمجرد ان تطأ قدماه أرض المطار.. ولكن في الميناء، يشعر المرء بأمن الحدود الأجنبية تحت قدميه. فأنا أعتبر مواطنا هولنديا طالما أنا على ظهر السفينة الهولندية «ميديا».ولقد حجزت مكاني حتى سانتو دمينجو، قائلا لنفسي، وان كنت لم أستطع أقناعها تماما ـ بأنني لن أغادر السفينة الا بعد ان اتلقى تأكيدات معينة من القائم بالأعمال البريطاني أو من «مارتا»، فالفندق الذي أملكه فوق التلال المطلة على العاصمة قد استمر موجودا بدوني لمدة ثلاثة أشهر ومن المؤكد أنه خال الآن من النزلاء، وانا شخصيا اعتبر حياتي أسمى بكثير من بار بلا رواد وغرف نوم خالية من الزبائن ومستقبل خال من الأمل. وأما بالنسبة للزوجين «سميث» فإني واثق بصدق أن حب البحر هو الذي قذف بهما الى سطح المركب وان كانت قد مرت فترة غير قصيرة قبل ان أعرف لماذا اختارا جمهورية هايتي بالذات لزيارتها.

★ ★ ★

كان قبطان المركب هولنديا ممشوق القوام لا يصل أحد الى حماه، نظيفا مصقولا كأنه قطعة من ديكور السفينة النحاسي اللامع، ولم يظهر على مائدة الطعام سوى مرة واحدة، وعلى النقيض منه كان موظف الحسابات، مهملا لمنظره، مرحا بغير تحفظ وعاشقا عظيما لمشروب «جين بولز» وروم هايتي.. وفي

اليوم الثاني من اقلاعنا بالبحر دعانا لتناول الشراب معه في كابينته، فانحشرنا جميعا فيها، فيما عدا ذلك المسافر صاحب المنتجات الدوائية الذي قال انه يجب أن يكون في فراشه في هذا الوقت. حتى ذلك الجنتلمان الأسود الأنيق من سانتو دمينجو انضم الينا، وأجاب بكلمة «كلا» عندما سأله المحاسب عن رأيه في الجو في ذلك المساء.

وكان لدى المحاسب عادة المبالغة المرحة في كل شيء.غير ان مرحه الطبيعي أصيب ببعض الاحباط عندما طلب الزوجان «سميث» شراب ليمون، فلما تبين لهما ان هذا ليس متيسرا طلبا كوكاكولا، فقال لهما «أنتما تتجرعان موتكما». وبدأ بشرح نظريته الخاصة حول المفعول السحري لمشروبه المفضل. ولكن آل سميث لم يقتنعا، وواصلا تجرع الكوكاكولا باستمتاع ظاهر. فقال لهما المحاسب:

ـ سوف تحتاجان الى شيء أقوى من ذلك في المكان الذي تذهبان اليه.

اجابت مسز سميث

ـ زوجي وأنا لا نتناول أبدا شيئا أقوى من هذا.

ـ المياه (هناك) لا يمكن الاطمئنان الى عدم تلوثها، ولن تجدا كوكاكولا الآن بعد ان خرج الاميركيون. وفي المساء عندما تسمعان أصوات اطلاق النار في الشوارع سوف تريان أن كأسا قويا من الروم يمكن ان..

قاطعته مسز سميث

ـ الروم.؟ كلا ..

وقال مستر سميث مستفسرا!

ـ اطلاق نار؟ هل هناك اطلاق نار؟

قال هذا وهو يتطلع الى زوجته حيث جلست ملفوفة مع نفسها تحت بطانية السفر (لم تكن تحس بالدفء بما فيه الكفاية حتى في هذه الكابينة المزدحمة بالضيوف)، ثم التفتت نحو المحاسب

ـ لماذا اطلاق النار؟

ـ سل مستر براون. انه يقيم هناك

قلت:

أنا لم أسمع اطلاق النار كثيرا، فهم كقاعدة عامة يعملون بوسائل أقل صخبا:

سأل مستر سميث

ـ من هم؟

تطوع المحاسب بالاجابة قائلا في مرح

ـ الطونطون ماكوت.. أشباح الرئيس.. انهم يرتدون عوينات سوداء ويسقطون على ضحاياهم بعد حلول المساء

وضع مستر سميث يده على ركبة زوجته وقال.
ـ السيد يريد ان يفزعنا يا عزيزتي.. فلم يقل لنا احد شيئا من ذلك في مكتب السياحة.

قالت مسز سميث بثقة:

ـ لعله لا يعلم أننا لا نفزع بسهولة

لأمر ما.. وجدت نفسي أصدقها.! بينما رفع المحاسب صوته عبر الكابينة على

النحو المألوف عندما يتحدث المرء مع جنس غريب.

ـ هل تفهم ما نتحدث عنه يا سيد فيرنانديز؟

نامت في عين مستر فرنانديز نظرة رجل يكاد يغلبه النعاس. قال: نعم. ولكني أعتقد أنه كان سيان أن يجيب بنعم أو كلا. وهنا، ولأول مرة، تحدث جونز الذي كان جالسا على حافة سرير المحاسب، قال:

ـ أعطني خمسين فدائيا من الكوماندوس، وأنا كفيل بأن أخترق ذلك البلد كما أخترق حفنة من الملح:

سألت في شبه ذهول

ـ هل كنت مع الكوماندوس؟

أجاب متعمدا الغموض

ـ مع فرع آخر من نفس العينة

قال المرشح الرئاسي

ـ نحن لدينا موعد خاص مع وزير الشؤون الاجتماعية

هتف المحاسب

ـ وزير ماذا؟ الشؤون الاجتماعية؟ هاها.. لن تجد هناك أية شؤون اجتماعية ولسوف ترى بنفسك الجرذان.. جرذان كبيرة في حجم كلاب الصيد!

ـ لقد قيل لي في مكتب السياحة أنه يوجد هناك بعض الفنادق الممتازة جدا.. قلت وأنا أخرج من جيبي مفكرة جيب، وأطلعه على ثلاث بطاقات كارت بوستال.

ـ أنا أملك واحدا هناك..

ورغم ان البطاقات كانت مطبوعة بألوان فاقعة مبتذلة الا انها كانت تحمل في ثناياها كبرياء التاريخ، لأنها كانت تذكارا لعصر ولى الى الأبد. أحدها كان لحوض سباحة مفروش بأرضية زرقاء بلون السماء ويزدحم بالفتيات ذوات البكيني. والثاني كان لعازف طبول معروف في كل منطقة الكاريبي ومن فوقه المظلة الاستوائية التي تغطي سقف البار الكريولي. والثالث منظر عام للفندق، شرفات وابراج واللمسات المعمارية الفخمة التي عرفتها بورتو برنس في القرن التاسع عشر.. وهذا ـ على الأقل ـ لم يتغير.

قال مستر سميث

ـ كنا نفكر في شيء اكثر هدوءا..

ـ نحن هادئون جدا الآن.

قالت مسز سميث مقاطعة

ـ سوف يكون من دواعي سرورنا الشديد ان نقيم بصحبة صديق.. أليس كذلك يا عزيزي؟ اذا كان لديك غرفة خالية بحمام...

ـ كل حجرة بالفندق لها حمام خاص. ولا تخافا من الضوضاء، فقد هرب عازف الطبول الى نيويورك. وكل فتيات البكيني هربن الى ميامي. ومن المحتمل جدا ألا يكون في الفندق نزلاء غيركما الآن.

كان ما طرأ على بالي في تلك اللحظة أن هذين الزبونين قد يكون لهما قيمة اكبر بكثير من النقود التي سيدفعانها. فأي مرشح رئاسي من المؤكد ان له مكانته. وسيكون تحت حماية سفارته.، أو ما تبقى من سفارته، (عندما غادرت بورتو برنس كان طاقم السفارة الاميركية، قد انخفض الى أربعة أفراد. القائم

بالأعمال والسكرتير واثنين من حرس البحرية هي كل من بقى من البعثة العسكرية). ولعل نفس الفكرة طرأت على بال جونز الذي قال
ـ قد أصحبكم بدوري، ما لم تكن هناك ترتيبات أخرى قد أعدت لي. سنكون كأننا لم نغادر السفينة اذا بقينا معا.

وافق المحاسب قائلا:

ـ كثرة العدد تعني السلامة..

وقلت أنا

- بوجود ثلاثة نزلاء سأكون محل حسد جميع أصحاب الفنادق في بورتو برنس

قال المحاسب:

ـ لا يأمن المرء كثيرا اذا كان محل حسد. وفي رأيي أنه سيكون أفضل لكم أنتم الثلاثة لو بقيتم معنا على ظهر المركب.. أنا شخصيا لا يهمني بالمرة أن ابتعد اكثر من خمسين مترا عن مرسى السفينة. وهناك في سانتو دومينجو فندق بديع.. فندق فخم، استطيع ان أريكم بطاقات له مثل هذه وأحسن..

وفتح درج مكتبه حيث لمحت لا أقل من ١٢ ربطة لأشياء عجيبة لا يتصور المرء وجودها في درج محاسب بسفينة ركاب.. وأخذ يبحث في ثنايا الدرج وهو يهمهم «أين وضعته..»، وراح يقلب بين المحتويات حتى أخرج أخيرا عددا من البطاقات البريدية الملونة كانت صورة أخرى من نفس البطاقات التي أحملها، بما في ذلك حمام السباحة وفتيات البكيني، والبار الكريولي الذي لم يختلف الا في شخص عازف الطبول.

قالت مسز سميث في شبه ازدراء

ـ زوجي ليس في اجازة هنا.

وقال جونز وهو يمد يده الى بطاقة فتيات البكيني

ـ أود أن احتفظ بهذه لوسمحت..

وصمت لحظة قبل ان يضيف.
ـ لا يعلم المرء أبدا ماذا...

ولم يكمل.. تاركا لي أن أعتقد.. أن هذه العبارة هي خلاصة بحثه العميق في معنى الحياة..

★★★

(٣)

في اليوم التالي، اتخذت لنفسي مقعدا هزازا في الجانب الأيمن المظلل من سطح السفينة، تاركا نفسي أتأرجح في كسل من الظل الى الشمس وبالعكس مع حركات البحر الفيروزي. حاولت القراءة في رواية. ولكن الحركة البطيئة الثقيلة لشخصياتها في دهاليز السلطة التي لا تستهوى أحدا جعلتني أغفو، وعندما سقط الكتاب على سطح المركب لم أهتم بالتقاطه. ولم أفتح عيني الا عندما مر بي المسافر صاحب المنتجات الدوائية وتعلق بيديه الاثنتين بالسياج، وبدا أنه يريد أن يتسلقه كأنه سلم، وهو يلهث بشدة وقد ارتسمت على وجهه صورة من يسعى لهدف لا أمل في الوصول اليه، وكأنه يعرف الى أين يفضي به السياج عندما يتسلقه ويعلم أيضا انه لن يؤتى أبدا القدرة على الوصول للنهاية.

وغفوت مرة أخرى، كأني في غرفة مظلمة، واذا بي استيقظ فجأة، على شخص يلمسني، وكان هو مستر فرنانديز الذي يبدو انه فوجيء بهزة عنيفة من المركب فاضطر الى الاستناد على كتفي ففتحت عيني لأرى وجهه وهو يطل

علي بعويناته المذهبة وكـأنما حط على وجهي شعـاع ذهبي سـاقطـا من السماء السوداء ـ تمتم الرجل «أجل.. أجل..» وهو يبتسم معتذرا ثم هرول مبتعدا.

كنا في اليوم الثاني، وكأنما هناك رغبة مفاجئة في ممارسـة الـريـاضـة قـد أصابت الجميع ما عداي. فقد جاء بعد فرنانديز مستر جونز ـ ولا زلت عاجـزا عن حمل نفسي على تسميته بلقب الماجـور جـونـز. خطـا بثبـات حتى منتصف السطح وهو يوازي نفسه مع حركة اهتزاز السفينة، قائلا وهو يمر بي «الجـو عاصف» دون ان يتـوقف ليسمـع أي تعليق. ومـرة أخـرى كـان انطبـاعي أن انجليزية هذا الرجل انما تعلمها من الكتب، وربما اقتبس هذه العبارة بالذات من بعض أعمال تشارلز ديكنز.

وفجأة على غير انتظار أقبل مستر فرنانديز من حيث ذهب، وهـو يترنـح في غير اتزان، ومن خلفه الصيدلي لازال يحاول تسلق السيـاج، وفيما أنـا اتسـاءل متى سيظهر المرشح الرئاسي اذا به يظهر كأنما انبثق من جوف الصـالـون. لم تكن زوجته معه فبدا وحيدا كأنه وجد نفسه في بيت أشباح. ويبدو انه أراد ان يصحح عبارة قالها جونز فقال بوقار: الريح شديدة اليـوم..، ثم اتخذ مجلسـه على الكرسي الهزاز بجواري.

ـ أرجو ان تكون مسز سميث على ما يرام

أجاب:

ـ كأحسن ما يكون. انها تحت في الكابينة تستذكر درس القـواعـد النحـويـة الفرنسية، حيث قالت لي انها لا تستطيع التركيز وانا بجوارها.

ـ القواعد النحوية الفرنسية؟

ـ قالوا لي ان هذه هي اللغة المستخدمـة في المكـان الـذي نقصـده. ان مسـز سميث في الواقع لغوية مدهشة. اعطهـا بضـع سـاعـات مـع أي كتـاب للنحـو

وسوف تجدها تعرف كل شيء، ما عدا النطق طبعا

ـ ألم تعترض اللغة الفرنسية طريقها من قبل؟

ـ هذه ليست مشكلة بالنسبة لمسز سميث. لقد حدث في وقت ما أن كان لدينا في المنزل فتاة ألمانية. وقبل مضي نصف يوم من مجيئها كانت مسز سميث تأمرها بتنظيف غرفتها بلغتها الألمانية. ومرة أخرى جاءتنا فتاة فنلندية وتطلب الامر اسبوعا كاملا حتى استطاعت مسز سميث أن تجد كتابا حول اللغة الفنلندية، وعندها، لم تعد هناك مشكلة

توقف مستر سميث مفسحا الطريق بين شفتيه لابتسامة اضفت على حديثه السخيف نوعا غريبا من الكبرياء، قبل ان يضيف.

ـ أنا متزوج منذ خمسة وثلاثين سنة.. لم أكف خلالها أبدا عن الاعجاب بهذه السيدة.

سألت بشيء من الخبث

ـ هل اعتدتما قضاء العطلة في هذه الاماكن؟

ـ نحن نحاول الجمع بين العطلة ورسالتنا. فلا مسز سميث ولا انا من هواة المتعة غير الهادفة.

ـ هكذا اذن فان رسالتكم هي التي جاءت بكم هذه المرة الى... قاطعني بقوله:

ـ ذات يوم كنا نقضي عطلتنا في تنيس. كانت تجربة لا تنسى. فقد ذهبنا باعتبارنا من أنصار الحرية. وفي ناشفيل حدثت واقعة جعلتني أخاف فعلا على مسز سميث.

ـ في رأيي.. ان التفكير في قضاء العطلة بهذه الطريقة يحتاج فعلا الى شجاعة

كبيرة..

قال وكأن ما يقوله كفيل وحده بتفسير كل شيء

ـ نحن نكن حبا عظيما للملونين

ـ أخشى ان يخيب ظنك بهم في المكان الذي نقصده

ـ معظم الأشياء تبدو مخيبة للظنون حتى تغوص الى أعماقها.

ـ الملونون هناك ربما لا يقلون عنفا عن البيض في ناشفيل

ـ نحن لدينا مشاكلنا في الولايات المتحدة ومع ذلك فقد خيل الى أن صديقنا.. المحاسب.. كان يحاول الضحك علينا.

ـ ربما كان ينوي ذلك، ولكن الفكاهة انقلبت عليه. ان الواقع أسوأ بكثير من أي شيء يمكن أن يراه وهو على الشاطىء. وأنا اشك كثيرا في انه أوتى الجرأة ذات يوم على التوغل داخل المدينة.

ـ هل تنصحنا ـ كما قال ـ بالذهاب الى سانتو دومنجو؟
ـ أجل

سبحت عيناه الحزينتان على صفحة البحر المتعرجة الممتدة بلا تغيير حتى الأفق بينما واصلت حديثي.

ـ دعني أقدم لك مثالا لما عليه الحياة هناك

ورحت أحكي له قصة رجل حامت حوله الشكوك بأن له علاقة بمحاولة لاختطاف أولاد الرئيس وهم في طريق عودتهم من المدرسة. وأنا لا أعتقد أنه كان هناك أي دليل ضده. ولكن الرجل كان قد حصل على جائزة أمهر الرماة بالجمهورية في مسابقة دولية أقيمت في بنما، ولعلهم فكروا في أن اصطياد

جرس الرئيس يحتاج الى قناص حاصل على جائزة. وهكذا فان «الطنطون ماكوت» أحاطوا بمنزله، ولم يكن موجودا به فأشعلوا فيه النيران بالنفط، ثم اطلقوا الرشاشات على كل من حاول الافلات من الحريق. وقد سمحوا لفرقة المطافئ بمنع النيران من الانتشار للجيران. وتستطيع الآن أن ترى الفجوة في الطريق كأنها ضرس مخلوع.

اصغى مستر سميث بانتباه حتى اذا ما انتهيت من قصتي، قال.

ـ هتلر فعل ما هو أسوأ أليس كذلك؟ وكان هتلر رجلا أبيض.فلا تستطيع اذن ان تلقي اللوم على لونهم.

ـ أنا لا أفعل ذلك، فالضحية كان ملونا هو الآخر.

ـ عندما تتأمل الأمور عن كثب ستكتشف انها سيئة في كل مكان. غير أن مسز سميث لن ترضى عن نكوصنا لمجرد ان...

ـ أنا لا أحاول اقناعك. وانما أنت سألتني سؤالا..

ـ اذن لماذا ـ اذا سمحت لي بسؤال آخر. لماذا أنت عائد الى هناك؟

ـ لأن الشيء الوحيد الذي أملكه موجود هناك.. فندقي

ـ وانا أعتقد ان الشيء الوحيد الذي نملكه، مسز سميث وأنا. هو رسالتنا..

راح مستر سميث يغرق عينيه في البحر صامتا حتى اذا ما مر بنا مستر جونز قال لنا من فوق كتفه وهو يواصل طريقه

ـ هذه هي الدورة الرابعة..

علق مستر سميث بقوله

ـ أترى؟.. هو أيضا ليس خائفا

بدا كما لو كان يعتذر عن ابداء الشجاعة، أو كمن يعتذر عن ربطة عنق زاعقة الألوان علقتها زوجته برقبته قائلا ان آخرين يرتدون مثلها

ـ ربما تساءلت ما اذا كانت الشجاعة هي الوصف الدقيق لحالته ـ ومن يدري؟

ربما كان مثلي، ليس له مكان آخر يذهب اليه.

ـ انه لم يظهر نحونا سوى الود..

قال ذلك بلهجة قاطعة، كمن يود ان يؤكد رغبته في تغيير الحديث. وعندما اتيح لي ان أعرف مستر سميث عن كتب عرفت جيدا هذه النبرة الخاصة في صوته فالرجل كان يضطرب اضطرابا عظيما لمجرد ان يذكر احد أمامه بسوء، حتى لو كان هذا «الأحد» غريبا، أو عدوا. فهو هنا يجفل من المناقشة مثلما يجفل الفرس من الماء. ولقد كان يحلو لي أحيانا أن أجره حتى حافة الخندق ثم أوخزه وخزا وألهبه بالسوط لأحثه على المضي الى الأمام، ولكني لم أفلح أبدا في تعليمه كيف يقفز. ولعله أدرك ما كنت بسبيله، ولكنه لم يفصح أبدا عن استيائه. فذلك قد يبدو نقدا لصديق. فيفضل التنحي بعيدا. وهذه صفة فيه ربما كانت الوحيدة التي لا تشاركه فيها زوجته التي أتيح لي فيما بعد ان ادرك مدى ما يمكن ان تصل اليه حدة طباعها. فهي تستطيع شن الهجوم ضد أي شخص كان ـ فيما عدا المرشح الرئاسي بالطبع. ولقد دخلت معها مع مرور الزمن في كثير من المعارك لأنها فيما يبدو كانت تتصور أني أتعمد السخرية ـ نوعا ما ـ من زوجها، ولم تعرف أبدا لماذا كنت أغبطهما.. بل أحسدهما.. فلم أعرف أبدا في أوروبا زوجين على هذا القدر من الالفة والمحبة.. قلت لمستر

سميث..

ـ كنت تتحدث الآن عن رسالتك..

ـ صحيح؟ أرجو المغفرة اذا كنت قد تحدثت عن نفسي بهذه الصيغة فالرسالة كلمة اكبر مني كثيرا..

ـ أنا في الحقيقة مهتم بالموضوع

ـ فلنسمها اذن أملا.. غير أني اعتقد أن رجلا مثلك من أصحاب الفنادق ـ لا يمكن ان يحس بالتعاطف نحو شيء كهذا

ـ تعني أنها لها علاقة بالمذهب النباتي؟

ـ أجل.

ـ أنا لا يمكن ان اكون غير متعاطف. فواجبي الأول هو ارضاء زبائني. واذا كان زبائني نباتيين..

ـ المذهب النباتي ليس فقط مسألة غذاء يا مستر براون. انه يمس الحياة في عديد من الجوانب. ولو استطعنا ان نقضي على الحموضة في جسم الانسان لخلصناه في الوقت نفسه من الانفعال..

ـ وعندها يتوقف العالم عن الحركة..

ـ أنا لم أقل التخلص من الحب.

قالها كمن يعاتب برفق، حتى أنني أحسست بنوع من الخجل. فالسخرية

.سهلة، ورخيصة. ويستطيع المرء أن يشتريها من أي محل يبيع الخردوات بسعر واحد .. كل بضاعته من النوع الرديء. قلت محاولا الاستدراك:

ـ على أية حال، أنت ذاهب الآن الى بلد نباتي.

ـ ماذا تعني يا مستر براون؟

ـ ٩٥ في المائة من الناس هناك لا يذوقون اللحم أو السمك.

ـ ولكن ألم يخطر ببالك أبدا يا مستر براون ان المشاكل التي يعاني منها العالم لا يصنعها الفقراء؟ ان الحروب يصنعها رجال السياسة الرأسماليون، المثقفون، البيروقراطيون، سادة وول ستريت أو الشيوعيون.. أما الفقراء فلا يصنعون حروبا..

ـ أعتقد أن الأغنياء والأقوياء ليسوا نباتيين بالطبيعة

ـ هم في العادة ليسوا كذلك..

مرة أخرى احسست بالخجل من سخريتي.. فقد بدا لي لحظتها وأنا أتطلع الى هاتين العينين الزرقاوين الصافيتين أن هناك بعض الحق فيما يقول.. وفي هذه اللحظة لمحت أحد المضيفين يقف الى جانبي فقلت له من فوري

ـ لا أريد حساء..

ـ ليس هذا وقت الحساء يا سيدي.. وانما القبطان يريدك في كلمة معه، يا سيدي

★★★

كان القبطان في كابينته.. وكانت كابينته شبه عارية وفي الوقت نفسه مصقولة لامعة مثله. ولم يكن فيها من أثاث يلفت النظر سوى صورة على

المكتب لسيدة في منتصف العمر تبدو وكأنها خرجت لتوها من عند الكوافير. قال عندما رآني

ـ أجلس يا مستر براون.. هل لك في سيجار؟

ـ كلا.. شكرا لك

ـ أود أن أدخل مباشرة في الموضوع. أنا يتعين علي أن التمس تعاونك فالأمر مربك جدا..

ـ نعم؟

قال بصوت مثقل بالأسى..

ـ اذا كان هناك شيء واحد لا أحب أن أراه على سفينتي، فهو الأشياء المفاجئة التي لا يتوقعها أحد.

ـ كنت أعتقد ان البحر.. أقصد.. دائما هناك احتمال العواصف و...

ـ طبعا طبعا.. أنا لا أتحدث عن العواصف.. البحر ليس مشكلة.

أخذ يغير أوضاع مطفأة السجائر، وعلبة السيجار. ثم قرب منه مسافة سنتيمتر واحد صورة السيدة التي خرجت لتوها من محل الكوافير، قبل أن يقول:

ـ أعتقد أنك التقيت مع ذلك الراكب المسمى جونز.. انه يسمي نفسه الماجور جونز

ـ لقد تبادلت معه الحديث مرة أو مرتين..

ـ ما هي انطباعاتك عنه؟

ـ في الواقع.. لا أكاد أعرف.. لم اكوّن فكرة..

ـ تلقيت لتوي برقية من مكتبنا في فيلادلفيا يطلبون مني فيها أن أبلغهم متى، وأين ينزل الى البر.

ـ من المؤكد أنت تعرف ذلك من تذكرة سفره؟

ـ انهم يريدون التأكد من أنه لن يغير خططه. نحن ذاهبون الى سانتو دومنجو. أنت نفسك قلت لي انك قطعت التذكرة الى سانتو دومنجو. فإذا فرض.. في بورتو برنس مثلا ـ قد يكون في نيته أن يفعل نفس الشيء..

ـ هل هي مسألة تتعلق بالشرطة؟

ـ ربما.. وقد يكون هذا مجرد حدس مني، ولكن الشرطة مهتمة بالموضوع، وأنا أريدك ان تفهم أني شخصيا ليس لدي شيء ضد الماجور جونز. وقد يكون هذا مجرد روتين.. استفسار أدى اليه تصرف كاتب بأرشيف احدى الهيئات ولكني فكرت أنك.. أقصد، أنت انجليزي، مواطن له، وتعيش في بورتو برنس.. فمن جانبي، أقدم لك كلمة تحذير، ومن جانبك قد...

ضايقتني هذه الطريقة غير المباشرة في تناول الموضوع، فقلت

ـ حديثك يجعلني أستنتج انه يغش في ورق اللعب.. أؤكد لك أنه لم يقترح حتى أن نلعب معا ولو مرة واحدة..

ـ أنا لم أقل أبدا..

ـ اذن فانت تريد مني فقط ان افتح عيني جيدا؟

ـ تماما.. لا شيء اكثر من ذلك.. لو كان في الأمر أي شيء خطير لطلبوا مني احتجازه.. وقد يكون الأمر مجرد أنه هارب من ديونه. من يدري؟ أو ربما من

مشكلة نسائية.

قال ذلك بشيء من الازدراء، وعيناه تطالعان عيني السيدة ذات الشعر المصقول.

قلت بحسم

ـ اسمع يا كابتن.. بكل احترام، أنا لست مستعدا أبدا لكي أكون مرشدا.

ـ أنا لا أطلب منك شيئا من هذا النوع بالمرة يا مستر براون ـ ولا أستطيع أيضا أن أطلب شيئا كهذا من رجل متقدم في السن مثل المستر سميث. أما في حالة مستر جونز...

مرة أخرى دقت في اذني غرابة اقتران الأسماء، الثلاثة.. براون.. سميث.. جونز، وكأنها أقنعة مستعارة لممثلين في مسرحية هزلية.. قلت

ـ لو حدث وشاهدت شيئا يستحق التبليغ ـ ولاحظ أنني لن أسعى لكي أشاهد شيئا ـ فلا بأس..

تنهد القبطان بارتياح قائلا

ـ كأنما لا يكفي المرء ما يحمل من مسؤوليات طوال الطريق..

وشد نفسا عميقا من سيجاره.. وأخذ يقص علي حادثة وقعت له منذ عامين في نفس الميناء الذي نقصده.. ففي الساعة الواحدة صباحا كان هناك اصوات طلقات نارية، وبعد نصف ساعة ظهر ضابط واثنان من رجال الشرطة عند سلم السفينة. كانوا يريدون تفتيشها. ولكنه بالطبع رفض السماح لهم بذلك.

فهذه أرض تابعة لسيادة شركة البواخر الملكية الهولندية. ودار جدل طويل وحاد. وقد كان لديه ثقة تامة في حارسه الليلي، غير ان الثقة اثبتت أنها لم تكن في محلها. فقد نام الرجل اثناء نوبة حراسته. وعند عودته ـ أي القبطان ـ

للتحدث مع الضابط المناوب شاهد على الأرض آثار دماء، اقتفاها حتى وصلت به الى أحد قوارب النجاة، وهناك وجد الشخص الهارب.. سألته:

ـ وماذا فعلت؟

ـ تم اسعافه بواسطة طبيب المركب، وبعدها سلمته بالطبع الى السلطات المسؤولة.

ـ ولكن.. لعله كان يلتمس اللجوء السياسي؟

ـ لا علم لي بما كان يريد أن يلتمسه. كيف أعلم؟ لقد كان جاهلا.. أميا.. وعلى أية حال، لم يكن لديه نقود ليدفع منها أجرة السفر.

★ ★ ★

(٤)

عندما رأيت جونز مرة أخرى بعد لقائي مع القبطان أحسست كأنما انا مدين له بشيء ما ولو دعاني في تلك اللحظة لألعب البوكر معه لوافقت بدون تردد، ولخسرت له بكل سرور كما لو كان ابداء الثقة به يمكن ان يزيل المرارة التي كنت أحسها في فمي. كنت قد أخذت الجانب الأبعد من الممر العلوي كي اتجنب مستر سميث، ونالني في سبيل ذلك ما نالني من رذاذ البحر الذي أخذ يصفعني على وجهي وكنت على وشك الغوص الى كابينتي واذا بي أجد جونز أمامي وجها لوجه.. وغمرني احساس بالذنب كأنني قد خنته بالفعل عندما توقف عن المسير ليدعوني الى مشاركته كأسا من الشراب. قلت
ـ أظن الوقت مبكرا؟

ـ في هذا الوقت تفتح الابواب في لندن.

تطلعت الى ساعتي. كانت الساعة الحادية عشرة الا خمس دقائق. وخامرني

شعور بأني افتش في أوراقه. وعندما ذهب للبحث عن النادل تناولت الكتاب الذي تركه وراءه في الصالون. كان رواية أميركية بغلاف خفيف محلى بصورة لفتاة عارية منبطحة على وجهها فوق فراش وثير، وعنوانها «لا وقت مثل الآن» وبالغلاف من الداخل كتبت بقلم رصاص حروف هـ ج. جونز.تساءلت هل يريد تأكيد هويته أم الاحتفاظ بهذا الكتاب بالذات لمكتبته الخاصة؟ فتحت الكتاب كيفما اتفق.. طالعت فيه سطرين أو ثلاثة. فجأة كان جونز أمامي وفي يده كأسان مملوءتان.وضعت الكتاب جانبا بارتباك لم يكن له لزوم وأنا أقول بالفرنسية وأنا اتناول شرابي من يده

ـ لا تؤاخذني على فضولي

ـ ماذا؟

ولكنه لم ينتظر لاترجم ما قلت. وانما ابتسم ابتسامة واسعة وهو يردد.. " هنيئا" ثم أضاف بعد ان ابتلع نصف شرابه في جرعة واحدة

ـ رأيتك تتحدث مع القبطان منذ لحظة

ـ أجل..

ـ هذا الوغد الذي لا يطال!! انه لا يتحدث الا مع الوجهاء..

ـ أنا لا أزعم نفسي وجيها

ـ لا تؤاخذني بما أقول. أن لفظ وجيه له معنى خاص لدي. فالعالم عندي اثنان: وجهاء، وصعاليك. والوجهاء يستطيعون العيش بدون الصعاليك. أما الصعاليك فلا غنى لهم عن الوجهاء. ولعلمك، أنا صعلوك!

ـ ما هو بالتحديد مفهومك عن «الصعلوك».. يخيل الي أنه مفهوم خاص أيضا؟

ـ الوجهاء هم الذين لهم عمل مستقر أو دخل ثابت. أي لديهم وتد في مكان ما من العالم مثل الفندق الذي تملكه.. أما الصعاليك.. حسن.. اننا نلتقط رزقنا التقاطا من هنا وهناك ـ في البارات والصالونات ـ وأذاننا دائما مرهفة وعيوننا دائما مفتوحة..

ـ تعني أنكم تعيشون على الذكاوة؟

ـ أو نموت بها في اكثر الأحيان!!

ـ والوجهاء هل يفتقرون الى الذكاوة؟

ـ انهم لا يحتاجونها. هم لديهم الرزانة، والحكمة، والاخلاق.. أما نحن الصعاليك فدائما على عجل، وأحيانا نكون أسرع مما يجب..

ـ والركاب الآخرون.. أهم وجهاء أم صعاليك؟

ـ لا أستطيع ان احكم على مستر فيرنانديز.. فقد يكون هذا، وقد يكون ذاك وذلك الكيميائي الشاب لم يعط أحدا فرصة للحكم عليه. أما مستر سميث فهذا هو الوجيه الحقيقي.. كما يفترض أن يكون..

ـ يخيل الي انك معجب بالوجهاء؟

ـ كلنا نحب أن نكون وجهاء. ثم، الا تقرني على أن هناك لحظات تحسد فيها الصعاليك؟ لحظات تحس معها أنك لا تريد ان تظل أسيرا لحساباتك، مهموما بالمستقبل البعيد؟ اعترف يا والدي..

ـ أجل.. أعتقد أن هناك في حياتي لحظات من هذا النوع.

ـ لحظات تقول فيها لنفسك، لماذا نتحمل نحن كل هذه المسؤولية. بينما هم يفوزون بكل المتعة؟

ـ أرجو أن تجد بعض المتعة في المكان الذي تقصـده. انـه بلـد صعـاليك ولا شيء فيه غير الصعاليك ابتداء من الرئيس فنازلاً..

ـ هذا واحد من المخاطر التي تنتظـرني. فـالصعلـوك يستطيـع ان يكتشف الصعلوك بسهولة ولذلك فقد يضطرني الأمر الى تمثيل دور الوجيه لكي لا أثير حذرهم.. أولى بي أن أدرس مستر سميث..

ـ هل تمثل دور الوجيه كثيرا؟

ـ ليس كثيرا جدا والحمد لله! أنه أصعب الادوار جميعا بـالنسبـة لي ـ حتى أني أجد نفسي أضحك في اللحظة غير المناسبة، قائلا لنفسي ماذا أفعل أنا، جونز، في صحبة هؤلاء؟ وكثيرا ايضا ما ينتابني الفزع. فـان يضيـع المـرء في مـدينـة غريبة أمر مخيف.. أليس كذلك؟ ولكن ان يضيع المرء في داخل نفسه. فهذا هـو الفزع الأكبر.. هل لك في قدح آخر من البيرة؟

ـ هذ المرة على حسابي..

ـ أما بالنسبة لك، فأنا لست واثقا بعد.. فعندما رأيتك بصحبة القبطان.. فقد نظرت من خلال النافذة اثناء مروري ـ أقول — لم تكن بادي الارتياح. تـرى.. هل يمكن أن تكون صعلوكا يدعي الوجاهة؟

ـ أيعرف المرء نفسه دائما؟

جاء المضيف، وأخذ يعيد نشر مناقض السجائر. قلت

ـ قدحان من البيرة من فضلك

قال جونز

ـ هل تسمح فتجعلها ويسكي هذه المرة.. انا أشعر وكأنما انتفخت وامتـلأت

بالغازات من كثرة ما شربت من البيرة.

قلت للمضيف

ـ قدحان من الوسكي.

سألني فجأة

ـ هل تلعب الورق؟

أحسست أن اللحظة قد حانت لأتطهر من ذنبي، ومع ذلك فقد أجبت محاذرا.

ـ بوكر؟

كانت صراحته مبالغا فيها الى حد جعلني لا أصدقه، لماذا تحدث معي بكل هذه الصراحة عن الوجهاء والصعاليك؟ داخلني انطباع بأنه حدس ما قاله القبطان عنه لي، وكان يختبرني ليعرف رد فعلي، ويلقي بصراحته في تيار أفكاري ليرى ما اذا كان لونها سيتغير مثلما يتغير لون ورقة عباد الشمس. ولعله يظن أن انتمائي في النهاية قد لا يكون للوجهاء بالضرورة، أو ربما أن اسم براون ـ اسمي ـ لم يكن صداه لديه يختلف عن اسمه ـ جونز!

ـ أنا لا ألعب البوكر..

قال ذلك وهو يغمز بعينه كأنما يقول «ها أنذا قد أمسكت بك» ثم أضاف

ـ انا كتاب مفتوح اكثر مما يجب عندما اكون في صحبة الأصدقاء. لا أملك موهبة الاخفاء والكتمان.. لذلك، فإن «رومي الجن» هي لعبتي المفضلة.. (رومي الجن لعبة ورق قريبة من الكونكان ويسمونها أحيانا هاند ـ المترجم)

نطق باسم لعبته المفضلة بنفس طريقة أطفال مدرسة الحضانة.. علامة على

البراءة. قلت:

ـ لقد لعبتها مرة أو مرتين

ـ أنا لا أريد ان أثقل عليك. ولكنني ظننتها وسيلة لقتل الوقت حتى يحين موعد الغداء

ـ لم لا..؟

نادى علي المضيف وهو يمنحني ابتسامة خفيفة

ـ من فضلك.. هات لنا حزمة من ورق اللعب

كأنما يريد ان يقول لي «ها أنت ، ترى أنني لا أحمل أوراق اللعب المرقمة معي»!

كانت «الرومي جين» لعبة من الألعاب البحرية في رأيه. ولم يكن الغش فيها سهلا، سألته:

ـ كيف سنلعب؟ كل مئة بعشرة سنتات؟

في اللعب، كشف جونز عن الكثير من كفاءاته الخاصة، وكما قال لي فيما بعد، انه يلحظ في البداية في أي يد يحتفظ خصمه بالأوراق التي يريد أن يرميها، وبذلك يعرف مدى فرصته في النزول بأوراقه كلها مرة واحدة (النزول بالأوراق مرة واحدة في لعبة «رومي الجين» يعني حساب ضعف الأرقام الموجودة مع الخصم المترجم). وهو يدرك ـ من الطريقة التي يرتب بها الخصم أوراقه، ومن طول أو قصر فترات تردده قبل اللعب ما اذا كانت أوراقه جيدة، أو رديئة، أو تقع بين هذا وذاك، واذا كانت أوراقه جيدة، فإنه يسرع بالقاء الورقة التي يريد يتخلص منها حتى يترك أنطباعا لدى خصمه بأنه لا أمل له في الفوز، وبالتالي يجعله في ميل الى المخاطرة واطالة المباراة، طمعا في أن يكسب الضعف، حتى

السرعة التي يسحب بها الخصم ورقته الجديدة أو يرميهـا تعني لـدى جـونـز الشيء الكثير. وفي هذا قال لي ذات مرة

ـ ان علم النفس دائما يقهر الحسابات المجردة.

وبالفعل، فإنه كان يهزمني دائما تقريبا..

★★★

كان قد ربح مني ستة دولارات، عندما دق ناقوس الغداء، وهذا تقريبـا هـو حد الربح الذي يريده... مجرد ربح متواضع، حتى لا يرفض الخصم أية دعـوة للعب في المستقبل، واذا كانت ستين دولارا في الأسبوع لا تعد دخلا كافيا، فإنهـا في حساب جونز ـ كما أبلغني فيما بعد يمكن أن يعول عليها، وتتيح له ألا يقلع مـرغما عن السجـائر والشراب، وهـذا لا يمنـــع من ضربـــات كبيرة بين الحين والحين. كأن يصر الخصم على رفض اللعب الطفولي ورفع الـرهـان الى خمسين بنسا للنقطة الواحدة. وقد حـدث ذلك ونحن في كازينو بـورتوبـرنس حيث شهدت موقعة من هذا النوع. ولو أن جونز خسر في تلك الليل فإني أشك في أنه كان سيستطيع السداد. ولكن الحظ ـ حتى في القرن العشرين ـ ينحاز الى جانب الجسور. وعندما انتهى اللعب كانت ثروة جونز قـد ازدادت ألفي دولار. وحتى حينذاك كان معتدلا في فوزه. فقد عرض على خصمه أن يلاعبه مبـاراة ثـأريـة، وخسر له خمسمائة دولار وبعض الفكة.

★★★

وذات مرة قال لي:

ـ هناك شيء آخر. فالنساء ـ كقاعدة عامة ـ لا يلعبن معك البوكر. الأزواج لا يحبون ذلك. لأن البوكر يخلق قدرا خطيرا من التسيب.

ولكن لعبة «رومي الجين» بمعدل المائة بنط بعشرة سنتات لا تعتبر مقامرة. ثم انها كفيلة باتساع دائرة اللاعبين كثيرا، ولعلك لاحظت ان حتى السيدة سميث التي لا شك أنها تدير ظهرها في اشمئزاز لأية مباراة في البوكر كثيرا ما تأتي لتشاهد مبارياتنا

★ ★ ★

في ذلك اليوم. ونحن على مائدة الغداء، لا أدري كيف تطرق بنا الحديث الى ذكر الحرب. أغلب الظن أن رجل الأدوية المسافر معنا كان هو الذي بدأ الحديث، فقد كان ـ كما قال ـ مراقبا في الدفاع المدني. وطابت له استعادة أحداث الغارات الجوية بكثير من المبالغة المضجرة. وبينما جلس السيد سميث واضعا على وجهه قناع الانتباه المهذب لما يسمع كانت السيدة سميث منصرفة الى التعامل مع شوكتها، حتى اذا ما أخذ الكيماوي يصف واقعة سقوط قنبلة فوق بيت للطالبات والأهوال التي صاحبت الغارة، انفجر جونز مقاطعا، بشكل لم يكن أحد يتوقعه.

ـ أنا نفسي فقدت فصيلة كاملة من الجند ذات مرة.

سألت، وأنا سعيد بأني أشجعه:

ـ كيف حدث ذلك؟

جلس الكيميائي المسكين، وقد أنفتح فمه قليلا. فقد كان في معمعان قصته حينما انصرف عنه كل مستمعيه فجأة، فبدا وكأنه سبع بحر أفلتت السمكة من بين أنيابه..اما السيد فرنانديز فقد راح يزود نفسه بقطعة ثانية من الرنجة. وكان الوحيد الذي لم يبد أي اهتمام بقصة جونز. حتى السيد سميث نفسه ثار انتباهه بما فيه الكفاية لكي يقول:

ـ زدنا يا سيد جونز.. زدنا..

لاحظت بأننا جميعا نحجم عن مناداته بلقبه العسكري. قال:

ـ كان ذلك في بورما. وكنا قد اسقطنا بالمظلات خلف الخطوط اليابانية، لنقوم بهجوم مضلل لتحويل الأنظار. وفقدت هذه الفصيلة بالذات الاتصال بمقر قيادتي. كان قائدها شابا في مقتبل العمر، ولم يكن مدربا كما يجب على قتال الادغال. وكما يحدث دائما في مثل هذه الظروف فإن القاعدة هي انقاذ ما يمكن انقاذه. والغريب أنني لم أتعرض لأية خسارة الا هذه الفصيلة بأكملها، اختزلت اختزالا من قوتنا ولم يبق لها من أثر، على هذا النحو تماما.

قال ذلك وهو يقضم قطعة من الخبز ويبتلعها ابتلاعا. سألته:

ـ هل كنت من رجال وينجت؟

أجاب بغموضه المعتاد:

ـ تشكيل من النوع نفسه.

قال الحاسب:

ـ يبدو أنك قضيت فترة طويلة في الأدغال.

أجاب بتواضع.

ـ أوه، حسن، إن لدي موهبة خاصة في الأدغال ولم أكن أصلح أبدا للصحراء.. ولعلك تعلم اني اشتهرت بقدرتي على شم المياه، كأي مواطن من أبناء البلد.

قلت بهدوء، كأني أتدخل لجملة اعتراضية:

ـ قد تكون هذه الموهبة أكثر فائدة في الصحراء.

رماني بنظرة عتاب، ضاع معها تعليق السيد سميث وهو يزيح جانبا ما

شريحة اللحم المشوية المعدة خصيصا له بالتأكيد قائلا:

ـ انه شيء فظيع ان تهدر كل هذه الشجاعة والمقدرة في قتل اشقائنا من البشر.

قالت السيدة سميث على سبيل الشرح:

ـ كان زوجي ـ وهو مرشح للرئاسة يحظى بتأييد رافضي التجنيد بالقوات المسلحة في جميع أرجاء الولاية:

قلت، على الوتيرة الاعتراضية نفسها:

ـ هل كانوا جميعا لا يأكلون اللحوم؟

كان الدور على السيدة سميث الآن لترمقني بنظرة استياء، وهي تقول:

ـ هذه ليست مادة للسخرية.

قال السيد سميث، معاتبا، برفق:

ـ بل هو سؤال كبير يا عزيزتي.. ولكن، لا يستغرب أبدا يا سيد براون أن تفكر في أن رفض التجنيد بالقوات المسلحة أمر وثيق الصلة بالمذهب النباتي. ولعلك تذكر أنني تحدثت معك من قبل حول الحموضة وكيف تؤثر على الانفعالات ـ نعم، تخلصوا من الحموضة يصبح هناك مكان للضمير. وهذا الضمير يريد ان ينمو وينمو وينمو، حتى يأتي يوم ترفض فيه ان يذبح حيوان بريء من أجل اشباعك. والخطوة التالية، التي قد تفاجئك، هي أن تنكفيء بعيدا في فزع من فكرة قتل أخ لك في الانسانية، ثم يأتي موضوع اللون، وكوبا.. وأستطيع أن أزعم أننا تمتعنا بتأييد كثير من الجماعات الدينية المتصوفة كذلك.

قالت السيدة سميث.

ـ وكذلك رابطة مكافحة الرياضات العنيفة. ليس رسميا بالطبع كرابطة، ولكن كثيرا من الأعضاء اعطو اصواتهم للسيد سميث.

بدأت أقول:

ـ بكل هذا التأييد فإن أعجب...

فقاطعتني..

ـ سوف يظل التقدميون دائما أقلية، الى ابد الدهر، ولكننا على الأقل قلنا كلمتنا.

وكما يحدث دائما، بدأ الجد ل المعتاد. وكان الراكب صاحب المنتجات الدوائية هو الذي بدأ وكم وددت لو أنني منحته لقبا مثل مرشح الرئاسة، لأنه بدأ ممثلا حقيقيا هو الآخر، ولكن على طريقته في العالم الأدنى. الا انه باعتباره مراقبا سابقا للغارات الجوية كان يعتبر نفسه مقاتلا. هذا بالاضافة الى تكدره بسبب انقطاع تيار ذكرياته عن القصف الجوي فوق بيت الطالبات قال:

ـ أنا لا أستطيع ان أفهم أصحاب نزعة السلام أولئك، بينما هم يرضون تماما بأن يحميهم ناس من أمثالنا.

صحح السيد سميت قوله بلطف:

ـ أنتم لا تستشيروننا..

ـ يصعب على اكثر الناس أن يفرقوا بين من يرفض التجنيد والهارب من الخدمة.

قال السيد سميت:

ـ انهم على الأقل لا يهربون من السجن

وهنا، على غير متوقع، هب السيد جونز لنجدته قائلا:

ـ هناك كثيرون يخدمون في صفوف الصليب الأحمر. وبعضنا يدينـون لهم بالحياة.

قال المحاسب:

ـ لا أظن أنك ستجد كثيرين من ذوي النزعة السلمية في المكان الذي نقصـد اليه.

ولكن الكيمائي واصل هجومه، رافعا صوته من فرط تكدّره:ـ

ـ وماذا اذا هاجم شخص ما زوجتك.. هه؟ ماذا حينئذ؟

حدق مرشح الرئاسـة عبر المـائدة من تحت عـويـنـاتـه في وجـه الكيماوي الشاحب العليل مخاطبا اياه كما لو كان يخاطب مشـاغبـا في اجتماع أنتخـابي، بكثير من الجد والاتزان.

ـ أنا لم آزعم أبدا يا سيدي أننا بالتخلص من الحموضة سوف نتخلص من كل انفعال.فلو هوجمت السيدة سميث وكان بيدي سلاح فأنا لا أستطيع الجزم بأنني لن استخدمه، فهناك مستويات تعجز بالفعل عن الوصول اليها.

هتف جونز:

ـ برافو سيد سميث

ـ ولكنني سوف استنكر انفعالي فيما بعد، بالتأكيد سوف استنكره.

★ ★ ★

في ذلك المساء توجهت الى كابينة المحاسب قبل العشاء. لا اذكر ماذا كـانت مهمتي هناك. وجدته جالسا الى مكتبه الذي كان في حالة يرثى لها من الفوضى

وعدم النظافة، وعليه عشرات من البالونات المنفوخة أو في طريق النفخ، حتى بدا المكتب وكأنه حدثت فوقه مذبحة خنازير. قال مفسرا: ـ غدا سيقام حفل موسيقى بمناسبة قرب الوصول

ـ متى تعتقد أننا سنصل؟..يوم الأربعاء؟

ـ في اول الليل.

ـ أرجو أن يكون وصولنا قبل اطفاء الأنوار. اعتقد انهم لازالـوا يطفئـونهـا هناك.

ـ أجل، لن تجد شيئا تغير الى الأحسن. فـالتغيرات تحـدث الى الأسـوأ فقط. فالآن مثلا، لا يمكنك مغادرة المدنية بدون تصريـح من الشرطـة. وهنـاك نقـاط تفتيش في كل طريق للخروج من بـورتـو بـرنس. وأشك كثيرا في أنك يمكن ان تصل الى فندقك بدون تفتيش، وقد وجهنا تحذيرا الى طـاقم السفينـة بـأنهم لا يستطيعون الابتعاد عن الميناء الا على مسؤوليتهم الشخصية. ومن المؤكـد انهم رغم ذلك سوف يفعلون

ـ هل هناك أية أنباء عن البارون؟

كان «البارون» هو اللقب الذي يطلق على الرئيس بدلا من «بابا دوك». ولعل ذلك كان من باب الربط بين الرئيس، وشخصية البارون «ساميدي» الذي تقول أساطير «الفودو» السحرية أنه يتجول بين المقابر بقبعة عالية وسترة ذات زيلين طويلين، نافثا الدخان من غليونه الضخم،

ـ يقولون انه لم يظهر للعيان منذ ثلاثة أشهـر. ولم يخرج حتى الى احـدى نوافذ القصر ليطل على فرقة الموسيقى. ومن المحتمل جدا ان يكون قد مـات، اذا كان من الممكن ان يموت من شيئ سوى من رصاصة من فضة في قلبه. وقـد تعين علينا أن نلغي توقفنا عند كاب هايتي اثناء الرحلتين السابقتين. فالمـدينـة كلهـا

تحت الحكم العرفي لانها قريبة جدا من حدود الدومينكان، ولم يسمح لنا بالدخول.

رفع الرجل رأسه نحوي وأخذ ينفخ بالونة أخرى بعد ان انتهى من الادلاء بتقريره سائلا.

- ما الذي جعلك تعود؟

- لا يستطيع المرء أن يترك فندقا يملكه.

- ولكنك تركته بالفعل

لم يكن في نيتي إئتمان المحاسب على أسبابي، خاصة وأنها أسباب حميمة للغاية، وخطيرة جدا، اذا جاز للمرء أن يصف بالخطورة كوميديا حياتنا المشوشة. تناول الرجل بالونة أخرى لينفخها، بينما أخذت أنا أفكر. لا شك أن هناك قوة خفية ترتب الأمور في أسوأ الظروف واكثرها مهانة. في صباي كنت أؤمن بالقيم الدينية وكانت الحياة في ظلها أمرا بالغ الحيوية والجدية. فقد كنت أراها مجسدة أمامي في كل مأساة، عملاقا هائلا يتجلى لعيني من خلال غلالة ثقيلة من الضباب الاسكتلندي. أما الآن، وأنا أقترب من نهاية العمر، فإن الجانب الضاحك مني هو وحده الذي أبقى على ايماني بها. فالحياة ملهاة، وليست أبدا المأساة التي هيئت لها، حتى لقد بدا أننا جميعا، أي كل من كان على ظهر ذلك المركب دي الاسم الأغريقي (لا أدري لماذا تحمل سفينة هولندية اسمها اغريقيا؟) كنا ندفع دفعا على يد مخرج قادر ذي سلطان نحو ذروة الملهاة. ولكم سمع الناس في برودواي أو سافتيري أفينيو بعد خروج الجمهور وأغلاق أبواب المسارح عبارة «لقد ضحكت وضحكت حتى انهمرت الدموع من عيني»'

★ ★ ★

سأل المحاسب فجأة

ـ ما رأيك في السيد جونز؟

ـ ماجور جونز؟ اني اترك الاسئلة من هذا النوع لله، وللقبطان.

كان واضحا أن بعضهم استشارة في الأمر، مثلما استشارني. ولعل حقيقة ان اسمي كان «براون» هي التي جعلتني اكثر حساسية ازاء كوميديا جونز. وربما طلب منه القبطان معلومات عني، مثلما طلب مني معلومات عن جونز، ووجد هذا الفرصة مناسبة لتقديم خدمة خاصة لسيده سألني مرة أخرى

ـ كيف حدث لرجل مثلك ان استقر في بورتو برنس؟ كيف أصبحت فندقيا؟ إنك لا تبدو شبيها بأصحاب الفنادق. انت أشبه بـ . بـ.....

ولكن خيالُه لم يسعفه.

ضحكت، لقد طرح قبل ذلك سؤالا في الصميم. ولكن الاجابة كانت شيئا أفضل أن احتفظ به لنفسي

★★★

6

في مساء اليوم التالي شرفنا القبطان بحضوره العشاء معنا وكذلك كبير المهندسين على سبيل التكريم. وأعتقد أنه يوجد دائما نوع من المنافسة بين القبطان وكبير المهندسين باعتبار انهما على قدر متساو من المسؤولية. وما دام القبطان يتناول طعامه وحده، فإن كبيرَ المهندسين يفعل الشيء نفسه. والآن ها هو أحد الاثنين يجلس على رأس المائدة، والآخر في مواجهته على ذيلها، وفوق رأسيهما تحلق بالونات المحاسب، ومنحنا طبقا زائدا بمناسبة الليلة الأخيرة لنا بالبحر.

وعلى غير العادة، كان المحـاسب مكبـوح الجماح في حضـور رؤسـائه. (في اعتقادي انه كان يفضل صحبة الضابط الأول فوق على سطح المركب مستمتعـا بحرية بالظلام الملفوف بالرياح)، بينما كان القبطان وكبير المهنـدسين اميـل الى التبسط تحت تأثير المناسبة.

جلست السيـدة سميث الى يمين القبطـان وجلست أنـا الى يسـاره. ومجرد وجود جونز جعـل من الصعب تبـادل أي حيث سلس. وحتى قـائمـة الطعـام شكلت مزيدا من العسر، ذلك ان المناسبة ضاعفت من اعتزاز الهولنديين بأطبـاق اللحوم الثقيلة. فأطلقوا لها العنان. غير ان الزوجين سميث كانا قـد حملا معهما من الولايات المتحدة عددا من الكـرتـونـات والـزجـاجـات التي أصبحت، مثـل الشمندورات، بمثابة علامات على مكانتهما. ويبدو انهما احسا بأنهما قـد تنـازلا عن مبادئهما بتناول شيء مريب في مكوناته مثل الكوكاكـولا فقـررا أن يمـزجـا مشروباتهما في تلك الليلة بدفعة من الماء الساخن.

قال القبطان بوجه عابس، كأنما ينعي احدا:

ـ اعتقد أنه سيكون هناك حفل ترفيه بعد العشاء؟

ـ يجب ان يكون هناك شيء، بمناسبة ليلتنا الأخيرة معا. ولدينـا بـالطبـع أوركسترا المطبخ، وسوف يقدم لنا السيد باكستر شيئا خاصا جدا.

تبادلت نظرة استغراب مع كل من الزوجين سميث، فلم يكن أحد منا يعرف من هو السيد باكستر. هل معنا راكب خفي، ضبطوه مختفيا في عنبر البضـائع؟ استطرد المحاسب السعيد في عرض برنامج السهرة.

ـ وقد طلبت من السيد فرنانديز أن يساعدنا بالطريقـة التي يـراهـا، ووافق بسرور. وسوف تنتهي السهرة بنشيد «أولـد لانـج سين» (من أغـاني البحـارة القديمة ـ المترجم) تكريما لركابنا الانجلو سكسونيين.

دار طبق البطة دورة ثانية، وحتى يحتفظ آل سميث بالصحبة معنا، خدما نفسيهما بمزيد من الزاد الموجود في المعلبات والقوارير، قال القبطان.

ـ لا تؤاخذيني يا مسز سميث، ولكن.. ما هذا الذي تشربينه؟

أجابت مسز سميث.

ـ بعض البارمين مع ماء دافئ. زوجي يفضل اليستريل في المساء. أو احيانا الفيكون، لأن البارمين ـ كما يعتقد ـ يسبب له حساسية

ألقى القبطان نظرة فزعة على طبق مسز سميث، ثم قطع لنفسه شريحة من صدر البطة. أما انا فقلت:

ـ وما هذا الذي تأكلينه يا مسز سميث؟

كان هدفي هو ان أجعل القبطان «يتذوق» الموقف بكل ما فيه من ابهار..

ـ لا أدري لماذا تسأل يا مستر براون. لقد رأيتني آكله كل مساء في نفس الساعة.

ثم نظرت الى القبطان واستطردت، كأنما لتضع حدا لأي استفسار

ـ انه طعام شجرة البق..

وضع القبطان السكينة والشوكة أمامه، وأزاح الطبق بعيدا، راجعا بظهره الى الوراء ومطرقا برأسه، خطر لي في البداية أنه يردد لنفسه بعض الصلوات ولكني أيقنت انه انما كان يغالب احساسا بالغثيان. ومرة أخرى رن صوت مسز سميث في أذني.

ـ سوف اختم بقدح من النوتولين. اذا لم يكن لديكم لبنة..

تنحنح القبطان كأنما يزيل غشاوة من حنجرته، ملقيا ببصره بعيدا عنها عبر

المائدة. واختلجت عيناه لحظة على يد مستر سميث وهو يصب كومة من حبوب بتية اللون في طبقه، حتى استقرتا أخيرا على وجه مستر فرنانديز الطبيب المسالم الذي يحتمل أن يكون بشكل ما مسؤولا عن شيء ما في مكان ما. ثم قال بصوت الأوامر العسكرية.

ـ غدا آمل أن نصل في نحو الساعة الرابعة بعد الظهر. وأنصحكم أن تتوجهوا فور الوصول الى الجمارك لأن النور في المدينة يطفأ في حوالي السادسة والنصف.

سألت مسز سميث بحدة

ـ لماذا؟ اعتقد ان هذا أمر يضايق الجميع..

قال القبطان:

ـ من أجل الاقتصاد. أخبار الاذاعة هذا المساء ليست طيبة. فالمتمردون ـ كما يقال ـ قد شنوا هجوما عبر الحدود مع الدومينيكان والحكومة تقول ان كل شيء هادىء في بورتوبرنس. ولكني أنصح من يريد أن ينزل المدينة أن يبقى على اتصال بقنصليته. وقد تلقيت تعليمات بأن أنزل الركاب فور الوصول وأنطلق رأسا الى سانتو دومينجو دون انتظار لأية شحنات.

قال مستر سميث من مكانه في آخر الطاولة وهو يتناول ملعقة أخرى من طبقه

ـ يبدو اننا بسبيلنا الى موقع به مشاكل

أردفت مسز سميث في رضا مشوب بالوجوم

ـ لن تكون هذه أول مرة.

دخل بحار حاملا رسالة الى القبطان. وعندما فتح الباب هبت نسمة أطاحت

بالبالونات فأخذت تئز كلما تلامست،وقال القبطان

ـ أرجـو عـدم المؤاخـذة.. فـواجبي يحتم علي ان انصرف الآن.. أرجـو لكم أمسية طيبة.

غير اني تساءلت بيني وبين نفسي ما اذا كانت قصة الرسالة مـدبـرة. فهـو على أية حال لم يكن رجلا اجتماعيا، ولعله وجد من العسير تقبل مسز سميث. كذلك نهض كبير المهندسين في الحال كأنما يخشى ان يدع المـركب وحـدهـا في يدي القبطان.

★★★

أما وقد انصرف الزعيمان فقد آن الأوان لكي يتمالك المحاسب نفسه، ويعود الى طبيعته. فأخذ يحرضنا لكي نستزيـد من الطعـام، ونستـزيـد من الشراب.. وحتى مستر سميث ومسز سميث سمحا لنفسيهما بعد كثير من الالحاح وكثير من التردد ان يتناولا جرعة ثانية من النوتولين. ثم دار علينا المضيفـون بكـأس من شراب حلو المذاق قال المحاسب أنه على حساب «الغرفة»، فـأبقـانـا الكـأس المجاني جميعا ـ فيما عدا آل سميث بالطبع ـ في أماكننا حتى بما فينا الـراكب الصيدلاني، وان كان قد راح يمعن النظر متوجسا في كأسه الزجـاجيـة كـأنما اللون الأخضر أصبح هو علامة الخطر. وأخيرا عندما اجتمع شملنا في الصالـون كان على كل مقعد نسخة من برنامج الاحتفال. وهتف المحاسب بمرح.

ـ والآن.. انتباه!

ثم راح يطبّل بيديه على ركبتيه البارزتين بينما أفـراد الاوركستـرا يـدخلـون، يتقدمهم الطاهي وكان شـابا حدثا شديـد النحـول، أحمرت وجنتـاه من حـرارة الأفران ويضع على رأسه قبعة كبير الطهاة. ورفاقـه من خلفـه يحملـون حلـلا وملاعق وسكاكين وقلايات. بل كان هناك أيضا قرامة لتضيف نغمـة الصريـر.

وفي يد كبير الطهاه شوكة ضخمة جعل منها عصا المايسترو...

وكانت المعزوفة الأولى كما يقول البرنامج قطعة موسيقية باسم «نوكتيريالنون»، تلتها «أغنية حب» غناها الطاهي نفسه بصوت عذب، وبكثير من التردد، ولم استطع الأمساك الا بقليل من الكلمات الرقيقة وسط الرنين الصاخب الناجم عن سقوط الملعقة بقوة فوق غطاء الحلة.. بينما جلس مستر ومسز سميث على الأريكة متشابكي الأيدي، والبطانية المعتادة ممدودة على الركبتين، والمسافر صاحب المنتجات الدوائية مائل بجسمه كله الى الأمام يتأمل الطاهي النحيل. ولعله كان يفكر في أي نوع من أدويته يمكن ان يفيد في مثل هذه الحالة.

أما مستر فرنانديز فقد جلس منعزلا بنفسه في واد آخر، وبين الحين والحين يدون شيئا في مفكرته، بينما جونز يحوم حول مقعد المحاسب هامسا في أذنه بين لحظة وأخرى. وكان واضحا انه يرفل في قمة الاستمتاع كما لو أن الأمر كله من ابتكاره. وعندما يصفق يتجلى في تصفيقه طرب المرء المبهور بذاته، وينظر الي غامزا بعينيه كأنما يريد ان يقول «فقط انتظر، وسوف تقتنع أن خيالي لا يقف عند هذا الحد، بل هناك أشياء أفضل في الطريق».

كنت اعتزم الذهاب الى قمرتي بمجرد انتهاء الأغنية، ولكن سلوك جونز أثار فضولي. أما المسافر الصيدلاني فقد اختفى. وتذكرت انه قد تجاوز بالفعل موعد النوم. والآن، ها هو جونز يدعو قائد الاوركسترا لعقد مؤتمر قمة ثنائي، ما لبث ان أصبح ثلاثيا بانضمام قائد فريق الطبول مزودا بمقلاته النحاسية الكبيرة تحت ذراعه. وحانت مني نظرة الى البرنامج فوجدت أن الفقرة التالية عبارة عن مونولوج درامي من اداء مستر باكستر.. وسمعت صوت مستر سميث يقول

ـ كان هذا عرضا ممتعا جدا.. أليس كذلك يا عزيزتي؟

أجابت مسز سميث بصراحة

ـ لقد خدمت القدور هدفا أسمى بكثير من سلق تلك البطة سيئة الحظ.

كان واضحا ان حدة انفعالها لم تتأثر كثيرا نتيجة التخلص من الحموضة. ومرة أخرى يتحدث مستر سميث.

ـ كان الغناء بديعا جدا.. أليس كذلك يا مستر فرنانديز؟
ـ أجل.

قال ذلك، وهو يضع مؤخرة قلمه في فمه، كأنما يغلقه.

وهنا عاد المسافر الصيدلاني، مرتديا خوذة من الصلب. كان واضحا أنه لم يذهب الى الفراش، وانما استبدل ملابسه، ويرتدي الآن طاقما من الجينز الأزرق وبين أسنانه صفارة.

ـ قالت مسز سميث

ـ إذن فهذا هو مستر باكستر؟

لم تخف عليّ رنة الارتياح البادية في صوتها. ويقيني ان مسز سميث كانت تمقت الأسرار ولا تحتملها. فهي تريد ان تكون كل مكونات الكوميديا الانسانية واضحة وبارزة تماما مثل بطاقات الأدوية أو التفاصيل المطبوعة على زجاجة البارمين.. ثم شطحت أفكاري شطحة أخرى.. من أين جاء الراكب الصيدلاني بالجينز؟ يمكن من أحد البحارة؟ ولكن يبقى السؤال الأكثر خطورة.. من أين جاء بالخوذة؟

الآن.. هو ينفخ نفخة حادة بصفارته ليسكتنا.. مع أن مسز سميث كانت الوحيدة التي تكلمت. كان عنوان المونولوج كما هو مذكور في البرنامج يقول «نوبة المراقب».

فجـأة دوى صـوت صفـارة انـذار. لا أدري كيف استطـاع أحـد أعضـــاء الاوركسترا اخراجها، هتف جونز مهللا «بـرافـو».. ولكن مستر بـاكستر أبـدى استياءه بدون تحفظ والتفت الى مصدر الصوت مؤنبا

ـ كان يجب ان تنبهني، هكذا لقد ضاع مني الخيط!

ومرة أخرى يتعرض مستر باكْستر للمقاطعة بدوي هادر لأصـوات طلقـات بعيدةكان مصدرها قاع المقلاة.

زمجر مستر باكستر غاضبا

ـ ما هذا بحق السماء؟
قال جونز

ـ انها المدافع المضادة عند مصب النهر

ـ أنت تتدخل في النص يا مستر جونز.

ـ تستطيع الآن أن تبدأ. المقدمة انتهت. والجو معد. نحن الآن في لنـدن عـام ١٩٤٠.

رشق مستر جونز بنظرة حزينة جريحة، وعـاد يعلن «مـونـولـوج درامي» بعنوان «نوبة المراقب»، تأليف المراقب السابق اكس.. ثم بدأ يلقي قصيدته، وهو يضـع يدا واحدة على عينيه كأنما يقيهما من الزجاج المتساقط.

ألسنة اللهب تخيم فوق أيوستون وسانت بانكراس

وطريق توتنهام القديم العزيز

والمراقب الساري بخطوه الوجل

يرى خياله تحته كأنه سحابة

كانت المدافع في هايد بارك تدوي

عندما جاءت صرخة القنبلة الأولى

وهز المراقب قبضته نحو السماء

ساخرا من هتلر وعاره

سوف تصمد لندن، وتصمد سانت بول

ومع كل نفس تسقط اليوم

سترتفع لعنة من قلب ألماني

لتلعن الفوهرر الشيطان المجنون

مابل تحولت الى انقاض. وشارع جاور أصبح شبحا

وبيكاديللي مشتعل بالنيران

ولكن كل شيء على ما يرام

فسوف نجعل من جراية الخبز نخبا

لأن غارة العدو ماتت في بال مال

ومع آخر حرف من المونولوج. أطلق مستر باكستر صفارته، متخذا وقفة الانتباه قائلا.. لقد أطلقت صفارة الأمان..

علّقت مسز سميث

ـ لا يحدث ذلك بمثل هذه السرعة

وهتف مستر فرنانديز بانفعال

ـ كلا.. كلا.. يا سيدتي..

وأعتقد أنه باستثناء مسز سميث فأن الكل أجمعوا في هـذه اللحظـة أن أيـة فقرة أخرى في البرنامج لن يكون لها طعم: وجاء صوت جونز يقول:

ـ هذا يستحق كأسا أخرى من الشمبانيا!! يا جرسون!!

انصرف أفراد الاوركسترا عائدين للمطبخ، ما عدا المايسترو الـذي بقي بنـاء على الحاح جونز وهو يجذبه من كمه قائلا:

ـ الشمبانيا على حسابي.. أما أنت فتستحق زجاجة كاملة. وهنا سقط مستر باكستر فجأة جالسا بجواري، وراح جسمه ينتفض كله مرتعشا ويده تضرب بعنف على الطاولة.. ثم قال لاهثا

ـ أرجو ألا تؤاخذني يا سيدي. ولكن هذا يحدث لي دائما.. فأنا أصـاب بما يسمى «الخوف من المسرح» بعد العرض! قل لي.. هل أجدت؟

ـ جدا.. قل لي أنت. من أين أتيت بالخوذة؟

ـ أنا أحملها معي دائما في قاع الحقيبة. لسبب مـا لا تفـارقني أبـدا. وانت.. أعتقد انه نفس الأمـر معك.. هنـاك أشيـاء في حيـاة المـرء لا يستطيـع أبـدا أن يفارقها.

كان ما يقوله صحيحا. ربما لم تكن أشيائي ـ ثقيلة الـوزن ـ مثـل خـوذة الصلب، ولكنها مثلها تماما، لا فائدة منها.. بعض صور فوتوغـرافيـة، بطـاقـة بريدية قديمة، تذكرة دخول لكازينو مونت كارلو مضى عليها سنوات، بطـاقـة عضوية انتهت مدتها من زمن بأحد النوادي الليلية في شارع ريجنت.. نعم.. قد أجد ستة أشياء كهـذه على الأقـل لـو قلبت في دفتري الصغير الـذي لا يفـارق جيبي.. قال باكستر.

ـ أما الجينز فقد استعرته من الضابط الثاني..

ـ دعني أصب لك كأسك. يدك مازالت ترتعش

ـ هل اعجبتك القصيدة حقا؟

ـ كانت مفعمة بالحيوية

ـ اذن فسوف أقول لك ما لم أقله لأي انسان آخر. انني أنا المراقب السابق أكس.. لقد كتبتها بنفسي بعد غارة مايو الشهيرة في ١٩٤١

سألت

ـ هل كتبت أشعارا أخرى غيرها

ـ كلا يا سيدي.. اللهم الا مرة واحدة حول جنازة طفل صغير..

هتف المحاسب

ـ والآن أيها السادة. لو طالعتم البرنامج فستجدون أننا مقبلون على فاصل عظيم الخصوصية، وعدنا به مستر فرنانديز.

ولقد كان فاصلا شديد الخصوصية بحق. فقد فوجئنا جميعا بالمستر فرنانديز ينفجر في البكاء مثلما انفجرت رعشة مستر باكستر. أتراه قد أفرط في شرب الشمبانيا؟ أو لعله تأثر اكثر مما يجب بقصيدة مستر باكستر؟

ولكن هذا الافتراض الأخير محل شك لأنه على الأرجح لا يفهم من اللغة الانجليزية سوى كلمتي أجل.. وكلا.. ولكنه يبكي الآن بدموع الحقيقة، ومع ذلك فقد بدا شديد الكبرياء وهو منتصب في مقعده بينما دموعه تنهمر. ودار في ذهني خاطر يقول أنني لم أر في حياتي رجلا ملونا يبكي ـ كثيرا ما رأيتهم يضحكون.. يغضبون.. خائفين.. ولكني لم أر ابدا رجلا يحمل كل هذا الحزن في عينيه.

خيم علينا صمت رهيب ونحن جالسون نتطلع اليه. لم يكن في وسع أي منا أن يصنع شيئا. كان جسده يهتز بخفة مثل اهتزاز مقاعد الصالون مع محركات السفينة ولعلي وجدت ساعتها أن هذه طريقة مناسبة جدا للتعبير عن الوضع، واكثر ملاءمة ونحن نقترب من الجمهورية الفارقة في الظلام من الموسيقى والغناء فهناك في المكان الذي نقصد اليه ما يكفينا جميعا للبكاء والنحيب.

وهنا رأيت الزوجين سميث لأول مرة في أحسن حالاتهما..

كنت في الواقع قد كرهت من مسز سميث هجومها المتسرع على باكستر. وفي اعتقادي ان أية اغنية عن الحرب كانت كفيلة بأن تستفز كل مبادىء مسز سميث، ولكنها كانت الوحيدة من بين كل الركاب التي تحركت في اتجاه مستر فرنانديز لتمد له يد المساعدة. فجلست الى جانبه، دون ان تنطق بحرف، وانما تناولت يده بين يديها وأخذت تمسح على راحته وكأنها أم تهدهد طفلها ليرتاح بين الغرباء.. وتلاها مستر سميث ليجلس بجوارها من الناحية الأخرى، وكأنما يشكل الثلاثة مجموعة واحدة معزلة عن الباقين. وأخذت مسز سميث تطلق أصواتا موسيقية هادئة كما لو كانت تروح عن طفلها ـ فاذا بمستر فرنانديز يكف فجأة عن النحيب مثلما بدأ.. وينهض فجأة، ليرفع يد مسز سميث المعروقة الجافة الى شفتيه فيقبلها في احترام وامتنان.. ثم اتخذ سبيله خارجا من الصالون.

هتف باكستر

ـ ماذا يحق السماء؟

قال المحاسب

ـ هذا غريب والله . غريب بلا شك.

وقال جونز وهو يرفع كأسه الى شفتيه.

ـ شيء محبط.

ولكنه وجد الكأس فارغة فأعادها الى مكانها. والتقط المايسترو مقلاته وعاد الى المطبخ.. وقالت مسز سميث، وكأنما هي تفسر كل شيء..

ـ المسكين يعاني من بعض المشاكل

وأخذت تتطلع الى يدها كانما تتوقع أن ترى على جلدها الأثر المطبوع لشفتي مستر فرنانديز الملونتين..

وعاد جونز يقول

ـ هذا محبط جدا

فعلق مستر سميث لأول مرة

ـ اذا كان لي ان أقدم اقتراحا، فان أولى بنا أن ننهي الحفل الآن بنشيد أولد لانج سين. فمنتصف الليل ليس ببعيد. ولا أحب أن نترك مستر فرنانديز وحده هناك ونحن هنا نواصل.. حسنا.. نواصل التحليق في السماء.

وربما كانت هذه العبارة الأخيرة آخر ما يمكن ان يخطر على بالي كوصف لحفلنا في ذلك المساء. ولكن وجدت نفسي متفقا مع رأيه من حيث المبدأ. والآن وقد حرمنا من الأوركسترا فقد جلس مستر جونز الى البيانو واستطاع بالفعل أن يجد شيئا قريبا من النغمة الصحيحة.. وشكل الباقون بدون الطاهي ومستر فرنانديز وجونز فرقة كورال متواضعة. وأخذنا نردد الأغنية.. وكأنما نحن في جنازة.

7

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بكثير عندما دق مستر جونز على باب

قمرتي. كنت ساعتها اراجـع بعض اوراقي بنيـة التخلص من اي شيء يمكن ان يساء تفسيره من جانب السلطات، مثلا كـان هنـاك مكـاتبـات متبـادلـة تتعلق باحتمال بيع فندقي، وفي بعضـها اشارات خطيرة للوضـع السياسي. وكنت غارقـا في افكاري الى حد جعلني ارد بعصبية على طرقات الباب التي جاءت لتؤكد انني قد عدت بالفعل الى الجمهورية وها هم زبانية الطونطون ماكوت على الباب.

قال جونز في شبه اعتذار:

ـ لعلني لا اكون قد ايقظتك؟

ـ انا لم ابدأ في نزع ثيابي بعد.

ـ آسف جدا لما حـدث هـذا المسـاء. لم تجـر الامـور كلهـا كما كنت احب، والسبب ان المادة الخام كانت محدودة" هل تعـرف ان لـدي احسـاسـا معينـا بالليلة الاخيرة على ظهر السفينة . انها تعني ان المرء قد لا يرى هذه الوجوه ابدا بعدها، انها مثل ليلة رأس السنة عندما تحتفل بذهـاب العـام السيء الى الابـد في سلام.. انا لم استرح الى بكاء ذلك الرفيق الاسود على هذا النحو، وكأنه يرى في المستقبل اشياء غير منظورة.. انا بالتأكيد لست رجلا غبيا.. واظنك ايضـا لست كذلك؟

كان اول انطباعي انه جاء الى قمرتي لهدف معين، وليس فقط للاعتـذار عن الحفل، وانما ليطلب شيئـا، او يسـأل سؤالا. ولـو كـان في مـوقف يسمـح لـه بتهديدي لداخلني شك بالتأكيد في انه انما يزورني لهذا الغرض.. كان غـرضـه واضحا عليه كأنه حلة صارخة الألوان، وبدا هو فخورا بذلك، كأنما هـو يقـول «عليك ان تأخذني كما تراني».

واستطرد قائلا

ـ يقول المحاسب انك فعلا مالك هذا الفندق

ـ أتراك كنت تشك في ذلك؟

ـ ليس تماما. ولكنك لا تبدو من ذلك الطراز. فنحن عادة لا نذكر الاوصاف الصحيحة في جوازات سفرنا

ـ ماذا ذكرت انت في جوازك؟

ـ مدير شركة. وهذا صحيح نوعا ما.. وانت؟

ـ رجل اعمال.

ـ كلا الوصفين لا يقل غموضا عن الآخر.

كانت عمليات الاستجواب ـ وان ظلت مستترة الى حد ما ـ هي الاساس في علاقتنا طوال الفترة القصيرة التي استمرت فيها هذه العلاقة. وقد يلتقط احدنا خيطا قصيرا هنا او هناك. ولكن في المسائل الكبرى كان يقنع احدنا عادة بالقصة التي يزعمها الآخر. وفي اعتقادي ان امثالنا ممن ينفقون جزءا كبيرا من حياتهم في الاحتيال سواء كان احتيالا على امرأة، او على شريك، او حتى على انفسنا، يستطيعون شم رائحة اشباههم وهكذا. فاننا، جونز وانا، عرفنا الشيء الكثير، كل عن الآخر قبل النهاية، حيث ان المرء يضطر الى استخدام اقل ما يمكن من الصدق اينما استطاع ذلك. وهذا ـ لعلمك ـ شكل من اشكال الاقتصاد. قال جونز.

ـ لقد كنت تقيم في بورتو برنس.. ولا بد انك تعرف بعض الاسماء الكبيرة هناك.

ـ انهم يجيئون ويذهبون.

ـ في الجيش على سبيل المثال؟

ـ كلهم ذهبوا. فبابا دوك «ديكتاتور هاييتي الاسبق ـ المترجم» لا يثق

بالجيش، ورئيس الاركان ـ كما اعتقد ـ مختف في السفارة الفنزويلية. والجنرال وجد ملجأ آمنا في سانتو دومينجو. وهناك عدة كولونيلات في سفارة الدومنيكان، وثلاثة كولونيلات وماجورين في السجن ـ اذا كانوا ما زالوا على قيد الحياة.. هل لديك رسالة تقديم الى اي احد منهم؟

قال وقد بدا عليه عدم الارتياح:

ـ ليس تماما.

ـ من الافضل ان لا تبرز اية رسالة تقديم الا اذا كنت متأكدا ان الرجل المقصود ما زال على قيد الحياة.

ـ معي رسالة صغيرة من قنصل هاييتي العام في نيويورك تتضمن توصية بي..

ـ لعلك تذكر اننا قضينا في البحر ثلاثة ايام. وما اكثر ما يمكن ان يحدث في مثل هذه الفترة. ومن الجائز جدا ان يكون القنصل العام طلب حق اللجوء السياسي.

سأل، نفس السؤال الذي سأله المحاسب من قبل:

ـ اني لأعجب ما الذي يجعلك تعود والظروف هنا كما تقول؟

كان الصدق يتطلب جهدا اقل من تأليف كذبة ما. غير ان الوقت كان متأخرا، فأجبت:

ـ اكتشفت اني اشتاق الى المكان. ثم ان الاحساس بالأمن يثقل على الاعصاب احيانا مثلما يثقل الاحساس بالخطر!

ـ أجل.. كنت اعتقد انني اخذت نصيبي من الخطر في الحرب.

ـ في اية وحدة كنت؟

اجابني مبتسما في وجهي كأنما يعني ان ورقتي التي لعبتها مكشوفة اكثـر مما يجب..

ـ اوه.. في الواقع انا كنت اتنقل كثيرا في تلك الايام. ولكن قل لي اي نوع من الناس سفيرنا هناك:

ـ ليس لنا سفير هناك. آخر سفير طرد منذ اكثر من عام.

ـ اذن.. القائم بالأعمال؟

ـ انه يفعل ما يستطيع.. عندما يستطيع.
ـ يبدو اننا بسبيلنا الى بلد غريب فعلا.

قال هذا واتجه نحو كوة القمرة كأنما يتوقع ان يرى الارض التي نقصدهـا، والتي كان يفصلنا عنها في هذه اللحظة نحو مائتي ميل. واستطرد قائلا:

ـ لم تعد جنة السياح اذن؟

ـ كلا.. في الواقع انها لم تكن كذلك أبدا..

ـ ولكن.. ربما كانت هناك فرص قليلة لرجل ذي خيال؟

ـ هذا يتوقف..

على ماذا؟

ـ نوع الخردة التي معك.

عاد يحدق النظر في الظلام عبر كـوة القمـرة المعتمـة كـأنما يمعن التفكير في الامر قبل ان يقول

ـ خردة؟ الخردة تتكلف كثيرا في هذه الايام.. قل لي.. لماذا ـ في رأيك ـ كـان

ذلك الزنجي يبكي بالفعل؟

ـ ليس لدي ادنى فكرة.

ـ كانت امسية عجيبة.. املي ان تكون افضل في المرة القادمة؟

ـ المرة القادمة؟

ـ كنت افكر في حفل آخر عند نهاية السنة.. اينما يكون..

عاد يلتفت الي، موليا الكوة ظهره.. وقال وهو يتحرك نحو الباب:

ـ حسن.. حان وقت اغماض العيون.. أليس كذلك؟ آه.. بالمناسبة.. سميث؟ ما الذي يسعى اليه في اعتقادك؟

ـ لماذا يتحتم ان يكون هناك ما يسعى اليه؟

ـ قد تكون على حق. لا تبال بما اقول. انا ذاهب الآن، فقد انتهت المهلة، ولم يعد هناك وسيلة للافلات.

ثم اضاف ويده على مقبض الباب.

ـ لقد حاولت جهدي ان ارفع المعنويات.. ولكننا لم نوفق، اغماض العين هو الرد المناسب على كل الاحتمالات. أليس كذلك؟ على الاقل انا ارى الامور على هذا النحو.

الفصل الثاني

ها أنذا اعود بلا اي امل يذكر الى بلد لا شيء فيه سوى الـرعب، والاحبـاط. ومع ذلك، فالملامـح التي تصـافـح عيني بينما المـركب تتهـادى بكبريـاء نحـو مرساها تجعلني احس بنوع من السعادة. ها هي قمـة جبـل كينسكـوف تطـل بكتلتها الضـخمة على المدينة فتلفها بظلها العميق. ووميض شمس الاصيل يبرق على زجاج البنايات الجديدة التي اقيمت قرب الميناء بمناسبة معـرض دولي مـا، على نسق ما يسمى بالطراز الحديث. وها هو كولمبوس الحجري يراقب خطواتنا ونحن ندخل..

هنا كنا نلتقي، مارتا وانا حتى جاء حظـر التجـول فحبس كلينـا في سجنين منفصلين. انا في فندقي، وهي في سفارتها، ودون ان يصـل بيننـا ولـو هـاتف صالح للاستعمال. وهنا كانت تنتظر داخـل سيـارتها في الظـلام، حتى اذا مـا احست بصوت سيارتي الهمبر يقترب اومضت بأنوارها. والآن، وقد انتهى حظر التجول منذ شهر، ترى، هل وجدت مارتا لنفسها مواعيد اخرى؟ ومع من؟

اما انها قد وجدت بديلا فهذا ما لا أشك فيه.. ان احدا لا يستطيع ان يعول على الاخلاص في هذه الايام.

هكذا استبدت بي الافكار حتى نسيت زمـان السفـر. لم اجـد في انتظـاري

رسالة من السفارة البريطانية فاستنتجت ان كل شيء على ما يرام - في هذه اللحظة على الاقل.

كنا المركب الوحيد الواصل للميناء، ومع ذلك فالمرفأ مزدحم على آخره بالحمالين وسائقي التاكسي الذين لم يلتقطوا راكبا منذ اسابيع.. ورجال الشرطة وزبانية الطونطون ماكوت بعويناتهم السوداء وقبعاتهم الرخوة والمتسولين في كل مكان ينحدرون من كل شق مثلما تنحدر المياه في موسم المطر. وتحت مكتب الجمارك كان رجل بلا ساقين يقعي مثل ارنب بتيم مادا يده في صمت.

نقدم شخص معروف لدي شاقا طريقه نحوي. كان مكانه المعتاد في المطار، لذلك فلم اتوقع ان اراه هنا. كان صحافيا معروفا لدى الجميع باسم بيتي بيير.. وهو «مهجن» في بلد يعتبر فيه المهجنون مثل نبلاء الثورة الفرنسية الذين كانوا ينتظرون مرور عربة المقصلة لتحملهم الى حتفهم. وكان هناك من يعتقد انه على علاقة ما مع الطونطون، والا فكيف استطاع ان يفلت بجلده حتى اليوم! ومع ذلك فقد كان هناك بين الحين والحين فقرات تتسلل في عموده اليومي «حديث المدينة» تنم عن شجاعة ساخرة غير متوقعة.. وربما كان يعتمد على ان الشرطة لا تقرأ ما بين السطور.

امسك بي بيديه الاثنتين كما لو كنا اقدم صديقين وهو يهتف بالانجليزية:

- غير معقول.. مستر براون؟ مستر براون!

- كيف انت يا بيتي بيير؟

قهقه في وجهي. كان تماما كما عهدته، بكعبه العالي الذي يخفي به قصر قامته، وصوته المرتفع المرح، وحركاته السريعة كالقرد كأنما هو يقفز مِنْ جدار الى جدار على حبال من الضحك، حتى اني كنت دائما اعتقد انه عندما يحين دوره، وهو حتما سيحين بالنسبة لرجل مثله يعيش متحديا حياة محفوفة

بالخطر، فسوف يضحك في وجه جلاده وهو يهم بشنقه.. او قطع رقبته.

ـ جميل جدا ان اراك يـا مستر بـراون. كيف حـال الاضـواء السـاطعـة في برودواي؟ مارلين مونرو والبوربون المعتق.. والكلام على الكيف؟

كان يبدو متخلفا ـ الى حد ما ـ عن عصره. لم يذهب الى ابعد من جامـايكـا على مدى ٣٠ عاما.

ـ اعطني جواز سفرك يا مستر براون. اين بطاقات حقائبك؟

اخذها، وراح يلوح بها فوق رأسه وهو يشق طـريقـه وسط الـزحـام، وفي دقائق كان قد انهى كل شيء، حتى الحقائب مرت من الجمارك دون ان تفتـح.. كان يعرف كل شخص هنا. وعند باب الخروج تبادل بضع كلمات سريعـة مـع رجل الطونطون ماكوت.. ومـا ان خـرجت حتى التقط لي تـاكسيـا، دفعني الى داخله وهو يردد:

ـ اجلس يا مستر براون. اجلس، الحقائب ستصل حالا.

سألت:

ـ كيف الامور هنا؟

ـ كالمعتاد.. كل شيء هادىء.

ـ لا حظر تجول؟

ـ لماذا يكون هناك حظر تجول يا مستر براون؟

ـ الصحف، تتحدث عن متمردين بالشمال.

ـ الصحف؟ الصحف الاميركيـة؟ لا اظن انك تصـدق مـا تقـولـه الصحف الاميركية. هل تصدقها؟

قال ذلك وهو مستند برأسه الى باب التاكسي.. ثم اضاف، مستعيدا مـرحـه المعتاد:

ـ لا تتصور مدى سعادتي بعودتك يا مستر براون.

كدت فعلا اصدقه.. فقلت:

ـ لماذا لا؟ ألا انتمي الى هنا؟

ـ بالتأكيد انك تنتمي الى هنا يا مستر براون. انت صديق حقيقي لهاييتي.

ثم اضاف وهو يقهقه عاليا:

ـ وان كان اكثر الاصدقاء الحقيقيين قد تركونا في الآونة الاخيرة.

وخفض صوته نغمة واحدة مستطردا:

ـ لقد اضطرت الحكومة الى الاستيلاء على بعض الفنادق الخالية.

ـ شكرا للتحذير.

ـ ليس من الصواب في شيء ان يدع المرء ممتلكاته تضيع.

ـ فكرة طيبة.. من الذي يعيش فيها الآن؟
قهقه عاليا.

ـ ضيوف الحكومة!

ـ هل يطاردون الضيوف الآن؟

ـ كان هنا وفد بولندي، ولكنه غـادر بـأسرع ممـا كـان منتظـرا.. هـا هي حقائبك يا مستر براون.

ـ هل سأصل الى التريانون قبل انطفاء الانوار؟

ـ اجل.. اذا توجهت الى هناك مباشرة.

ـ اين يمكن ان اذهب الا الى هناك؟

ضحك بيتي بيير قائلا:

ـ دعني ارافقك يا مستر براون. هنـاك نقـاط تفتيش الآن فيما بين بـورتـو برنس وبيشون فيل.

ـ وهو كذلك. تفضل، لعلنا يمكن ان نتفادى اية مشاكل.

ـ ماذا كنت تفعل في نيويورك يا مستر براون؟

أجبته بصدق.

ـ كنت احاول ان اجد مشتريا لفندقي.

ـ ولم توفق؟

ـ لم اوفق بالمرة

ـ لا مشاريع في هذا البلد العظيم؟

ـ انتم طردتم بعثتهم العسكرية، واستدعيتم السفير.. فهل تعتقـد ان تكـون هناك ثقة كبيرة بعد ذلك؟ يا ربي! لقد كـدت انسى.. ان لـديـنـا هنـا مـرشـحـا للرئاسة.. كان معنا على ظهر المركب.

ـ مرشح للرئاسة؟ كان يجب ان اعرف.

ـ على اية حال.. ليس مرشحا ناجحا جدا..

ـ سيان. انه مرشح للرئاسة وكفى. ماذا جاء يفعل هنا؟

ـ لديه رسالة تقديم لوزير الشؤون الاجتماعية.

ـ دكتور فيليبوت؟ ولكن الدكتور فيليبوت..

ـ ماذا؟ هل في الامر خطأ ما؟

ـ انت تعرف كيف الحال مع الامور السياسية.. نفس الشيء كما في جميع البلدان.

ـ هل خرج؟

ـ لم يره احد منذ اسبوع. ويقال انه في اجازة.

لمس بيتي بير كتف السائق وكنا لم نتجاوز بعد تمثال كولمبوس.

انتظر هنا يا صاحبي.. اعتقد يا مستر براون انني يجب ان اعود لأبحث عنه. فأولى بالمرء هنا مثلما في بلادكم ان يتجنب اعطاء اي انطباع خاطىء.. لا اعتقد انه سيكون من صالحي ان اذهب الى بريطانيا ومعي رسالة تقديم باسم زعيم المعارضة.. الى اللقاء.. سوف آتي فيما بعد لأتناول معك قدحا من الويسكي.. انا سعيد جدا برؤياك ثانية يا مستر براون..

قال هذا، وهو ينزل من التاكسي مسرعا، ولوح بيده، ومضى. وانطلقنا.. سألت السائق، الذي يحتمل جدا ان يكون عميلا للطونطون.

ـ هل سنصل الى التريانون قبل انطفاء الانوار؟

هز الرجل كتفيه ولم يجب. ان مهمته ان يسمع المعلومات، لا ان يدلي بها، كانت الانوار لا تزال مضاءة في مبنى المعرض الذي يستخدمه الآن وزير الداخلية. وكانت هناك سيارة بيجو واقفة في ميدان كولمبوس.. على اية حال، هناك سيارات بيجو كثيرة في بورتوبرنس.. وليس من السهل ان اصدق ان

مارتا من القسوة وعدم اللياقة بما فيه الكفاية بحيث يمكن ان تختار لمواعيدها الجديدة نفس المكان. ومع ذلك، فقدقلت لسائق التاكسي ان يتوقف لينزلني هنا، وان يواصل السير بحقائبي للتريانون لألحق بها فيما بعد. ولم يكن من الممكن ان أتصرف بحماقة اكثر. فمن المؤكد ان ذلك الكولونيل الذي يرأس الطونطون ماكوت سيعرف في الصباح التالي اين نزلت من التاكسي. وكان الاحتياط الوحيد الذي اتخذته هو انني ظللت واقفا في مكاني حتى اختفى التاكسي عن الانظار، ثم اتجهت نحو كولمبوس والسيارة الواقفة تحته من الخلف، وشاهدت رقم الهيئة الدبلوماسية. نعم.. كانت سيارة مارتا، وكانت مارتا بداخلها.

وقفت اتأملها دون ان تراني، وخطر ببالي ان اظل واقفا على بعد بضع ياردات حتى ارى الرجل الذي جاءت لتلقاه. ولكنها التفتت برأسها للخلف، ورأتني.. يبدو انها أحست بوجود من يراقبها، انزلت زجاج النافذة نصف بوصة وهتفت في صوت حاد: من انت؟ ماذا تريد؟ ثم اضاءت انوار السيارة.. قالت بصوت مرتعش:

- اوه!! يا ربي!! اذن فقد عدت؟

فتحت الباب فدلفت الى جوارها.. واحسست بطعم الخوف وعدم الثقة في قبلتها. قالت.

- لماذا عدت؟

- اعتقد اني افتقدتك كثيرا

- هل كان من الضروري ان تهرب حتى تكتشف ذلك؟

- كنت آمل ان تتغير الامور اذا ذهبت بعيدا.

- لم يتغير شيء.

ـ لا..

قالت ذلك وهي تلوي احد اصابعي حتى اوجعني

ـ انا استطيع ان ابقى عاقلة لبضعة اشهر، فيما عدا في الاحلام. انـا لم اكن امينة في احلامي.

ـ انا ايضا حافظت على امانتي.. على طريقتي.

ـ لا حاجة بك الى شرح طريقتك لي الآن. فقط، اهدأ، يكفي انك معي..

أطعتها، وانا نصف سعيد، نصف تعيس، كان واضحا ان شيئـا واحـدا على الاقل لم يتغير، اللهم الا انها ستخاطـر الآن بتـوصيلي الى قـرب الفنـدق، حيث يمكن ان يراها اي انسان. وسرى عني خـاطـر يقـول انهـا لا يمكن ان تجـد في نفسها اعصابا كافية لتأخذني الى جانبها اذا كانت تنتظر بالفعل شخصا آخـر.. ولكن خاطرا آخر قال ان لديها اعصابا كافية لأي شيء.. فارتباطها بـزوجهـا لا يرجع بالطبع الى افتقارها للاعصاب.. فجأة اطلقت صرخة خافتة، كتمتها بيدها وهي تهمس:

ـ نسيت ان اغلق النافذة.

ـ يحسن بنا ان نذهب للتريانون قبل انطفاء الانوار.

ـ هل وجدت احدا يشتري المكان؟

ـ كلا..

ـ أنا سعيدة بذلك.

في الحديقة العامة كانت النافورة الموسيقية عاطلة، بلا مـاء ولا صـوت بعـدهـا مررنا بالمبنى الأسود الذي يشغله الطونطون ماكوت، وأخذنا طريقنا عبر التـل،

حيث أوقفتنا احدى نقاط التفتيش. وجاء رجل بقميص ممزق وبنطلون رمـادي وقبعة رخوة معفرة يجر بندقيته خلفه كأنها ذيل، وطلب منا ان نخرج للتفتيش. قلت:

ـ أنا سأخرج.. ولكن هذه السيدة تنتمي للسلك الدبلوماسي.

قالت مارتا:

ـ لا داعي للاعتراض يا عزيزي.. فلم يعد ثمة وجود لهذه الامتيازات الآن..

وسبقتني الى جانب الطريق، رافعة يديها فوق رأسها، وملقيـة الى عسكـري الميليشيا ابتسامة كرهتها. قلت للرجل:

ـ ألا ترى لوحة هيئة دبلوماسية على السيارة؟

فقالت هي

ـ وأنت ألا ترى انه لا يعرف القراءة؟

تحسس الرجل ساقي من أعلى الى أسفل ومن الخلف ومن الامـام، ثم فتـح صندوق السيارة ونظر فيه.. ولم يكن تفتيش خبير على أية حـال، ثم فتـح لنـا طريقا وسمح لنا بالمرور.. قلت

ـ لا أحب ان تعودي وحدك

وبعد نصف ميل آخر على الطريق عاودتني الشكـوك القـديمـة.. واذا كـان الزوج عادة تعمي عيناه عن خيانة زوجته، فإن العشيق على عكسه تماما، يـرى خيانتها قائمة في كل حركة وفي كل حين. قلت لها.

ـ قولي لي بالحق. ماذا كنت تفعلين عند التمثال من كنت تنتظرين!

ـ لا تكن أحمق الليلة.. فأنا سعيدة..

ـ أنا لم اكتب اليك أبدا اني عائد

ـ انه مكان اتذكرك فيه. هذا كل شيء.

ـ أليست مصادفة غريبة أنك في هذه الليلة بالذات...

قاطعتني قائلة

ـ هل تصورت أن هذه هي الليلة الوحيدة التي تجشمت فيها عناء ذكراك؟

كلا، كل ما في الأمر انه حدث ذات ليلة ان سألني لويس لماذا لم أعد أخرج كل مساء للعب «رومي الجن» مادام حظر التجول قد رفع. وهكذا في اليوم التالي أخذت سيارتي كالعادة. ولما لم يكن هناك من أقابله، أو ما أفعله فقد ذهبت الى التمثال.

ـ ولويس.. هل هو سعيد؟

ـ هو دائما سعيد

وفجأة انطفأت الأنوار فوقنا وحولنا. ولم يبق سوى الوهج البادي من ناحية المرفأ، ومباني الحكومة، قلت

ـ عسى أن يكون جوزيف قد احتفظ ببعض الزيت لحين عودتي.. وعسى ان يكون حكيما بقدر ما هو بكر..

ـ هل هو بكر؟

ـ حسن، انه شخص طاهر، على الأقل منذ أن أخذ الطونطون ماكوت يطاردونه..

دلفنا بالسيارة الى الممر الصاعد وسط أشجار النخيل والبونفيليا وعادت خواطري تتسائل السؤال القديم.. لماذا اطلق صاحب الفندق السابق عليه اسم

التريانون؟ انه اسم غير مناسب بالمرة، فالطراز المعماري لا ينتمي الى كلاسيكية القرن الثامن عشر، ولا الى فخامة القرن العشرين، وانما هو بابراجه وشرفاته وديكوراته الخشبية أقرب ليلا الى بعض بيوت تشارلز ادامز التي يعلن عنها في النيويوركر. ولك ان تتوقع ان تفتح الباب عليك في أية لحظة ساحرة عجوز شمطاء، أو خادم سفاح مجنون، ومن خلفه خفاش يتدلى تحت النجفة، اما في النهار، وأشجاره تسبح في أشعة الشمس، فالبيت يبدو رقيقا منمقا وجميلا بشكل غير معقول، كأنما هو لوحة انتزعت من كتب الجنيات وألف ليلة وليلة.. ولقد نما معي حب هذا المكان. وأظن اني كنت سعيدا الى حد ما لأني لم أجد له مشتريا.. وأشعر أنني لو استطعت ان احتفظ به بضع سنوات أخرى فانني سأجد فيه وطنا. فلا بد من وقت يتعين فيه على المرء ان يكون له وطن، تماما مثلما لا بد من وقت لكي تتحول العشيقة الى زوجة. وحتى عندما لقي شريكي حتفه على ذلك النحو العنيف، لم تخفت عندي غريزة حب الامتلاك.

★★★

كان العلاج هو النجاح الذي لم يكن لشريكي أي فضل فيه.. في الأصوات الرنانة الصاعدة من حوض السباحة، في صلصلة قطع الثلج بالمشروبات الفاخرة التي اشتهر بها.. في وصول التاكسيات تباعا من المدينة، وفي الصخب المعهود ساعة الغداء في الشرفة.. في دقات الطبال الذائع الصيت وايقاع أقدام الراقصات، بينما البارون سامدى الأسطوري يخطر تحت اشجار النخيل المزينة بالأنوار بقبعته العالية وزيه الغريب على أنغام الموسيقى.. كل هذا، عرفته، واعتدته، في لمحة خاطفة من الزمن.

تقدمت بنا السيارة في الظلام. قبلتها مودعا. كانت القبلة لازالت تحمل علامات الاستفهام. فلم يكن بوسعي ان أصدق في اخلاص يعيش ثلاثة أشهر من الوحدة القاتلة. ولم يكن احتمال انها عادت لزوجها بأقل سوءا من أي

احتمال آخر.. سألت وانا أشدها نحوي.

ـ كيف حال لويس؟ .

ـ كما هو. انه دائما كما هو.

ومع ذلك يخيل الي أنها لا بد كانت تحبه ذات يوم. وهـذا واحـد من لعنـات الحب. فحتى ذروة النشوة بين الاحضان دليل آخر على أنه لا يدوم. ولقد التقيت مع لويس ـ للمرة الثانيـة ـ ضمن ٣٠ مدعوا لحفل كوكتيل بالسفارة، وبـدا لي يومها من المستحيل ان ذلك السفير الأنيق في الأربعينات من عمر بشعره اللامع كأنه وجه حذاء مصقول لم يلاحظ كم مرة التقت عيوننا ـ مـارتـا وأنـا ـ عبر القاعة المزدحمة، ولسة يدها الخفية كلما مر أحدنا بـالآخـر. ولكن لـويس ظـل محافظا على تفوقه المفروض. فهذه سفارته. وهـذه زوجتـه. وهؤلاء ضيـوفـه. وعلب الثقاب مذهبة بـالحـروف الأولى من اسمـه وكـذلك الحـزام الـذي يحيط بسيجاره ولازلت أذكر كيف رفع كـأسـه تحت الأضـواء ليريني شعـار الثـورة المنقوش على الزجاج قائلا: «هذا صنع لي خصيصا في باريس».

كان واضحا أن لديه احساسا عميقا بـالملكيـة ولكنـه ـ ربما ـ لم يكن يهتم كثيرا باعارة ممتلكاته للآخرين:

ـ هل سرى عنك لويس كثيرا في غيابي؟

ـ كلا.. لم يسر عني أحد.

لعنت نفسي لأنني صغت سؤالي بهذه الصورة التي جعلت اجابتها غامضة..

ـ أراك تستخدمين عطرا مختلفا..

ـ لويس اهدانيه في عيد ميلادي.. أما عطرك فقد نفد

ـ عيد ميلادك؟ نسيت أنه...

ـ لا يهم..

ـ لماذا تأخر جوزيف؟ المفروض انه سمع السيارة

قالت ـ كأنما لم تسمعني

ـ لويس لطيف معي. وأنت الشخص الوحيد الـذي يطـاردني.. تمامـا مثلما يفعل الطونطون ماكوت مع جوزيف.

ـ ماذا تعنين؟

يا الله!! كـل شيء تمامـا مثلما كـان في المـاضي ـ فنحن ـ بعـد عشر دقـائق نتبادل الحب. وبعد نصف ساعة نبدأ الشجار.

غادرت السيارة، وأخذت طريقي صـاعـدا على الـدرج في الظـلام. عنـد أعلى الدرج كدت اتعثر في حقـائبي التي تـركهـا السـائق هنـاك. نـاديت جـوزيف.. جوزيف.. ولم يجب أحد.. كانت الشرفة ممتدة على الجانبين ولكنها خـاليـة من موائد العشاء. ومن خلال الباب العريض كان بوسعي أن أرى البار تحت ضوء مصباح زيتي صغير من ذلك النوع الذي يوضع بجوار مهـد الطفـل أو فـراش المريض.

هذا هو فندقي الفاخر. على حافة دائرة الضوء الشاحب نصف زجاجـة روم ومقعدان عاليان وأنبوب السيفون كـأنـه طـائر ليلي يطـل عليهما بين الظـلال. ناديت مرة أخرى.. جوزيف.. جوزيف، ومرة أخرى لا أحد يجيب. عـدت نـازلا الدرج الى السيارة حيث كانت مارتا مازالت تنتظر. قلت لها.

ـ انتظري لحظة

ـ ماذا حدث؟

ـ لا أستطيع ان أجد جوزيف

ـ أنا يجب ان أعود الآن

ـ لا يمكنك ان تعودي وحدك. لويس يستطيع ان ينتظر قليلا.

عدت مرة أخرى أرتقي درج فندق التريانون.. مركز الحياة الراقية في هايتي، الفندق الفاخر الذي يعرف مزاياه خبراء الطعام الممتاز وعشاق الفنون القومية.

«تذوق المشروبات الخاصة.. استمتع بحوض السباحة الرائع.. واستمع الى موسيقى طبول هايتي.. ومتع ناظريك برؤية راقصات هايتي.. عش مع صفوة المجتمع الراقي في هايتي.. مع كبار الموسيقيين والفنانين والشعراء والرسامين الذين يتخذون من فندق التريانون ملتقى لحياتهم الاجتماعية».

ذات يوم، كانت هذه الفقرة المقتبسة من دليل هايتي السياحي قريبة جدا من الصدق.

تحسست بيدي الفراغ أسفل البار ووجدت مصباحاً كهربائياً. اخذت طريقي عبر الردهة الخالية الى غرفة مكتبي.. كان على المكتب عدد من الايصالات والفواتير القديمة. لم أكن أتوقع ان أجد زبونا واحدا. ولكن المفاجأة كانت أن جوزيف ايضا ليس موجودا.. همست لنفسي.. يا لها من عودة بعد غياب.. يالها من عودة بعد غياب!

عبر النافذة العريضة تحت المكتب كان حوض السباحة ساكنا كأن عينا لم تره منذ دهور. في مثل هذه الساعة كان المفروض ان يبدأ توافد الزبائن القادمين من الفنادق الأخرى. ولكن هذا كان في الأيام الخوالي.. وعندما يقترب منتصف الليل كان حوض السباحة يزدحم بالرواد وكم من ليلة أخلدت فيها الى النوم بعد الثانية صباحا، وصور عبث الرواد من الجنسين تتوالى أمام عيني.. وأنا

أهمس لنفسي في ارتياح.. اللهم اني قد وصلت!!!

ولكن هذا كان في الأيام الخوالي.. الأيام التي لن تعود..

سمعت وقع أقدام في الحديقة من ناحية حوض السباحة.. خطوات متكسرة لرجل أعرج. هذا هو جوزيف ولا شك. كسرت احدى ساقيه في أول مقابلة له مع الطونطون ماكوت. كنت على وشك الخروج للشرفة للقائه عندما لفت نظري ان هناك شيئاً مفقوداً.. نعم.. كان هناك دائماً ثقالة ورق نحاسية على شكل نعش نقش عليها بالحروف الأولى «أر. أي. بي»، اشتريتها لنفسي ذات يوم كهدية عيد ميلاد من ميامي، أين ذهبت؟ لم تكن غالية الثمن.. مجرد دولارين وخمسة وسبعين سنتا. ولكني كنت أعتز بها.. وهي غير موجودة الآن. لماذا تتغير الأشياء دائما الى الأسوأ اثناء الغياب؟ حتى مارتا تغيرت. غيرت عطرها.

نعم.. كلما كانت حياة المرء غير مستقرة، كلما كان اكثر ارتباطا بالأشياء الصغيرة، واكثر ضيقا بتغييرها.

خرجت إلى الشرفة.. جاءني صوت جوزيف وفيه شيء من التوتر

ـ أهذا أنت يا سيد براون؟

ـ بالتأكيد هو أنا، لماذا لم تكن هنا عندما وصلت؟ لماذا لم ترفع حقائبي؟

لم يجب.. اكتفى بأن رفع إلي من مكانه تحت الشرفة وجها أسود وعينين شاحبتين. أضفت مغيرا الحديث.

ـ مدام بينيدا أوصلتني الى هنا بسيارتها. أريدك ان تعود بها للمدينة، ويمكنك أن ترجع بالاوتوبيس.. اين البستاني؟

ـ ذهب

ـ والطباخ؟

ـ ذهب

ـ وثقالة الورق؟ ماذا حدث لثقالة الورق؟

نظر الي بعينين لا تكادان تفهمان ما أقول

ـ ألم ينزل هنا أي ضيوف منذ غادرت؟

ـ كلا يا سيدي.. فقط..

ـ فقط ماذا؟

ـ دكتور فيليبوت. جاء هنا منذ أربعة أيام. ورجاني ألا يعرف أحد

ـ ماذا كان يريد؟

ـ لقد قلت له انه لا ينبغي ان يقيم هنا.. قلت لـه ان الطـونطـون مـاكـوت سيبحثون عنه هنا.

ـ وماذا فعل؟

ـ أصر على البقاء. ثم ذهب الطباخ، وذهب البستاني، قالا انهما لن يعودا الا بعد ان يرحل. كان مريضا جدا يا سيدي. وهذا هو السبب في انـه لم يـرحـل. قلت له اذهب الى الجبال. قال انه لا يستطيع التحرك. كانت قدمه متورمة فعـلا بشكل سيىء. أنا قلت له انه يجب ان يذهب قبل ان تعود..

ـ واضح أني عدت الى جهنم بقدمي.. سوف اتحدث إليه.. في أي غرفة هو؟

ـ عندما سمعت السيارة صحت به «الطونطون» اهرب بسرعة. ولكنـه كـان متعبا جدا. لا يريد ان يتحرك. قـال: انـا رجـل عجـوز.. قلت ان مستر بـراون سوف يضار كثيرا اذا وجدوك هنا . أنت سيان لديك ان يمسكـوا بك هنـا أو في الطريق. ولكن مستر براون سوف يلحقه أذى كبير لو أمسكوا بك هنـا. قلت لـه

ان يذهب ويتحدث معهم. فخرج بسرعة. غير ان السيارة كانت لسائق التاكسي الأحمق الذي جاء بالحقائب.. فهرعت كي اطمئنه.

سألت. ملتمسا المشورة

ـ ولكن ماذا سنفعل معه يا جوزيف؟

لم يكن الدكتور فيليبوت سيئا مثل سائر عناصر الحكومة، بل لعله حاول فعلا خلال العام الاول في الوزارة ان يفعل شيئا لتحسين ظروف المعيشة لسكان الأكواخ الفقيرة على الشاطىء، حتى أنهم أقاموا نافورة حفروا إسمه على قاعدتها في آخر شارع ديساي، ولكن أنابيب المياه لم تصل اليها أبدا لأن المقاولين لم يدفعوا العمولة المناسبة.

قال جوزيف

ـ عندما ذهبت اليه في غرفته لم أجده

ـ هل تعتقد انه أخذ طريقه الى الجبال؟

أجاب جوزيف مطأطئا رأسه الى الارض

ـ كلا يا سيدي. لا أظن أنه ذهب للجبال. اعتقد انه فعل ما هو أسوأ..

هل تتفضل فتأتي معي؟

سرت خلفه بالممر المؤدي الى حمام السباحة الذي طالما ازدان في الأيام الخوالي بالسابحات الفاتنات. ولكنه الآن مجرد حوض جاف مفرغ من المياه. سقط ضوء المصباح الكهربائي على الارض الجافة وأوراق الشجر الساقطة. قال جوزيف مشيرا بيده بعيدا، وهو واقف في مكانه لا يريد ان يخطو الى الأمام ـ الناحية الأخرى.

لا بد ان الدكتور فيليبوت قد صعد حتى سلم القفز.. والآن ها هو مكوم

تحتة بركبتين ملتصقتين بذقنه.، كأنــه جنين سقط في الشهـر الخـامس، مـزود بحلة رمادية انيقة مناسبة لتشييع الجنازه. كان قد قطع رسغيه أولا، ثم عنقـه كذلك ليكون على يقين. وفوق رأسه حلقت دائرة أنابيب الحوض السوداء كأنهـا حبل مشنقة. ولم يكن أمامنا سوى فتح المياه لنزيل اثر الدماء. فالـرجـل مـات منذ دقائق لاغير. وكانت أولى الافكار التي داهمتني مفرطة في الانانية. والا، فمن ذا الذي يلومك اذا كان شخص ما قد رأى أن يقتل نفسه في حمام سباحتك؟ لقد كان هناك طريق يقود اليه مباشرة من الخارج بدون المـرور بمبنى الفنـدق حتى ان بعض المتسولين اعتادوا التسلل هنا ليبيعـوا منحـوتـاتهم الخشبيـة الى السابحين والسابحات.. سألت جوزيف.

ـ هل الدكتور ماجيوت لازال بالمدينة؟

أومأ برأسه بالايجاب

ـ اذن فاذهب الى مدام بينيدا في السيارة بالخارج واطلب منها ان توصلك الى داره في الطـريق المؤدي للسفـارة، لا تقـل لها السبب. وعـد معـه، اذا وافق على المجيء.

كان ماجيوت في اعتقادي هو الطبيب الوحيد في المدينة الذي لديه الشجـاعـة لأن يقوم بالواجب في مثل هذه الحـالـة، ولكن قبـل ان يبـدأ جـوزيف مسيرتـه سمعت صوت وقع اقدام، وكذلك صـوت مسـز سميث الـذي لا يمكن لأذن أن تخطئه..

ـ ليت رجال الجمارك بنيويورك يتعلمون شيئا أو شيئين من زملائهم هنا.. فقد كانوا مؤدبين جدا معنـا.. لا يمكن ان تجـد لـدى البيض حسن الاستقبـال الذي تجده لدى الملونين.

ـ انتبهي يا عزيزتي.. أمامك حفرة..

ـ أنا استطيع ان أرى جيدا.. لا يوجد منا يقوي النظر اكثر من الجزر الأخضر يا مسز.. مسز.

ـ بينيدا..

ـ يا مسز بينيدا..

كانت مارتا بنفسها في المؤخرة حاملة كشافاً كهربائياً.. وتطوع مستر سميث بالشرح.

ـ لقد وجدنا هذه السيدة الطيبة في سيارتها بالخارج. ولم يكن أحد ظاهرا هناك..

ـ أنا آسف.. لقد نسيت تماما انك تعتزم الاقامة هنا

ـ اعتقد ان مستر جونز كان قادما هنا هو الآخر. ولكننا تركناه مع أحد ضباط الشرطة.. أرجو ألا يكون في الامر مشكلة.

ـ جوزيف.. أعد جناح باريمور. وتأكد من وجود ما يكفي من المصابيح لكل من مستر ومسز سميث.. أرجو قبول عذري عن عدم وجود النور الكهربائي.. ولكن التيار سيعود في أية لحظة..

قال مستر سميث:

ـ نحن نحبه كذلك.. فكأننا في مغامرة!

لو كانت الروح ـ كما يعتقد البعض، تظل تحوم حول جثتها بعد ان تغادرها لساعة أو ساعتين.. لتعجبت من فرط التفاهات التي كتب عليها ان تسمعها روح الدكتور فيليبوت على أمل أن ينطق أحدهم بأي شيء كان ليضفي بعض الكبرياء على هذه الحياة التي غادرتها..

قلت لمسز سميث

ـ هل يزعجك كثيرا اذا لم يكن لدينا الليلة سوى بعض البيض؟

غدا سيكون كل شيء قد أعيد تنظيمه وفق ما تشتهياه. لسوء الحظ الطباخ غادر المكان أمس.

قال مستر سميث

ـ لا تشغل نفسك بالبيض. أقول الحق.. نحن لسنا عقائديين كثيرا فيما يتصل بالبيض، ولكن لدينا على أية حال بعض علب اليستريل

ـ كل ما نحتاجه بعض الماء الدافىء، لعلمك.. ان مسز سميث وأنا نحب الحركة جدا.. فلا تشغل نفسك بنا. لديك حمام سباحة رائع هنا..

تطوعت مارتا لكي تريهم مدى اتساع الحمام فطوحت بشعاع مصباحها نحو منصة القفز والطرف العميق من الحمام، ولكنني اختطفت منها المصباح

بسرعة لأوجه ضوءه نحو البرج، ثم الشرفة الواسعة المطلة على أشجار النخيل.. وكان هناك ثمة ضوء شاحب خلف زجاج احدى النوافذ.. واضح أن جوزيف يعد الجناح هناك. قلت

ـ ها هو جناحك.. جون باريمور. تستطيع من نافذتك رؤية كل بورتو برنس ابتداء من الميناء حتى القصر والكتدرائية..

سأل مستر سميث باهتمام

ـ هل نزل جون باريمور هنا فعلا؟

ـ طبعا. ولكن كان هذا قبل عهدي بسنوات طويلة. ومع ذلك أستطيع أن أريك الفواتير بتوقيعه.

علق مستر سميث معربا عن أسفه

ـ كان موهبة عظيمة.. خسرناها

ولكني كنت أفكر في شيء آخر. فان من المحتمل في أية لحظة الآن ان تنتهي فترة ترشيد استهلاك الكهرباء، ويعود التيار وتستطع كل المصابيح في بورتو برينس.. أحيانا لا تزيد فترة الترشيد على ساعة واحدة، وأحيانا تستمر ثلاث ساعات. ولقد نبهت على جوزيف قبل مغادرتي أن يستمر الفندق في حالة استعداد تام كالعادة، فمن يدري؟ من الممكن جدا ان يهبط على بورتو برنس صحفيان أو اكثر في أي يوم بغية كتابة موضوعات عن البلد الذي لا أشك أبدا أنهم سيسمونه جمهورية الكوابيس. وأغلب الظن ان جوزيف فهم من عبارة «كل شيء كالمعتاد» تعني ان تبقى الأنوار مضاءة فوق هامات أشجار النخيل وحول حوض السباحة؟

ولم اكن أرغب بالطبع في أن يرى مرشح الرئاسة جثة رجل مكومة تحت سلم القفز.. على الأقل في أول ليلة له بالفندق.. فليس هذا هو مفهومي عن حسن الاستقبال ثم.. ألم يذكر لي هو بنفسه ان معه رسالة تقديم الى وزير الشؤون الاجتماعية؟

ظهر جوزيف في طرف الممر. أمرته أن يقود مستر سميث وزوجته الى جناحهما، وبعد ذلك يذهب بصحبة مسز بينيدا الى المدينة. قالت مسز سميث.

ـ حقائبنا في الشرفة.

ـ ستجدينها في الغرفة عند وصولك. لن يبقى الظلام طويلا على أية حال.. أعدكما بذلك.. وأرجو عدم المؤاخذة فنحن كما تعلمان بلد فقير.

بدأت مسز سميث تقول:

ـ عندما أفكر في كل تلك الأضواء المهدرة عبثا في برودواي..

ولكني لم أسمع بقية بيانها.. وأسعدني جدا انها تحـركت في نفس اللحظـة ومعهـا مستر سميث خلف مصبـاح جـوزيف، ومكثت وحـدي لـدى الطـرف الضحل من الحوض الجاف، غير أني الآن، وقد بدأت عينـاي تعتـادان الظـلام، خيل الي انني استطيع ان أرى الجثة، مكومة على نفسها عنـد الطـرف الاقصى، تحت سلم القفز.

أيقظني من أفكاري السوداء صوت مارتا، وومضة من مصباحها الكشـاف تغرق وجهي.

ـ هل هناك ما يسوء؟

ـ لم أجد وقتا لمشاهدة شيء بعد. أعيريني مصباحك لحظة لو سمحت..

سألت:

ـ ما الذي، أبقاك كل هذا الوقت هنا؟

أدرت اشعة الكشاف بعيدا عن حوض السباحة كما لو كنت أتأمل التركيبات الكهربائية.. وانا أجيب على سؤالها.

ـ كنت أتبادل الحديث مع جوزيف.. هيا بنا الآن نصعد لفوق. ما رأيك؟

ـ كلا.. فقد يراني آل سميث.. كلا.. أنا أفضل ان أبقى هنا..

أليس غريبا أن هذه هي أول مرة ادخل فيها هذا المكان.. مكانك؟

ـ كلا.. لقد كنا دائما حذرين

ـ لم تسألني عن أنجيل؟

كان انجيل ولدها طفل لا يطاق. وهو السبب في اننا سنظل الى الابـد نعـاني من الفراق. كان بدينـا جـدا بـالنسبـة لسنـه، ويحمـل على وجهـه عيني ابيـه

المستديرتين كأزرار المعطف، وهو بؤرة رعايتها واهتمامها فوق كل العالمين. وكان بالنسبة لي كمن يستنزف الحنان استنزافا من علاقتنا مثلما يمتص العصير من كوب الشراب. وكان هو محور نصف حديثنا عندما نلتقي.

«يجب ان اذهب الآن، لقد وعدت انجيل ان اقرأ له بعض القصص قبل ان ينام».. او «لا استطيع ان اراك اليوم، فانجيل يريد الذهاب الى السينما» او «معذرة يا عزيزي.. فأنا متعبة جدا الليلة. انجيل دعا ستة من اصدقائه على الشاي»..

قلت مستسلما:

ـ كيف حال انجيل؟

ـ كان مريضا بالحصبة قبل ان تسافر.

ـ ولكنه الآن احسن.. كما ارجو؟

ـ اوه.. اجل.. افضل.

ـ اذن هيا بنا.

ـ لويس لا يتوقع ان اعود مبكرا على هذا النحو، ولا انجيل ايضا. وانا هنا.. ونستطيع ان نقضي وقتا طيبا.

طارت مني نظرة الى ساعة يدي. كانت تقترب من الثامنة والنصف. قلت:

ـ ولكن آل سميث..

ـ انهما مشغولان بحقائبهما الآن.. ما الذي يقلقك يا حبيبي؟
قلت بصوت حالم:

ـ لقد فقدت ثقالة الورق.

ـ هل هي ثمينة جدا؟

ـ كلا.. ولكن اذا كانت ثقالة الورق قد ضاعت.. فماذا سواها قد ضاع ايضاً؟

فجأة.. اضاءت كل الانوار. طارت يدي لتمسك بذراع مارتا، ودرت بها نصف دورة، وانا ادفعها دفعا في الممر، واذا بمستر سميث يظهر في شرفة جناحه مناديا علينا.

ـ هل يمكن لمسز سميث ان تحصل على بطانية اضافية للفراش، احتياطا للبرد؟

ـ سوف ارسل واحدة فوق.. ولكن لن يكون هناك برد.

ـ حقا انه لمنظر جميل هنا..

ـ سوف اطفىء انوار الحديقة وعندها سترى المنظر اجمل.

كان مفتاح لوحة الكهرباء في غرفة مكتبي. وكانت اصابعي على وشك الوصول اليه حينما جاء صوت مستر سميث يقول في انفعال:

ـ مستر براون.. هناك شخص نائم في حوض السباحة.

ـ اعتقد انه مجرد متسول..

جاء صوت مسز سميث هذه المرة.

ـ اين يا عزيزي؟

ـ هناك.. تحت سلم القفز.

ـ المسكين!! ما رأيك لو اعطيته بعض النقود؟

كدت اصيح من مكاني.. خذا له خطاب التقديم.. انه وزير الشؤون الاجتماعية!!

ـ لا اظن هذا صوابا يا عزيزتي.. فسوف توقظين المسكين من نومه الهنيء.

ـ غريب جدا ان يختار مكانا كهذا للنوم.

ـ لعله اراد مكانا يعفيه من وطأة الحر.

وصلت اصابعي الى لوحة الكهرباء.. اطفأت انوار الحديقة. ومرة اخرى يجيئني صوت مستر سميث:

ـ انظري يا عزيزتي.. ذلك المبنى الابيض وقبته الكبيرة.. لا بد انه القصر.

قالت مارتا غير مصدقة.

ـ متسول في حمام السباحة؟

ـ هذا يحدث كثيرا.

قالت مارتا:

ـ لم اره ابدا.. ما الذي تبحث عنه في الادراج؟

ـ ثقالة الورق.. لماذا يأخذ اي انسان ثقالة الورق؟

ـ كيف كان شكلها؟

ـ عبارة عن نعش صغير نقش عليه بالحروف الاولى آر. اي. بي.

ضحكت بدلال موسيقي. وجذبتني نحوها، لتهديني قبلة.. حاولت ان استجيب لها قدر طاقتي ولكن الجثة المكومة على نفسها في حوض السباحة بدت

لا بد ان مسز سميث قد القت اليه بطلباتها، وهو الآن يحاول التنفيذ. كان بيديه اطباق ومعالق وشوك وسكاكين وقدحان وزجاجة ماء ساخن. استطردت.

ـ خذ معك بطانية اضافية. ثم توجه فورا للمدينة.

سألت مارتا:

ـ متى سأراك ثانية؟

ـ نفس المكان.. نفس الساعة.

قالت، وفي صوتها رنة قلق

ـ لم يتغير شيء.. هه؟

ـ كلا.. لم يتغير شيء.

ولكن صوتي لم يكن خاليا من المرارة.. ويبدو انها احست بها فقالت:

ـ انا آسفة.. ولكنك قد عدت على اية حال.

★ ★ ★

عندما تحركت السيارة اخيرا بها، ومعها جوزيف، عدت الى حوض السباحة وجلسنا على حافته في الظلام، كنت اخشى ان يخطر على بال آل سميث ان ينزلا تحت ويفتحا حديثا لا اريده ولكن لم تمض سوى بضع دقائق حتى انطفأت الانوار في نوافذ جناح جون باريمور.. لا بد انهما تناولا اليستريل والبارمين واستسلما الآن لسلطان النوم. فقد ابقاهما الاحتفال مستيقظين حتى ساعة متأخرة امس.. ثم تبع ذلك يوم مرهق طويل

طارت خواطري حول جونز ترى ماذا جرى له؟ تذكرت ايضا مستر

فرنانديز ودموعه المشحونة بالأسرار.. اي شيء الآن افضل من التفكير في وزير الشؤون الاجتماعية المكوم الآن على نفسه تحت سلم القفز.

ومن مكان بعيد في الجبال، خلف قمة كينسكوف جاء صوت دقات طبلة بايقاع معين اعلانا عن حفلة من حفلات الفودو السحرية.. في عهد بابا دوك من النادر ان تسمع طبول الفودو. طرقت اسماعي خطوات شيء يدب على الطريق. حركت مصباحي الكهربائي في اتجاه الصوت، لأرى كلبا هزيلا يكاد يموت جوعا، واقفا على سلم القفز. تطلع الكلب نحوي بعينين منكسرتين وهو يهز ذيله ببطء في حركة يائسة، كأنما يريد ان يستأذنني ليقفز الى الحوض ويلعق الدم.

منذ سنوات قليلة كان لدي هنا ثلاثة بستانيين، وطاهيان، وجوزيف وبارمان آخر مساعد، واربعة مضيفين، وفتاتان، وسائق سيارة، وفي الموسم كنت استأجر عمالة اضافية.. في ليلة كهذه، كنت تجد الكاباريه منصوبا على حافة حوض السباحة، وفي فترات استراحة الفرقة الموسيقية كان يصل الى اذني طنين حركة المرور في الخارج كأنما هناك خلية نحل. اما الآن، ورغم رفع حظر التجول فلا تسمع اي صوت. وبدون وجود قمر لا تسمع حتى صدى نباح كلب. يبدو ان كل النجاح الذي حققته لم يعد له ايضا اي صدى. ومع ذلك.. فما الذي يجعلني اشكو؟ ان عندي نزيلين. وقد وجدت حبيبتي.. وعلى عكس السيد الوزير، لا زلت على قيد الحياة

وهكذا.. اتخذت لنفسي وضعا مريحا على حافة حوض السباحة ليبدأ انتظاري الطويل للدكتور ماجيوت.

الفصل الثالث

1

في حياتي حدث اكثر من مرة ان تحتم علي تقديم بيان عن مؤهلاتي وتاريخ مسيرتي. وكان البيان يبدأ عادة بشيء كهذا: الميلاد سنة ١٩٠٦ في مونت كارلو لأبوين بريطانيين. التعليم في كلية الجزويت في فيريتاسيون، حاصل على العديد من الجوائز، في الشعر اللاتيني وفي المقالات النثرية باللغة اللاتينية.. ثم التفرغ في سن مبكرة للعمل الحر.

وبالطبع، كانت هذه البيانات تتغير حسب الظروف، ونوعية الجهة التي تتلقاها. وما اكثر ما كانت تغفله، او تلويه بعيدا عن الصدق، فوالدتي مثلا لم تكن بريطانية، وحتى يومنا هذا لا استطيع الجزم بأنها فرنسية. اما الرجل الذي اختارته ليكون ابي فقد رحل عن مونت كارلو قبل مولدي. ويجوز جدا ان اسمه كان براون. فهناك رنة صدق في اسم براون. فهي لم تكن تعرف التواضع فيما تختاره . وآخر مرة رأيتها فيها عندما كانت تعالج سكرات الموت في بورتو برنس، وكانت حينذاك تحمل اسم الكونتيسة دي لاسكوت فيليرز. كانت قد تركت مونت كارلو ـ وبالتالي ابنها الذي هو انا ـ على عجل في اعقاب هدنة ١٩١٨، وبدون تسوية فواتير كليتي، ولكن جمعية الجزويت معتادة على الفواتير غير المدفوعة فهي تعمل بكل كيانها على هامش الطبقة الارستقراطية حيث الشيكات المرتدة لا تقل شيوعا عن الخيانات الزوجية. وهكذا فقد

استمرت الكلية تعولني، وكنت تلميذا متفوقا، وكان هناك من يتوقع ان اتمخض يوما عن موهبة، حتى انا كنت اعتقد هذا عن نفسي. وتملكتني فكرة الموهبة حتى سيطرت على كياني مثل الانفلونزا وجعلتني أعيش في عالم بعيد عن الواقع.

وكم اعجب الآن لكل تلك القصائد ومواضيع الانشاء اللاتينيـة والتي اختفت الآن من ذاكرتي مثلما اختفى ابي من حياتي، ولم يبق منها سوى سطر واحد، مجرد رمز للاحلام والطموحات القديمة: ولقد وجدتني اقولـه لنفسي بعـد ذلك بأربعين عاما يوم وفاة امي، وانا واقف على حافـة حـوض السبـاحـة في فنـدق تريانون، اتطلع الى الزخارف والديكورات الخشبية الرائعة كأنها لوحة مرسومة على خلفية من اشجار النخيل وسماء تظللها غيوم العواصف السوداء المتـدافقـة فوق قمة كُينسكوف. وكنت املك اكثر من نصف المكان، ولكني كنت اعرف اني سأتخلص من شريكي، ويصبح المكان كله لي وحدي واذكر اني يومهـا اقسمت ان اجعل منه اجمل فندق سياحي في كل الكاريبي. ولعلني كنت سأنجح، بل ان كل شيء كان يبشر بالنجاح، لولا ان شخصا مجنونا استولى على السلطة وملأ حياتنا بالرعب، والعنف والدم بدلا من الرقص على موسيقى الجاز.

★ ★ ★

لم يكن مستقبلي ـ كفندقي محترف ـ هو ذلك الذي توقعه لي اباء الجزويت، والذي تحطم الى الابد بفضـل عـرض فـرنسي لمسرحيـة روميـو وجـولييت على مسرح الكلية.

كان الدور الذي اعطـوه لي هـو دور الاب فـريـار لـورانت. ولا زالت بعض السطور التي تعين علي حفظها عالقة بذهني لسبب لا ادريه، مع انها تكاد تكون خالية تماما من اي جرس شعري. «هلا تركت لي فرصـة لأدرس حـالتك».. او «هكذا فهمت.. اذن فزواجك حتما سيتم يوم الخميس من ذلك الكونت؟».

ولا بد ان الدور بدا مناسبا في عيني الآباء الطيبين في ظل الظروف القـائمـة

حينذاك. فلم يكن مثيرا اكثر من اللازم، ولم يكن يحتاج الى براعة خاصة، ولكن اعتقد ان موهبتي المهنية كانت قد قاربت النضوب.. وان البروفات الممتدة الى ما لا نهاية، والحضور المستمر للحبيبين وجو الاثارة الذي تشيعه انفعالاتهما رغم الرقابة الصارمة التي فرضها المترجم الذي ترجم المسرحية للفرنسية، كل هذا ادى في النهاية الى انهياري.

كنت ابدو في تفكيري اكبر كثيرا من عمري الحقيقي. كما ان مخرج المسرحية اذا كان قد عجز عن ان يجعل مني ممثلا ممتازا فقد تعلمت منه على الاقل بعض مبادىء المكياج، وهكذا «استعرت» لنفسي جواز سفر مدرس الادب الانجليزي واستطعت به الدخول الى الكازينو. وهناك، في اقل من خمس واربعين دقيقة، ونتيجة اللعب بالتبادل على رقمي الصفر و١٩، ربحت ما يعادل ثلاثمائة جنيه، وبعد ساعة واحدة فقط كنت افقد بكارتي بلا خبرة ولا مقدمات في مخدع بأحد فنادق باريس.

كانت «معلمتي» اكبر مني بخمسة عشر سنة على الاقل. ولكنها ظلت في مخيلتي بنفس عمرها لا تكبر ابدا، بينما انا الذي كنت اكبر واتقدم في السن. التقينا في الكازينو، ولما رأت ان الحظ يجري في ركابي وانا اختار ارقامي من فوق كتفها، بدأت تأخذ لنفسها ذات الارقام. واذا كنت قد ربحت اكثر من ٣٠٠ جنيه فقد ربحت هي ما يقرب من مائة. وفي هذه اللحظة اوقفتني بدعوى التعقل. واكاد اجزم بأنها، في تلك اللحظة، لم تكن تفكر بالمرة في اغرائي. صحيح.. هي دعتني الى قدح من الشاي في فندقها، ولكنها كانت قد اكتشفت وراء تنكري ما لم يكتشفه رجال الكازينو.. وعلى درج الكازينو التفتت نحوي لتسأل:

ـ كيف دخلت الى هنا؟

حتى تلك اللحظة لم اكن ـ بالنسبة لها اكثر من طفل مغامر اتى امرا يدعو

للتسلية.

لم احاول مجرد الادعاء، اطلعتها على جواز السفر «المستعار». وساعدتني بنفسها على ازالة المكياج في الحمام. وشاهدت غضون وتجاعيد الاب فريار لورانت تختفي خطا بعد خط في مرآة الحمام التي اصطفت تحتها عشرات من المساحيق والدهون والعطور واقلام الروج والرموش.. والح على بالي خاطر يقول: ما اشبهنا - هي وانا بممثل وممثلة يتقاسمان حجرة الملابس والمكياج في كواليس المسرح.. او الاستوديو.

★ ★ ★

في الكلية، كانوا يقدمون لنا الشاي على طاولات طويلة وعلى طرفي كل طاولة ابريق معدني، وثلاث شرائح من الخبز وبضع قطع صغيرة من الزبد والمربى. اما الصيني فكان خشنا حتى يتحمل ايدي التلاميذ، والشاي قويا، ولذلك فقد كان اول ما اثار دهشتي في فندق باريس رقة الاكواب وابريق الشاي الفضي والسندوتشات المثلثة الاضلاع والحلوى المغلفة بالكريمة.. غير اني ما لبثت ان فقدت حيائي واخذت اتحدث عن امي وموضوعات الانشاء باللاتينية وروميو وجولييت.. ولعلني - بدون اية نوايا سيئة انشدت بعض اشعار كاتولوس على سبيل استعراض ملكاتي.

لا اذكر الآن تداعيات الاحداث التي انتهت بأول قبلة «جنس طويلة» في حياتي. غير اني اذكر انها قالت لي انها متزوجة من مدير بنك الهند الصينية، وتصورته حينذاك رجلا يفرغ اكواما من النقود المعدنية في درج له قبضة نحاسية لامعة.. وكان في ذلك الحين في زيارة لسايجون حيث تعتقد هي انه يعول هناك عشيقة نصف صينية.

بعد اكثر من اربعين عاما لا زلت اذكر ادق تفاصيل تلك الليلة. يقولون ان العشرين عاما الاولى في حياة الكتاب هي السنوات التي يكتسبون فيها كل

خبراتهم. وبعد ذلك لا يفعلون شيئا سوى الملاحظة. غير اني اعتقد ان هذا صحيح بالنسبة للناس جميعا.

في تلك الليلة، ونحن، هي وانا، منفردين في المخدع الابيض المذهب، وانا في حالة خوف داخلي لم تجد معه كل محاولاتها لتشجيعي، واذا بطائر نورس ضخم يقتحم المخدع من النافذة المفتوحة، حتى خيل الي ان جناحيه قد احتلا الغرفة بأكملها، صرخت هي مفزوعة، وبينما مددت يدي نحوها لأحميها، اخذ الطائر الضخم مكانه في هدوء فوق خزانة مذهبة كأنه قط أليف، على عكس صاحبتي التي اخذت ترتعش من الخوف، فاقتربت منها اكثر، ورحت اسري عنها.

في تلك الليلة احرزت انتصارين.. في الكازينو، وبعده في المخدع الابيض المذهب.. حيث كانت قصة الحب الوحيدة في حياتي التي انتهت بدون الم او دموع. فهي لم يكن لها حتى ادنى ذنب في هجري الكلية. وانما كان السبب هو عدم انتباهي عندما اسقطت في صندوق جمع التبرعات اثر قداس بكنيسة الكلية فيشة روليت قيمتها خمسة فرنكات لم اكن قد استبدلتها، متصورا هذا كرما مني لأن مشاركتي العادية في صندوق التبرعات كانت عشرين «سو» ولكن حدث ان رآني بعضهم فأبلغ العميد. وفي اللقاء الذي تم اثر ذلك، تبخر آخر ما بقي من موهبتي المنتظرة. ورحلت في جو مفعم بالأدب من الجانبين.

كنت قد نجحت في اخفاء ثروتي المتواضعة تحت المرتبة. وعندما «تأكد» مجلس الكلية ان عمي قد ارسل لي ما يكفي لرحيلي الى انجلترا، مع وعد بمزيد من الدعم في المستقبل ووظيفة طبية في مزرعته، اخلوا سبيلي دون أسف، خاصة بعد ان ابلغتهم انني سوف اسدد لهم ديون والدتي بمجرد توفر المبلغ لدي، «وكان وعدا قبلوه ببساطة رغم انهم كانوا شبه واثقين انه لن يتحقق ابدا»، كما اكدت لهم ايضا انني سوف احافظ على الاتصال مع الاب توماس كابريولي - صديق العميد الحميم المقيم في انجلترا «وهو وعد كانوا واثقين انني سوف

احافظ عليه»

أما عن رسالة عمي، فقد كان من السهل تلفيقها. واذا كنت قد أفلحت في خداع سلطات الكازينو فلم يكن صعبا بالمرة ان أنجح في خداع الآباء الطيبين. ولم يخطر ببال أحدهم أبدا أن يطالب برؤية المظروف المختوم بخاتم البريد. وهكذا، أخذت طريقي الى انجلترا بقطار الاكسبريس الدولي، وعندما أطللت من نافذة القطار، شهدت لآخر مرة أبراج الكلية الكلاسيكية التي ظللت طفولتي.. وتراءت لي صورة المستقبل حيث كل شيء يمكن أن يكون على أحلى ما يرام، كما أثبت بالدليل الملموس في أول مغامرة لي خارج أسوار الكلية.

2

اخشى ان افقد الابعاد الملائمة لموضوعي اذا حرصت على سرد تفاصيل كل مرحلة من مراحل مسيرتي ابتداء من كازينو في مونت كارلو وانتهاء بكازينو آخر في بورتو برنس حيث وجدت نفسي مرة اخرى امتلك مالا وغارقا في حب امرأة وهي مصادفة لا تقل غرابة عن ذلك اللقاء الذي جرى فوق امواج المحيط الاطلسي بين ثلاثة اشخاص يحملون اسماء سميث، وبراون، وجونز.

ويمكن القول بايجاز انني عشت الجزء الاكبر من حياتي عيشة «من اليد للفم» فيما عدا فترة من السلام والاحترام جاءت مع الحرب. وبعض المهن التي احترفتها من النوع الذي لا يمكن ذكره او الاشارة اليه في اي طلب استخدام. وكان اول عمل حصلت عليه وكان الفضل فيه لاجادتي اللغة الفرنسية ـ في مطعم صغير بحي سوهو «لندن» حيث اشتغلت نادلا لمدة ستة اشهر. وهذا امر لم اشر اليه ابدا، كما لم اشر ايضا الى تخرجي من المطعم لأعمل في ملهى التروكاديرو بفضل شهادة خبرة مزورة منسوبة الى الاب فوكيه في باريس. وبعد بضع سنوات في التروكاديرو ارتقيت الى وظيفة مستشار لدار نشر تعليمية صغيرة، كان اصحابها يصدرون سلسلة من الادب الكلاسيكي الفرنسي ومزودة

بهوامش ذات طبيعة مكشوفة الى حد مثير. وهذا ايضا لم يجد مكانا في بيان الخبرات والمؤهلات الذي اعتدت سرده في اي طلب استخدام. وتلا ذلك اعمال اخرى لم تجد لها اماكن كذلك. غير ان الذي لا شك فيه انني اصبحت مدللا نوعا ما نتيجة الاحساس بالأمن الذي اضفاه علي عملي اثناء الحرب عندما التحقت بادارة المخابرات السياسية التابعة لوزارة الخارجية، مشرفا على اسلوب دعايتنا الموجهة الى اراضي حكومة فيشي «الموالية للألمان بعد هزيمة فرنسا وكانت عاصمتها مدينة فيشي، بدلا من باريس التي اصبحت خاضعة مباشرة للنازي» بل كان لدي سكرتيرة خاصة. وعندما انتهت الحرب كنت اريد شيئا افضل من حياة «من اليد للفم» السابقة، غير اني عشت هذه الحياة عدة سنوات اخرى حتى طرأت لي فكرة ذات يوم وانا اسير في الطرف الجنوبي لميدان بيكاديللي، عند باب واحد من تلك المعارض الفنية التي تشاهد فيها عادة لوحة تفتقر الى شجرة النسب من صنع رسام هولندي مغمور في القرن السابع عشر. او لعله كان معرضا اقل درجة ترى فيه جمعا من الكرادلة المرحين يستمتعون بوجبتهم من سمك السالمون يوم الجمعة. ولفت نظري رجل في منتصف العمر يُرتدي سترة مزدوجة الصدر مزودة بسلسلة ساعة، بدا لي من مظهره بعيدا جدا عن ان يكون له اية اهتمامات فنية. ومع ذلك فقد وقف يحملق في اللوحات. وفجأة تراءى لي انني اعرف بكل دقة ما يجري في ذهنه في تلك اللحظة.. «في سوذبي في الشهر الماضي بيعت لوحة بمبلغ مائة الف جنيه.. ان اي لوحة مصورة يمكن ان تعني ثروة ضخمة. كل المطلوب ان يكون المرء على قدر من المعرفة بحيث يعرف كيف ينتهز الفرصة». واخذ الرجل يحدق بشدة في عدد من الابقار السارحة في مرعاها كما لو كان يراقب الكرة العاجية وهي تجري بين ارقام الروليت. وانا واثق انه كان يتأمل الابقار وليس الكرادلة. فليس من السهل ان يتصور احد وجود كرادلة في مزاد سوذبي.

★★★

بعد اسبوع واحد من ذلك المشهد الخلاب في الطرف الجنوب من ميدان بيكاديللي قامرت بمعظم ما ادخرته على مدى ثلاثين عاما او تزيد لاستثمره في سيارة كرافان بمقطورة ونحو عشرين لوحة زيتية غير باهظة الثمن، يتقدم صفوفها لوحة من رسم هنري روسو، وعلى الطرف الثاني اخرى لجاكسون بولوك، وقد علقتها على احد جانبي السيارة مصحوبة بسجل يتضمن المبالغ التي دفعت في كل منها في المزادات، وتاريخ البيع. واكتريت لحسابي فنانا شابا لم يتخرج بعد ولكنه كان يستطيع تزويدي بعدد كبير على وجه السرعة من اللوحات المهورة بتوقيعات مختلفة. وكثيرا ما كنت اجلس معه وهو يرسم، واقدم له قائمة بالتوقيعات التي اقترحها لهذا اليوم. وبالرغم من ستالي بولوك ومور اللذين اثبتا انه حتى الانجلو ساكسوني يمكن ان يكون له قيمة، يحضر الى ذهني اسم مستشلوتز بالذات لأن «اعماله» رفضت ان تباع. وفي النهاية اضطررنا الى محو اسمه، واستبدلناه بتوقيع «ويل»، وقد قادني هذا الى اكتشاف حقيقة جوهرية، تلك هي ان مما يرضي المشتري ان يجد نفسه قادرا على نطق الاسم.. فيقول لأصحابه «لقد حصلت اليوم على لوحة جديدة لويل»..

وهكذا اخذت اتنقل بمقطورتي ولوحاتي من مدينة اقليمية الى اخرى، واستقر بين الحين والحين في بعض الضواحي الراقية هنا او هناك. وسرعان ما ادركت ان العلماء والنساء على حد سواء لا جدوى لهم عندي. فالعلماء يعرفون اكثر مما يجب، ونادرا ما تجد امرأة تحب المقامرة دون مشاهدة النقود وهي تكوم امام الرابح عيانا.

وفي عملي ذاك كنت احتاج المقامرين. ذلك ان النقطة الجوهرية في مدخلي كانت هكذا. هنا، على احد الجانبين ترى لوحات حققت اعلى الاسعار خلال العشر سنوات الماضية. فمن كان يتصور ان لوحة ليجير «راكبو الدراجات» او «ناظر المحطة» لروسو يمكن ان تساوي ثروة؟ وهنا على الجانب الآخر لديك فرصة لالتقاط خلفائهم والحصول على ثروة انت آخر. فاذا لم تحصل على

الثروة فأنت على الاقل ستحصل على تحفة تزين بها جدران منزلك وتتحدث عنها مع اصدقائك، وتكسب بها لقب «راعي الفنون»، ولن يكلفك كل هذا سوى... «والسعر هنا يتراوح بين ٢٠ و٥٠ جنيها، حسب نوعية البلدة» والزبون.. بل حدث ذات مرة ان بيعت لوحة تمثل امرأة برأسين ـ على طريقة بيكاسو ـ بمبلغ مائة جنيه.

ومع تزايد مهارة الشاب الذي اكتريته اصبح في وسعه ان يزودني كل صباح بنصف دستة منتقاة من اللوحات الزيتية في مقابل جنيهين ونصف لكل لوحة، ولم اكن اسرق احدا. فهو كان راضيا جدا بالحصول على خمسة عشر جنيها كل يوم. بل اني كنت اشجع موهبته الشابة. ثم اني واثق ان كثيرا من الولائم الدسمة التي اقيمت في الاقاليم كانت اكثر توفيقا وارضاء للداعين اليها بفضل عبارات الاعجاب بالذوق الرفيع الذي ابدعته اللوحات الجديدة المعلقة على الجدران! ذات يوم بعت لوحة مقلدة بتوقيع بولوك تمثل رجلا لديه مجموعة من مخلوقات والت ديزني مزروعة في حديقته وحول قرص الشمس وعلى جانبي الرصيف المجنون.. هل سببت لهذا الرجل اي ضرر؟ لقد كان المبلغ الذي دفع في حدود امكانياته، وكانت ملامحه تومض بالثقة بأنه مخلوق لا يقهر. والله وحده يعلم ما هو الخلل في حياته العملية او الجنسية الذي كان يجد التعويض عنه في اقزام والت ديزني.

وما يذكرني بلوحة اقزام والت ديزني اني تلقيت بعد نجاحي في بيعها مباشرة نداء امي.. اومنا شدتها اذا جاز ان نقول ذلك ـ على شكل بطاقة بريدية تصور اطلال قلعة الامبراطور كريستوف في رأس هاييتي، وعلى ظهرها كتبت اسمها ـ الجديد تماما بالنسبة لي. والعنوان، وجملتين: احس بأني اوشك ان ادمر نفسي.. سوف يكون جميلا لو مررت من هنا. والتوقيع كونتيسة دي لاسكوت فيليبرز.. وقد استغرقت رحلة البطاقة عدة اشهر حتى وصلت الي.

لم اكن قد رأيت امي مذ مناسبة واحدة جرت في باريس سنة ١٩٣٤. ولم

اسمع عنها شيئا طوال سنوات الحرب. واجرؤ فأقول اني ما كنت لألبي دعوتها لولا امران اثنان. الاول، انها كانت تمثل اقصى ما وصلت اليه طول حياتها، من تعبير عن امومتها. والثاني اني وجدت ان الوقت قد حان فعلا لانهاء مشروع المعرض الفني المتجول، خصوصا وان احدى صحف يوم الاحد راحت تنبش حول مصدر رسوماتي. وكان لدي الآن اكثر من الف جنيه بالبنك. فبعت المقطورة، واللوحات المقلدة الى رجل - واضح انه لم يقرأ صحيفة «البيبول» في حياته - بمبلغ خمسمائة جنيه وطرت من فوري الى كينجستون، ومن هناك الى بورتو برنس.

★ ★ ★

كانت بورتو برنس منذ سنوات قليلة مكانا مختلفا جدا، نعم، ربما كانت على نفس الدرجة من الفساد، وربما اكثر قذارة، وفيها نفس العدد الكبير من المتسولين، ولكن المتسولين كان لديهم على الاقل بعض الامل لأن السياح كانوا هناك. اما الآن، فعندما يقول لك رجل ما «انا اموت جوعا»، فمن السهل ان تصدقه.

ولعلني تساءلت ماذا تفعل امي في فندق تريانون، وما اذا كانت تعيش هناك على معاش مربوط من الكونت - هذا اذا كان هناك كونت على الاطلاق - او لعلها كانت مجرد مديرة منزل - فان آخر مرة رأيتها فيها سنة ١٩٣٤ كانت تعمل بائعة في بوتيك صغير، وكانت موضة تلك الايام في باريس ان تستخدم فتاة انجليزية. وكانت تسمي نفسها حينذاك ماجي براون.. «من يدري، ربما كان اسم زوجها براون فعلا».

ومن باب الحذر الواجب اخذت حقائبي الى فندق «الرانشو»، وهو فندق فاخر على الطراز الاميركي. كنت اريد ان استمتع بقدر ما تسمح نقودي، ولم اجد في المطار احدا يفيدني بأي شيء عن التريانون. وبينما كانت السيارة تدرج

بي بين صفي اشجار النخيل بدا لي مكانا مهمـلا لا يجد من يعتني بـه. كـانت اشجار "البونيفيلا تحتاج الى تشذيب، والاعشاب تنمو متطاولـة على الطـريق. في الشرفة كان هناك عدد قليل من الرواد ـ عـرفت من بينهم فيما بعـد بيتي بيير، وان كنت عرفت ايضا انه يدفع ثمن شرابه من قلمه، وليس من جيبه. استقبلني على الدرج شاب زنجي انيق سائلا مـا اذا كنت اريـد غـرفـة للمبيت فقلت اني اتيت لمقابلة السيدة الكونتيسة.. ولم استطع تذكر اسمها المعقد.

ـ اخشى انها مريضة. هل هي تتوقع مجيئك؟

خرج من حوض السباحة فتى وفتاة صغيران بثياب السباحة. قال الشـاب وهو يحيط كتفي الفتاة بذراعه·

ـ هيا يا مارسيل.. اتحفنا بكأسين من شرابك المخصوص.

نادى الزنجي·

ـ جوزيف.. اثنان روم لمستر نيلسون.

ثم التفت الي ليستكمل استجوابه. قلت بسرعة.

ـ قل لها مستر براون هنا.

ـ مستر براون؟

ـ اجل.

ـ سأرى ما اذا كانت مستيقظة..

ثم تـردد لحظة قبل ان يسأل

ـ هل انت من انجلترا؟

ـ اجل.

ظهر جوزيف قادما من ناحية البار وبين يديه كأسا الروم.. لم يكن يعرج في تلك الايام. كرر مارسيل سؤاله.

ـ مستر براون من انجلترا؟

ـ اجل.. مستر براون قادم من انجلترا.

صعد الدرج وهو اقرب الى النزول، بينما اخذ العدد القليل من الغرباء بالشرفة يتطلعون نحوي بفضول، فيما عدا الفتى والفتاة اللذين راحا يتبادلان حبات الفراولة بشفاههما.

سألني الرجل الذي عرفت فيما بعد انه بيتي بيير.

ـ هل انت قادم من انجلترا؟

ـ اجل.

ـ من لندن؟

ـ اجل.

ـ هل الجو بارد جدا في لندن الآن؟

كان سؤاله اقرب الى اسئلة البوليس السري. ولكن لم يكن هناك شرطة سرية في تلك الايام.

ـ كانت تمطر حينما غادرت لندن.

ـ لم أر لندن في حياتي الا مرة واحدة، ولمدة ساعتين.

وفي اليوم التالي عرفت سر اهتمامه بي ـ فقد وجدت فقرة عني في باب الاجتماعيات بالصحيفة المحلية.

★ ★ ★

قال الفتى لصاحبته ذات المايوه البكيني.

ـ ضرباتك الخلفية تقدمت بشكل ملموس.

ـ أوه يا تشيك.. هل تعني ذلك حقا؟

ـ بالتأكيد يا حبي..

جاء رجل زنجي ارتقى السلم حتى منتصفه، رانعا بين يديه تمثالين بشعي المنظر من الخشب. لم يلتفت اليه احد، ولكنه ظل واقفا في مكانه رافعا التمثالين دون ان ينطق بحرف.. لم انتبه حتى الى انصرافه.

نادت الفتاة.

ـ جوزيف.. ماذا لديك للعشاء؟

اقبل رجل يحمل جيتارا ودار في الشرفة حتى انتهى به الطواف الى مائدة الحبيبين فجلس قريبا منها وراح يعزف. لم ينتبه اليه احد هو الآخر. وبدأت انا احس بالضيق.. ولعلني كنت اتوقع ترحيبا اكبر في دار امي.

اخيرا جاء زنجي آخر اكبر سنا، بوجه روماني سوده غبار المدينة وشعر غبره الزمن. نزل الدرج وفي ذيله مارسيل. قال:
ـ مستر براون؟

ـ اجل.

ـ انا الدكتور ماجيوت. هل يمكن ان تصحبني الى البار لحظة؟

دخلنا الى البار.. كان جوزيف هناك يمزج الروم لبيتي بيير وصحبه. وظهر طاه بقبعته البيضاء العالية على الباب ولكنه ما لبث ان ارتد على اعقابه عندما لمح الدكتور ماجيوت. وسكتت فتاة خلاسية رائعة الجمال عن حديثها مع

جوزيف لدى دخولنا، وخرجت الى الشرفة وبين يديها بضعـة مفـارش لتغطيـة الطاولات.

قال الدكتور ماجيوت:

ـ هل انت ابن السيدة الكونتيسة؟

قلت نعم.. وكأنما لم افعل شيئا منذ وصولي سوى الاجابة على اسئلة.

ـ لا شك ان والدتك مشتاقة الى رؤياك. ولكن اردت اولا ان انبهك الى بضـع حقائق معينة. الانفعال خطر عليها. فأرجو عندما تراها ان تكـون رقيقـا جـدا.. وألا تطلق العنان لعواطفك.

ابتسمت قائلا

ـ لم يحدث ابدا ان اطلقنا العنان لعواطفنا.. ماذا بها يا دكتور؟

ـ لقد جاءتها ازمة قلبية للمرة الثانية. والغريب انها لا زالت على قيد الحياة.. انها سيدة فريدة فعلا.

ـ ألا يحسن بنا ان.. ندخل؟

ـ لا داعي للخوف يا مستر براون. ان القلب هو اختصاصي، ولن تجد احـدا اكفأ مني في هذا المجال من هنا حتى نيـويـورك.. بـل اشك في انك ستجـد ذلك الاكثر كفاءة في نيويورك ايضا.

لم يبد لي انه يتباهى وانما هو يقرر حقيقة لأنه اعتاد ان يكـون مـوضـع شك من البيض، واضاف مفسرا:

ـ لقد تدربت في باريس تحت رعاية تشاردان.

ـ ألا يوجد اي أمل؟

ـ من الصعب ان تتحمل ازمة ثالثة. والآن، تصبح على خير يا مستر براون. لا تبق معها اكثر مما يجب . ويسرني انك تمكنت من المجيء، فقد كنت اخشى ألا يكون لها احد يمكن الاتصال به.

ـ انها لم ترسل لي بالمعنى الحرفي للكلمة.

ـ ربما نستطيع ذات مساء ان نتعشى سويا. لقد عرفت والدتك لسنوات كثيرة.. مع كل احترامي

قال هذا وهو يمنحني تلك الايماءة برأسه التي ينهي بها امبراطور روما لقاءاته. واضح انه لم يكن متواضعا بحال من الاحوال. وانما هو يعرف قدره بالضبط.

قال لمارسيل «اسعد الله مساءك يا مارسيل» ولكنه لم يمنحه تلك الايماءة. ولاحظت انه حتى مع بيتي بيير تركه يمضي دون تحية او سؤال. واحسست بالخجل لأنني تصورت رجلا بهذا القدر على محمل آخر.

قال مارسيل:
ـ هل تتفضل بالصعود للدور الثاني يا مستر براون؟

سرت في اثره. الجدران تزينها صور من صنع فنانين هايتيين. تكوينات صامة تجمدت حركتها وسط الوان زاهية ثقيلة مصارعة ديكة، احتفال فودو «السحر الاسود»، غيوم سوداء فوق قمة كينسكوف، اشجار موز عاصفة الاخضرار، الحراب الزرقاء لقصب السكر، واعواد الذرة الذهبية..

فتح مارسيل الباب ودخلت ليصدمني شعر امي المنسدل على الوسادة، بلون احمر فاقع لا وجود له في الطبيعة، ومنتشر بغزارة على جانبيها فوق السرير المزدوج الكبير.

ـ اهلا عزيزي..

قالت ذلك كأنني جئت لأزورها من الطرف الآخر بنفس المدينة. استطردت:

ـ جميل منك ان تأتي لتراني..

قبلت جبهتها العريضة كأنها حائط طلي لساعته بدهان ابيض. وبالفعل علق بعض البياض بشفتي. وكنت ادرك ان مارسيل لا زال واقفا يراقب.

قالت، وكأنها تسأل عن قريبة لها من بعيد. لا يعنيها امرها كثيرا:

ـ وكيف حال انجلترا؟

ـ كانت تمطر حينما غادرت.

قالت عرضا:

ـ ابوك لم يكن يتحمل طقس بلاده ابدا.

كان من يراها يحسبها لم تصل بعد الى الاربعين من عمرها، وانا شخصيا لم ار فيها اية علامات تدل على المرض، اللهم الا بعض الخطوط المشدودة في الجلد المحيط بفمها.. نفس الخطوط التي لاحظتها على فم المسافر الصيدلاني بعد ذلك بسنوات طويلة. رفعت رأسها الى مارسيل قائلة:

ـ مارسيل.. هات كرسيا لولدي.

شد كرسيا من جنب الجدار بحركة بادية التأفف.غير اني عندما جلست عليه كنت لا ازال بعيدا عن امي بقدر بعد الفراش العريض.. كان فراشا خاليا من الحياة، لم يهيأ الا لغرض واحد لا غير، ومزودا بدرج حلزوني مذهب لعله كان اكثر ملاءمة لغانية في قصة حب تاريخية منه لسيدة عجوز على عتبة الموت.

سألتها:

ـ هل هناك كونت حقيقة يا امي؟
أجابتني بابتسامة ذكية:

ـ انه جزء من الماضي السحيق.

وتركتني غير واثق هل تريد بهذه العبارة ان ترثيه ام لا، وتوجهت بالحديث الى مارسيل قائلة:

ـ مارسيل.. ايها الاحمق. تستطيع ان تتركنا وحدنا في سلام.. قلت لك انه ولدي.. ابني.

عندما اغلق مارسيل الباب قالت لي امي بلهجة راضية:

ـ انه غيور بشكل سخيف..

ـ من يكون؟

ـ انه يساعدني في ادارة الفندق.

ـ لا اظن انه هو الكونت بأية حال؟

أجاب بلهجة آلية:

ـ يا شقي!!

كان واضحا ان الفراش ـ او ربما الكونت ـ قد اضفى عليها سمات القرن الثامن عشر المستنيرة.. المفرطة في التساهل.

ـ ولماذا يغار اذن؟

ـ ربما يعتقد انك لست ابني حقيقة.

ـ تعنين انه عشيقك؟

وتساءلت بيني وبين نفسي ترى ماذا يكون رأي ابي المجهول ـ الذي كان يسمى كما قيل لي براون ـ في خليفته الزنجي؟

ـ اراك تبتسم يا عزيزي؟

ـ انت امرأة رائعة يا امي.

ـ لقد واتاني بعض الحظ في النهاية.

ـ هل تعنين مارسيل؟

ـ اوه.. كلا. انه ولد طيب. هذا كل ما في الامر. ولكني اعني الفندق. انه اول شيء حقيقي امتلكه في حياتي.. وليس هناك رهونات. حتى الاثاث تم دفع ثمنه بالكامل.

ـ والصور؟

ـ انها للبيع طبعا. وأنا اتقاضى عمولة.

ـ هل كان حكم من المحكمة هو الذي...

ـ اوه.. كلا.. الامر ليس كذلك ـ انا لم اكسب شيئا من الكونت سوى لقبه. ولم يخطر ببالي ابدا ان اتأكد من صحة اللقب في روزنامة جوتا لأصحاب الالقاب. كلا يا عزيزي ـ كان هذا ضربة صغيرة من الحظ الحسن. فقد كان يعيش في بورتوبرنس شخص معين يدعى ديشو، وكان يؤرقه جدا موضوع الضرائب. ولما كنت اعمل لديه في ذلك الحين بصفة سكرتيرة، فقد سمحت له ان يكتب الفندق باسمي.. وطبعا كان المفروض ان يؤول المكان اليه وفقا لوصيتي. ولما كنت في الستين، وهو في الخامسة والثلاثين فقد كان الامر آمنا جدا بالنسبة له.

ـ وكنت موضع ثقته؟

ـ هو كان على صواب عندما وثق بي يا عزيزي. ولكنه اخطأ عندما حاول ان يقود سيارته المرسيدس الرياضية على الطرق التي لدينا هنا.. ومن حسن الحظ انه لم يقتل الا نفسه.

ـ وهكذا استوليت على الفندق؟

ـ اؤكد لك ان ذلك كان اولى بأن يسعده جدا. فأنت لا تتخيل كم كان هذا الرجل يمقت زوجته. كانت زنجية ضخمة الجثة لم تنل حظا من التعليم. وبالتالي فلم تكن تستطيع ان تدير هذا المكان كما يجب. وطبعا، بعد وفاته كان لا بد لي من ان اغير الوصية. فلو ان اباك على قيد الحياة لكان هو وريثي الطبيعي. وبالمناسبة، انا تركت للآباء الجزويت مسبحتي وكتاب صلواتي. في الواقع انا لم اكن راضية تماما عن سلوكي في تعاملي معهم. ولكني كنت في ضائقة مالية شديدة في ذلك الحين. وابوك كان خنزيرا..

ـ اذن هو مات؟

ـ لدي اكثر من سبب لاعتقد ذلك، ولكن لا دليل لدي، فالناس الآن يعمرون طويلا.. على اية حال.. الله يرحمه!

ـ قبل قليل، كنت اتحدث مع طبيبك.

ـ الدكتور ماجيوت؟ كم كنت اتمنى ان القاه عندما كان اصغر سنا.. انه رجل بمعنى الكلمة.. أليس كذلك؟

ـ يقول انك لو التزمت الهدوء..

هتفت وهي تبتسم في شبه اعتذار.

ـ ها أنذا ممددة على الفراش.. ولا استطيع ان افعل اكثر من ذلك لكي

•إسعده! هل استطيع؟ هل تعلم ان الرجل الطيب سألني ما اذا كنت اريد كّاهنا فقلت له: «ولكن من المؤكد يا دكتور ان اعترافا طويلا سوف يكون شديد الاثارة ويسبب لي انفعالات اكثر مما احتمل الآن بكل ما ...يجدده من ذكريات.. هل تسمح يا عزيزي فتفتح الباب قليلا.

اطعتها. ووجدت الدهليز خاليا. ومن تحت جاءت صلصلة السكاكين والملاعق وصوت نسائي يقول: اوه يا تشيك.. هل تعتقد اني استطيع ذلك فعلا؟

ـ شكرا يا عزيزي. فقد كنت اريد ان اتأكد. هل تسمح فتناولني فرشاتي؟ شكرا للمرة الثانية، يا سلام.. ما اروع ان يكون لامرأة عجوز ولد بجانبها.

وتمهلت لحظة، كأنما كانت تتوقع مني كلمة مجاملة، مثل اي عاشقة محترفة تناقض بها حقيقة عمرها. ثم اضافت بلهجة لم تخل من خيبة الامل، بينما هي تمشط شعرها المنكوش الغزير.

ـ كنت اريد ان اتحدث معك بخصوص الوصية.

أليس الافضل ان تستريحي الآن؟ لقد قال لي الطبيب ألا امكث طويلا.

ـ آمل ان يكونوا قد خصصوا لك غرفة جيدة. فبعض الغرف قد تكون شبه عارية بسبب الافتقار الى السيولة.

ـ انا تركت حقائبي في فندق الرانشو.

ـ ولكن.. ولكن يجب ان تنزل هنا يا عزيزي.. الرانشو.. كلا.. لا يجوز ان نروج لذلك الماخور.. على اية حال هذا ما كنت اريد ان احدثك بشأنه. هذا الفندق سوف يكون فندقك يوما ما. فقط انا أردت ان اشرح لك الامر. فالقانون معقد جدا، وعلى المرء ان يتخذ جميع الاحتياطات.. والفندق على شكل اسهم.

وقد تركت لمارسيل الثلث. سيكون مفيدا لك جدا اذا عاملته جيدا. وانا يتعين علي ان افعل شيئا له. أليس كذلك؟ في الحقيقة هو كان اكثر من مجرد مدير. انت تفهم ولا شك. انت ولدي ولا بد ان تكون فاهما.

ـ نعم . انا افهم.

ـ وانا سعيدة بوجودك هنا. كنت اريد بالفعل ألا تكون هناك اية ثغرة.. ولا تستهين ابدا بمحام من هايتي عندما يكون الامر له علاقة بوصية. سوف اخبر مارسيل انك ستتولى الادارة الفعلية. وكل ما ارجوه ان تكون لبقا في معاملتك له.. وكن طيبا معه.. فمارسيل حساس جدا.

ـ ارجوك يا ماما.. اهدئي الآن.. وليتك تتركين التفكير في الامور العملية الآن.. حاولي ان تنامي.

ـ يقولون انه لا راحة حقيقية الا مع الموت.. وانا لا ارى جدوى من انتظار الموت.. انه امر يطول.

وضعت شفتي على الحائط المدهون بالطلاء الابيض. اغلقت عينيها كعلامة مصطنعة تعبر عن الحب. وخطوت مبتعدا عنها على اطراف اصابعي حتى اذا ما وصلت الى الباب فتحته بهدوء شديد حتى لا ازعجها، فجاءتني ضحكتها مجلجلة من فراشها وهي تقول:

ـ حقا.. انت ولدي.. طالع لي تماما. ما هو الدور الذي ستلعبه الآن!

كان هذا آخر ما سمعته منها. وحتى اليوم لا استطيع ان افهم بالضبط ما كانت تعنيه بهذه الكلمات.

★ ★ ★

استقليت تاكسيا الى فندق الرانشو، ومكثت هناك حتى العشاء. وكان المكان مزدحما. على حافة حوض السباحة كان هناك بوفيه للطعام الهايتي المكيف بعناية ليوافق المزاج الاميركي.. وثمة رجل ممصوص القوام يحمل على رأسه طرطورا يضرب على طبلة هايتية ضربات اسرع من البرق. وفي هذه اللحظة بالذات في اول مساء لي في هايتي ولدت بذهني فكرة ان اجعل من التريانون نجاحا مشهودا. وكان حتى حينذاك مجرد فندق من الدرجة الثانية، من النوع الذي يتعامل معه عادة اصحاب الوكالات السياحية الصغيرة. وكان من حقي ان اشك في ان اربـاحه يمكن ان تكفيني انا ومارسيل معا. وكنت مصمما على النجاح.. كأعظم ما يكون.. وسيأتي اليوم الذي اسعد فيه بتحويل الزبائن الذين يضيق بهم المكان الى فندق الرانشو، مع بطاقة توصية.

وكان من الغريب فعلا ان يتحقق حلمي في وقت قصير. وفي غضون ثلاثة مواسم فقط استطعت ان احول المكان المهلهل الى ملتقى الطبقة الراقية في بورتو برنس. وفي غضون ثلاثة مواسم اخرى شهدته وهو يعود الى الموت.. حتى اصبح الآن لا نزلاء فيه سوى آل سميث في جناح جون باريمور بالطابق العلوي، ومعالي الوزير الميت في حوض الاستحمام!

دفعت الحساب، واستقليت تاكسيا ليعود بي نازلا من التل، حتى خطوت داخلا الى المكان الذي بدأت اعتبره بالفعل من ممتلكاتي الخاصة. وغدا، سأراجع كل الحسابات مع مارسيل. وسأستعرض كل العاملين، وسأمسك بزمام الامور. ووجدت نفسي ادبر الخطط لكي اتخلص من مارسيل. ولكني اقتنعت بأن هذا يجب ان ينتظر حتى تنتقل امي الى مثواها الاخير.

كانوا قد اعدوا لي حجرة واسعة في نفس الطابق الذي تقيم فيه. الاثاث كله كما تقول تم سداد ثمنه. ولكن خشب الارضيات يحتاج الى تجديد، فهو يتلوى

ويخرج اصواتا كلما خطوت فوقه. اما الشيء الوحيد الذي له قيمة فكأن السرير الوثير من الطراز الفيكتوري بزخارفه النحاسية اللامعة.. كـان واضحـا ان امي لها ذوق خاص معّ الاسرة! ولا انسى ابدا ان هذه كانت اول ليلة في حياتي انـام فيها على سرير، مع وجبة الافطار دون ان ادفع شيئا، دون ان اوقع على فاتورة دين مثلما كان الحال في كلية الجزويت. ولقد ملأني هذا الاحساس بـالـرضـا فرحت في سبات عميق لم يوقظني منه سوى دقات ناقوس عتيقة ليخرجني من حلم عجيب.. لا ادري كيف تراءى لخيالي ـ عن ثورة البوكسر!!

راح الجرس يدق بلا انقطاع كأنه جرس سيارة مطافىء. وضعت الروب على اكتافي وفتحت الباب. في نفس اللحظة فتح باب آخر في نفس الدهليز، وظهر منه مارسيل بوجهه الزنجي المفرطح وعينين نصف نائمتين وبيجـامـة حـريـريـة حمراء. تردد لحظة ولكنها كانت كافية لكي ألمح حـرفي ميم والف مطـرزين على جيب الصدر.. ولعلني تساءلت للحظـة خـاطفـة مـاذا يعني حـرف الالف حتى تذكرت ان أمي كان اسمها ايفيت.. فهل كانت البيجاما هـديـة عـاطفيـة؟ اغلب الظن لا. والارجح ان الحرفين المطرزين يمثلان نـوعـا من التحـدي من جـانب والدتي. فهي كانت تتمتع بدرجة عالية من حسن الذوق. ومارسيل على اية حال كان يبدو انيقا في الحريـر الاحمر الـزاهي.. وهي شخصيـا لم تكن صغيرة الى الحد الذي يجعلها تأبه بما يقوله عنها سياح الدرجة الثانية.

رآني، وانا اراقبه، فقال في شبه اعتذار:

ـ انها تريدني..

وسار ببطء.. وخيل الي انه يذهب رغم انفـه، حتى اذا مـا وصـل الى بـاب حجرتها فتحه ودخل.. لاحظت جيدا انه لم يطرق الباب قبل الدخول.

★★★

عندما عدت للنوم تراءى لي حلم غريب ـ اكثر غرابة من ثورة البوكسر. رأيت نفسي اسير على ضفة بحيرة في ضوء القمر وانا في زي مرتلي القداس. واحسست بجاذبية المياه الساكنة تشدني اليها حتى ان كل خطوة اخطوها كانت تقربني للحافة، وحتى بلغت المياه الجزء العلوي من حذائي الاسود الطويل. واذا بريح تهب، واذا بسطح الماء يرتفع بفعل موجة عالية، ولكن بدلا من ان تقبل الموجة نحوي اقفلت راجعة في الاتجاه المضاد لتنحسر المياه القهقرى حتى وجدت نفسي اسير على حصباء جافة بينما البحيرة تظهر كمجرد خيط لامع في الافق البعيد الذي تفصلني عنه صحراء من الحصى الصغيرة التي كان يؤلمني الخطو عليها بحذائي المثقوب.

واستيقظت من النوم فجأة على هرج وصخب شديد امتد من السلالم الى الدهاليز في جميع ارجاء الفندق.

كانت السيدة الكونتيسة.. امي، قد ماتت.

★ ★ ★

كنت مسافرا خفيف المتاع، وحلتي الاوروبية كانت أثقل من ان تسمح لي بارتدائها. فلم يكن امامي سوى اختيار واحد من قميصين رياضيين لارتديه في حفل الجناز، واستقر الاختيار على قميص كنت قد اشتريته من جامايكا. كان قرمزي اللون، مغطى بجمل مطبوعة مأخوذة عن كتاب صدر في القرن الثامن عشر حول اقتصاد الجزيرة، وكانوا قبل وصولي قد اعدوا جسد امي، وها هي ممددة الآن على ظهرها في ثوب وردي شفاف وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة رضا دفين، بل رضا شهواني، ولكن مساحيقها كانت قد تعجنت نوعا ما بفعل الحرارة ولم اكن استطيع تقبيل الرقائق المجففة. وكان مارسيل واقفا الى جوار الفراش، في حلة كاملة السواد، ووجهه مبلل بالدموع كأنه سقف اسود تحت عاصفة ممطرة. وقد كانت كل فكرتي عنه انه آخر مغامرات والدتي

المتطرفة، ولكنه لم يكن صبي النساء «الجيجولو» المعهود الذي قال لي في لهجة بالغة الكرب:

ـ لم تكن غلطتي يا سيدي. لقد قلت لها مرة بعد مرة كلا.. انت لست قوية بما فيه الكفاية. انتظري قليلا.. سيكون افضل ـو انتظرت..

ـ وماذا قالت؟

ـ لم تقل شيئا.. ولكنها ازاحت عنها الملاءات.. وانا عندما اراها كذلك لا بد ان يتكرر نفس الشيء.

وتحرك ليغادر الغرفة وهو يهز رأسه كأنما ليزيح المطر عن عينيه، ثم اسرع عائدا، ليبحثوا عن ركبتيه عند الفراش ويغوص بفمه في الملاءة الملفوفة حول وسطها.. وبقي هناك هكذا في حلته السوداء كأنما هو كاهن زنجي يمارس بعض الطقوس الغريبة.. وكنت انا، ولست هو، الذي غادرت الغرفة، وكنت انا الذي ذهبت الى المطبخ لأهيب بالخدم كي يعدوا الفطور للنزلاء «حتى الطاهي كان يشرق بالدموع»، وكنت انا الذي استدعي الدكتور ماجيوت بالهاتف ليحضر في الحال «كان الهاتف لا يتوقف عن الحياة كثيرا في تلك الايام».

قال لي الدكتور ماجيوت فيما بعد «انها كانت سيدة عظيمة» ولم استطع ساعتها الا ان اقول

«اني لم اعرفها جيدا».

في اليوم التالي اخذت اقلب في اوراقها بحثا عن الوصية.. وواضح انها لم تكن تعنى بترتيب اشيائها. فأدراج مكتبها كانت غاصة بدون تمييز بمئات الفواتير والايصالات بغير انتظام وفي حالة فوضى حتى بالنسبة للتواريخ والسنوات. حتى لتجد وسط كومة من فواتير المغسلة ما يمكن ان تسميه «بطاقة دعوة ناعمة».. احداها مثلا وكانت على ظهر قائمة طعام ومكتوبة بقلم رصاص

باللغة الانجليزية تقول: «ايفيت.. تعالي لي الليلة.. انا اموت ببطء. واحترق شوقا الى لمسة حب». ترى هل كانت من احد رواد الفندق؟ ثم لماذا احتفظت بهـا؟ امن اجل الدعوة ام من اجل القائمة التي كانت بالفعل بمناسبة خاصة، هي الاحتفال بعيد ١٤ يوليو؟

في درج آخر ـ كان على نقيض الاول ـ يحتوي تشكيلة من انـابيب الصمـغ ودبـابيس الـرسم ودبـابيس المشبك، ومشـابك الـورق وعبـوات اقـلام الحبر. ووجدت علبة صغيرة من الصيني استعصى علي فتحها، ومع انها كانت خفيفـة الا اني عندما هززتها وجدت شيئا ما بداخلها. وبالطبـع، كـان من الحماقـة ان القيها ضمن المهملات، فكسرتها عنوة واذا بي اجد بطاقة روليت معدنية من فئة الخمسة فرنكات، تماما مثل تلك التي اعطيتها لصندوق التبرعات بـالكليـة منـذ عشرات السنين.. وكذلك ميدالية قديمة فقـدت بـريقهـا مـع السنين ومـدلاة من شريط. لم استطع تبين ما هي حتى اطلعت الدكتور ماجيوت عليها فقـال: انهـا ميدالية المقاومة «الفرنسية» وكانت تلك هي المناسبة التي ادلى فيها بقوله «انهـا كانت سيدة عظيمة».

ميدالية المقاومة؟ انا في الحقيقة لم يكن لدي اي اتصال بأمي طوال سنـوات الاختلال. فهل حصلت عليها بحق، ام «اقتبستها»؟ ام اهداها اياها شخص آخـر تذكارا لحالة حب؟

واذا كان الدكتور ماجيوت لم يساوره اي شك، فالحق انني وجدت صعوبة في ان اتصور امي في دور البطلة. وان كنت لم اشك بالمرة في انها كـان يمكن ان تمثل هذا الدور تماما مثلما تمثل دور العاشقة المتيمة مع السياح الانجليز. فقد اقنعت اباء الجزويت الافاضل بطهارتها وتقواها رغم تاريخها المـريب في مـوت كارلو، ومع اني لم اعرف عنها سوى القليـل، الا ان هـذا القليـل كـان كـافيـا

لاعتمادها كممثلة كوميدية اصيلة.

على اية حال، مع ان اوراقها لم تكن مرتبة، الا ان وصيتها كـانت على عكس ذلك تماما، وقد وقعت عليها باسم الكـونتيسـة دي لاسكـوت فيليبرن، وشهـد عليها الدكتور ماجيوت، وقـد حـولت فنـدقهـا الى شركـة محدودة، وخصصت سهما اسميا لمارسيل، وآخر للدكتور ماجيوت، وكـذلك سهما ثـالثـا لمحـاميهـا المدعو الكسندر ديبوا، واحتفظت لنفسها بالسبعة والتسعين سهما البـاقيـة، كما احتفظت ايضا بالاسهم الثلاثة المرفقة بنفس الوثيقة، وهكـذا اصبحت الشركـة تملك كل شيء حتى آخـر ملعقـة وشـوكـة، واصبحت انـا املك خمسـة وستين سهما، ومـارسيـل يملك ثـلاثـة وثـلاثين. غير اني بكـل المقـاييس كنت املك التريانون، وبوسعي ان احقق فورا الحلم الذي تراءى لي في الليلـة السـابقـة، او على الاقل بقدر ما يسمح به التعطيل الذي تفرضـه تـرتيبـات الـدفن السريعـة بالطبع بسبب ظروف المناخ.

وفي هذه الترتيبات اثبت الدكتور ماجيوت انه رجـل لا يقـدر بثمن. فقـد تم نقلها في نفس المساء الى المقبرة الصغيرة الملحقة بقرية كينسكوف الجبلية، حيث دفنت وفقـا للطقـوس الكـاثـوليكيـة وسط عشرات من القبـور الصغيرة، وراح مارسيل يبكي بلا خجل على قبرها الذي بدا اشبه بحفرة حفرت لتصريف المطـر في احد شوارع المدينة، وحولها في كل مكان تلك البيـوت الصغيرة التي اقـامهـا اهل هاييتي لموتاهم، ويتركون فوقها خبزهم ونبيذهم في عيد كل القديسين.

بينما كانت زخات التراب الاحتفالية تأخذ اماكنها فـوق النعش الـذي يضم جسد امي، كنت انا افكر في افضل الوسائل للتخلص من مارسيل. كنـا في هـذه اللحظة واقفين تحت خيمة كالحة السواد من الغيوم بلون الحبر التي اعتـادت ان تتجمع دائما في هذا الوقت فوق الجبل. واذا بها تنفجر فوقنا بسيل من الغضب

الرشاش، فجرينا الى تاكسياتنا وفي مقدمتنا الكاهن، وفي مؤخـرتنـا اللحـادون. ولم اكن اعرف حينذاك ان هذا يعني انهم لن يعودوا لاهالة التراب فـوق النعش الا في الصباح، لأن المقبرة لا يعمل بها احد بالليل، الا اذا كان عفريتا خـرج من قبره بناء على اوامر ملك الجان للعمل اثناء ساعات الظلام.

في ذلك المساء دعاني الدكتور ماجيوت الى العشـاء في منـزلـه، واضــاف الى العشاء قدرا كبيرا من النصائح الغالية التي كنت من البلاهة بحيث اغفلتها لأني تصورت انه ربما كان لديه فكرة لأن ينقل ملكية الفندق الى زبون آخـر.. ولقـد كان السهم الوحيد الذي يمتلكه في شركة والدتي هو الذي جعل الشك يساورني بالرغم من ان ورقة التحويل الموقعة من امي كانت بحوزتي.

كان الدكتور ماجيوت يقيم على تخوم ضاحية بيشونفيل في بيت من ثـلاثـة طوابق كأنه صورة مصغرة من فندقي بالبرج العالي وشرفاته المزينـة بـالعقـود المطرزة. وفي الحديقة كانت هناك شجرة صنوبر مدببة الطرف كأنها صـورة في رواية من العصر الفيكتوري. ولعل الشيء الوحيد المعاصر في الحجرة التي جلسنا فيها للعشاء كان جهاز التليفون، وقد بدا فعلا كنغمة نشاز في متحف متنـاسق. فقد كان كل ما بالغرفة كأنما يتحدث عن عصر غير هذا العصر..

الستائر القرمزية الثقيلة، والمفارش الصوفية على الموائد المتناثرة مـع ثنيـات على كل طرف، وتحف الصيني الصغيرة على رف المدفأة التي لا لزوم لها، ومن بينها كلبان لهما نفس النظرة الوديعة التي يتميز بهـا الـدكتـور مـاجيـوت، ثم صورتان لوالدة الدكتور «بالالوان على حرير بنفسجي زاهي اللون في بـروازين بيضاويين»، والكتب الادبية في دولاب بواجهة زجاجية «كان الدكتور مـاجيـوت يحتفظ بكتبه الطبية في غرفة العيادة». وقد رحت اتفحصهـا عنـدمـا خـرج من الغرفة «ليغسل يديه» كما قال بلغة انجليزية مهذبة. كان هنـاك «البؤسـاء»، في

ثلاثة اجـزاء، و«اسرار بـاريس» نـاقصـة الجـزء الاخير، والعـديـد من قصص جابوريو البوليسية، وحياة المسيح لرينان، واعجب من هذا كله، كان هناك رأس المال لكارل ماركس مجلدا بنفس التجليـد التقليـدي العتيق حتى لا يكـاد المـرء يتبينه من «البؤساء». وكان المصباح المضيء تحت كوع الـدكتـور يضفي ظـلالا وردية خافتة على المكان.. ويتفق تماما مع الحكمة.. لأن التيار الكهـربـائي حتى في تلك الايام كان غير منتظم.. فقد كان مصباحا يعمل بالزيت.

سألني الدكتور ماجيوت:

ـ هل تنوي حقا ادارة الفندق؟

ـ لماذا لا؟ ان لـدي بعض الخبرة في اعمال المطـاعم واستطيـع ان استشرف امكانيات عظيمة للتحسين.. ولكن امي فيما يبدو لم تكن تعنى كثيرا بالعمل على المستوى الفاخر.

ردد عبارتي الاخيرة.

ـ المستوى الفـاخـر؟ لا اظن انك تستطيـع ان تعـول على ذلك كثيرا في هـذا البلد.

ـ بعض الفنادق تستطيع كما ارى..

ـ سنوات الرخاء لا تدوم. ولن يمضي وقت طويل حتى تجرى الانتخابات.

ـ لن يختلف الامر كثيرا ايا كان الطرف الفائز..

ـ لن يختلف بالنسبة للفقراء. ولكن بالنسبة للسياح حتما سيختلف.

قال هذا وهو يضع الى جانبي طبقا صغيرا بـدلا من مطفـأة السجـائر التي

كانت بالتأكيد ستبدو نشازا في هذه الايام الخـوالي. ولاحظت انـه يتعـامـل مـع الطبق المزين بالزهور، برقة بالغة كما لو كان مصنوعا من الخزف الصيني.

★ ★ ★

كان رجلا ضخما جدا، واسود حالك السواد، ولكنه كـان ينطـوي على قـدر هادئ من الدعـة ورقـة الاحسـاس، الى درجـة انـه لا يمكن ان يسيء حتى الى جماد حتى ولو كان مقعدا في غير مكانه، ولـم يكن هنـاك شيء يمثـل بـالنسبـة لرجل مثل الدكتور ماجيوت وكأنه نوع من التمرد سوى جهـاز الهاتف ومـع ذلك، فعندما ارتفع رنينه رفع السماعة برفق شديد كأنما لو كـان يـرفـع ذراع احد مرضاه. قال

ـ هل سمعت عن الامبراطور كريستوف؟

ـ بالتأكيد.

ـ تلك الايام يمكن ان تعود بكل سهولة. وربما على نحو اكثر قسوة. ولكنها يقينا ستكون اكثر حقارة.. ولينقذنا الله من كريستوف صغير.

ـ لا يستطيـع احـد ان يخيف السيـاح الاميركيين فـأنتم في حـاجـة الى دولاراتهم.

ـ عندما تعرفنا اكثر، ستعرف اننا لا نعيش هنا على المال، وانما على الديون. والمرء قد يسعده ان يقتل دائنه ولكن احدا لا يقتل المدين!

ـ من الذي تخشاه؟

ـ انا اخشى طبيبا ريفيا معينـا.. قـد لا يعني اسمـه اي شيء بـالنسبـة لك اليوم. ولكني ارجو ألا يأتي يوم تراه فيه باسطا جناحيه فوق المدينة وسط هالة

من الاضواء. ولو حدث وجاء هذا اليوم فاني اعدك من الآن ان اختفي تحت الارض.

وكانت هذه اول نبوءة لم تتحقق للدكتور ماجيوت. ويبدو انه لم يكن يقدر جيدا حجم عناده، او حجم شجاعته. والا لما كنت فيما بعد رحت انتظره مطمئنا على حافة حوض السباحة حيث كان الوزير السابق ما زال مكوما كذبيحة في ثلاجة دكان جزار.. ويومها سألنى فجأة:

ـ ومارسيل؟ ماذا تنوي بشأنه؟

ـ لم اقرر بعد. لا بد لي غدا من كلمة معه. هل تعرف انه يملك ثلث الفندق؟

ـ لعلك نسيت اني شاهد على الوصية!

ـ خطر لي انه ربما يكون مستعدا لبيع نصيبه. انا لا املك نقدا سائلا، ولكن يمكن تدبير سلفة من البنك.

وضع الدكتور ماجيوت راحتيه الضخمتين فوق ركبتي ومال بجسمه نحوي كما لو كان سيفضي الي بسر خطير. قال:

ـ لو سمعت نصيحتي فافعل العكس. دعه هو يشتري نصيبك. سهل الامر له واجعله يشتري ولو بأرخص ثمن. انه من اهل هايتي. ويستطيع ان يرضى بالقليل.. انه يستطيع البقاء.

ولكن، هنا ايضا اثبت د. ماجيوت زيف تنبؤاته. ولعله كان يرى مستقبل بلاده بوضوح اكبر بكثير من رؤيته لمصير مواطنيه كأفراد.

قلت وانا ابتسم:

ـ كلا يا دكتـور. لقـد وقعت في هـوى التريـانـون. وسترى، سـأبقى هنـا، وسأثبت اني قادر على البقاء.

★★★

انتظرت يومين كاملين قبل ان اتحدث الى مارسيل. ولكني تحـدثت خـلالها مع مدير البنك. كان الموسمان السابقان في بورت برنس طيبين. ولقد شرحت له فكرتي لمستقبل الفندق. ولم يجد مدير البنك الاوروبي ايـة صعـوبـة في تـدبير المبلغ الذي احتاجه. وكانت النقطة الوحيدة التي ابدى فيهـا تشـددا هي سرعـة السداد. قلت:

ـ هل انت متمسك بضرورة السداد في غضون ثلاث سنوات؟

ـ اجل

ـ حسنا.. كما ترى. قبل اجراء الانتخابات.

والواقع اني لم ار مارسيل تقريبا منذ الجنازة. كان البارمان يأتيني ليأخـذ اوامره مني. وكذلك الطاهي والبستاني. اما مارسيل فقد انسحب بدون معركـة. وان كنت قد لاحظت عندما التقينا ذات مرة على السلم انه يفوح برائحـة الـروم. ولذلك فقد اعددت له كأسا من الروم عندما جلسنا معا اخيرا لكي نتحدث. ولقد استمع لي دون ان ينطق بكلمة وقبل ما عرضته عليه بدون مناقشة. وكـان مـا عرضته يعني بالفعل مبلغا كبيرا بمقاييس هايتي. وقد عـرضتـه بـالـدولارات، وليس بالعملة المحلية، مع انـه كـان لا يسـاوي سـوى نصف القيمـةالاسميـة لأسهمه. ومن اجل استخدام العوامل النفسية، كنت قد اعددت المبلغ بأوراق من فئة المائة دولار.

قلت له وانا ازيح النقود امامه

ـ يحسن بك ان تعد نقودك.

ولكنه وضعها في جيبه دون مراجعة. فقلت

ـ والآن.. ارجو ان تضع توقيعك هنا.

وقع دون ان يقرأ ما وقع عليه. هكذا بكل سهولة. ودون اي تعقيد. قلت:

ـ انا احتاج الى غرفتك.. ابتداء من الغد.

هل كنت فظا معه؟ ان ما كان يؤثر علي هو الحرج في التعامل مع عشيق امي. ولا شك انه كان مربكا له ايضا ان يلتقي مع اخيها الاكبر منه سنا. وقبل ان يترك الغرفة تكلم عنها. قال:

ـ لقد تظاهرت بأني لم اسمع الجرس. ولكنها دقت مرة ثانية وثالثة ورابعة، حتى ظننت انها ربما تحتاج شيئا.

ـ ولكنها كانت تحتاجك انت.

قال:
ـ كم احس بالخجل..

كان عسيرا فعلا علي ان اناقش معه قوة نفوذ رغبات امي الحسية. فقلت:

ـ أنت لم تشرب كأسك بعد..

افرغ الكأس دفعة واحدة في جوفه قبل ان يقول:

ـ عندما كانت تغضب مني، او ترضى عني، كانت تدعوني بقولها:

ـ ايها الحيوان الاسود الكبير.. وهذا ما احسه الآن اني فعلا حيوان كبير اسود..

وخرج من الغرفة، وقد بدا احد جانبيه منتفخا بأوراق البنكنوت من فئة مائة دولار. وراقبته وهو يخطو مبتعدا، حاملا بيده حقيبة ضخمة عتيقة،

واكتشفت فيما بعد انه ترك وراءه بيجامته الحريرية الحمراء التي تحمل على جيبها الحرفين ميم وألف متعانقين.



لم اسمع عن مارسيل لمدة اسبوع. كنت مشغولا جدا بالفندق. كان الوحيد الذي يعرف عمله هو جوزيف «وقد جعلت منه شخصية شهيرة، اشتهرت بكأس الروم الذي لم يكن له نظير في هايتي». وكان من حقي ان اتصور ان ضيوفنا قد اعتادوا على الطعام السيء في بيوتهم ولذلك فهم يقبلون الاطباق التي يقدمها طاهينا باعتبارها قدرا مكتوبا على البشر.

كانت لحومه مطهية اكثر مما يجب. ومثلجاته متجمدة اكثر مما يجب، حتى وجدتني اعيش بالكامل تقريبا على الجريب فروت الذي كأنّ يصعب عليه افساده. وكان الموسم يوشك على الانتهاء، وانا اتلهف على ذهاب آخر النزلاء حتى استطيع ان اجهز على الطاهي، مع اني كنت لا ادري اين اجد خليفة له، فالطهاه المهرة كانوا عملة صعبة في بورتو برنس.

وذات مساء، تملكني احساس شديد بالحاجة الى نسيان الفندق. فأخذت نفسي الى الكازينو. وفي ذلك الحين كان الدكتور دوفاليه قد وصل الى السلطة،

وكان هناك عدد من السياح كاف لتشغيل ثلاث موائد للروليت. والموسيقى تصل الى الآذان من الملهى الليلي المجاور، وبين الحين والحين تأتي سيدة مع مرافقها الى موائد الروليت وهي تترنح من كثرة الرقص. وانا اعتقد ان نساء هايتي من اجمل نساء في العالم كانت هناك وجوه وقدود تستطيع ان تجلب لأصحابها ثروات ضخمة في اي عاصمة غربية. اما بالنسبة لي شخصيا، فقد كنت اؤمن ايمانا عميقا بأن في الكازينو اي شيء يمكن ان يحدث. فالرجل لا

يملك سوى عذرية واحدة ليفقدها. وانا شخصيا فقدت عـذريتي في ذلك المسـاء البعيد في كازينو مونت كارلو.

★★★

كنت قد بدأت اللعب منذ بضع دقـائق عنـدمـا وقعت عيني على مـارسيـل جالسا الى نفس المائدة. كان بودي ان ابتعد. ولكني كنت قد ربحت مبلغـا طيبـا في احدى المرات. ولدي اعتقاد غيبي بأن الحظ لا يزور في الليلة الا مائدة واحدة، وقد وجدت بالفعل مائدتي المحظوظة في تلك الليلة، وفي اقـل من عشرين دقيقـة كنت قد اضفت الى رصيدي مائة وخمسين دولارا. والتقطت عيناي عيني سيـدة اوروبية شابة على الطرف الآخر من المائدة فابتسمت وبـدأت تـراهن على نفس رقمي، وهي تهمس الى مرافقها ناظرة نحوي. كـان رجـلا بـدينـا يبرز من بين شفتيه سيجار، ويقدم اليها الفيشات ولكنه لا يقامـر ابـدا. غير ان المـائدة التي مالت بحظها نحوي لم تكن كذلك بالنسبة لمارسيل. واحيانا عنـدمـا يتصـادف ونراهن على رقم واحد كنت اخسر. فأخذت اتمهل حتى يضـع هو فيشـاتـه على ارقامه قبل ان اختار ارقامي، وكذلك فعلت الشابة الحسناء، وكأننا نتراقص معا بخطوة واحدة دون ان يلمس احدنا الآخر. وكنت سعيدا لأنها كانت جميلة جـدا ولأنني تذكرت مونت كارلو. اما عن الرجل البدين الذي كان برفقتها، فيمكن ان اتعامل مع هذه المشكلة في وقت لاحق. ولعلـه ايضـا كـان ينتمي الى بنك الهنـد الصينية.

كان مارسيل يلعب بجنون، وكأنه قد مل اللعب فـدخـل في يقينـه انـه كلما اسرع بالخسارة، اقترب موعد مغادرته للمائدة. ثم رآني، فكوم كـل مـا بقي من فيشاته ووضعها على الصفر الذي لم يأت ابدا منذ اكثر من ثلاثين دورة. ولكنه خسر بالطبع فدفع كرسيه الى الوراء ناهضا بحركـة يـائسـة، فملت نحـوه عبر

المائدة مادا يدي بفيشة بعشرة دولارات وانا اقول.

ـ خذ بعض حظي.

هل كنت احاول ان اهينه، ان اذكره بأنه كان عشيق امي المأجور؟

لا اذكر الآن بالضبط. ولكن لو كان هذا بالفعل هو واقعي فقد فشلت. فقد تناول الفيشة قائلا بفرنسيته السليمة:

ـ كل ما جاءني من فرص في حياتي كانت عن طريق اسرتك.. ولعب مرة اخرى على الصفر. وفي هذه المرة كسب الصفر، فأعاد لي فيشتي قائلا:

ـ لا تؤاخذني.. ولكن يجب ان انصرف الآن. انا في شديد الحاجة الى النوم.

كان لديه الآن نحو ثلاثمائة دولار. واحسست بضميري مرتاحا من ناحيته. ومع انه كان شديد السواد وضخم الجثة جدا، الا ان ما خطر ببالي في تلك اللحظة انه ليس من العدل ان يسمى حيوانا كما اعتادت امي ان تسميه.

★★★

ولأمر ما، بدا ان الجو الجاد قد اختفى تماما من صالة الروليت في اللحظة التي خرج فيها مارسيل من الباب. والذين بقوا على الموائد كانوا ضيوفا عابرين. يلعبون فقط لمجرد التسلية، لا يجازفون بشيء ولا يكسبون اكثر من ثمن بضع جرعات من الشراب. ولقد رفعت ارباحي الى ثلاثمائة وخمسين دولارا ثم خفضتها الى مائتين لمجرد ان امتع نفسي بمشاهدة الرجل صاحب السيجار الضخم وهو يخسر مثلي. ثم توقفت عن اللعب وعندما توجهت لاستبدال الفيشات سألت امين الصندوق عن الحسناء اياها فقال:

ـ انها مدام بيبيدا المانية..

قلت مطهرا استيائي.

ـ انا لا احب الالمان.

ـ ولا انا.

.. ومن يكون الرجل البدين؟

ـ زوجها.. انه سفير.. ولقد ذكر اسم الدولة التي هـو سفيرهـا ونسيتـه في الحال.. كل ما ذكرته انها دولة ما من دول اميركا اللاتينيـة.. ولقـد تعـودت في سالف الايام ان اميز دول اميركا اللاتينية من بعضـها بواسطة طـوابـع البريـد. ولكني نسيت مجموعة طوابعي في كلية الجزويت كهدية مني للتلميذ الـذي كنت اعتبره اعز اصدقائي «وقد نسيت اسمه منذ زمن طويل».

قلت لأمين الصندوق:

ـ انا لا احب السفراء.

قال وهو يعد دولاراتي:

ـ انهم شر لا بد منه.

ـ هل تعتقد ان الشر ضروري؟ اذن فأنت شقي مثلي!

وهنا توقف نقاشنا اللاهوتي. كان من المستحيل ان يستمـر اكثـر من ذلك، لأن الرجل ببساطة لم يدرس في مدارس الجزويت، وعلى اية حـال، فقـد قطـع حديثنا صوت ناعم يقول.

ـ كذلك الازواج..

ـ ماذا عن الازواج؟

قالت وهي تضـع فيشـاتها على طاولة أمين الصندوق.

شر لا بد منه.

نحن نكن اعجابا خاصا للصفات الطيبة التي لا نتمتع بها. ولذك فاني شديد الاعجاب بصفة الولاء. وفي تلك اللحظة كدت انصرف عنها الى الابد، ولا ادري ما الذي منعني. ربما لمحت في صوتها صفة اخرى تستحق مني الاعجاب.. تلك هي صفة اليأس.. ان اليأس والحقيقة قريبان جدا من بعضهما البعض. فاعتراف اليائس يكون عادة محل تصديق. وكما انه لا يتاح لكل شخص ان يقدم اعترافه وهو على فراش الموت، كذلك فان القدرة على اليأس لا تتاح الا لأقل القليل من الناس، ولم اكن انا من هؤلاء. ولكنها كانت منهم، وهذا ما غفر لها في عيني. ويا ليتني اطعت خاطري الاول ووليت بعيدا. فلو فعلت، لأعفاني ذلك من شقاء كثير. ولكني بدلا من ذلك وقفت في انتظارها لدى الباب وهي تتناول ارباحها.

كانت في نفس عمر تلك السيدة التي عرفتها في مونت كارلو. ولكن الزمن عكس عمرينا. فالمرأة الاولى كانت في عمر امي، بينما انا الآن في عمر ابيها. كانت سمراء وصغيرة وعصبية. ولم يكن من الممكن ابدا ان اتصور انها المانية، وهي تتقدم نحوي، تعد نقودها كي تخفي ترددها. فقد راهنت رهانا يائسا. وهي الآن لا تدري ماذا تفعل بالطعم المعلق في آخر خيطها. سألتها:

ـ أين زوجك؟

ـ في السيارة.

نظرت حيث اومأت برأسها، وكانت هذه هي أول مرة أرى فيها السيارة البيجو ذات الرقم الدبلوماسي، وعلى المقعد الامامي كان الرجل الضخم جالسا بجوار عجلة القيادة بسيجاره الطويل، وكتفين عريضين مسطحين يمكن ان تعلق عليهما ملصقا اعلانيا، كأنهما جدار ساقط فوق كيس منفوخ!

ـ متى استطيع ان اراك؟

ـ هنا.. في الخارج. في موقف السيارات، انا لا استطيع ان آتي لفندقك.

ـ أنت تعرفين من أنا؟

ـ انا اسأل احيانا..

ـ غدا مساء؟

ـ في الساعة العاشرة. يجب ان اعود في الواحدة.

ـ والآن هل سيحاول ان يعرف ما الذي عطلك؟

ـ ان صبره ليس له حدود.. وهذه صفة دبلوماسية كما تعلم. فهو لا يتحدث الا عندما يكون الموقف السياسي قد نضج بما فيه الكفاية.

ـ اذن لماذا يتعين ان تعودي في الواحدة؟

ـ ان لدي طفلا، ودائما يستقيظ في نحو الساعة الواحدة وينـاديني. هي عادة.. عادة سيئة. وهو يرى كوابيس.. لص في المنزل وما الى ذلك.

ـ هو طفلك الوحيد؟

ـ اجل

ولمست ذراعي، وفي تلك اللحظة مد السفير الجالس في السيارة ذراعه الايمن وضغط على البوق مرتين. ولكن ليس بنفاد صبر، ودون ان يلتفت بوجهه، والا لكان رآنا. قلت

ـ انه يستدعيك.

قالت بسرعة

ـ اظن الساعة الآن اقتربت من الواحدة، انا كنت اعرف والدتك، كنت احبها،

كانت سيدة بمعنى الكلمة.

★★★

فتح زوجها لها باب السيـارة دون ان يلتفت نحـوهـا، ودخلت هي لتـأخـذ مكانها خلف عجلة القيادة، بينما الطرف الملتهب للسيجار يتوهج بجانب خدهـا كأنه اشارة تحذير ضوئية على حافة طريق تحت الاصلاح.

عدت الى الفندق، قابلني جوزيف على الـدرج، قـال ان مـارسيـل عـاد قبـل نصف ساعة وطلب غرفة يبيت فيها الليلة.

ـ ليلة واحدة فقط؟

ـ قال انه سيغادر في الصباح.

واضاف ان مارسيل دفع الاجرة مقدما، سلم بالفعـل المبلـغ الـذي تصـوره مناسبا. طلب من جوزيف ان يوافيه بزجاجتين من الروم في حجرته.. وسـألني جوزيف ما اذا كان يستطيع ان يستخدم غرفة الكونتيسة. قلت:

ـ يستطيع ان يقضي ليلة في غرفته القديمة.

ولكن تذكرت ان الغرفة مشغولة بنزيـل جـديـد.. استـاذ جـامعـة اميركي. والحق اني لم اشعر بضيق لا معنى له. بالعكس. لقد تأثرت، واسعدني بشكـل ما ان تكون امي محبوبة الى هـذا الحـد من هـذا الـرجـل، وكـذلك من حسنـاء الكازينو التي نسيت ان اسألها عن اسمها. ولعلني ايضا كان يمكن ان احبها لو انها اعطتني نصف فرصـة. وربما سـاورني الامـل ان أرث عنهـا قـدرتها على كسب محبة الناس.. فهذه ميزة عظمى في دنيا المال والاعمال لا تقـل اهميـة عن امتلاك ثلثي الفندق.

4

وصلت متأخرا نصف ساعة لأجد السيارة ذات الرقم الـدبلـومـاسي واقفـة خارج الكازينو. كانت هناك اشياء كثيرة اولى بـأن تمنعني عن المجيء. ولم اكن في الحقيقة متحمسا لذلك. ولا استطيع ان ازعم اني قد غـرقت الى اذني في حب مدام بينيدا. كل ما اعتقدت اني اشعر به حينذاك كـان بعض الشهـوة، وبعضـا من الفضول.وبينما كنت في طريقي بالسيارة عبر شوارع المدينة اخذت استعيـد لنفسي كل شيء ضدها. فهي المانية، وهي التي بـادرت بـالخطـوة الاولى. ثم هي زوجة سفير..

فتحت لي باب السيارة وهي تقول:

ـ كدت أيأس من مجيئك.

ـ انا آسف.. ثمة امور كثيرة حدثت.

ـ الآن انت هنا. دعنا نذهب بعيدا.. فكثير من زملائنا يفدون الى هذا المكـان بعد انتهاء الولائم الرسمية في الحادية عشرة.

ـ الى اين نحن ذاهبان؟

ـ لا ادري.

ـ ما الذي جعلك تتحدثين الي امس؟

ـ لا ادري.

ـ هل كنت تتابعين حظي؟

ـ أجل، اعتقد اني كان بي فضـول للتعـرف على شكـل الابن الـذي انجبتـه والدتك.. هنا، لا يجد المرء اي جديد..

أمامنا كانت الميناء تسبح في الضوء. وسفينتان يجري تفريغهما. وطـابـور طويل من الظهور المحنيـة تحت ثقـل الاكيـاس. دارت بـالسيـارة نصف دورة سريعة وانتهت بها الى بقعة غارقة في ظل ثقيل بجوار تمثال كولمبـوس الابيض، قالت بعد ان اوقفت المحرك:

ـ لا احد من فصيلتنا يأتي الى هذا المكان ليلا.. والمتسولون لا يـأتـون هنـا ايضا.

ـ وماذا عن الشرطة؟

ـ الرقم الدبلوماسي يفيد احيانا!

ساءلت نفسي.. أينا يستخدم الآخر؟ انا لم اكن قد لمست امـرأة منـذ بضعـة اشهر. وهي ـ كما هو واضح ـ قد وصلت الى آخر الطريق المسدود الذي تنتهي عنده معظم الزيجات ولكني كنت مثقلا بأحـداث اليـوم وكـان اولى بي ألا آتي، ولم استطع منع نفسي من تذكر انها المانية حتى بالرغم من انها اصغر سنا من ان تتحمل ذنوب اسلافها.

جلسنا نحملق في التمثال الذي كان يحملق بدوره في اتجاه اميركا..

سألتها. وانا ألمس ركبتها برفق.

ـ ما اسمك؟

ـ مارتا. انا لا اريد الا ان نتكلم.. فقط

كنت اعلم انها تكذب.. قلت:

ـ اعتقد انك كان لديك الكثير لتتكلميه في السفارة.

ـ قل لي.. هل كان صوابا أمس لو صحبتك الى الفندق؟

قلت.

ـ حمدا لله انك لم تأتي. كان هناك ما يكفي من المشاكل.

ـ اية مشاكل؟

لم اجب بسرعة. اسندت رأسها على كتفي، رافعة الي عينين ساحرتين.. وهي تقول متوسلة:

ـ حدثني عن المشكلة.

مرت لحظة طويلة نسيت خلالها كل ما يتصل بها. رأيت نفسي في ظهيرة ذلك اليوم الحار وانا اطرق على باب الغرفة التي كانت مخدعا لأمي، فلا اتلقى جوابا، ثم ونا اطرق بعنف يتزايد مرة بعد مرة متصورا ان مارسيل غارق في نومه الثمل. وفجأة اخذت اتكلم. وصفت لها كيف كان خادم الغرفة مضطربا، وكذلك جوزيف. وكيف انني عندما لم يسجتب احد لطرقاتي على الباب لجأت الى المفتاح الخاص ولكني وجدت الباب موصدا من الداخل، فاضطررت الى تحطيم الحاجز بين الشرفتين وقفزت من احداهما للداخل. ومن حسن الحظ ان النزلاء كانوا في الخارج يسبحون على البلاج. ثم كيف وجدت مارسيل معلقا من عنقه بحزامه من السقف في وسط الغرفة. ولا بد انه كان مصمما جدا، فقد كان يستطيع لو اراد ان يطوح قدميه ببضع بوصات لتستقرا على فراش امي العريض. كان الروم كله قد نفد، فيما عدا بقايا قليلة من الزجاجة الثانية. وفي مظروف معنون باسمي ترك لي ما تبقى من الثلاثمائة دولار. وفي النهاية قلت:

ـ لك ان تتخيلي كيف كنت مشغولا من ساعتها، وماذا كان من الشرطة، والنزلاء ايضا. البروفيسور الانجليزي كان معقولا. ولكن كان هناك زوجان انجليزيان غيره اعلنا انهما سيبلغان وكيلهما السياحي بالأمر. وواضح ان حالة انتحار واحدة كافية لكي تضع الفندق في خانة الاسعار المنخفضة.. بداية غير

مشجعة على الاطلاق.

قالت وهي ترفع ساقها لتستقر فوق راديو السيارة:

ـ كانت صدمة فظيعة طبعا..

ـ انا لم اعرف الرجل ولا يهمني في شيء. ولكنها كانت صدمة، نعم، كانت صدمة حقيقية» ويبدو انني يتعين علي الآن ان اطهر الغرفة بواسطة كاهن او «هونجان» (هونجان الاسم الذي يطلقه الاهالي على الساحر المحلي) لست واثقا بعد ايهما سيكون اجدى. كذلك يجب تحطيم الثريا التي علق حبله بها.. عمال الفندق مصممون على ذلك.

كان طيبا فعلا ان تكلمت، بينما هي ترتعش من فرط التأثر. وسقطت يدها على طرف عجلة القيادة فأخذ البوق في الصياح، واستمر عويله طويلا كأنه حيوان جريح او سفينة فقدت طريقها في الضباب، حتى توقفت الرعشة.

وساد بيننا الصمت ونحن في ذلك الوضع المتشابك كأننا قطعتان مفكوكتان من آلة عجز الميكانيكي عن تركيبهما في مكانهما. وكانت هذه هي اللحظة المناسبة لكي نقول مع السلامة، ويمض كلانا في طريقه، فكلما طال مكوثنا معا، كلما تعاظمت المطالب التي سيفرضها المستقبل علينا. وفي لحظات الصمت، تبدأ الثقة، وينمو الرضا. ويبدو انني غفوت لحظة، وعندما افقت وجدتها نائمة. والنوم المشترك يخلق رابطة جديدة اقوى واشد. تطلعت الى ساعتي، امامنا وقت طويل قبل منتصف الليل، الآلات الرافعة لا زالت تدور فوق سفن البضائع وطابور الحمالين الطويل. لا زال يتلوى بين المركب والمستودع، وظهورهم محنية تحت ثقل الاكياس كأنهم رهبان كابوشيون من اصحاب القلنسوات. آلمتني احدى ساقي، فحركتها، فاستيقظت.

انتزعت نفسها بعيدا وهي تقول بحدة:

ـ كم الساعة الآن؟

ـ الثانية عشرة الا ثلثا.

ـ حلمت ان السيارة تعطلت والساعة الواحدة صباحا..

احسست بـأنني اوضـع في المكـان الـذي يجب ان انتمي اليـه ـ فيما بين العاشرة والواحدة. اذهلني ان اكتشف السرعة التي تنمو بها الغيرة، فأنا لم اكـد اعرفها منذ اقل من اربع وعشرين ساعة. ومع ذلك فها انذا انكر حقوق الاخرين عليها.. قالت:

ـ ماذا حدث؟

ـ ابدا.. كنت فقط اتساءل متى سنلتقي؟

ـ في نفس الموعد غدا.. هنا. هذا مكان جيد. اليس كذلك؟ فقط خـذ تـاكسيـا مختلفا.. هذا كل شيء .

ـ لم يكن مخدعا مثاليا..

ـ يمكن ان ننتقل الى المقعد الخلفي.. سيكون كل شيء على ما يرام فيه.. قالت ذلك بلهجة عارفة زادتني احباطا.

هكذا بدأت علاقتنا، وهكذا استمرت مع اختلافات خفيفة. مثـلا، بعـد عـام غيرت سيارتها البيجو الى اخرى من طراز احدث.

وفي بعض الاحيان كنا نستطيع الاستغناء عن السيارة، كلما استدعى زوجها للتشاور. وذات مرة قضينا يومين كاملين معا في رأس هايتي بفضل مسـاعـدة صديقة لها. ولكن الصديقة ما لبثت ان انهت وجودهـا هنـا وعـادت لـوطنهـا. وكثيرا ما كان يخيـل الي ان مـا يجمعنـا انما هـو مؤامـرة بين اثنين مـرتبطين بارتكاب جريمة اكثر منه عاطفة مشبوبة بين حبيبين. ومثل كل المتآمـرين، كنـا

دائمين على حذر من العيون التي ترصدنا.. وكان احد هذه العيون طفلها انجيل.

ذات مرة ذهبت الى حفل كوكتيل بالسفارة، لم يكن هناك ما يمنع من دعوتي، ففي غضون ستة اشهر من لقائنا الاول كنت قد اصبحت عضوا مقبولا في المجتمع الاجنبي. وكان فندقي قد سجل بعض النجاح، وان كنت لا ازال احلم بالطاهي الذي اريده من الدرجة الاولى. وكنت قد التقيت من قبل بالسفير لأول مرة عندما قام بتوصيل واحد من مواطنيه. وكان نازلا بفندقي ـ عقب حفل عشاء بالسفارة. وقبل دعوة الى كأس فاخر من يد جوزيف، وامتدح الشراب مدح العارف الذواقة، وظل شبح سيجاره الطويل مخيما لفترة غير قصيرة في شرفتي. ولم اعرف في حياتي شخصا يستخدم «ياء الملكية» بمثل هذا الاسراف: «تفضل واحدا من سجائري».. ارجو ان تطلب شرابا «لسائقي». وعندما جاء ذكر الانتخابات قال «رأيي» ان الدكتور هو الفائز.. ان لديه جواز سفر اميركيا.. هكذا تقول «معلوماتي».. وانت مدعو الى «حفلتي» المقبلة.

ولكن، ما الذي كان يغيظني من هذا الرجل؟ أنا لست غارقا في حب زوجته. وانما انا «اضاجعها» فقط. او هكذا على الاقل كنت اعتقد حينذاك، ربما لأنه خلال حديثنا اكتشف اني تلقيت تعليمي على يدي الآباء الجزويت ومن ثم افترض وجود قرابة تجمعنا قائلا: انا ايضا كنت في كلية سانت اجناتيوس في اوراجواي؟ ولكن من ذا الذي يعنيه ذلك؟

وقد علمت فيما بعد ان حفل الكوكتيل الذي دعاني اليه في حينه انما هو من «الدرجة الثانية». اما حفلات الدرجة الاولى التي يقدم فيها الكافيار فهي دبلوماسية مصفاة، لا يشهدها سوى الوزراء والسفراء ورؤساء الوزارات، اما الدرجة الثالثة فهي حفلات الاعياد الرسمية. وكانت مجاملة منه بالفعل ان اعتبرني من اهل الدرجة الثانية التي يفترض انها شبه عائلية. وكان هناك

بالفعل عدد من اثرياء هايتي مع زوجات نـادرات الجمال، لم يحن بعـد الـوقت المناسب لكي يهربوا من البلاد، او ليغلقوا على انفسهم دورهم في المساء خـوفـا من اي شيء يمكن ان يحدث لهم بالليل في شوارع حظر التجول المظلمة.

وقدمني السفير الى «زوجتي».. مستخدما ياء الملكية مـرة اخـرى، ورافقتني هي الى البار لتقدم لي مشروبا. سألتها «غدا مساء؟» فنظـرت الي مقطبـة مكشرة وهي تزم شفتيهـا في حـركـة سريعـة كـأنما تحـذرني من الكـلام لأننـا تحت الملاحظة. ولكن واضح انه ليس زوجها هو الذي تخشاه. فالرجل كان مشغـولا بالطواف مع احد مدعويه بين لوحات «مجموعتي» النـادرة بـريشـة هيلـويت، شـارحا له كل لوحة متباهيا كما لو كان هو الذي رسمها.. قلت هامسا:

ـ زوجك لا يمكن ان يسمعنا في هذا الضجيج.

ـ ألا ترى انه يستمع الى كل كلمة؟

لم يكن زوجها هو الذي تتحدث عنه، وانما كان مخلـوقـا صغيرا لا يـزيـد طوله على ثلاثة اقدام بعينين سوداوين واسعتين، اخذ يتقدم نحـونـا بخطـوات قزم مبالغة في الكبرياء، وهو يشق طريقه بين سيقان الضيوف كـأنهـا احـراش غابة يملكها هو دون سواه. ورأيتُ عينيه مركزتين على فمها كما لو كـان يقـرأ شفتيها.

قدمته لي بقولها:

ـ انجيل. ابني.

ومن ساعتها، وانا لا افكر فيه الا كما ينطق اسمه بالانجليـزيـة، بـاعتبـاره نوعا من التجديف، او تسمية الاشباه بأضدادها.

فما ان فاز بمكانه بجوارها، حتى التصق بهـا لا يفـارقهـا. ومـع انـه ظـل

صامتا طول الوقت الا انه كان مشغولا بالاستماع، بينما يده الفولاذية الصغيرة قابضة على يدها كأنها احد طرفي قيد حديدي.. اذن فهذا هو غريمي؟

عندما التقينا في اليوم التالي قلت لها:

ـ يبدو انه يشتم شيئا.

ـ كيف ذلك؟ ان عمره خمس سنوات بالكاد.

ومر عام آخر اكتشفنا خلاله اكثر من طريقة للافلات من رقابة طفلها. ولكن «واجباتها» ازاءه ظلت كما هي. وعندما اكتشفت انني لا استطيع الاستغناء عنها وضغطت عليها كي تهجر زوجها وقف ولدها حاجزا دون لم شملنا. فهي يمكن ان تترك زوجها غدا ولكن كيف تستطيع الحياة اذا اخذ ولدها منها؟ وخيل الي ان الولد كلما نما اصبح اكثر شبها بأبيه شهرا بعد شهر. وله نفس طريقته في استخدام ياء الملكية، وخاصة عندما يقول «امي».. وذات يوم رأيته يضع في فمه سيجارا طويلا من الشيكولاته. واخذ وزنه يزداد بسرعة، وكأنما الاب قد تجسد في صورته حتى يضمن ألا تذهب علاقتنا الى ابعد مما يجب او تتجاوز حدود التعقل.

وفي فترة اخرى اخذنا لأنفسنا غرفة فوق متجر يملكه شخص سوري يدعى حامد، وكان بالفعل شخصا يمكن الوثوق به. كان ذلك عقب وصول الدكتور الى السلطة، وشبح المستقبل يبدو للجميع اشد سوادا من السحب المخيمة فوق جبل كينسكوف. واية صلة مع سفارة اجنبية قد تكون مفيدة. فمن ذا الذي يستطيع ان يضمن في ظروف كهذه انه لن يحتاج الى طلب اللجوء السياسي في وقت ما؟

ومع اننا عاينا المتجر عن كثب، الا اننا لم نلاحظ انه يحتوي في ركن ما خلف المنتجات الدوائية عدة ارفف تضم لعبا للاطفال من نوعية افضل مما

يمكن ان تجده في اي مكان آخر، وانه يمكن ان تجد من السلع المعروضة عليه بسكويت بوربون.. وهو النوع المفضل لدى انجيل للتسلي بين الوجبات. وكان هذا سببا في اول شجار وقع بيننا.

★ ★ ★

كنا قد التقينا ثلاث مرات بالكاد في الغرفة السورية التي تضم سريرا نحاسيا يغطيه لحاف من الحرير الوردي، وحوله اربعة مقاعد عالية الظهر والعديد من الصور العائلية الملونة المرسومة باليد، واعتقد انها كانت غرفة مخصصة للضيوف المهمين الذين كان ينتظر ان يصلوا من لبنان ولكنهم لم يأتوا ابدا ولم يعد احد ينتظر مجيئهم. وفي المرة الرابعة انتظرت ساعتين ولكن مارتا لم تظهر، فنزلت الى المتجر حيث قال لي صاحبه السوري كأنما يقول سرا...

ـ فاتك ان ترى مدام بينيدا... كانت هنا مع طفلها الصغير منذ لحظة

ـ طفلها الصغير؟

ـ اجل، واشترت له سيارة وعلبة بسكويت بوربون...

في ذلك المساء طلبتني بالهاتف. كانت تلهث. وبان على صوتها الخوف وهي تتحدث بسرعة قائلة:

ـ انا في مكتب البريد، انجيل تركته في السيارة.

ـ يلتهم بسكويت بوربون؟

ـ بسكويت بور..بون؟ كيف عرفت؟ يا عزيزي.. انا لم استطع المجيء اليك. عندما ذهبت الى المتجر وجدت انجيل هناك مع مربيته، وكان لا بد ان اتظاهر بأنني جئت لاشتري شيئا له على سبيل الهدية لحسن سلوكه.

ـ هل كان حسن السلوك!

ـ لا يشترط ذلك بالضرورة. المربية قالت انهما رأياني اخرج من هنا في الاسبوع الماضي ـ من حسن الحظ اننا لا نتصرف سويا ابدا فاراد ان يرى اين كنت وهكذا اكتشف وجود البسكويت الذي يحبه..

ـ بسكويت بوريون؟

ـ اجل او... اراه قادما الى مكتب البريد ليراني، الى اللقاء ـ الليلة نفس المكان.

وسقط الهاتف ميتا.

وهكذا عدنا الى اللقاء تحت تمثال كولمبوس في السيارة البيجو.. ولكننا لم ننعم بلقائنا وانما تشاجرنا، قلت لها ان انجيل طفل مدلل فاعترفت بذلك.. ولكني عندما اضفت انه يتجسس علينا تملكها الغضب. ولما اشرت الى انه بدين مثل ابيه حاولت ان تصفعني على وجهي لولا ان امسكت برسغها فاتهمتني بانني اضربها. وضحكنا معا، ولكن الشجار ظل يغلي بيننا مثل المواد المحضرة لحساء اليوم التالي.

قلت بعقل شديد:

ـ افضل لك ان تحسمي رأيك.. اما هذا الطريق او ذاك، فالحياة بهذا الشكل لا يمكن ان تستمر

ـ هل تريدني ان اتركك؟

ـ كلا بالتأكيد

ـ ولكنني لا استطيع الحياة بعيدا عن انجيل، لم تكن غلطته انني دللته، انه في حاجة الي، ولا استطيع ان اكون سببا في تعاسته.

ـ ثم بعد عشر سنوات لن يكون في حاجة اليك ابدا، سيكون في احضان اية امرأة. . ربما من وصيفاتك.. مع فارق واحد، هو انك لن تكوني هنا... ستكونين في بروكسل او لوكسمبورج.. وهناك ما يكفي من مواخير لألف انجيل...

ـ ان عشر سنوات فترة طويلة جدا.

ـ وستكونين حينئذ قد كبرت واصبحت اكبر من ان يتلفت اليك احد وسيكون عليك ان تعيشي مع رجلين بدينين وضمير مستريح بالطبع، فانت التي اخترت ذلك ودفعت ثمنه مقدما.

ـ وانت؟ هل تزعم انك لن تجد السلوى لدى نساء من كل نوع بمختلف الطرائق والاشكال؟

اخذ صوتنا يرتفع ويزداد ارتفاعا في الظلام تحت قدمي تمثال كولمبوس وكما هو الحال مع كل الشجارات من هذا القبيل فان شجارنا لم يؤد الى شيء اكثر من شرخ او جرح لا يلبث ان يندمل. وهناك مكان ـ بل اماكن ـ للعديد من الجراح الجديدة قبل ان نجد انفسنا ننكأ قشرة جرح قديم، ولقد خرجت من سيارتها وتوجهت الى سيارتي وجلست الى عجلة القيادة وبدأت اعود للخلف قائلا لنفسي انها النهاية وان الامر لا يستحق حتى ابقاء شمعة، ولتبق ما تشاء الى جانب طفلها الحيوان . وهناك عند ميري كاترين عشرات الفتيات اجمل واشهى، ثم هي المانية على اية حال

هتفت بقسوة من نافذة سيارتي وأنا امر بها.

ـ مع السلامة يا فراو بينيدا...

وحينئذ رأيتها منحنية على عجلة سيارتها تبكي . آمنت حينئذ انه كان من الضروري ان اقول لها مع السلامة قبل ان ادرك انني لا استطيع الحياة بدونها.

وعندما عدت، وأخذت مكاني الى جوارها كانت قد تمالكت نفسها تماماً، قالت

ـ لا فائدة، الليلة.

ـ كلا..

ـ هل سنلتقي غدا؟

ـ بالتأكيد

ـ هنا، كالعادة؟

ـ اجل.

قالت:

ـ ثمة شيء كنت انوي ان اقوله لك، مفاجأة لك، شيء تريده جدا...

تصورت للحظة خاطفة انها ستقول لي الآن قررت ان تستسلم، وستعدني بأن تهجر زوجها وولدها، وضعت ذراعي على كتفها لاساندها وهي تتخذ القرار الخطير.. فقالت

ـ انت تريد طاهيا ممتازا، اليس كذلك؟

ـ آه.. نعم... اعتقد اني اريد ذلك فعلا

ـ نحن لدينا طاه رائع، وقد قرر ان يتركنا، في الواقع انا دبرت مشاجرة معه عمدا لتكون حجة لطرده.. وهو لك اذا كنت تريده.

لم ارد جوابا.. ولعل هذا آلمها فاستطردت تقول

ـ والآن... الا تصدق اني احبك؟ انت لا تعلم كيف سيغضب زوجي. انه

يقول ان اندريه هو الطاهي الوحيد في بورتو برنس الذي يصنع السوفليه كما يجب ان يكون.

الجمت لساني في آخر لحظة حتى لا اقول «وانجيل.. الا يجب طعامه ايضا» وبدلا من ذلك قلت

ـ انت جئتني بحظي السعيد

وكان ما قلت صحيحا، فقد اكتسب سوفليه التريانون شهرة ذائعة الصيت فترة من الزمن، حتى بدأ الارهاب، ورحلت البعثة الامريكية،، وطرد السفير البريطاني. والقاصد الرسولي (سفير الفاتيكان) ذهب الى روما ولم يعد ابدا، واقام حظر التجول بيننا سدا اسوأ من اية مشاجرة حتى وجدت نفسي اهرب بدوري على آخر طائرة متوجهة الى نيواورليانز، بعد ان افلت جوزيف بجلده بالكاد اثر استجوابه بمعرفة الطنطون ماكوت، الامر الذي ملأني رعبا، فقد ايقنت انهم ورائي، ولعل فات جارسيا ـ رئيس «الطنطون» يريد الاستيلاء على فندقي. حتى بتي بيير لم يعد يظهر كالمعتاد ليتناول كأسه المجاني. وقضيت عدة اسابيع وحيدا مع جوزيف المصاب والوصيفة والبستاني وكان الفندق في حاجة الى تجديد الطلاء وبعض الاصلاحات، ولكن ما جدوى الانفاق والتكاليف طالما لا يوجد امل في نزلاء؟ فقط، كان جناح جون باريمور هو الذي احتفظت به في حالة جيدة كأنه ضريح.

ولم يكن بقي من علاقتنا الغرامية الآن ما يمكن ان يوازن الخوف والملل، فالهاتف لا يعمل وانما هو قائم في مكانه على مكتبي كمجرد ذكرى للايام الخوالي. ومع حظر التجول لم يعد ممكنا ان نلتقي بالليل، بينما انجيل مرابط دائما بالنهار، واستقر بذهني انني افر من الحب مثلما افر من السياسة عندما تلقيت اخيرا تأشيرة الخروج في مركز الشرطة بعد فترة انتظار طالت عشر ساعات في جو تفوح فيه رائحة البول وابتسامات رجال الشرطة السعيدة وهم عائدون من الزنازين.

ولعلني اذكر قسا جلس اليوم كله في ثوبه الكهنوتي الابيض كانه قطعة صامدة من الحجر. صابرا يتلو صلواته دون ان ينادى ابدا على اسمه، وفوق رأسه رشقت بدبابيس رسم على الجدار المصبوغ بلون الدم القاني لقطات للمنشق باريون ورفاقه الذين حصدتهم الرشاشات في كوخ ببعض ضواحي العاصمة منذ شهر، وعندما منحني رقيب الشرطة تأشيرتي في النهاية ملقيا بها على النضد كأنها كسرة خبز يلقى بها لمتسول قال احدهم للقس ان مركز الشرطة قد اغلق ابوابه. واعتقد انه عاد في اليوم التالي، فمركز الشرطة مثل اي مكان آخر يصلح لكي يتلو فيه صلواته لنفسه. فان احدا لن يجرؤ على الحديث اليه او قطع تأملاته خصوصا وكبير الاساقفة في المنفى، ورئيس الجمهورية مطرود من رحمة الكنيسة.

ولكم بدت المدينة مكانا مغريا بالفرار منه وانا اطل عليها من الجو الى الحر الطليق والطائرة تخترق الغيوم المحلقة كعهدها ابدا فوق كينسكوف، والميناء يبدو ضئيلا بالمقارنة بمساحات الارض الجرداء الممتدة خلفه، والجبال العارية غير المأهولة كأنها عمود فقري محطم لوحش منقرض وتمتد حتى رأس هايتي وحدود الدومينكان.

قلت لنفسي، سوف اجد مغامرا يشتري الفندق، وعندئذ سأجد نفسي متخففا من كل الاثقال، تماما مثلما جئت في ذلك اليوم المشهود لأرى امي وهي مستلقية على فراشها الفاجر العريض.

كنت سعيدا لاني راحل، هكذا همست للجبال وهي تدور تحتي، وهكذا افصحت ابتسامتي للمضيفة الامريكية المشوقة القوام التي جاءتني بكأس البوربون، ولقائد الطائرة الذي قدم ليبلغنا بمدى تقدم الرحلة.

ثم مرت اربعة اسابيع قبل ان افيق شاعرا بمنتهى التعاسة في حجرتي المكيفة بالشارع ٤٤ بمدينة نيويورك بعد حلم عجيب تشابكت فيه اربعة اطراف

داخل سيارة بيجو تحت تمثال يحدق في البحر العميق. وعندها عرفت اني عائد لا محالة، آجلا او عاجلا، عندما تنفد طاقة عنادي، بعد ان فشلت في ابرام الصفقة التي كنت ارجوها واكتشفت ان نصف رغيف معجون بالخوف خير من عدم وجود خبز على الاطلاق.

الفصل الرابع

طال انحناء الدكتور ماجيوت فوق جثة الوزير السابق، وكأنه ظلال مصباحي الكهربائي ساحر القبيلة يطرد الارواح الشريرة عن الميت، ترددت خشية ان اقطع عليه طقوسه، ولكني كنت اتوجس خيفة ان يستقيظ آل سميث في برجهم العالي. ولذلك فقد جاسرت فاقتحمت افكاره قائلا

ـ لن يستطيعوا الادعاء بانه اي شيء آخر الا انتحار

اجاب:

ـ انهم يستطيعون ادعاء شيء يناسبهم ـ فلا تخدع نفسك

وأخذ يفرغ محتويات الجيب الايسر المكشوف من الجثة، وهو يقول في شبه همس:

ـ كان بالفعل واحدا من افضل الناس... كنا زميلين في قسم التشريح بباريس. ولكن بابا دوك نفسه كان رجلا طيبا في تلك الايام. اني اذكر دوفالييه اثناء وباء الكوليرا في العشرينات.....

لاحظت انه يفحص بتدقيق شديد كل قصاصة ورق يخرجها من جيب الجثة. فيقربها من عينيه كما يفعل صراف البنك مع كل ورقة بنكنوت ليتحقق

من عدم تزييفها، قاطعته متسائلا:

ـ ما الذي تبحث عنه؟

ـ اي شيء يمكن ان يصله بك... في هذه الجزيرة لا يكاد المرء...

توقف فجأة عن اكمال جملته... ثم اضاف بصوت اكثر انخفاضا

ـ ان الشيطان مثل اسد غاضب يبحث عمن يستطيع ان يلتهمه
ـ ارى انه لم يلتهمك بعد

قال وهو يضع قصاصة في جيبه

ـ اعطه بعض الوقت.. ولكننا الآن لا نملك ترف السماح بالتجربة.

قال ذلك ثم اخذ يقلب الجثة على جنبها الآخر، كانت عملية صعبة حتى بالنسبة للدكتور ماجيوت، قال وهو يخرج محتويات الجيب الايمن:

ـ من حسن الحظ ان والدتك ماتت. في الوقت المناسب. لقد تحملت المسكينة ما فيه الكفاية، هتلر واحد يكفي المرىء في حياته. آه ما هذا؟ رجل ارنب؟... و... هنا شيء آخر.. يا الله! لم اكن اعرف انه على هذا القدر من حب الفكاهة! خرجت يده ممسكة بثقالة ورق نحاسية على شكل نعش وعليها حروف آر. أي.بي... ثقالتي المفقودة.. قلت

ـ هذه ثقالتي، لا بد انه اخذها من فوق المكتب.

ـ اعدها الي نفس مكانها..

ـ اليس من الافضل ان ارسل جوزيف للشرطة؟

ـ كلا .. كلا. نحن لا نستطيع ان نترك الجثة هنا.

- لا اطنهم يمكن ان يحاسبوني على اختياره هذا المكان بالذات ليختبىء فيه.

- يمكنهم ان يحاسبوك على اختياره فندقك ليختبىء فيه.

- لماذا فعل ذلك؟ انا لا اعرفه ابدا. لم اقابله في حياتي سوى مرة واحدة عرضا في احد الاحتفالات.

- السفارات كما تعلم عليها حراسة مشددة ولعل الرجل آمن بصدق عبارتكم الانجليزية التي تقول ان «بيت الانجليزي قلعته».. واضح انه كان فاقد الامل الى حد جعله يتعلق بمجرد شعار...

- ما ابشع ان اواجه شيئا كهذا في اول ليلة لي هنا.
- اجل.. هذا صحيح. يقول تشيخوف الانتحار ظاهرة غير مرغوبة.

نهض.. ماجيوت واقفا وهو يتطلع الى الجثة تحته. ان الرجل الملون يملك احساسا عميقا بالحدث، احساسا لم يفسده التعليم الغربي... التعليم ربما يغير من شكل التعبير، ولعل جد الدكتور ماجيوت الاكبر كان امام حدث كهذا يولول للنجوم في حظيرة العبيد. اما الدكتور ماجيوت فقد القى على جثة الميت مرثية قصيرة اختار كلماتها بعناية.

- مهما عظم خوف الانسان من حياته يظل الانتحار اشجع الاعمال التي يأتيها ذهن رياضي متألق في انقى درجات الصفاء، فالانتحار تقرره قوانين الاحتمالات ولا بد من تجمع اسباب عديدة جدا لدى المنتحر حتى يكون قراره هو ان الحياة ستكون اشقى بكثير من الموت، ولا بد ان يكون ادراك المرء الحسابي اكبر من ادراكه الحياتي، ولكن يكفي ان تفكر كيف تهدر في اسماع المنتحر صرخة الحافز الذي يرجح كفة الحياة في اللحظة الاخيرة واية حجج سوف يسوقها ايا كانت طبيعتها غير العلمية....

- كنت اعتقد انك ككاثوليكي لا بد ان تدين ..

ـ انا لست كاثوليكيا محترفا. وعلى اية حال لعلك تقصد اليأس اللاهـوتي؟ ولكن هذا اليأس الذي نواجهه الآن لا علاقة له باللاهـوت. هـذا المسكين .. لقـد كان يحطم قاعدة... كان يأكل اللحم يوم الجمعة؛ في حالتـه لم يتقـدم الى الحس الحياتي بالتحريم الالهي كحجة للتراجع...

وهكذا انتهت المحاضرة والقيت المرثية.

ـ تعال سأعدني في حمله .. ارفع الساقين.. يجب ان نبعده عن هنا.

★★★

تملكني شعور بالارتيـاح وانـا احس بنفسي بين يـدي الـدكتـور مـاجيـوت الكبيرتين. كنت مثل مريض يقبل بلا اية اسئلة النظام الصارم المطلوب للعـلاج، ووفقا لارشاداته رفعنا وزير الشؤون الاجتماعية من حوض السباحة وحملناه الى ممر السيارات حيث كانت سيارة الدكتور ماجيوت واقفة مطفأة الانوار. قال

ـ عندما تعود يجب ان تفتح صنابير المياه وتزيل اثار الدماء.

ـ سوف افتح صنابير المياه.. ولكني لا اعرف ما اذا كان الماء سيأتي.. او...

اسندناه الى ظهر المقعد الخلفي. وفي القصص البوليسيـة يمكن ان تـوضـع الجثة بسهولة تامة بحيث تبدو وكأنها شخصا مخمورا، ولكن هـذا الشيء الميت كـان واضـح المـوت بحيث لا يمكن أن تخطئـه عين، نعم ان الـدم تـوقف عن النزيف، ولكن نظرة واحدة الى داخل السيارة كان لا بد ان تلحظ الجـرح الهائل في معصمه. ومع ذلك فمن حسن الحظ ان احدا لا يجرؤ على السير في الشوارع ليلا، ففي هذه الساعة الاشباح وحدها او بمعنى اصح رجال الطنطون ماكـوت وحدهم هم الـذين يعلمـون، ولم يكن هنـاك شك في ان الطنطـون مـوجـودون بالخارج. بل ها نحن بالفعـل نسمـع صـوت سيـارتهم يقترب فما من سيـارة

اخرى يمكن ان تجري في الشوارع في هذا الوقت من الليل.

اطفأنا انوار سيارتنا وتوقفنا منتظرين. كانت السيارة تتقـدم ببطء قـادمـة من نـاحيـة المـدينـة وهي تصعـد التـل، ووصلت الينـا اصـوات راكبيهـا وهم يتجادلون بأصوات علت فوق هدير الحركة الثالثة للموتور. وكان انطباعي انهـا لا بد وأن تكون سيارة عتيقة لن تستطيع اكمال الطريق الصـاعـد الطـويـل الى بيشونفيل.. ماذا نفعل اذا نفدت قـواهـا وهي على رأس الممشى؟ من المؤكـد ان ركابها سيأتون يلتمسون المساعدة وبعض اشراب بالمجان بالطبـع مهما كـانت الساعة متأخرة

وطال بنا الانتظار حتى سمعنا صوت الموتور يمر بالممشى ثم يتلاشى

سألت الدكتور ماجيوت.

ـ الى اين نأخذه؟

قال

ـ لن نستطيع ان نذهب بعيدا صعودا او هبوطا دون ان نصطدم بحاجز او اكثر، فهـذا الطـريق الى الشمال والميليشيـات لا تستطيـع ان تنـام خـوفـا من التفتيش. ولعـل هـذا مـا يفعلـه رجـال الطنطـون مـاكـوت الآن. اعتقـد انهم سيواصلون طريقهم حتى مركز شرطة كينسكوف اذا لم تتعطل بهم سيارتهم،

ـ كان لا بد ان تمر باحدى نقاط التفتيش قبل انْ تصل هنـا ـ كيف فسرت لهم الامر؟

ـ قلت ان هناك امرأة تعاني من الآم الوضع. هذا امر شائع جدا كما تعلم

ـ فلنفرض انهم تحروا؟

ـ سأقول اني لم اجد العنوان..

واصلنا التقدم بالسيارة الى الطريق العام، اضاء الدكتور ماجيوت انوار السيارة مرة اخرى قائلا.

ـ لو فرض ورآنا اي شخص الآن، سيعتقد اننا الطنطون.

كان اختيارنا للوضع محصورا بين الحاجز المقام ادنى الطريق، والحاجز المقام في اعلاه. تقدمنا نحو مائة ياردة صعودا ـ كان هذا كفيلا للتدليل على ان المرحوم مر بالتريانون ولم يتوقف عنده ثم استدرنا في الحارة التالية الى اليسار، كانت المنطقة عبارة عن ضاحية شبه معزولة تضم عددا من البيوت الصغيرة والحدائق المهجورة. هنا كان يسكن في الايام الخوالي بعض الناس الاقل وجاهة والذين لم يحققوا النجاح المنشود ، فهم في الطريق الى بيشونفيل ولكنهم لم يصلوا اليها تماما. المحامي الذي يلتقط القضايا غير المضمونة، والفلكي الذي لم يجد احدا يصدقه، والطبيب يفضل الروم على مرضاه. وكان الدكتور ماجيوت يعرف جيدا من هؤلاء لا يزال شاغلا بيته ومن منهم فر بجلده ليعفي نفسه من الاتاوات التي يفرضها رجال الطونطون ماكوت ليشيدوا بها مدينة دوفالييه الجديدة.. انا شخصيا تبرعت بمائة جوردي، والآن كل البيوت غير مأهولة ولا تجد من يعنى بها

اشار الدكتور ماجيوت بيده قائلا «هنا» ومتقدما بالسيارة بضع ياردات حيث لم يكن لنا يد خامسة لتحمل مصباحا كهربائيا.. وانعكس نور السيارة على لافتة مكسورة تقول كلماتها الباقية... بونت.. لقراءة الطالع

قلت

ـ اذن فهو غير موجود؟

ـ لقد مات.

ـ ميتة طبيعية؟

ـ الميتات العنيفة هي الشيء الطبيعي هنا... لقد مات بفعل البيئة!

اخرجنا جثة الدكتور فيليبوت من السيارة وجررناه على الارض حتى وسط الحشائش النامية بحيث لا يمكن رؤيته من الطريق.

لف الدكتور ماجيوت منديلا حول يده اليمنى، واخرج من جيب الرجل الميت مدية صغيرة والقاها على مسافة بضع بوصات من يد الوزير اليسرى قائلا

ـ كان الدكتور فيليبوت اعسر..

ـ تبدو لي عارفا بكل شيء..

ـ نسيت انه كان زميلي في المشرحة؟ ارجو ان تتذكر شراء مدية اخرى لمكتبك

ـ هل كان له عائلة؟

ـ زوجة وولد في السادسة، لعله تصور ان انتحاره سيجعل حياتهما أكثر أمنا.

عدنا الى السيارة وتقهقرنا بها الى الطريق... وعند بداية الممشى نزلت قائلا

ـ كل شيء يتوقف الآن على الخدم.

ـ لن يتكلم احد منهم، فالشاهد هنا يمكن ان يقاسي اكثر من المتهم .

2

نزل مستر ومسز سميث ليتناولا الافطار بالشرفة، كانت اول مرة اراه فيها دون بطانية مطوية على ذراعه، وواضح انهما ناما جيدا، وها هما يتناولان

بشهية افطارهما، المكون من الجريب فروت والتوست والمربى. ولقد تـوجست خشية ان يطلبا مشروبـا غـريبـا سمعـا عنـه من العـلاقـات العـامـة لاحـدى المؤسسات، ولكنهما وافقا على القهوة، بل ابديا الاعجاب بمذاقها.

قال مستر سميث

ـ انا استيقظت من النوم مرة واحدة، خيل الي اني اسمع اصواتا، فقلت لعله مستر جونز قد وصل..

ـ كلا، لم يصل

ـ عجيب ! آخـر شيء سمعتـه منـه في الجمارك كـان اننـا سنلتقي في نفس المساء عند مستر براون .

ـ يحتمل ان بعضهم اغراه بفندق آخر

قالت مسز سميث

ـ كنت آمل ان ابلل جسمي بالماء قبل الفطور ولكني وجدت جوزيف ينظف الحوض.. واضح انه ولد شغال!

ـ اجل... انه لا يقدر بثمن، انا واثق ان الحـوض سيكـون جـاهـزا لك قبـل الغداء.

سأل مستر سميث

ـ وماذا عن المتسول؟

ـ آوه؟. آه! لقد ذهب لحال سبيله قبل انبلاج الصبح.

ـ ارجو الا يكون قد فعل ذلك بمعدة خاوية؟

قال مستر سميث ذلك وهو يمنحني ابتسامة كأنما يريد ان يقول انا امـزح فحسب. فأنا اعرف انك رجل طيب.

قلت.

ـ من المؤكد ان جوزيف فعل الواجب.

تناول مستر سميث قطعة ثانية من التوست، قائلا

ـ لقد فكرت انـه ينبغي ان نتـوجـه ـ مســز سميث وأنـا لنسجـل اسمينـا بالسفارة اليوم

ـ سيكون من الحكمة ان تفعل ذلك.

ـ هي مجاملة ولا شك، بعـدهـا يمكن ان اقـدم رســالـة التقـديم الى وزيـر الشؤون الاجتماعية.

ـ لو كنت في مكانك لسألت في السفارة ما اذا كان هنـاك اي تغيير.. هـذا اذا كانت الرسالة موجهة باسم شخص معين

ـ اعتقد انها باسم شخص يدعى دكتور فيليبوت..

ـ اذن لا بد ان تسأل.. التغييرات تجري بسرعة هنا

ـ ولكن خليفته كما اعتقد سوف يستقبلني، ان ما اتيت من اجلـه هنـا امـر مهم جداً بالنسبة لأي وزير يهتم بصحة الناس

ـ لا اذكر انك اخبرتني بما تخطط له بالضبط

ـ اني هنا كممثل..

اضافت مسز سميث

ـ للنباتيين الامريكيين... النباتيين الحقيقيين

ـ هل هناك نباتيون مزيفون؟

ـ بالتأكيد، بل ان بعضهم يأكلون البيض المخصب!

اضاف مستر سميث بأسى

ـ في تاريخ البشرية كان الهراطقة والمنشقون قادرين دائما على افساد اي حركة عظيمة

ـ وماذا ينوي النباتيون صنعه هنا؟

ـ بالاضافة الى حرية توزيع المطبوعات المترجمة الى الفرنسية طبعا، نريد ان نفتح مركزا للمطبخ النباتي في قلب العاصمة

ـ ان قلب العاصمة اكواخ مهلهلة...

ـ فليكن في مكان مناسب اذن، ونحن نريد ان يحضر الرئيس وبعض من وزرائه مهرجان الافتتاح ويتناولوا اول وجبة نباتية ليكون ذلك قدوة للشعب.

ـ ولكنه يخاف الخروج من القصر.

ضحك مستر سميث بأدب على ما اعتبره مبالغة خيالية من جانبي وقالت مسز سميث..

ـ من الصعب ان تكسب تشجيع مستر براون... انه ليس واحدا منا

ـ لا عليك يا عزيزتي... ان مستر براون كان فقط يمزح معنا، ربما استطيع مكالمة السفارة بعد الفطور.

ـ الهاتف لا يعمل، ولكن يمكنني ارسال جوزيف بمذكرة..

ـ كلا.. افضل في هذه الحالة ان نأخذ تاكسيا.. هل تتفضل فتنادي لنا تاكسيا؟

ـ سأرسل جوزيف لاحضار تاكسي..

قالت مسز سميث في شبه اتهام كما لو كنت احد مزارعي الجنوب

ـ واضح انه رجل كل المهام!

★ ★ ★

شاهدت بيتي بيير يتمشى، فتركتهما متوجها اليه هتف حين رآني

ـ اهلا مستر براون.. هذا صباح جميل جدا.. جدا...

ولوح بالصحيفة التي كان يحملها بمرح مستطردا ..

ـ انظر ما كتبته عنك ... كيف حال ضيفيك؟ ارجو ان يكونا قد استمتعا بالنوم...

ارتقى المدرج الى الشرفة متجها الى الطاولة التي يجلسان اليها حتى اذا ما وصل توقف ليستنشق عبير بورتو برنس الفواح كما لو كان غريبا عن المكان، وهو يردد بحبور

ـ ياله من منظر خلاب! الاشجار والازهار والخليج والقصر.. «ان بعد المسافة يضفي على المنظر فتنة تخلب الابصار»... وليم وروسورث

★ ★ ★

كنت واثقا ان بيتي بيير لم يأت من اجل المنظر الجميل... وكان من المستبعد ان يكون مجيئه في هذه الساعة من اجل كأس مجاني من الروم. والارجح انه جاء يريد بعض المعلومات، يسمعها او يفضي بها، ولم يكن مرحه الظاهر يعنى

انباء طيبة، فهو مرح دائما، ويبدو انه اقترع لنفسه بقطعة نقود ليختار لنفسه واحدا من الطريقين الوحيدين المتاحين في بورتو برنس. المنطق او اللامنطق، البؤس او المرح، وواضح ان وجه بابا دوك (على قطعة النقود) سقط على الارض، فكان الفوز لمرح اليأس! قلت

ـ ارني ما كتبت..

فتحت الجريدة عند باب حديث المدينة الذي كان مكانه الدائم في الصفحة الرابعة. وقرأت كيف انه من بين العدد الكبير من الزوار المرموقين الذين وصلوا امس كان السيد المحترم مستر سميث الذي خسر انتخابات الرئاسة سنة ١٩٤٨ بفارق ضئيل لصالح ترومان، وبصحبته جاءت حرمه الانيقة، السيدة الممتازة مسز سميث التي كانت يمكن لولا سوء الحظ ان تكون السيدة الاميركية الاولى، وزينة حقيقية للبيت الابيض، ومن بين الذين وصلوا ايضا كان الرجل المحبوب من الجميع وراعي المركز الثقافي المعروف باسم فندق تريانون الذي عاد من رحلة عمل في نيويورك.

قلبت الجريدة الى صفحة الانباء الرئيسية، كان هناك خبر عن وزير التعليم يعلن فيه عن خطة لمحو الامية في غضون ست سنوات بالشمال، ولكن لماذا «الشمال» على وجه التحديد؟ لم تكن هناك اية تفصيلات، ولعله كان يعتمد على اعصار يقوم بهذه المهمة. ففي سنة ١٩٥٤ قضى اعصار هازل بالفعل على نسبة ضخمة من الاميين ولم تعلن ابدا الارقام الحقيقية للضحايا. كان هناك ايضا خبر صغير عن مجموعة من المتمردين اجتازوا حدود الدومينكان، وقد تم صدهم بالفعل واعتقل اسيران وجد بحوزتهما اسلحة اميركية. ولو لم يكن الرئيس مختلف حاليا مع الاميركان لكانت الاسلحة في الغالب قد وصفت بانها تشيكية او كوبية.

قلت

ـ ثمة اشاعات نقول ان هناك وزيرا جديدا للشؤون الاجتماعية

قال بيتي بيير:

ـ لا تصدق الاشاعات..

ـ مستر سميث يحمل معه خطاب تقديم الى الدكتور فيليبوت ولا اريد للرجل ان يقع في خطأ.

ـ قد يكون من الافضل ان ينتظر بضعة ايام، فقد سمعت ان الدكتور فيليبوت حاليا في رأس هايتي، او مكان ما في الشمال. اين يدور القتال؟

ـ لا اعتقد ان هناك قتالا يذكر

ـ اي نوع من الرجال يكون هذا الدكتور فيليبوت؟

كان هناك نوع من الفضول يدفعني الى معرفة المزيد عن شخص اصبح يمت لي بصلة قرابة بعيدة بحكم وفاته في حوض السباحة الذي املكه. قال بيتي بيير

ـ هو رجل يعاني الكثير بسبب اعصابه.

لملمت اطراف الجريدة وناولته اياها قائلا

ـ ارى انك لم تشر بشيء الى وصول مستر جونز

ـ آه.. نعم.. جونز؟ قل لي.. من يكون مستر جونز على وجه التحديد؟

الآن.. ايقنت انه جاء ليتلقى معلومات.. وليس لكي يفضي بها.

ـ مجرد رفيق سفر، هذا كل ما اعرفه

ـ انه يزعم انه صديق للمستر سميث

ـ في هذه الحالة، اعتقد انه لا بد ان يكون كذلك.

جرني بيتي بيير خطوة خطوة وبشكل غير ملموس بعيدا عن الشرفة حتى استدرنا حول الركن بعيدا عن اعين وآذان آل سميث، قال:

ـ لو صارحتني القول فانني يمكن ان اساعد الى حدما

ـ اصارحك بماذا؟

ـ عن الماجور جونز..

ـ افضل الا تدعوه ماجور.. لا ارى ان هذا اللقب يناسبه

ـ هل تعتقد انه ليس..

ـ انا لا اعرف شيئا عن الرجل.. لا اعرفه بالمرة

ـ كان يعتزم النزول بفندقك

ـ يبدو انه وجد لنفسه مكانا آخر

ـ هو ذاك.. في مركز الشرطة.

ـ لماذا بحق الجحيم.؟

ـ اعتقد انهم وجدوا شيئا مريبا في حقائبه.. وان كنت لا ادري ما هو بالتحديد.

ـ هل السفارة البريطانية تعلم؟

ـ كلا. ولكني اظن انها لا تستطيع ان تفيد كثيرا، فهذه الامور يجب ان تأخذ مجراها. وعلى اية حال فانهم لم يسيئوا معاملته بعد..

ـ ما الذي تنصح به يا بيتي بيير؟

ـ يحتمل ان يكون الامر مجرد سوء تفاهم، ولكن حتى في هذه الحالة هناك دائما عقدة اثبات الوجود. ورئيس الشرطة هنا يعاني كثيرا من عقدة اثبات الوجود، وربما لو تحدث مستر سميث مع الدكتور فيليبوت، فان الدكتور فيليبوت يمكن ان يتحدث مع وزير الداخلية وبالتالي فان مستر جونز قد لا يعاقب بأكثر من غرامة بسيطة.

ـ ولكن ما هي تهمته؟

ـ هذا السؤال في حد ذاته ذو طابع فني

ـ ولكنك قلت لي منذ لحظة ان الدكتور فيليبوت في الشمال؟

ـ هذا صحيح، ولعل الافضل ان يقابل مستر سميث وزير الشؤون الخارجية.

وأخذ بيتي بيير يلوح بصحيفته فخورا وهو يقول:

ـ انه لا بد يعلم الآن اهمية مستر سميث فمن المؤكد انه قرأ ما كتبته.

ـ سأذهب من فوري لأقابل القائم بالاعمال

ـ هذا هو الاسلوب الخاطىء، فاشباع عقدة اثبات الوجود عند رئيس الشرطة اسهل كثيرا من تأكيد النعرة الوطنية، طالما الحكومة هنا لا تقبل اية احتجاجات من الاجانب.

★ ★ ★

كانت هذه الى حد كبير نفس النصيحة التي اعطانيها القائم بالاعمال فيما بعد في ذلك الصباح، كان رجلا اجوف الصدر بادي الخجل يتحدث بكثير من

التردد وبشيء من سخرية المهزوم. فظروف الحياة في العاصمة هي التي هزمته وليس عروات التدرن. وهو يملك الشجاعة والقدرة على السخرية من الهزيمة. فهو على سبيل المثال يحتفظ دائما بنظارة سوداء في جيبه يسارع بوضعها على عينيه كلما رأى احد عناصر الطونطون ماكوت الذين يرتدون هذه النظارات كجزء من زيهم الرسمي بغرض التخويف. وقد جمع عدة كتب حول الحياة النباتية في جزر البحر الكاريبي ولكنه شحنها جميعا الى بلده مثلما شحن اطفاله، لان احتمال نشوب حريق - بمساعدة صفيحة بنزين - قائم في اية لحظة.

وقد استمع لي دون مقاطعة وانا اخبره بورطة جونز ونصيحة بيتي بيير ومن المؤكد انه لم يكن سيبدو عليه اي اثر للمفاجأة لو اني اخبرته عن وزير الشؤون الاجتماعية الذي لقي حتفه في حوض سباحة فندقي او الطريقة التي تخلصت بها من الجثة، ولكني واثق ايضا انه بينه وبين نفسه كان سيسعد لانني لم ادعه للحضور. وعندما انتهيت من حديثي قال بهدوء:

- لقد تلقيت من لندن برقية بشأن جونز

- كذلك قبطان السفينة «ميديا» تلقى برقية مماثلة من الشركة المالكة للسفينة في فيلادلفيا ولكنها لم تكن واضحة بما فيه الكفاية.

- برقيتي انا نستطيع ان نقول انها كانت برقية تحذيرية تطلب مني ان لا اتحمس لمساعدته وارجح ان احدى القنصليات في مكان ما قد اصابها رشاش بسببه

- حتى لو كان احد الرعايا البريطانيين في السجن؟

- انا معك في ان هذا شيء صعب، ولكن علينا ان نذكر دائما ان حتى هؤلاء الاوغاد يمكن ان يكون لديهم سبب وجيه، وأنا أساساً سوف اتصرف بحذر

كما تقول البرقية ويمكن ان نبدأ باستفسار رسمي..

مد يده نحو الهاتف.. ولكنه تراجع بائساً وهو يقول في شبه ضحك

- يبدو انني لم انس بعد عادة استخدام الهاتف!

كان متفرجا نموذجيا من جميع الوجوه.. متفرجا من النوع الذي يحلم به اي ممثل ذكي، ولماح، او مستمتع او ناقد ايضا بشكل معقول، وهو درس تعلمه من كثرة ما شاهد من عروض جيدة وسيئة لمختلف المسرحيات

ولأمر ما رحت افكر في كلمات امي لي عندما رأيتها لآخر مرة وهي تقول ما هو الدور الذي تلعبه الآن؟ ولعلني كنت بالفعل العب الآن دورا هو دور الرجل الانجليزي المهتم بمصير واحد من بني جلدته او دور رجل اعمال مسؤول يعرف واجبه بوضوح وجاء هنا ليتشاور مع الرجل الذي يمثل دولته. وهكذا نسيت مؤقتا تشابك السيقان في السيارة البيجو وان كنت واثقا تماما ان القائم بالاعمال لم يكن ليرضى بان انبت قرنين في رأس زميل له بالسلك الدبلوماسي .. باعتبار هذا عملا. من اعمال المسرح الهزلي

قال القائم بالاعمال .

- اشك في ان تتمخض استفساراتي عن اية نتيجة. فوزير الداخلية سيقول لي ان المسألة في يد الشرطة وربما اتحفني بمحاضرة عن الفصل بين السلطتين التشريعية والتنفيذية. الم احدثك من قبل عن الطاهي الذي يعمل عندي؟ لقد حدث ذلك وانت بالخارج. كنت قد دعوت عددا من زملائي للعشاء، وفجأة اختفى الطاهي. التقطه رجال الشرطة في السوق واضطرت زوجته الى فتح المعلبات التي تحتفظ بها للطوارىء. اعتقد ان صديقك السنيور بينيدا لم يرحب كثيرا باطباق السلامون المعلب

لماذا يقول لي «صديقك» السنيور بينيدا؟

واصل القائم بالاعمال حديثه

- ثم علمت فيما بعد انه احتجز باحدى زنانين الشرطة ثم افرجوا عنه في وقت متأخر جدا من اليوم التالي بعد ان استجوبوه عن الضيوف الذين ادعوهم بمنزلي. ولقد قدمت احتجاجا بالطبع الى وزير الداخلية. قلت انني كان يجب ان ابلغ بانه مطلوب، وعندئذ كنت سأرتب له ان يذهب لمركز الشرطة في وقت مناسب، ولكن وزير الداخلية قال ببساطة ان الطاهي هايتي الجنسية وانه من حقه ان يفعل ما يشاء بأي واحد يحمل جنسية هايتي

- ولكن جونز انجليزي..

- انا اعرف ذلك، ولكني اشك كثيرا في ان حكومتنا يمكن ان تبعث في هذه الايام باحدى بوارجها. نعم انا اود ان اساعد ما بوسعي غير اني اعتقد ان نصيحة بيتي بيير سديدة بمعنى الكلمة. فلتحاول الوسائل الاخرى اولا فاذا لم تصل الى شيء ساحتج بالتأكيد غدا،صباحا، وان كان يخامرني احساس ان هذه ليست اول زنزانة يعرفها الماجور جونز.. اولى بنا الا نبالغ في تضخيم الموقف.

احسست الى حد ما انني اشبه بالملك الممثل الذي يلومه هاملت لانه يبالغ في تمثيل الدور.



عندما عدت الى الفندق كان حوض السباحة قد امتلأ والبستاني يتظاهر بانه مشغول بقشط بعض اوراق الشجر من على سطح الماء وسمعت صوت الطاهي في المطبخ.. كل شيء يكاد يكون عاديا جدا بل لقد كان هناك ضيوف ايضا، فها هو مستر سميث يسبح بمايوه من النايلون الرمادي محاولا ان يتفادى مقشط البستاني والمايوه مفتوح وراءه ليضفي على مؤخرته شكل حيوان منقرض من حيوانات ما قبل التاريخ، رائحا غاديا بضربات منتظمة وانفاس ثقيلة. وعندما رآني فوقف منتصبا في الماء كالتمثال نافشا صدره المغطى

بخيوط طويلة من الشعر الابيض..

جلست على حافة الحوض وناديت على جوزيف ليحضر كأسا من الروم وزجاجة كوكاكولا. وأحسست بانفاسي تضيق وانا اشهد مستر سميث يغوص في العميق ويمر شبحه تحت الماء بالمكان الذي مات فيه وزير الشؤون الاجتماعية قبل ان يطفو على السطح، ويهز نفسه ثم يجلس بجواري.

ظهرت مسز سميث بشرفة جون باريمور وهي تهتف بزوجها.

ـ جفف نفسك يا عزيزي والا اصابك برد

اجابها مستر سميث

ـ الشمس ستجففني بما فيه الكفاية يا عزيزتي..

ـ لف نفسك بالفوطة حتى لا يحترق جلدك.
اطاع مستر سميث زوجته بينما قلت انا له

ـ مستر جونز.. اعتقله رجال الشرطة

صرخت مسز سميث

ـ يا ربي!؟ لا تقل ذلك.. ماذا فعل؟

ـ لا يلزم بالضرورة ان يكون قد فعل شيئا..

ـ هل رأى محاميا؟

ـ هذا غير ممكن هنا، الشرطة لا تسمح بذلك.

رشقني مستر سميث بنظرة متحدية قائلا:

ـ الشرطة هم الشرطة في كل مكان، هذا يحدث حتى في بلادنا، يحدث عندنا

في الجنوب، يلقى بالملونين في السجن ولا يسمح لهم بمحام.

ولكن الخطأ لا يعالج بالخطأ..

ـ انا ذهبت للسفارة. ورأيتهم هناك. انهم لا يستطيعون شيئا.

قال مستمر سميث باشمئزاز

ـ هذه فضيحة!

كان واضحا انه يشير الى موقف السفارة، وليس الى وضع جونز!

ـ يقول بيتي بيير ان افضل ما يمكن عمله في الوقت الحاضر هو ان تتدخل انت بنفسك، كأن تقابل وزير الخارجية مثلا

ـ انا سأفعل كل ما استطيع من اجل مستر جونز فلا بد ان هناك خطأ ما، ولكن لماذا يفترض انني يمكن ان يكون لي اي نفوذ؟

قلت، بينما كان جوزيف قد اقبل بالكأس وزجاجة الكوكاكولا:

ـ انت كنت مرشحا للرئاسة ـ اليس كذلك؟
كرر مستر سميث مرة اخرى، وهو يتأمل محتويات الزجاجة..

ـ سأفعل كل ما استطيع من اجل مستر جونز لقد احببت هذا الرجل كثيرا..

خيل الي ساعتها انه ايضا لا يجب ان يمنحه لقب «ماجور».. لا ادري لماذا.. مع ان من الممكن احيانا ان يضم الجيش رجالا طيبين. استطرد مستر.سميث قائلا:

ـ ان مستر سميث في نظري ادق نمط للرجل الانجليزي.. لا بد وأن هناك خطأ ما

ـ لا اريد ان اسبب لك اية متاعب مع السلطات هنا

ـ انا لا اخشى متاعب مع اي سلطات..

3

كان مقر وزارة الخارجية يقع في احد مباني المعرض بالقرب من الميناء وتمثال كولمبوس، فقد مررنا في طريقنا بالنافورة الموسيقية التي لا تعزف ابدا، والحديقة العامة التي تظلل مدخلها عبارة آل بربون الشهيرة، منسوبة اليوم الى هايتي وصاحب عرشها باب دوك. «انا علم هايتي الفريد، يبلى الزمان ولا ابلى».. حتى وصلنا اخيرا الى المبنى الحديث الشاهق المقام بالزجاج والاسمنت والسلم العريض ثم قاعة الانتظار الضخمة المرصعة بعدد كبير من المقاعد الوثيرة ولوحات مشاهير الرسامين في هايتي، لوحات وثيرة ليس لها علاقة حميمة بمناظر المستولدين الذين يزحمون ميدان مكتب البريد وامعاء المدينة المهلهلة التي يراها المرء في ميدان سان سوسي.

كان بقاعة الانتظار نحو ٢٢ شخصا من اهل الطبقة الوسطى. اجسام بدينة ضخمة وعلى ملامحهم مخايل النعمة ظاهرة والنساء بالذات في ابهى حلة، يتلألأن بالوانهن الزرقاء الكهربائية او الخضراء اللاذعة والكل يتبادلون الثرثرات بسعادة بادية كانهم يتناولون قهوة الصباح في دورهم ويتطلعون باستنكار الى كل وافد جديد. حتى الشخص الذي جاء يتوسل شيئا هنا لا يملك الا ان يحس بأنه ذو اهمية وسط هذا الجو الذي تضبط ايقاعه دقات آلة كاتبة بطيئة..

بعد نحو عشر دقائق من وصولنا اهلت طلعة السنيور بينيدا الذي دخل بخطوات واثقة يتقدمه سيجاره الطويل الممتد من بين اسنانه كأنه مدخنة سفينة اتخذت وضعا افقيا. ودون ان ينظر في وجه احد من الجلوس دلف من احد الابواب دون ان يسأل أحدا من الحجاب.

قلت لمستر سميث شارحا الامر

ـ هذا هو المكتب الخاص لوزير الخارجية، وسفراء امريكا الجنوبية ما زالت لهم الاولوية وخصوصا السفير بينيدا.. فسفارته لا يوجد فيها اي لاجيء سياسي. على الاقل حتى الآن.

طال انتظارنا ٤٠ دقيقة دون ان يبدو على مستر سميث انه فقد صبره، بالعكس.. قال بنبرة من يفهم الاصول والاوضاع.. عندما لاحظ ان مقدمي الالتماسات قد انخفض عددهم اثنين بعد حديث قصير مع احد الموظفين

ـ يبدو انهم منظمون جدا هنا. فوقت الوزير يجب ان يكون محميا من المتطفلين

واخيرا خرج بينيدا عابرا القاعة وسيجاره ما زال يدخن، ولكنه كان سيجارا جديدا غير الذي دخل به ولا زالت علامته المميزة باسمه في مكانها عليه وفي هذه المرة اومأ لي برأسه، وخيل الي انه كان على وشك ان يتوقف ليتحدث الي، ويبدو ان ايماءته لي جعلت الموظف الذي كان يرافقه للخروج حتى رأس الدرج ينتبه الى وجودنا، لأنه عندما عاد سألنا بلطف عما نريد، قلت

ـ وزير الخارجية

ـ هو مشغول اليوم مع السفراء الاجانب، هناك اشياء كثيرة يناقشها معهم قبل ان يغادر غدا الى الامم المحدة.

ـ هذا سبب ادعى لان يرى مستر سميث في الحال
ـ مستر سميث؟

ـ الم تقرأ صحف اليوم:

ـ نحن.. في الواقع.. كنا مشغولين جدا منذ الصباح الباكر

ـ مستر سميث وصل امس، انه كي تعرف ـ مرشح الرئاسة

جحظته عينا الموظف الشاب من فرط الدهشة، وعدم التصديق

ـ مرشح الرئاسة؟ هنا؟ في هايتي؟

ـ هو لديه بعض الاعمال هنا، ولكن هذا امر يعني الرئيس وحده.

غير انه يريد ان يلتقي بوزير الخارجية قبل ان يعود الى الولايات المتحدة.

ـ لو سمحت انتظر لحظة.

هرع خارجا من القاعة ليعود بعد ثانية حاملا بين يديه بصحيفة الصباح.

دق على باب الوزير.. ودخل

همس مستر سميث في صوت محرج

ـ مستر براون. انت تعلم انني لم اعد مرشحا للرئاسة، لقد رفعنا رايتنا مرة واحدة للتاريخ وانتهى الامر عند هذا الحد.

ـ لا داعي لتشرح هذه المسألة الآن يا مستر سميث ثم ان مرشح الرئاسة لا يفقد هذا اللقب الا بعد ان يصبح رئيسا بالفعل، وعلى اية حال انت رجل ملك للتاريخ

عند هذه العبارة لمحت في تلكما العينين البريئتين انني قد بالغت اكثر مما ينبغي فاضفت

ـ ان راية مثل رايتك انما ترفع لكي يطالعها كل الناس في كل الاوقات.. في هذه السنة مثلما في السنوات الماضية.

انتبهت الى الموظف الشاب واقفا بجوارنا، لم تكن الصحيفة معه

ـ لو سمحتما.. تفضلا معي.

اضاء لنا وزير الخارجية طاقم اسنانه معربا عن ترحيبه الشديد.. ولمحت على حافة مكتبه صحيفة الامس. كانت راحة يده التي بسطها لنا ضخمة، مكتنزة، وردية وندية. قال لنا بانجليزية ممتازة كم سره ان يعلم بوصول مستر سميث وكيف انه كان ضعيف الامل في ان يحظى بشرف لقائه خصوصا وانه مسافر غدا الى نيويورك .. ثم ان السفارة الاميركية لم تقل شيئا والا كان رتب مراسم الاستقبال كما يجب.

قلت انه نظرا لأن رئيس الولايات المتحدة قد استدعى سفيره فان مستر سميث حرص على ان يجعل زيارته غير رسمية.

كان وزير الخارجية من الذكاء بحيث تفهم ما اردت الاشارة اليه فقال موجها الحديث الى مستر سميث

ـ اعتقد انك ستلتقي مع الرئيس..

اسرعت اقول

ـ لم يطلب مستر سميث بعد تحديد موعد، ولكنه حرص على ان يراك اولا قبل توجهك الى نيويورك.

قال الوزير بكثير من المباهاة

ـ علي ان ارفع احتجاجي الى الامم المتحدة.. هل لك في سيجاره يا مستر سميث؟

مد يده بعلبة السيجار الجلدية الى مستر سميث، لاحظت ان العلامات على السيجار تحمل اسم السنيور بينيدا

سأل مستر سميث

ـ تقول احتجاج؟

ـ نعم.. على غارات جمهوريه الدومينكان.. ان المتمردين مزودون بـاسلحـة اميركية، ولدينا ادلة

ـ اية ادلة؟

ـ هناك رجلان اعتقلا، ومعهما مسدسان صنعا في الولايات المتحدة

ـ هذه اسلحة يمكن ان تشتريها في اي مكان بالعالم...

ـ وقـد تلقينـا وعـدا بتـأييـد غـانـا لنـا ولنـا امـل كبير في ان الـدول الافروآسيوية....

تدخلت بسرعة

ـ اخشى ان يكون مجيء مستر سميث هنا اليوم لامر مختلف تماما... ثمـة صديق حميم له كان برفقته اثناء السفر جرى اعتقاله بواسطة الشرطة امس.

ـ اميركي؟

ـ بل انجليزي.. اسمه جونز

ـ هل تقـدمت السفـارة البريطـانيـة بـاستفسـار؟ اعتقـد ان هـذا امـر من اختصاص وزارة الداخلية

ـ لكن كلمة منك يا صاحب السعادة· كفيلة بأن..

ـ انا لا استطيع التـدخـل في شؤون الـوزارات الاخـرى، اظن مستر سميث يفهم هذه المسائل

اقتحم مستر سميث المناقشة قائلا بخشونة لم اكن اعرفها فيه:

ـ تستطيع على الاقل ان تجد ما هي التهمة. أليس كذلك؟

ـ التهمة؟

ـ نعم: التهمة!
ـ أوه.. تهمة؟

ـ تماما ما هي التهمة؟

لا يلزم ان تكون هناك تهمة بالضرورة.. انت تتوقع الاسوأ

ـ لماذا اذن تحتفظون به في السجن!

ـ انا لا اعرف شيئا عن هذه الحالة، ولكن ربما هناك اشياء يجري التحري عنها.

ـ اذن يجب ان يقدم الى قاضي تحقيقات، ويفرج عنه بكفالة. انا مستعد لدفع اية كفالة طالما المبلغ معقول

قال الوزير فاغرا فاه: باستغراب

ـ كفالة؟.. تقول كفالة؟

ثم نظر الي مستنجدا بايماءة من سيجاره الهدية

ـ ماذا تعني كلمة كفالة؟

ـ انها نوع من الهدية تقدم للدولة.. اذا عجز سجين عن المثول امام المحكمة.. ويمكن ان تكون مبلغا ضخما..

قال مستر سميث

ـ المفروض انك تعرف «هابياس كوربوس»؟

ـ طبعا.. طبعاً اعرفه، ولكني نسيت معظم مادرسته من اللاتينية. هناك فرجيل، وهوميروس.. اسماء كثيرة لامعة، ولكني آسف لانني لم يعد لدى وقت للاطلاع..

قلت لمستر سميث:

ـ ان مصدر القوانين هنا هو قانون نابليون

ـ نابليون؟

ـ انه يختلف نوعا ما عن القوانين الانجلوساكسونية كما تعلم، بما فيها الهابياس كوربوس

ـ ولكن من المؤكد ان المرء لا بد ان يقدم لمحاكمة.. لا سجن بدون محاكمة

ـ طبعا، هذا يحدث في النهاية

ثم رحت اتحدث بسرعة الى الوزير بالفرنسية حتى ان مستر سميث لم يستطع ملاحقتي لانه لم يكن يعرفها الا قليلا، قلت

ـ اعتقد ان بعضهم ارتكب خطأ سياسيا، ان مرشح الرئاسة صديق شخصي لذلك الرجل جونز، ولا اظن من مصلحتكم ان تكسبوا عداوته وانت على وشك زيارة نيويورك وانت تعرف ولا شك اهمية وجود علاقات صداقة مع المعارضة في البلاد الديمقراطية وربما كان من الافضل ان تدع مستر سميث يرى صديقه والا فمن حقه ان يعتقد انكم.. اسأتم معاملته.

هل يتحدث مستر سميث الفرنسية؛

ـ كلا..

ـ حسن... انت تعلم ولا شك ان هناك احتمالا بأن الشرطة قد تكون تجاوزت التعليمات وانا لا اريد ان يتلقى مستر سميث انطباعا سيئا عن تدابيرنا البوليسية..

ـ الا يمكن ان ترسل طبيبا يسبقنا، ليرتب الامور؟

ـ لا يوجد هناك بالطبع شيء نريد ان نخفيه ولكن فقط لمجرد الاحتياط فاحيانا يسيء المسجون التصرف. انا واثق انه حتى في بلادكم..

قاطعته متفهما.

ـ اذن نستطيع ان نعتمد عليك لنتحدث مع زميلك؟ ما اقترحه بالتحديد هو ان يترك مستر سميث، لديك مبلغا معينا ـ بالدولارات طبعا ـ للتعويض عن اي ضرر يمكن ان يكون قد وقع منه على بعض رجال الشرطة..

ـ سافعل ما استطيع، طال الامر بعيدا عن الرئيس، لانه في هذه الحالة لا يستطيع اي واحد منا اي شيء.

ـ مفهوم.

فوق رأسه كانت تطل صورة بابا دوك، صورة البارون ساميدي بثوبه الاسود ذي الذيل الطويل يحدق فينا من خلال عدساته الثقيلة بعينين كليلتين خاليتين من اي تعبير.. يقال عنه انه يتلذذ احيانا بمشاهدة بعض ضحايا الطونطون وهم يموتون ببطء، ولكن نظرة هاتين العينين لا تتغير. ولعل اهتمامه بالموت كان نوعا من العلاج، قلت لمستر شميث

ـ اعطني مائتي دولار.

اخرج الرجل من محفظته ورقتي بنكنوت من فئة المائة دولار. في جيب المحفظة الآخر لمحت صورة لزوجته الفاضلة ملفوفة ببطانيتها. وضعت ورقتي

البنكنوت على مكتب الوزير. خيل الي انه ينظر اليهما بعدم موافقة ولكني لم اتصور ان مستر جونز يساوي اكثر من ذلك

توقفت عند الباب، ملتفتا الى الوزير لاسأله

ـ بالمناسبة.. هل الدكتور فيليبوت موجود هنا الآن؟ كنت اود ان ابحث معه شيئا بخصوص الفندق.. مشروع صرف..

ـ اعتقد انه في الجنوب لافتتاح مشروع مستشفى جديد.

معقول جدا. فان هايتي بلد عظيم بالنسبة للمشروعات فالمشروعات تعني دائما ثروة لاصحابها، خصوصا اذا كانت لا تبدأ ابدا!؟

ـ سنسمع منك قريبا اذن؟

ـ بالطبع.. بالطبع ولكني لا اعد بشيء

كان يبدو الآن جافا، الى نوع ما ولقد لفت نظري دائما ان الرشوة لها هذا التأثير (وان كانت هذه ليست رشوة بالمعنى المفهوم) فهي تغير من شكل العلاقة بين الناس، فالرجل الذي يقدم الرشوة انما ينزل بالفعل عن جزء ما من اهميته ومتى ما قبلت الرشوة اصبح هو في المركز الادنى، تماما مثلما يدفع رجل لامرأة. وربما اكون قد اخطأت. لعله كان من الافضل ان اترك مستر سميث يمثل له تهديدا غير واضح فالمبتز يظل دائما محتفظا بتفوقه!

اثبت وزير الخارجية انه رجل عند كلمته.. وبعد فترة قصيرة سمح لنا بزيارة السجين.. جونز.

وفي اليوم التالي، في مركز الشرطة، كان الرقيب هو اهم شخص في العالم او على الاقل اهم من سكرتير وزير الخارجية الذي رافقنا بنفسه الى هناك، والذي حاول عبثا ان يجذب انتباه الرقيب العظيم. ولكن هذا لم يبال به وكان عليه ان

ينتظر دوره مع العدد الكبير من اصحاب الحاجات

جلست الى جوار مستر سميث تحت مجموعة من الصور الملتقطة لجثة زعيم الثوار الذي قتل منذ شهور ولا زالت في مكانها على الجدار، نظر مستر سميث اليها ولكنه اسرع يبعد عينيه عنها.

في الحجرة الصغيرة المواجهة لنا كان يجلس رجل زنجي طويل القامة يرتدي بزة مدنية انيقة، ويمد قدميه بارتياح على سطح مكتبه، وهو يحدق في وجهينا من خلال عدساته السوداء، وربما كانت اعصابه هي التي اضفت عليه سمات القسوة والبطش... قال مستر سميث وهو يبتسم

ـ سوف يتذكرنا مرة اخرى.

ويبدو ان الرجل عرف اننا نتحدث عنه فقد مد يده بتثاقل يدق ناقوسا صغيرا على مكتبه، فظهر شرطي في الحال امامه. ودون ان ينزل الرجل قدميه او يحول ناظريه عنا سأل الشرطي سؤالا، فنظر الشرطي ناحيتنا ثم ادلى بجوابه، بينما النظرة المحدقة الطويلة لا زالت مصوبة ناحيتنا. ادرت وجهي بعيدا ولكنني ما لبثت ان عدت انظر مشدودا الى العدستين القاتمتين المستديرتين، كأنتا اشبه بعدستي مجهر يراقب صاحبه حيوانين لا اهمية لهما...

قلت هامسا بضيق

ـ مخلوق بشع...

لاحظت ان مستر سميث يبادل الرجل تحديقا بتحديق، ومع ان المرء لا يستطيع أن يرى كم مرة طرفت اهداب الرجل خلف العدستين القاتمتين الا ان نظرة مستر سميث الثابتة هي التي انتصرت في النهاية، فقد نهض الرجل واغلق الباب. قلت «برافو» قال مستر سميث

ـ سوف اذكره انا ايضا

ـ لعله يعاني من كثرة الحموضة

ـ هذا محتمل جدا يا مستر براون

★★★

مر علينا اكثر من نصف ساعة قبل ان يجد سكرتير الوزير اي اهتمام.

في الدول الدكتاتورية يأتي الوزراء ويذهبون، وفي بورتو برنس لا دوام الا لرئيس الشرطة ورئيس الطونطون ماكوت، وقائد الحرس الجمهوري.. هؤلاء وحدهم هم الذين يستطيعون بسط مظلة الحماية على موظفيهم، وهكذا فان سكرتير الوزير وجد نفسه شبه مطرود من جانب الرقيب كأنه صبي صغير ارتكب هفوة ما، وباشارة متأففة من يده وجدنا انفسنا نساق بواسطة عريف شرطة بين صفين طويلين من الزنازين التي تفوح برائحة حدائق الحيوان.

ورأينا جونز جالسا في زنزانته على دلو مقلوب الى جانب مرتبة من القش. وجهه مخطط طولا وعرضا بشرائط اللصاق، وذراعه اليمنى مربوطة برباط ومدلى الى جانبه. كانوا قد اعدوه كأحسن ما استطاعوا، ولكن عينه اليسرى كانت اشبه بقطعة لحم مشوية. وصديريه المزدوج بدا اكثر بشاعة بفضل بقعة الدم الصغيرة عليه. حيانا بابتسامة سعيدة قائلا.

ـ عظيم.. عظيم.. تعالوا انظروا من يجلس هنا!

قلت

ـ يبدو انك قاومتهم حين جاءوا ليعتقلوك؟

اجاب بذكاء

ـ هكذا يقولون.. هل اجد معك سيجارة؟

ناولته واحدة

ـ الا تحمل مبسم فلتر؟

ـ كلا...

ـ أوه.. حسن.. ما كل ما يتمنى المرء يدركه! الواقع انني منذ الصباح وأنا احس ان الامور قد بدأت تتطور الى الافضل ففي الظهر قدموا لي بضع حبات من الفول. ثم جاءني طبيب ليمارس مهنته معي...

سأل مستر سميث

ـ ما هي تهمتك؟

ردد جونز.. وفي عينيه نفس نظرة الذهول التي شاهدتها من قبل على وجه وزير الخارجية

ـ تهمتي؟

ـ اجل. ما الذي يقولون انك فعلته؟

ـ انا لم يتح لي وقت لكي افعل اي شيء. انا لم اخرج حتى من الجمارك

ـ ولكن لا بد من وجود سبب.. تشابه اسماء ربما؟

ـ انهم لم يشرحوا لي الامر بوضوح كامل بعد.

ثم اضاف وهو يملس عينه المتورمة بحذر

ـ لا اظنني ابدو في احسن صورة

تطلع مستر سميث حوله باشمئزاز قائلا

ـ هل هذا هو كل ما لديك لتنام عليه؟

ـ سبق ان نمت في اماكن اسوأ...

ـ اين؟ من الصعب ان يتصور المرء...

قال مستر جونز بغموض، وبلهجة غير مصنعة

ـ أوه.. في الحرب. اجل في الحرب كما تعلم..

ثم اضاف:

ـ اعتقد ان المشكلة هي ان رسالة التقديم كانت للشخص غير المناسب، انا اعرف انك حذرتني، ولكني تصورت انك كنت تبالغ، مثل الصراف.

ـ من اين جئت برسالة التقديم؟

ـ من شخص قابلته في ليوبولد فيل

ـ وماذا كنت تفعل في ليوبولد فيل؟

ـكان ذلك منذ اكثر من عام. وانا اسافر كثيرا كما تعلم.

خامرني الاحساس بأن الزنزانة بالنسبة له لم تكن مفاجأة... وليست اكثر من اي مطار من عدة مطارات يمر بها في مسيرته الطويلة..

قال مستر سميث..

ـ يجب ان نخرجك من هذا المكان. لقد ابلغ مستر براون القائم بالاعمال البريطاني. كذلك قابلنا معا وزير الخارجية، ودفعنا كفالة...

ـ كفالة!

ولكنه كان فيما يبدو اكثر واقعية من مستر سميث فأضاف

ـ دعني اقترح افضل مـا يمكن ان تفعـلاه من اجلي، اذا سمحتما، وسـوف اسدد لكما المبلغ فيما بعد. اعطيا عشرين دولارا للرقيب عندما تخرجان.

قال مستر سميث

ـ سنفعل بالتأكيد طالما ترى ان هذا سيكون مفيدا،

ـ طبعا سيكون مفيدا. ثم هناك شيء آخر. فلا بد لي من تـوضيـح مسـألـة التقديم. هل اجد مع احدكما قلما وورقة؟

اخرج مستر سميث من جيبه قلما وورقة.. وبدأ جونز يكتب

ـ هل معك مظروف؟

ـ كلا للأسف

ـ اذن يجب ان اغير اللغة نوعا ما.

تردد لحظة قبل ان يسأله

ـ ماذا يعني «مصنع» بالفرنسية!

ـ يوزين..

ـ آه.. انا لم اكن ابدا جيدا في اللغات. ولكني التقطت قليلا من الفرنسية

ـ في ليو بولد فيل؟

تجاهل السؤال. وناولني ما كتبه قائلا

ـ اعط هذه للرقيب. واطلب منه ان يرسلها

ـ هل يعرف القراءة؟

ـ ارجح ذلك.

ونهض واقفا، مادا يده بالقلم ليعيده لصاحبه وهو يقول بـأدب كمن ينهي المقابلة

ـ كان جميلا منكما ان تأتيا لزيارتي.

قلت ساخرا:

ـ هل انت مرتبط بموعد آخر؟

ـ بل الحق ان حبات الفول قد بدأت تؤتي مفعولها.. ولدي موعـد، عـاجـل مع الدلو.. هل لدى احدكما بعض الورق؟

جمعنا فيما بيننا ثلاثة مظاريف مستعملة، وايصـال استـلام، وصفحـة او اثنتين من دفتر مواعيد مستر سميث، ورسالة قديمة موجهـة لي، كنت اظن انني اعدمتها، وكانت قد جاءتني من سمسار عقارات في نيـويـورك يعتـذر فيهـا عن عدم وجود مشترين يهتمون باقتناء فندق في بورتو برنس.

هتف مستر سميث بانفعال ونحن نجتاز الدهليز خارج الزنزانة...

ـ ما اروع معنويات هذا الرجل! ان هذه الروح هي التي اخرجتكم ظافـرين من الحرب الخاطفة! سوف اخرجه من هـذا المكـان حتى لـو اقتضى الامـر ان اقابل الرئيس نفسه

تطلعت الى الرسالة التي احملها، كانت موجهة بـاسم اعـرفـه، لـواحـد من ضباط الطونطون ماكوت. قلت

ـ ترى، هل نحن مضطرون الى ان نتورط اكثر من ذلك؟

قال مستر سميث بكبرياء ادركت معه انه كان يفكر في الاشيـاء الكبيرة التي لا يعرفها امثالنا، مثل الانسانية والعدالة وطريق السعـادة الحقيقيـة.. فهـو لم يرشح نفسه للرئاسة من فراغ!

الفصل الخامس

في اليوم التالي صرفتني عدة اشياء عن التفكير في مصير جـونـز ولكنني لا اعتقد ان مستر سميث نسيه لحظة واحدة. فقد شاهدتـه في السـاعـة السـابعـة صباحا في حوض السباحة يذرعه من طرفه العميق الى طرفه الضحـل بحـركـة بطيئة، لعلها كانت تساعده اكثر على التفكير. وبعـد تنـاول الفطـور اخـذ يكتب سطورا في اوراق كتبتها له مسـز سميث على آلـة طبـاعـة محمـولـة من طـراز كورونا، مستخـدمـة اصبعين اثنين، ثم ارسلهـا هـو - عن طـريق جـوزيف - بالتاكسي. كانت احداها معنونة باسم سفارتـه، واخـرى بـاسم وزيـر الشؤون الاجتماعية الجديد الذي اعلن نبأ تعيينه هذا الصباح في جريدة بتي بيير.

كان الرجل في الحق يتمتع بطاقة عظيمة بالنسبـة لسنـه، وانـا واثق انـه لم تبرح مخيلته لحظة واحدة صـورة مستر جـونـز وهـو جـالس على الـدلـو في زنزانته، بينما هو يفكر في «المركز النبـاتي» الـذي حتما سينجـح ذات يـوم في القضاء على نسبة الحموضة العالية في طبـاع اهـل هـايتي، وربما كـان ايضـا يتدبر الخطوط العريضة لمقال حول رحلته وعد بكتابته لصحيفته المحليـة التي لا بد وان تكون بالضرورة ديمقراطية، وضد التفرقة العنصرية، ومتعاطفـة مـع المذهب النباتي، ولقد سألني في اليوم السابق ان اراجع بعض مـا كتب لاصحـح ما اجده من اخطاء قائلا وفي صوته نبرة الرواد

«ان كل الافكار المطروحة هنا من خلقي انا»

أما اول ما صرف ذهني بعيدا عن جونز فقد دهمني في الساعات الاولى من الصباح عندما استيقظت من نومي على دقات جوزيف المذعورة على باب غرفتي ليقول لي انهم، على عكس كل التوقعات، اكتشفوا جثة الدكتور فيليبوت بسرعة وان العديد من سكان الضاحية فروا من بيوتهم ليلجئوا الى السفارة الفنزويلية، وكان من بينهم رئيس شرطة الناحية ومعاون البريد واحد المدرسين. (لا يعرف احد ماذا كانت علاقتهم بالوزير السابق) وان قيل ان الدكتور فيليبوت مات منتحرا ولكن احدا لا يعرف ماذا تنوي الحكومة ان تقول، ويحتمل جدا ان يستقر الرأي على انه حادث اغتيال سياسي مدبر من جانب المتمردين المرابطين في الدومنيكان. وقيل ايضا ان الرئيس في حالة هياج، لانه كان يريد ان يضع يده على الدكتور فيليبوت الذي تجاسر ذات ليلة منذ ايام ان ضحك ساخرا في معرض الحديث عن مؤهلات باب دوك الطبية.

وكان من الطبيعي ان ارسل جوزيف فورا الى السوق لجمع اكبر قدر من المعلومات.

اما صارف الذهن الثاني فقد كان النبأ القائل بأن الصبي انجيل اصيب بالغدة النكفية كما كتبت لي مارتا وهي في الم عظيم، «ولم استطع منع نفسي من ان اتمنى له المزيد» .وكانت تخشى ان تغادر السفارة فيسأل عنها، ولذلك فمن المستحيل ان تلقاني ذلك المساء عند تمثال كولمبوس كما اتفقنا، ولكن لا يوجد ثمة مانع، هكذا قالت ـ من ان ازورهم بالسفارة بعد هذه الغيبة الطويلة، وسيبدو هذا شيئا عاديا جدا فكثير من الناس يطلون عليهم بين الحين والحين بعد رفع حظر التجول، خصوصا اذا استطاعوا تفادي عين رجل الشرطة المرابط لدى الباب. والذي اعتاد ان يتناول نصيبا من الروم بمطبخ السفارة في تمام الساعة التاسعة. وكان في رأيها ان هؤلاء الزوار الطارئين انما يمهدون

الارض لعلهم يحتاجون فجأة الى طلب اللجوء السياسي، وفي ختام رسالتها اضافت «ان لويس سيكون سعيدا فهو يفكر فيك كثيرا..» وكانت فقرة مثيرة، يمكن ترجمتها على وجهين!

★★★

وقد كنت في مكتبي بعد الافطار عندما جاءني جوزيف ليبلغني بقصة اكتشاف جثة الدكتور فيليبوت كما يقولها الناس في الشارع، وليس كما سيقول البوليس فيما بعد. والحق انها كانت صدفة لا يزيد احتمالها على واحد في المليون ان تكتشف الجثة، التي كان الدكتور ماجيوت يتوقع كما كنت اتوقع انا ايضا، ان تبقى في مكانها بحديقة منزل الفلكي السابق عدة اسابيع قبل ان يعثر بها احد

مصادفة غريبة. جعلتني قصتها انصرف تماما من مراجعة مقال مستر سميث ، ذلك ان احد رجال الميليشيا المرابطين لدى نقطة التفتيش عند ناحية الطريق الذي يقع به الفندق راقت في عينيه امرأة قروية كانت في طريقها الى السوق المقام على سفح كينسكوف في ذلك الصباح الباكر، فاوقفها. وطلب منها ان تريه ما تخفيه تحت ثيابها، فوافقت. وتوجها معا الى حديقة الفلكي المهجورة. ولما كانت في عجلة من امرها لتواصل مسيرتها الى السوق فقد رفعت ثوبها بسرعة ولكنها وجدت نفسها تحدق في عيني وزير الشؤون الاجتماعية السابق المتحجرتين، وعرفته في الحال لانه قبل ايام قليلة كان اشرف بصفته طبيبا على ولادة عسرة لجاره لها..

★★★

كان البستاني تحت النافذة فحاولت جهدي ان ابدي عدم اهتمامي بحكاية جوزيف· حتى انني قلبت عامدا صفحة من مقالة مستمر سميث لاجدها تقول:

«غادرنا ـ مسز سميث وانا ـ فيلادلفيا اسفين بعد ان تمتعنا بضيافة ال هنري، اس، اوتش الذين يذكر القراء حفلاتهم الفاخرة بمناسبة اعياد الميلاد عندما كانوا يقيمون في ٢٠٤١ ميدان ديلانسي، ولكن اسانا على فراق اصدقائنا ما لبث ان بددته مسرة التعرف على اصدقاء جدد على ظهر السفينة «ميديا»

سألت جوزيف

ـ ولكن لماذا.. ذهبا الى الشرطة؟ كان الشيء الطبيعي ان يتسللا بعيدا حتى يتقيا الفضيحة..

ـ انها المرأة لقد اخذت تصرخ في هستيريا حتى تجمع حولهما كل افراد الكتيبة

قلبت صفحة اخرى من مقال مستر سميث ونظرت فوجدت «ميديا» تصل الى بورتو برنس.. انها جمهورية سوداء، ولكنها جمهورية سوداء ذات تاريخ وادب وفن وتستطيع ان ترى فيها مستقبل كل الجمهوريات الافريقية الجديدة بعد ان تتخلص من مشكلاتها العويصة.. «كان واضحا انه لا يريد ان يبدو متشائما» نعم، ما زال هناك الكثير مما يجب صنعه هنا، فلقد جربت هايتي الملكية والديمقراطية والدكتاتورية، ولكننا لا ينبغي لنا ان نحكم على الدكتاتوريات الملونة بنفس المعايير التي نحكم بها على الدكتاتورية البيضاء. فتاريخ هايتي لا يتجاوز بضعة قرون، واذا كنا نحن بعد الفي عام ما زلنا نقع في اخطاء. اليس من حق هؤلاء الناس ان يقعوا في اخطاء مماثلة وان يتعلموا منها ربما خيرا مما تعلمناه؟ ان هنا فقراء ومتسولين في الشوارع وبعض شواهد تدل على تعسف الشرطة..

(يبدو انه لم ينس منظر مستر جونز في زنزانته) ولكني اتساءل فعلا ملون يصل الى نيويورك لاول مرة ان يجد هذا القدر من

حسن الاستقبال والمجاملة الذي احاط بنا، مسز سميث وانا، في مكتب الجوازات والهجرة»

بدا لي الامر وكانما انا اقرأ عن بلد آخر....

قلت لجوزيف

ـ ماذا فعلوا بالجثة؟

ـ كان البوليس يريد الاحتفاظ بها، ولكن معمل الثلج في المشرحة معطل،

ـ هل عرفت مدام فيليبوت؟

ـ آه.. نعم... لقد حملته الى قاعة الجنائز.. اعتقد انهم سيحرقون جثته بسرعة

لم يكن بوسعي ان اقاوم الاحساس بمسؤوليتي عن الطقوس الاخيرة لتشييع الدكتور فيليبوت، فالرجل لقي حتفه في فندقي، فقلت لجوزيف:

ـ ابلغني بكل الترتيبات اولا بأول

عدت الى مقال مستر سميث.

«ان يحظى شخص غريب مثلي بلقاء وزير الخارجية في اليوم الاول لوصوله مثل واضح لحسن الاستقبال الذي لقيته هنا في كل مكان.. كان وزير الخارجية على وشك المغادرة الى نيويورك ليحضر اجتماع الامم المتحدة ومع ذلك فقد منحني نصف ساعة من وقته الثمين واتاح لي بتدخله الشخصي لدى وزير الداخلية ان ازور رجلا انجليزيا في السجن، وكان رفيق سفر لي على ظهر المركب «ميديا» ولكنه ـ بسبب خطأ بيروقراطي يمكن ان يحدث في اي بلد اخر غير هايتي ـ اصطدم مع السلطات. وانا حاليا اتابع القضية واكاد اكون واثقا

من النتيجة. فتمة سجيتان معينتان وجدتهما تضربـان بجـذورهما العميقـة في وجدان اصدقائي الملونين، سواء كانوا يعيشون في حرية نسبية في نيويـورك او تحت القهـر المكشـوف في المسيسبي، هي النـــزوع الى العـــدل واحترام قيمـــة الانسـان»

ان المرء عندما يقرأ ادب تشرشل يلمس فيه نبرة الخطيب الذي يلقي خطابه في قاعة تـاريخيـة. امـا وانـا اقـرأ لمستر سميث فقـد رأيت فيـه محـاضرا يلقي محاضرته في قاعة البلدية بمدينة اقليمية صغيرة حتى كدت اتخيل نفسي محاطا بعشرات من النساء في اواسط العمر يرتدين قبعات تدل على انهن يتعمن بعيشة راضية، وقد دفعت كل منهن خمســة دولارات كعمـل من اعمال البر والاحســان لحضور المحاضرة!

ويواصل مستر سميث مقاله.

«انني اتطلع الى الالتقاء بوزير الشؤون الاجتماعية الجديـد لانـاقش معـه الموضوع الذي يعرف قراء هذه الجريدة منذ زمن انه بالنسبة لي بمثـابـة رأس الملك شارل، الا وهو انشاء مركز نباتي.. ومن سوء الحظ ان الدكتور فيليبـوت الوزير السابق للشؤون الاجتماعية الذي حملت اليـه خطـاب التقـديم من احـد دبلوماسيي هايتي العاملين بالامم المتحدة ليس موجـودا في بـورتـو بـرنس في الوقت الحالي، ولكن استطيع ان اؤكد لقرائي ان حماسي سيجتاز بي كل مشقة، حتى ولو اضطررت للقاء الرئيس نفســه. وانـا اتـوقـع منـه ان يتعـاطف مـع قضيتي، لانه قبل التحول الى السياسة اكتسب شهرة واسعة بسبب الدور الذي اداه كطبيب اثناء موجة وباء التيفوئيد التي اجتاحت البلاد منـذ سنـوات، حتى يمكن القول انه ـ مثل زعيم كينيا مستر كينيـاتـا ـ قـد وضـع عـلامـة في علم الانثروبولوجيا (قفزت الى مخيلتي صورة ساقي جوزيف المكسورتين. ان كلمة «علامة» هنا اقل كثيرا من ان تفي بالغرض»).

*

في وقت لاحق من الصباح نفسه جاء مستر سميث على خجل ليسمع مني رأيي في ما كتبت. قلت انها سوف تسر السلطات كثيرا. قال:

ـ انهم لن يقرأوها ابدا، فالصحيفة لا توزع خارج ويسكونسين.

ـ انا لا استطيع التعويل على انهم لن يقرأوها فالرسائل التي تخرج من هنا هذه الايام قليلة... وبالتالي يسهل عليهم مراقبتها.

هتف غير مصدق:

ـ هل تعني انهم يفتحون الرسائل؟

ولكنه استدرك بسرعة:

ـ اوه... حسن ان هذا قد يحدث حتى في الولايات المتحدة..

ـ لو كنت في مكانك لحذفت اية اشارة الى الدكتور فيليبوت.

ـ ولكني لم اقل اي شيء سيىء.

ـ قد يكونون حساسين جدا من ناحيته في اللحظة الراهنة لان الرجل قتل نفسه.

هتف مرة اخرى.

يا للمسكين! يا له من مسكين! ما الذي جعله يفعل بنفسه شيئا كهذا..؟

ـ الخوف.

ـ هل ارتكب خطأ ما؟

ـ ومن منا لا يفعل؟ لقد تحدث بسوء عن الرئيس.

ادار الرجل عينيه الزرقاوين الكليلتين بعيدا! ويبدو انــه رأى الا يفصــح عن ارتيابه لشخص غريب، هو في نهاية الامر رجل ابيض مثلــه، وواحــد من جنس النخاسين.. قال.

ـ لعلني استطيع ان ارى ارملته... ربما كان هناك شيء استطيع ان افعله... على الاقل يجب ان ترسل باقة ورد باسم مسز سميث واسمي.

مهما كان حبه للسود، فهو يعيش في عالم ابيض.. ولا يعرف عالما سواه.

ـ لو كنت مكانك لما فعلت.

ـ لم لا؟

★★★

لم يكن هناك جدوى من الشرح... وفي تلك اللحظة ظهر جـوزيف بـالبـاب مثلما يظهر نذير الشؤم. قال ان الجثة قـد غـادرت قـاعـة القـداس وهم الان ينقلون النعش الى بيشونفيل لدفنه هناك. . وقد توقفوا عند حاجز المـرور قـرب الفندق.

ـ يبدو انهم في عجلة من امرهم؟

قال جوزيف:

ـ انهم قلقون جدا.

قال مستر سميث:

ـ لا يوجد الان ما يدعو للخوف بالتأكيد.

اجبت انا:

ـ ما عدا شدة القيظ.

قال مستر سميث:

ـ سأنضم الى موكب الجنازة.

ـ لا تحلم بذلك.

فجأة، راعني حجم الغضب الذي يمكن ان تشعه هاتان العينان الزرقاوان.

ـ مستر براون... انت لست وصيا علي... وانا سأدعو مسز سميث. وسنسير كلانا..

ـ على الاقل دع مسز سميث ولا تشركها في هذا الامر. الا تدرك حقا مدى الخطر؟

وكأنما كانت هذه الكلمة «الخطر» هي التي دعت مسز سميث إلى الدخول، سائلة بلهجة الأمر:

ـ اي خطر؟

ـ يا حبيبتي.. ذلك المسكين دكتور فيليبوت الذي حملنا له رسالة التقديم.. لقد قتل نفسه.

ـ لماذا؟

ـ الاسباب تبدو غامضة.. وهم الان في طريقهم الى دفنه في بيشونفيل. اعتقد اننا يجب ان نشارك في الجنازة.

والتفت الى جوزيف قائلا له بالفرنسية.

ـ جوزيف... لو سمحت استدع لنا تاكسيا.

سألت مسز سميث مرة اخرى.

ـ ما هو الخطر الذي تتحدث عنه؟

ـ الا تعرفان حقا اي بلد هذا الذي نحن فيه؟ ان اي شيء يمكن ان يحدث.

ـ في رأي مستر براون يا عزيزتي ان اذهب وحدي.

ـ الذي اراه انه لا ينبغي لاحدكما ان يذهب .. سيكون هذه ضربا من الجنون.

ـ ولكن مستر سميث اخبرك اننا لدينا رسالة تقديم الى الدكتور فيليبوت. انه صديق لصديق لنا.

ـ سيعتبرونها ايماءة ذات مدلول سياسي.

ـ مستر سميت وانا لا نخشى ابدا الايماءات السياسية.. حسن يا عزيزي. من حسن الحظ ان لدي رداء اسود.. اعطني دقيقتين.

قلت:

ـ لن يستطيع ان يعطيك ولا حتى دقيقة واحدة. اسمعي..

كانت الاصوات تصل فعلا الى مكتبي حيث نجلس، ولكنها لم تكن كأية اصوات جناز. لم تكن اصوات موسيقى الفلاحين الجنائزية، ولا الهمهمات البرجوازية الرزينة. ولم تكن اصوات عويل. وانما كانت اصواتا تصيح، وتجادل وعلت فوقها صرخة امرأة، وقبل ان احاول وقف مستر ومسز سميث كان الاثنان يهرعان نازلين بالممشى، ومرشح الرئاسة يتقدم زوجته بخطوة او خطوتين. ولعل ذلك كان من قبيل البروتوكول، وليس نتيجة مجهوده لان مسز سميت من المؤكد انها كانت اكثر خفة. وتبعتهما انا على مضض وعلى مهل.

★★★

لقد أوى فندق تريانون الدكتور فيليبوت حيا وميتا. وها نحن حتى الان لا نستطيع التخلص منه. ها هو التعس هناك في اول المشي. ويبدو انه لا يريد ان يدفن في بيشونفيل. فقد استدارت سيارة الموتى التي تنقله بمقدمتها في اتجاه المدينة بدلا من مواصلة طرقها الى بيشونفيل. وقفزت قطة جائعة ومن شدة الخوف اعتلت سيارة النعش ووقفت هناك مقوسة الظهر وهي ترتجف كأنما مسها صاعق من البرق، ولم يحاول احد طردها بعيدا - ولعل اهل هايتي اعتقدوا انها تؤوي روح الوزير السابق نفسه.

مدام فيليبوت التي سبق أن قابلتها ذات مرة في بعض حفلات السفارة كانت واقفة أمام سيارة النعش متحدية إياها أن تعود. كانت سيدة جميلة، لم تصل الاربعين بعد. ببشرة زيتونية، وقد وقفت باسطة ذراعيها كأنها تمثال وطني غير متقن لحرب منسية. واخذ مستر سميث يردد.

- ماذا يجري هنا؟

اجاب سائق سيارة النعش، وكان اسود وبادي الاناقة ومجللا بشعائر الموت، باطلاق نفيره. لم اكن اعلم من قبل ان سيارات النعوش لها ابواق. ووقف رجلان في ثياب سوداء على جانبي السيارة يتجادلان معه، وكانا قد نزلا من سيارة تاكسي توقفت بدورها على جانب المشي. وهناك في الطريق كانت تقف سيارة تاكسي اخرى متجهة بمقدمتها الى بيشونفيل، وكان بداخلها طفل صغير الصق وجهه بزجاج النافذة.. وكان هذا كل موكب الجنازة.

مرة اخرى هتف مستر سميث صارخا بصوت موجع.

- ماذا يجري هنا بحق السماء؟

بصقت القطة في وجهه من فوق سقف السيارة الزجاجي.

علا صوت مدام فيليبوت وهي تصرخ في السائق بالفرنسية

ـ وغد ..خنزير..

ثم طوحت عينيها كزهرتين داكنتين الى وجـه مستر سميث وقـد بـدا انهـا فهمت سؤاله مع انه كان بالانجليزية.

ـ هل انت اميركي؟

ـ اجل..

ـ هذا الخنزير.. هذا الوغد.. يريد ان يعود للمدينة.

ـ ولكن لماذا؟

ـ رجال الميليشيا عند حاجز المرور لا يريدون السماح لنا..

اخذ مستر سميث يردد سؤاله مذهولا، بينما بـدأ الـرجـلان اللـذان تـركـا تاكسيهما واقفا بالمشى يسيران في اتجاه السيارة بخطوات من يحس بالخطـر. كانا يضعان على رأسيهما قبعتين عاليتين.

قالت مدام فيليبوت:

ـ لقد قتلوه. والان لا يريدون ان يسمحوا له حتى بأن يدفن في مقبرتنا.
هز مستر سميث رأسه غير مصدق.

ـ لا بد ان هناك خطأ ما.. بالتأكيد هناك خطأ ما..

ـ انا قلت لذلك الخنزير ان يقتحم الحاجز، وليطلقوا النار علينا لـو ارادوا. فليُقتلوا زوجته وولده مثلما قتلوه.

ثم اضافت بسخرية غير منطقية:

ـ ربما لا يوجد كفاية من الطلقات في بنادقهم.

صرخ الطفل من داخل التاكسي.

ـ ماما.. ماما

ـ نعم يا حبيبي؟

ـ انت وعدتني بآيس كريم فانيليا

ـ انتظر قليلا يا حبيبي..

قلت:

ـ اذن فقد اجتزتم الحاجز الاول دون ان يسألكم احد.

ـ اجل. اجل.. انت تفهم ـ مع دفع مبلغ صغير

رددت عبارة مستر سميث، ولكن ليس كما كان يفكر، وانما وانا افكر في الرشوة التي رفضت.

ـ لا بد ان هناك خطأ ما.

ـ انت تقيم هنا.. هل تعتقد ذلك حقا؟

قالت ذلك ثم التفتت الى السائق آمرة

ـ هيا.. تقدم للامام ايها الوغد!

قفزت القطة غاضبة كأنها تصورت الاهانة موجهة اليها الى اقرب شجرة، ناشبة مخالبها في الساق، حتى اذا ما استعادت توازنها بصقت من وراء كتفها في وجوهنا جميعا وقد اشتعلت عيناها الجائعتان بالحقد، ثم اختفت بين الشجيرات.

★★★

وفي هذه اللحظة بدأ الرجلان الكئيبان بثيابهما السوداء يخطوان نحو سيارة النعش ببطء، ووقع خطواتهما يدل على انهما في حالة رعب. وطارت مني نظرة الى النعش. كان فاخرا بحق، ولكن لم يكن عليه اكليل واحد من الزهور أو بطاقة واحدة. هكذا كان قدر الوزير السابق ان يدفن وحيدا او يكاد مثلما مات وحيدا في حوض السباحة.

وصل الرجلان بثيابهما السوداء، لا تكاد تميز احدهما عن الاخر، اللهم الا ان الاول كان اطول بأقل نصف بوصة من زميله او ربما كانت قبعته السوداء هي الاكثر ارتفاعا. تطوع الطويل بالشرح.

ـ الميليشيا عند الحاجز الادنى.. يقولون اننا لا نستطيع العودة بالنعش بدون تصريح من السلطات.

سألت:

ـ اية سلطات؟

ـ وزير الشؤون الاجتماعية

حطت نظراتنا جميعا على النعش الانيق ومقابضه النحاسية اللامعة، وقلت انا:

ـ هذا هو وزير الشؤون الاجتماعية.

ـ ليس منذ هذا الصباح.

ـ هل انت مسيو هركيل ديبونت؟

ـ انا مسيو كليمنت ديبونت. وهذا مسيو هركيل.

قال ذلك وهو يرفع قبعته العالية ويمنحني انحناءة بالجزء العلوي من

ساقيه.

سأل مستر سميث «ماذا هناك؟» فاخبرته..

قاطعتني مسز سميث

ـ ولكن هذا سخف.. هل يتعين على النعش ان ينتظر حتى يصحح خطأ احمق كهذا؟

ـ اشك في انه ليس مجرد خطأ.

ـ ماذا يمكن ان يكون غير ذلك؟

قلت:

ـ الانتقام.

ثم استطردت، متجها بالحديث الى مدام فيلييوت.

ـ لم يستطيعوا الامساك به حيا. وسوف يصلون حالا.. هذا مؤكد. افضل لو دخلت انت وولدك في الفندق.

ـ واترك زوجي هنا مرميا على قارعة الطريق؟ كلا.... كلا..

ـ على الاقل قولي لولدك ان يدخل وسوف يناوله جوزيف كأس فانيليا مثلجة.

★★★

كانت الشمس تكاد تكون عمودية فوق رؤوسنا. وشظايا الضوء تقفز هنا وهناك من زجاج نوافذ عربة الموتى ومن الزخارف النحاسية التي تغطي منها والبياض في عينيه مثل بيضتين كبيرتين. قالت له ان يبحث عن جوزيف

ومثلجاته، ولكن الصبي تشبث بذيل ردائها رافضا الذهاب.. قلت:

ـ مسز سميث.. خذي الصبي للداخل.. في الفندق.

ترددت لحظة قبل ان تقول:

ـ اذا كان ثمة مشاكل قادمة، فانا أفضل أن أبقى إلى جانب مدام فيل فيل..

ثم اتجهت بالحديث الى زوجها..

ـ خذه انت يا عزيزي.

قال مستر سميث:

ـ واتركك هنا؟.. كلا

لم اكن قد لاحظت سائقي سيارتي التاكسي وهما جالسان بلا حراك تحت ظلال الاشجار، ويبدو انهما كانا يتبادلان الاشارات في صمت بينما نحن نتحدث، لانهما فجأة قفزا من مكانهما في وقت واحد كما لو كانا على اتفاق، واذا بالأول ينحرف بتاكسيه إلى جانب الطريق.. والثاني يتراجع للوراء ويستدير ثم يندفع والاخر خلفه واصوات المحرك تزمجر غاضبة وهما يتسابقان مبتعدين في اتجاه المدينة وسمعناهما وهما يتوقفان عند الحاجز، ثم وهما ينطلقان مرة اخرى ويذوبان في بحر الصمت.

تنحنح مسيو هركيل ديبونت ثم قال:

ـ انت مصيب تماما.. انا ومسيو كليمنت سنأخذ الصبي.

امسك كل منهما بيد. ولكن الصبي تراجع ليبتعد قالت الام.

ـ اذهب يا عزيزي لتتناول آيس كريم الفانيليا.

ـ بالكريم والشيكولاته؟

ـ طبعا... طبعا يا عزيزي بالكريم والشيكولاته.

سار الثلاثة في موكب عجيب صاعدين الممر تحت هامات النخيل.

توأمان في منتصف العمر بقبعتين عاليتين والصبي بينهما وفندق تريانون ليس سفارة. ولكن الاخوين ديبونت كانا يريان فيما يبدو انه قد يكون افضل بديل.. باعتباره ملكية اجنبية، كذلك سائق سيارة الموتى.

وكنا قد نسيناه تماما ـ قفز من سيارته ليلحق بهم، لنبقى وحدنا.. مدام فيلبيوت، والزوجان سميث وانا وسيارة الموتى والنعش نستمع في صمت الى الصمت الاخر الممتدد على الطريق. ومرت لحظة قبل ان يقول مستر سميث.

ـ ماذا سيحدث الان؟

ـ الامر ليس بيدنا.. ما علينا الا ان ننتظر. هذا كل شيء.

ـ ننتظر ماذا؟

ـ ننتظرهم

ذكرني موقفنا ببعض كوابيس الطفولة عندما كان شيء ما في داخل دولاب يستعد للقفز في وجوهنا. فلا احد منا يجسر على النظر في وجوه الآخرين حتى لا يرى كابوسه في عيونهم. ولذلك فقد تشاغلنا جميعا بالنظر من خلال زجاج عربة الموتى الى النعش البراق القشيب.. سبب المشكلة.

ومن بعيد، من المكان الذي ينتمي اليه الكلب العاوي تصاعد صوت سيارة تقترب صاعدة من ناحية التل. قلت:

ـ ها هم قادمون.

اسندت مدام فيليبوت جبهتها الى زجاج عربـة المـوتى.. بينما كـان صـوت السيارة يزداد اقترابا، ولكن ببطء، قلت لها.

ـ افضل ان تدخلي. سيكون لصالحنا جميعـا ان نـدخـل كلنـا.. قـال مستر سميث وهو يمسك بمعصم زوجته

ـ انا لا افهم..

توقفت السيارة عند الحاجز في ادنى الطريق. ولكننا كنا نستطيع ان نسمـع صوت المحرك وهو لا يزال يدور، ثم والسيارة تتقـدم ببطء بـالحـركـة الاولى. والآن ها هي تبدو امام عيوننا. كانت سيارة كاديلاك كبيرة من مخلفات المعونة الاميركية لهايتي الفقيرة. مرت السيارة بمحاذاتنا ثم توقفت ونزل منهـا اربعـة رجال، تغطي رؤوسهم قبعات لينة وعلى عيـونهم نظـارات سـوداء ويتـدلى من احزمتهم مسدسات ضخمة. ولكن واحدا منهم فقط اهتم بسحب مسـدسـه. لم يصوبه نحونا وانما اتجه نحو جانب عربة الموتى وبدأ يحطم به الزجاج بشكـل منظم. لم تتحرك مدام فيليبوت. ولم تنطق بحرف. ولم يكن بوسعي ما افعلـه. فالمرء لا يسعه ان يدخل في جدل مع اربعة مسـدسـات. كنـا شهـودا. ولكن لم تكن هناك محكمة لتستمع للشهادة والآن ها هو زجاج عربة الموتى قـد تحطم تماما. والقائد مستمر في ان يستأصل بمسـدسـه بقـايـا اسنـان الـزجـاج على الاطراف، وبدا واضحا انه ليس في عجلة من امره، وانه يريـد فقط ان يطمئن الا ان احدا لن يخدش يده.

فجأة قفزت مسز سميث لتمسك بكتف رجـل الطـونطـون مـاكـوت. ادار الرجل رأسه فعرفته في الحال. كان نفس الرجل الذي كسر مستر سميث عينه في مركز الشرطة. انتزع كتفه من قبضة مسز سميث وطارت يده المغلقة بـالقفـاز لترتطم بقوة وعزم بوجه مسز سميث وتدفعهـا للتراجـع مترنحـة حتى سقطت بين الشجيرات وجدتني مضطرا الى ان احيط بـذراعي مستر سميث لأمنعـه من الحركة.

صرخ من فوق كتفي.

ـ لا يمكنهم ان يفعلوا هذا بزوجتي.

ـ بل يمكنهم..

ـ دعني.. دعني.

كان يصيح بأعلى صوته وهو يتلوى محاولاً الافلات من بين ذراعي.. لم ار في حياتي شخصا يتحول بهذا الشكل من النقيض الى النقيض.

ـ خنزير.. خنزير..

كان هذا اقصى ما يستطيع من فحش القول. وهو لا زال يحاول الافلات مني. بل كاد في لحظة ان ينجح.. ومن حسن الحظ ان رجال الطونطون ماكوت لا يعرفون الانجليزية.. همست في اذنه:

ـ لن يفيد احد شيئا لو قتلوك الآن.

كانت مسز سميث لا زالت تحاول ان تنهض بعد ان سقطت وسط الشجيرات، باديا عليها الذهول مما حدث.. ربما لأول مرة في حياتها.

رفع رجال الطونطون ماكوت النعش من داخل عربة الموتى، وحملوه الى سيارتهم الكاديلاك. حاولوا حشر النعش في الصندوق الخلفي فبرزت منه عدة اقدام، فأخذوا يربطونه بقطعة حبل، بتؤدة وعلى مهل. لم يكن بهم حاجة الى الاستعجال. فهم آمنون. انهم هم القانون. تقدمت مدام فيلييوت نحو السيارة الكاديلاك بمذلة ـ جعلتنا نحس بالعار لأنه لم يكن هناك خيار بين المذلة والعنف ولأنه لم يحاول العنف احد الا مسز سميث ـ واخذت تتضرع اليهم ان يأخذوها ايضا.. فهمت ذلك من تعبيرات وجهها واشارات يديها لأن صوتها كان منخفضا جدا ولم اسمع ما كانت تقول. ولعلها عرضت عليهم نقودا. ففي ظل

نظام دكتاتوري لا يملك احد شيئا، حتى ولو كان هذا الشيء زوجا ميتا. ولكنهم صفقوا الباب في وجهها وانطلقوا صاعدين الطريق، والنعش بارز من صندوق السيارة الخلفي كأنه صندوق فواكه في الطريق للسوق. حتى اذا ما وجدوا مكانا يتسع للدوران استداروا عائدين. وفي هذه اللحظة كانت مسز سميث قد وقفت على قدميها. الآن، كلنا واقفون يخيم علينا احساس بالذنب. فالضحية البريئة تكاد دائما تبدو وكأنها هي المذنبة، مثل كبش الفداء في الصحراء.

توقفت السيارة، وفتح الضابط بابها بعنف واضح - رجحت انه ضابط لأن النظارات السوداء والقبعات اللينة والمسدسات كانت هي الزي المعروف الذي يرتدونه جميعا.. واشار نحوي ان اذهب اليه.

ولما لم اكن بطلا، فقد صدعت للأمر، وعبرت الطريق اليه.

- هل انت مالك هذا الفندق؟

- اجل.

- ألم تكن في مركز الشرطة امس؟

- بلى.

- في المرة المقبلة لا تحدق في وجهي.. انا لا احب ان يحدق احد في وجهي.. من ذلك الرجل العجوز؟

قلت:

- مرشح الرئاسة.

- ماذا تعني؟ مرشح اية رئاسة؟

- الولايات المتحدة الاميركية.

ـ لا تسخر مني.. فاهم؟

ـ انا لا اسخر. لا بد انك لم تقرأ الصحف.

ـ لماذا جاء هنا؟

ـ انى لي ان اعرف؟ لقد قابل وزير الخارجية امس. ربما اخبره عن سبب مجيئه. ثم هو يتوقع ان يقابل الرئيس.

ـ لا توجد انتخابات حاليا في الولايات المتحدة.. انا اعرف ذلك جيدا..

ـ انهم لا يتمتعون برئيس مدى الحياة مثلكم هنا. وانتخابات الرئاسة تجرى كل اربع سنوات.

ـ ما شأنه بـ.. بصندوق القمامة هذا؟

ـ كان يشهد جنازة صديقه الدكتور فيليبوت.

قال في شبه تراجع:

ـ انا فقط انفذ الاوامر.

فهمت لماذا يرتدي هؤلاء الناس نظارات سوداء. انهم في النهاية بشر. ولكنهم لا ينبغي ان يبدو عليهم اي ملمح من ملامح الخوف، والا فان هذا سيكون نهاية قدرتهم على ارهاب الآخرين. قلت:

ـ في اوروبا، علقنا على المشانق عددا غير قليل من الرجال الذين كانوا فقط ينفذون الاوامر.. في نورمبرج.

قال:

ـ انا لا احب الطريقة التي تتحدث بها معي. انت لست واضحا. ولديك طريقة خبيثة في الحديث. ولديك خادم يدعى جوزيف. أليس كذلك؟

ـ اجل.

ـ انا اذكره جيدا. لقد استجوبته ذات مرة.

وترك هذه الحقيقة تأخذ ابعادها قبل ان يستطرد·

ـ اذن فهذا هو فندقك؟ يبدو انك تكسب جيدا هنا.

ـ لم يعد الامر كذلك.

ـ هذا الكهل سوف يغادر قريبا. اما انت فباق هنا.

قلت:

ـ كانت غلطة منك ان تضرب زوجته.. لن ينسى هذا بسهولة.

صفق الباب مغلقا اياه بعنف. وتحركت الكاديلاك نازلة من سفح التل، ونحن نتابع النعش البارز من خلفها حتى اختفى خلف الناصية، وبعد فترة سمعنا اصواتهم عند الحاجز، ثم تحركت السيارة مرة اخرى، وسمعناها تتخذ سرعتها منطلقة الى بورتو برنس.

الى اين في بورتو برنس؟ وماذا يمكن ان يستفيده احد من جثة وزير سابق؟ ثم ان الجثة على اية حال لن يؤلمها اي تعذيب. ولكن غياب المنطق قد يكون اشد هولا من اي منطق!
اخيرا تكلم مستر سميث:

ـ هذا شنيع.. بشع.. سوف اتحدث هاتفيا مع الرئيس.. لن ادع هذا الرجل يفلت من العقاب.

ـ الهاتف عطلان.

ـ هذا الرجل ضرب زوجتي.

قالت مسز سميث:

ـ هذه ليست اول مرة يا عزيزي. ثم انه دفعني فقط.. هل تذكر ناشفيل؟ كان الامر هناك اسوأ كثيراً.

ـ الامر في ناشفيل كان مختلفا.

احسست بالدموع تترقرق في صوته.

لقد احب السود بسبب لونهم. وما يراه الآن من بعضهم جعله يحس بالغدر.. وكأنه يطعن من الخلف.

ـ آسف يا عزيزتي..

وبشموخ غير عادي، تناول ذراع زوجته بيد، ومدام فيليبوت باليد الاخرى متجها بهما على طول المشى نحو الشرفة. كان الاخوان ديبونت جالسين هناك مع الصبي والثلاثة يلتهمون آيس كريم الفانيليا بالشيكولاته. والقبعتان العاليتان بجوارهما كأنهما منفضتا سجائر من النوع الفاخر!

قلت لهما:

ـ السيارة سليمة.. لم يحطموا سوى الزجاج.

قال مسيو هركيل:

ـ أوغاد.

ولكن مسيو كليمنت كان اكثر حكمة، فاكتفى بلمسة مواسية من يده لأخيه. ومدام فيليبوت الآن هادئة، وبدون دموع. جلست الى جوار طفلها واخذت تساعده على الانتهاء من الآيس كريم. ما فات قد فات وها هو المستقبل بجوارها. قالت خواطري انه بعد سنوات كثيرة من اليوم لن يتاح له أبدا ان

ينسى. ولم تنطق بحرف، سوى مرة واحدة قبل ان ترحل في التاكسي الذي جاء به جوزيف. قالت:

ـ ذات يوم سيجد شخصان رصاصة فضية.

★★★

لم يجد الاخوان ديبونت تاكسيا فاضطرا الى استخدام عربة الموتى تاركين اياي وحيدا مع جوزيف، بعد ان اخذ مستر سميث زوجته الى جناح جون باريمور ليستريحا هناك. سألت جوزيف:

ـ ما الذي يمكن ان يستفيدوه من جثة رجل في نعش؟ هل افزعهم احتمال ان يضع الناس زهورا على قبره؟ لا اظن ذلك. نعم.. هو لم يكن رجلا سيئا. ولكنه لم يكن جيداً أيضاً. فأنابيب المياه النقية لم تصل إلى الأحياء الشعبية أبداً.. واغلب الظن أن جزءاً من الإعتماد المالي استقر في جيبه.

ـ انهم يرعبون الناس. فعندما يعلم الناس، سيفزعهم التفكير في ان الرئيس سيأخذ اجسادهم بعد ان يموتوا

ـ وماذا في ذلك؟ بعد الموت لا يبقى سوى بعض الجلد والعظم، ثم ماذا سيفعل الرئيس بجثث الموتى على اية حال؟

قال جوزيف:

ـ الناس هنا جهلة انهم يعتقدون ان الرئيس سيحتفظ بالدكتور فيليبوت في قبو قصره، ويجعله يعمل لحسابه طول الليل..

ـ هل هذا معقول؟

ـ الرئيس ساحر فودو كبير..

ـ بارون سامدي؟

ـ الناس الجهلة يقولون ذلك!

ـ وبالتالي فلا يفكر احد في مهاجمته ليلا، وكل عفاريت الموتى تحميه.. انهم افضل من الحرس.. بل افضل من الطونطون ماكوت.. أليس كذلك؟

ـ الطونطون ماكوت عفاريت ايضا. الناس الجهلة يقولون ذلك.

ـ ولكن ما هو رأيك انت يا جوزيف!

ـ انا رجل جاهل يا سيدي.

اخذت طريقي الى الطابق الاعلى حيث جناح جون باريمور. وانا يراودني سؤال: اين سيخفون جثة الدكتور فيليبوت؟

هناك حفر كثيرة.. ولن يلحظ احد الرائحة العفنة في بورتوبرنس..

طرقت الباب. جاءني صوت مسز سميث:

ـ أدخل.

وجدت مستر سميث مشغولا بتسخين بعض الماء على موقد بارافين خفيف وضعه فوق خزانة القمصان والى جوار الموقد كان هناك فنجان وطبق وعلبة كرتون مكتوب عليها «يستريل». قال:

ـ لقد اقنعت مسز سميث بعدم تناول البارين ولو مرة واحدة. فاليستريل افضل للتهدئة.

على الجدار، كان جون باريمور يطل من تحت انفه الكبير بنظرته الارستقراطية المترفعة على مسز سميث الراقدة على الفراش.

ـ كيف حالك يا مسز سميث؟

اجابت متحدية.

ـ على احسن ما يكون.

تدخل مستر سميث قائلا بارتياح:

ـ لا توجد على وجهها اية علامة.

ـ قلت لك ألف مرة انه دفعني فقط.

ـ لا ينبغي لرجل ان يدفع امرأة.

ـ انا لا اعتقد حتى انه ادرك اني امرأة.. فأنا ـ نعم.. انا اعترف اني اهنته على نحو ما.

قلت:

ـ انت سيدة شجاعة يا مسز سميث.

ـ هراء..

قال مستر سميث وهو يقلب اليستريل.

ـ ان لها قلب النمرة عندما تستفز.

سألت:

ـ كيف ستتناول ما حدث في مقالك؟

ـ كنت افكر في ذلك فعلا قبل ان تجيء..

تذوق ملعقة من اليستريل ليتأكد من درجة الحرارة المطلوبة ثم نسيني لحظة ليقول لزوجته:

ـ اعتقد انها تحتاج الى دقيقة اخرى يا عزيزتي.. آه.. نعم.. كنت تسألني عن المقال. لن يكون من الامانة في رأيي ان نغفل ذكر هذه الواقعة.. أليس كذلك؟ ومع ذلك، فاننا لا نستطيع ان نتوقع ان يستقبلها القراء بمفهومها الصحيح.. ثم ان مسز سميث تحظى بكثير من حب الناس واحترامهم في ويسكونسين.. وسوف تجد هناك ولا شك قوما مستعدين لاستخدام هذه الواقعة لاثارة النفوس ضد الملونين.

قالت مسز سميث:

ـ مع ان احدا من هؤلاء لم يذكر كلمة عن ذلك الضابط الابيض الذي كاد يفقأ عيني في ناشفيل.

قال مستر سميث:

ـ وهكذا، فاني بعد اخذ كل الجوانب في الاعتبار، قررت ان امزق المقال من اساسه. وعلى الناس هناك في بلدنا ان ينتظرونا حتى نصل ونقول لهم ما نريد. هذا كل شيء. وربما في المستقبل، في محاضرة او ندوة او شيء من هذا القبيل، قد اشير الى هذه الواقعة عندما تكون مسز سميث الى جواري دليلا على ان المسألة لم تكن ذات بال

قال ذلك، ثم تناول ملعقة اخرى من اليستريل قائلا:

ـ انها الآن على ما يرام يا عزيزتي.

2

رغم انني ذهبت الى السفارة في ذلك المساء الا انني كنت افضل كثيرا لو اني بقيت جاهلا بالبيئة العادية التي تعيش فيها مارتا، وذلك حتى تتلاشى صورتها في فراغ مجهول عندما لا تكون معي، فأنساها. اما الآن فأنا اعلم على وجه التحديد اين تذهب عندما تنصرف السيارة من ميدان كولمبوس. اعرف

القاعة التي تمر بها، والسجل ذا السلاسل المذهبة الذي تدون به اسماء الزائرين، ثم حجرة الاستقبال بمقاعدها الوثيرة وارائكها الضخمة ولألأة الثريات والصورة الضخمة للجنرال فلان الفلاني الذي يشغل منصب الرئاسة والذي بدا وكأنه يضفي صفة «الرسمية» على اي زائر غير رسمي. حتى انا نفسي. واسعدني على الاقل انني لم ار مخدعها.

عندما وصلت في التاسعة والنصف كان السفير وحده. لم اكن قد رأيته بمفرده من قبل. وبدا لي لحظتها شخصا مختلفا تماما. كان يجلس على الاريكة يتصفح مجلة الباري ماتش وكأنه ينتظر دوره في عيادة طبيب اسنان. فكرت في ان اجلس صامتا بدوري واتصفح الجور دي فرانس، ولكنه سبقني بتحيته، ملحا علي ان اتناول مشروبا، وسيجارا. ولعله كان يحس بالوحدة. فما الذي يفعله اذا لم يكن هناك احتفال ما، او اذا كانت مارتا في الخارج معي؟ لقد قالت مارتا لي ذات يوم انه يميل الي جدا. ساعدتني هذه الفكرة على ان انظر اليه كمخلوق بشري. كان يبدو عليه الارهاق والهم وهو يحمل وزنه الكبير كأنه حمل ثقيل قاطعا المسافة بين الاريكة وطاولة الشراب رائحا غاديا وهو يقول:

ـ زوجتي بالطابق العلوي تقرأ لولدي وستنزل حالا. قالت لي أنك قد تأتي لزيارتنا..

ـ في الحقيقة أنا كنت مترددا في المجيء.. فلا بد أنك تسعد بأن تخلد لنفسك في بعض الأمسيات.

ـ اني أسعد دائما بلقاء الأصدقاء.

قال ذلك ثم أخلد للصمت.. تساءلت بيني وبين نفسي ما اذا كان يشك في علاقتنا، أم هو واثق من حقيقتها. قلت:

ـ آلمني جدا أن أسمع باصابة ولدك بالغدة النكفية

ـ آه.. نعم.. انه لازال في المرحلة المؤلمة.. رهيب! اليس شيئا رهيبا ان ترى طفلك يتألم؟.

ـ اعتقد ذلك.. للأسف، لم يكن لي طفل في يوم من الأيام

ـ آه..

طارت عيناي الى صورة الجنرال، أحسست أنني يمكن ان اكون في مهمة ثقافية. كان الجنرال يحمل صفا من الميداليات فوق صدره، ويضع يده على مقبض سيفه.

سأل السفير

ـ كيف وجدت نيويورك؟

ـ كما هي في العادة

ـ بودي لو شاهدت نيويورك. أنا لا أعرف فيها سوى المطار

ـ ربما تنقل يوما ما الى واشنطن!

كانت مجاملة سيئة التقدير. فليست لديه فرصة تذكر لأن يلي هذا المنصب، طالما، وهو في هذا العمر، قرابة الخمسين كما أتصور. بقي كل هذه المدة في بورتو برنس لا يبرحها. قال بجد.

ـ لا يمكن أبدا ان اعين هناك. فزوجتي ـ كما ترى ـ ألمانية

ـ أعلم ذلك، ولكن من المؤكد الآن..

قاطعني، كما لو أن ما يقول حدث طبيعي في عالمنا الذي نعيش فيه

ـ لقد اعدم والدها شنقا في المنطقة الأميركية أثناء الاحتلال

ـ آه!!

ـ وجاءت آمها بها الى أميركا الجنوبية حيث كان لهم علاقات هنـاك، كـانت مجرد طفلة صغيرة بالتأكيد

ـ ولكنها تعرف؟

ـ أجل تعرف. لا توجد أية أسرار بيننا. وهي تـذكـره بكثير من الحب ولكن السلطات لديها أسبابها الوجيهة..

★ ★ ★

طارت خواطري متسائلة هل يمكن ان تسبح الدنيا في الفضاء بنفس الصفاء الذي كانت تبدو به منذ مائة عام؟ لقد كان أهـل العصر الفيكتـوري يحتفظـون بهياكل الموتى في دواليبهم. ولكن من الذي يعنى الآن بمجـرد هيكـل عظمي؟ ان هـايتي ليست استثنـاء من عـالم عـاقـل. انهـا مجرد شريحة صغيرة التقطت عشوائيا من ظاهرة تجري كل يوم والبـارون سـاميدي حي مـوجـود في كـل مقابرنا!

مرت برأسي صورة الرجل المشنوق على ظهر أوراق اللعب المعـروفـة بـاسم «تاروت». خطر لي كم هو غريب ان يكون للمرء ولد يدعى أنجيـل (أي مـلاك) لقي جده حتفه شنقا. وتساءلت بيني وبين نفسي كيف يجب ان يكون شعوري.. فنحن لم نعن كثيرا باتخاذ الاحتياطيات الكافيـة، ومن الممكن جـدا ان يكـون لي طفل.. حفيد آخر لورقة تاروت. انتبهت الى صوت يقول:

ـ رغم كل شيء.. فالاطفال ابرياء.. ان ابن مارتن بورمان يعمل الآن قسيسا في الكونغو!

طوفت خواطري مرة أخرى. لماذا قال لي هذه الواقعة عن مارتا؟

آجلا أو عاجلا يحس المرء دائما بالحاجة الى السلاح للتعامل مع معشوقته.. لماذا يتطوع هذا الرجل بأن يدس تحت كمي سكينا لاستخدمه ضد زوجته حينما تحل ساعة الغضب؟

فتح الخادم الباب ليعلن وصول زائر آخر، لم أنتبه للاسم ولكني عرفته عندما دخل. كان نفس الرجل السوري الذي استأجرنا غرفة لديه منذ نحو عام. منحني ابتسامة ودودة وهو يردد

ـ بالتأكيد أنا أعرف مستر براون جيدا.. لم اكن أعرف أنك عدت.. كيف وجدت نيويورك؟

سأل السفير قبل ان أجيب

ـ ما هي آخر أخبار المدينة يا حامد؟

ـ السفارة الفنزويلية استقبلت لاجئا جديدا

قال السفير

ـ سوف يأتونني جميعا ذات يوم.. ولكن البؤس يحب الصحبة.

ـ وثمة شيء رهيب حدث صباح اليوم يا صاحب السعادة.. لقد أوقفوا جنازة الدكتور فيليبوت وسرقوا نعشه

ـ سمعت هذه الاشاعة ولكني لم أصدقها

قلت أنا متدخلا..
ـ بل هي حقيقة. لقد كنت هناك، ورأيت كل...

قاطعني صوت الخادم معلنا وصول زائر ثالث..

ـ مسيو هنري فيليبوت

اقبل علينا مخترقا الصمت شاب يعاني من عرج خفيف، ربما نتيجة شلل الأطفال. عرفته على الفور. انه ابن شقيق الرزير الفقيد، وسبق لي أن التقيت به في أيام أحسن. كان واحدا من مجموعة الكتاب والفنانين الذين اعتادوا التجمع في التريانون. وأذكر اني سمعته ذات مرة يتلو قصيدة من شعره. وكانت فعلا جيدة، صياغة وايقاعا وفيها روح بودلير. كم تبدو هذه الأيام بعيدة جدا الآن!

لم يبق منها سوى أقداح الروم التي يعدها جوزيف.

قال حامد:

ـ هذا هو أول لاجئيك يا صاحب السعادة.. كنت بالفعل اكاد أتوقع قدومك يا مسيو فيليبوت.

قال الفتى:

ـ أوه.. كلا. ليس بعد، فأنا أعتقد ان من شروط اللجوء أن يتعهد اللاجئ بألا يقوم بأي عمل سياسي..

ـ وما هو العمل السياسي الذي تزمع القيام به؟

ـ أنا أقوم الآن بصهر بعض الفضة من مقتنيات العائلة..

قال السفير:

ـ لا أفهم.. هل تسمح بتناول سيجار من مجموعتي يا سيد فيليبوت؟ انها هافانا حقيقية.

ـ زوجة عمي العزيزة الفاتنة تتحدث هذه الأيام عن رصاصة فضية. لكن رصاصة فضية واحدة يمكن ان تطيش. وبالتالي فلا بد من توفير عدد غير قليل. ثم اننا لابد ان نتعامل مع ثلاثة شياطين وليس شيطانا واحدا فقط.. بابا

دوك، ورئيس الطونطون ماكوت، والكولونيل رئيس حرس القصر..

قال السفير

ـ من حسن الحظ انهم اشتروا بالمعونة الأميركية أسلحة وليس ميكروفونات سرية

سألت

ـ أين كنت هذا الصباح؟

ـ لقد وصلت من رأس هايتي متأخـرا فلم ألحق بـالجنـازة. ربما كـان من حسن الحظ أنهم أوقفوني طويلا عند كل حاجـز من حـواجـز المـرور، ولعلهم كانوا يتصورون أن سيارتي اللاندروفر أنما هي طليعة دبابات جيش الغزاة!

ـ وكيف تسير الأمور هناك؟

ـ هادئة اكثر مما يجب. القصر يعج بقطعان الطونطون ماكـوت بنظـاراتهم السوداء الأنيقة حتى ليخيل اليك أنك في بيفرلي هيلز

أهلت مارتا وهو يتكلم. أغضبني انها عندما دخلت نظرت اليه أولا، مـع اني أدرك أن المفروض ان تتجاهلني. وخيل الي ان تحيتها له كانت حـارة اكثـر من اللازم. قالت:

ـ هنري؛ كم أنا سعيدة لأن أراك هنا.. كنت خائفة عليك. فلتبق معنا بضعة أيام..

ـ واجبي ان ابقى مع زوجة عمي، مارتا

ـ هاتها أيضا، هي والطفل

ـ لم يحن الوقت بعد لذلك

ـ تعالوا قبل ان يفوت الوقت.

قالت ذلك ثم التفتت الي بـابتسـامـة لطيفـة لا معنى لها، من النـوع الـذي تحتفظ به للصف الثالث من سكرتيري السفارات.. ثم استطردت..

ـ يبدو جئنا سفارة من الدرجة الثالثة.. أليس كـذلك؟ طـالمـا لا يـوجـد لـدينـا لاجئون!

سألت، متعمدا أن يكون سؤالي بلا معنى، تماما مثل ابتسامتها.

ـ كيف حال ولدك؟

ـ الألم أقل الآن. ولكنه يلح يريد ان يراك

ـ لماذا يريد ان يراني؟

ـ انه دائما يحب ان يرى أصدقاءنا، حتى لا يحس بالوحدة

قال هنري فيليبوت

ـ آه لو كان لدينا مرتزقة بيض مثل الذين قاتلـوا مـع تشـومبي! لـلأسف نحن أهل هايتي لم نقاتل منذ أربعين عامـا بشيء سـوى المـدى والـزجـاجـات المكسورة. نحن بحاجة فعلا الى بعض الخبرات في حرب العصابات ولدينا جبال عالية مثل تلك التي في كوبا.

قلت:

ـ ولكن ليس لديكم غابات للاختفاء فيها لقد أزال فـلاحـوكم كـل أشجـار الغابات.

قال بحرارة

ـ ومع ذلك فقد صمدنا طويلا في وجه مشاة الأسطول الاميركي.. أقول صمدنا بلغة الجمع مع أني أنتمي لجيل آخر. في جيلي أنا تعلمنا الرسم.. وأنت تعرف ولا شك أنهم يشترون لوحات بنوا لمتحف الفن الحديث، وبالتأكيد لأنها أقل تكلفة من لوحات أي رسام مبتدىء في أوروبا.. ورواياتنا تنشر في باريس.. وكتابها يعيشون هناك أيضا.

ـ وأشعارك؟

ـ كانت حافلة بالشجن. أليس كذلك؟ ولكنها جاءت بذلك الدكتور الى السلطة على شراع من نغم . نعم. كل سلبياتنا كانت ايجابيات له. تصور: أنا نفسي أعطيته صوتي.. آه!! هل تعلم أني ليست لدي أية فكرة عن استخدام الرشاش؟ هل تعرف أنت كيف تستخدم رشاشا من طراز برن؟

ـ انه سلاح سهل.. تستطيع ان تتعلمه في خمس دقائق.

ـ اذن علمني

ـ تحتاج أولا الى وجود رشاش برن

ـ علمني بالرسومات وعلب الكبريت الفارغة، وربما وجدت رشاشا ذات يوم

ـ أعرف رجلا أفضل مني كمعلم، ولكنه للأسف، في السجن الآن.

وأخبرته بنبأ «ماجور» جونز، فقال:

ـ تقول انهم ضربوه؟

ـ أجل.

ـ عظيم.. الرجل الأبيض يكون رد فعله خطيرا عندما يضرب

ـ لقد بدا لي أنه أخذ الأمر بسهولة، حتى كدت أتصور انه اعتاد ذلك.

ـ هل تعتقد أن لديه خبرة حقيقية؟

ـ هو أخبرني أنه قاتل في بورما. ولكنه لا أملك دليلا سوى كلمته

ـ يبدو أنك لا تصدقه؟

ـ هناك شيء ما حوله لا أصدقه. ولكن ليس كل شيء. فقد جعلني أتذكر وأنا اتحدث اليه واقعة حدثت لي وانا مازلت في صدر الشباب، حيث اقنعت صاحب مطعم في لندن بأن يستخدموني لأني استطيع التحدث بالفرنسية، وزعمت لهم اني كنت أعمل جرسونا في مطعم فوكين. وقد ظللت أتوقع طول الوقت ان يفتضح أمري. ولكن شيئا لم يحدث.. وبعد ذلك، من فترة غير قصيرة سوقت نفسي بنفس النجاح كخبير في الفن. ولم يفتضح أمري أيضا. وكثيرا ما يخطر لي ما اذا كان جونز يستخدم نفس اللعبة. ولعلني أتذكر انني ذات ليلة ونحن على متن المركب الذي نقلنا من أميركا أخذت أنظر اليه متسائلا ما اذا كان كلانا، هو وأنا مجرد ممثلين كوميديين؟

ـ معظمنا يمكن ان يقال عنهم نفس القول، أنا مثلا.. ألم أكن مجرد ممثل كوميدي وأنا أنشد قصائد تحمل رائحة «أزهار الشر» (ديوان معروف للشاعر الفرنسي بودلير ـ المترجم) وأنشرها بخط اليد على حسابي وأرسلها الى صفحات النقد في الصحف الفرنسية الكبرى؟ ولكن هذه كانت غلطة. لأن خدعتي خابت. ولم أقرأ كلمة نقد واحدة في أي جريدة، اللهم إلا ما كتبه بيتي بيير.. وما أنفقته كان يكفي لكي اشتري رشاشا من ماركة برن (يبدو أن «برن» لها الآن عنده وقع السحر) .

قال السفير

ـ على رسلك يا رجل . روق.. ولنكن جميعا ممثلين كوميديين.. تفضل سيجارة من سجائري.. واملأ لنفسك كأسا.. ان خمري الاسكتلندية جيدة.. ومن يدري، ربما كان بابا دوك ممثلا كوميديا هو الآخر.

قال فيليبوت.

كلا. انه أصلي الرعب دائما شيء أصلي..

قال السفير

ـ أولى بنا ألا نشكو كثيرا من كوننا ممثلين كوميديين. انها مهنة شريفة فقط لو كنا ممثلين جيدين لكان من الممكن ان يكون للدينا طعم. ولكننا فشلنا.. هذا هو كل شيء. لماذا؟ لأننا ممثلون كوميديون من النوع الرديء. ولكننا لسنا رجالا سيئين.

قالت مارتا بالانجليزية، وكأنها توجه الحديث الي..

ـ بحق السماء.. أنا لست ممثلة كوميدية!

كنا قد نسيناها. ولكنها عادت الآن تدق بيدها على ظهر الأريكة وهي تواصل القول بالفرنسية

ـ انتم تتحدثون وتتحدثون بهذا الهراء.. بينما ولدي قد أفرغ منذ لحظة كل ما في جوفه، ويمكنكم ان تشموا الرائحة على يدي. كان يبكي من الألم وانتم تتحدثون عن الأدوار التمثيلية، ولكني لا أمثل أي دور.

أنا اصنع شيئا.. أبحث عن حوض.. عن أسبيرين. امسح فمه احمله الى فراشي..

قالت هذا وانفجرت باكية وهي واقفة خلف أريكتي. بينما راح السفير يـردد محرجا.. «كفى.. كفى يـا عـزيـزتي».. أمـا انـا فلم يكن بـاستطـاعتي أن أقف لأواجهها أو أراها عن كثب. مخافة ان تكون رقابة حامد يقظـة اكثـر ممـا يجب فقد خطر لي انه يراقبني بفهم وسخرية في وقت واحد. ومرت بخاطري في هـذه اللحظة صورة آثار البقع التي تركناهـا فـوق مـلاءة سريـره. تـرى، هـل قـام بتغييرها بنفسه؟

هذا الرجل يعرف جيدا هذه الأشياء الخاصة جدا، تماما كما يعـرفهـا كلب عاهرة..

قال فيليبوت:

ـ أنت تجعلينا جميعا نحس بالخجل..

دارت على عقبيها وغادرتنا. ولكن كعب حـذائهـا شبك في طـرف السجـادة فتعثرت وكادت تسقط من الباب لولا أنني أسرعت قافزا لارفعها من مـرفقهـا.. كنت أدرك أن حامد يراقبني ولكن السفير بادر بتغطية الموقف قائلا:

ـ قولا لأنجيل أنني سأصعد اليه بعد نصف ساعة

أغلقت الباب خلفي. كانت قد خلعت حـذاءهـا وراحت تحـاول تثبيت الكعب المخلوع. قلت:

ـ لا سبيل الى اصلاحه.. ألا يوجد لديك حذاء آخر؟

ـ لدى عشرون آخرون. هل تعتقد انه يعرف؟

ـ ربما. لا أدري

ـ هل سيكون الأمر أسهل لو أنه يعرف؟

ـ لا أدري

ـ ربما لا ينبغي بعد الآن أن نكون ممثلين كوميديين

ـ أنت قلت منذ لحظة أنك لست ممثلة كوميدية

ـ كانت مبالغة مني.. اليس كذلك؟ ولكن.. كل هذا الكلام جعلني أتوتر.. انه جعل كل واحد يحس بأنه رخيص، وتافه، وأدعى للرثاء..

ـ ربما كنا كذلك في الحقيقة. ولكن لا حاجة بنا لأن نستمتع بالحديث عنه.

ـ ثم.. أنا على الأقل أفعل أشياء احيانا أليس كذلك؟ حتى لـو كـانت أشيـاء سيئة. ولكنني لم اتظاهر أبدا بأنني لا أريدك. كما لم أتظاهر بأني أحبك في تلك الليالي الأولى.

ـ هل تحبينني؟

قالت كأنما تدافع عن نفسها

ـ أنا أحب انجيل

قالت ذلك هوي ترتقي درجات السلم الفيكتوري العريض بجوربها حتى وصلنا إلى دهليز طويل اصطفت أبواب الحجرات على جانبيه. قلت:

ـ يبدو أن لديكم العديد من الغرف المعدة لاستقبال اللاجئين

ـ أجل

ـ فلنلجأ الى غرفة منها

ـ هذا خطر جدا..

ـ بل هو آمن تماما.. مثل السيارة.. ثم ماذا يهم اذا كان يعرف؟

ـ سوف يصرخ مستنكرا «في منزلي؟».. تماما مثلما يمكن ان تقـول أنت «في

سيارتنا البيجو؟».. الرجال يقيسون الخيانة على درجات.. ولعلك لن تحفل كثيرا لو كان الأمر في سيارة كاديلاك مملوكة لشخص آخر؟

ـ أنت تضيعين الوقت.. وهو منحنا نصف ساعة فقط

ـ وأنت قلت انك سترى انجيل

ـ اذن بعد ذلك..

ـ ربما. لا أدري دعني أفكر

فتحت الباب الثالث، لأجد نفسي في آخر مكان كنت اود ان اجد نفسي فيه.. مخدعها الخاص الذي يشاركها فيه زوجها. كان هناك سريران مزدوجان. والملاءات المنقوشة بالورود تكاد تغطي الغرفة الواسعة كأنها سجادة. وهناك مرآة حائط طويلة يستطيع ان يراها فيها وهي تستعد للنوم. والآن، وانا احس بداخلي بداية حب للرجل لا اجد سببا يبرر ان لا تحبه مارتا. نعم هو بدين. ولكن هناك نساء يحببن الرجل البدين، مثلما يحببن الاحدب او الاعرج، ونعم ان غريزة «الامتلاك» لديه مسيطرة. ولكن هناك نساء مولعات بالعبودية..

كان انجيل جالسا على الفراش بين وسادتين ورديتين. وورم الغدة النكفية لم يضف كثيرا الى سمنة وجهه قلت هاي! مكتفيا بذلك لأنني لا اعرف كيف اتحدث الى الاطفال لاحظت ان عينيه العسليتين تشبهان عيني ابيه، وليس العيون السكسونية للرجال المتنوقين مثل عيني مارتا. قال في نغمة حافلة برنين التفوق

ـ انا مريض

ـ هكذا ارى

ـ انا انام هنا مع ماما ابي ينام في غرفة الاستقبال، حتى تذهب الحمى.

درجة حرارتي اليوم....

قاطعته

ـ ما هذا الذي تلعب به؟

اجاب قبل ان يوجه الحديث لأمه:

ـ لعبة سحرية.. لغز.. هل هناك احد آخر تحت؟

ـ مسيو حامد.. وهنري.

ـ كنت اود ان يأتيا ليرياني.

ـ ربما لم يصابا ابدا بالغدة.. ولذلك يخشيان العدوى.

ـ هل اصيب مستر براون بالغدة؟

ترددت مارتا. والتقط الصبي ترددها كما يفعل المحقق مع متهم بجريمة قتل. فأسرعت أقول:

ـ أجل...

سأل، مغيرا الموضوع بوضوح غير خاف:

ـ هل يلعب مسيو براون الورق؟

اجابت متلعثمة كأنما تخشى الوقوع في كمين:

ـ كلا.. أقصد.. لا اعرف..

قلت:

ـ انا لا احب اوراق اللعب.

ـ ماما تحب اللعب كانت تذهب تقريبا كل ليلة لتلعب قبل ان تسافر انت.

قالت مارتا:

ـ علينا ان نذهب الآن. سيأتي بابا في غضون نصف ساعة ليقول لك طبت مساء.

ناولني اللعبة قائلا:

ـ ركبها..

كانت عبارة عن علبة مكعبة صغيرة جدرانها زجاجية وبداخلها صورة لمهرج، بها جيبان مفروض ان يكونا عيني المهرج، وحبتان صغيرتان من الصلب وعليك ان تهز العلبة لتستقر الحبتان في الجيبين. فرحت اهز العلبة يمينا ويسارا وكلما نجحت في وضع حبة في احدى الجيبين واخذت احاول الاخرى فرت مني الحبة الاولى، والصبي يراقبني بعينين ساخرتين، خاليتين من الود.

ـ آسف.. انا لا اجيد هذا النوع من الالعاب.

قال:

ـ أنت لا تحاول كما يجب.. استمر.

احسست بأن الوقت المتاح لي لأختلي بمارتا يتسرب مثلما تتسرب رمال الساعة الرملية، واكاد اوقن انه ايضا كان يراه كذلك، والحبتان الملعونتان تتسابقان داخل الجدران الزجاجية وتدوران حول الجيبين دون ان تسقطا فيهما.

ـ ها انذا كسبت واحدة..

قال باصرار لا يخلو من الحقد:

ـ هذا لا يكفي

دفعت بالعلبة اليه قائلا

ـ حسن.. دعني ارى.

منحني نظرة خبيثة، غير ودية وهو يمسك العلبة بيده اليسرى وبدا لي انه لا يكاد يحركها. ومع ذلك فقد تحركت احدى الحبتين ببطء لتستقر في هدوء في داخل احد الجيبين. قال.

ـ واحد..

واخذت الحبة الاخرى نحو الجيب الثاني، وسقطت فيه وهو يقول:

ـ اثنان..

ـ ما هذا الذي بيدك اليسرى.

ـ لا شيء.

ـ اذن دعني ارى هذا اللاشيء..

فتح قبضة يده مادا فيه قطعة مغناطيسية صغيرة.. قال:

ـ عدني الا تخبر احدا .

ـ واذا لم افعل،

كنا اشبه بلاعبين بالعين اكتشف احدهما خداع الآخر. قال دون ان يرمش له حفن

ـ انا استطيع ان احتفظ ببعض الاسرار لنفسي.. مثلما تستطيع انت.

- اذن.. فأنا اعدك!

مالت عليه مارتا تقبله، وترتب وسائده، ثم اضاءت مصباحا صغيرا الى جوار الفراش. قال:

- هل ستعودين سريعا للفراش؟

- عندما ينصرف الضيوف.

- ومتى سينصرفون؟

- كيف لي ان اعرف؟

- في وسعك دائما ان تقولي اني مريض. وقد اتقيأ مرة اخرى. الاسبرين لم يفعل شيئا. انا احس بالألم..

- استرح.. اغمض عينيك.. بابا سيأتي حالا. وعندها اتوقع انهم سينصرفون، وآتي اليك.

قال لي بصيغة الاتهام:

- انت لم تقل لي طبت مساء.

وضعت يدا زائفة الود على رأسه اداعب شعره الجاف وبعدها، شممت في يدي رائحة فأر!

في الدهليز، قلت لمارتا:

- حتى هو، يبدو انه يعرف.

- كيف يمكن ان يعرف؟

- ما الذي يقصده بحديثه عن عدم افشاء الاسرار.

ـ انها لعبة يلعبها كل الاطفال.

ولكن ما اصعب ان اتصوره انا طفلا ككل الاطفال! قالت:

ـ لقد عانى كثيرا من المرض. ومع ذلك، ألا ترى ان سلوكه رائع؟

ـ بالتأكيد.. رائع جدا!

ـ تماما كما لو كان شابا بالغا.

ـ اوه.. اجل.. اني ارى ذلك فعلا.

امسكت برسغها وقدتها في الدهليز. قلت:

ـ من الذي ينام في هذه الغرفة.

ـ لا احد.

فتحت الباب ودفعتها للداخل. قالت:
ـ كلا.. ألا ترى ان هذا مستحيل؟

ـ لقد غبت ثلاثة اشهر. ولم نلتق سوى مرة واحدة منذ عدت.

ـ انا لم ادفعك الى الذهاب لنيويورك.. ألا ترى ان مزاجي ليس رائقا اليوم؟

ـ انت التي طلبت مني ان اجيء.

ـ كنت اريد ان اراك.. مجرد رؤياك، وليس...

ـ انت لا تحبينني.. هل تحبينني؟

ـ لا يحق لك ان تسأل هذا السؤال.

ـ ولماذا؟

ـ لأني قد اسألك نفس الشيء.

ادركت المنطق في ما تقول. واشعلني هذا غضبا. ومع الغضب تبخرت رغبتي.

ـ ترى. ما عدد المغامرات في حياتك.

اجابت بدون تردد

ـ أربعة.

ـ وانا الرابع؟

ـ أجل.. اذا احببت ان تسمي نفسك مغامرة.

لعلني بعد عدة اشهر، عندما انتهت العلاقة بيني وبين مارتا ادركت كم كانت صريحة، واحسست بالتقدير لصراحتها ابدا لم تكن تلعب دورا. وانما كانت تجيب بدقة على ما اسأل. لم تزعم ابدا انها تحب شيئا لا تحبه او تشعر ازاءه بعدم المبالاة. واذا كنت قد عجزت عن فهمها فلأني لم اكن اسألها الاسئلة الصحيحة . هذه هي الحقيقة. فالذي لا شك فيه انها لم تكن ممثلة كوميدية. وانما ظلت محتفظة لنفسها بفضيلة البراءة. ولعلي الآن اعرف لماذا أحببتها. فالصفة الوحيدة بجوار الجمال التي يمكن ان تجذبني الى امرأة ما هي «الطيبة».. تلك المرأةفي مونت كارلو خانت زوجها مع مجرد تلميذ، ولكن دافعها الى دلك كان كريما. كذلك مارتا خانت زوجها. ولكن لم يكن حبها لي هو الذي شدني اليها ـ لو كانت تحبني اصلا ـ وانما شدة تعلقها بطفلها هذا التعلق الخالي من اية انانية. هو اكثر شيء جذبني لها

مع الطيبة يستطيع المرء ان يحس بالامان لماذا كنت دائما اوجه اليها الاسئلة الخاطئة؟ قلت وانا اطلق يدها

ـ لماذا لا تدوم مغامرة واحدة؟

ـ كيف لي ان اجيب؟

تذكرت الرسالة الوحيدة التي تلقيتها منها بخلاف القصاصات المبتورة التي تحدد موعد اللقاء والتي كانت تكتب بغموض متعمد خشية ان تقع في يد الغير. كان ذلك وانا انتظر في نيويورك، ولا بد انني كنت قد كتبت اليها كتابا غاضبا مفعما بالشك والغيرة. «كنت قد التقطت فتاة طريق في الشارع الخامس والستين، فدخل في يقيني انها بدورها قد التقطت من يملأ عليها شهور الفراغ». فردت علي بلطف، ودون ضغينة. ولعل مجرد ان يكون للانسان اب قتل شنقا يجعل الاحساس بالاذى مسألة نسبية. فقد افاضت في الحديث عن انجيل، وشطارته في الحساب، واستطردت سطورا طويلة، عن الكوابيس التي تلاحقه، «.. وانا امكث معه الليل بطوله، كل ليلة تقريبا». وهذه الجملة بالذات هي التي جعلتني في الحال اتساءل عما نفعله عندما لا تكون معه، ومع من تقضي ساعات المساء.. ولم يكن هناك مكان لأن اتصورها تقضي المساء بصحبة زوجها، او في الكازينو حيث لقيتها اول مرة.

وفجأة، وكأنما عرفت كيف ستتجه افكاري كتبت «ربما كانت الحياة العاطفية اعظم امتحان. فلو استطعنا ان نعيشها مع الاحسان الى من نحبهم، والعطف على من نضطر الى خيانتهم لن يكون بنا حاجة الى امعان التساؤل حول ما هو طيب وما هو سيء في داخلنا. اما بالغيرة وعدم الثقة والقسوة والثأر وتبادل الاتهامات.. فحينئذ يكون الفشل. والخطأ يكون في هذا الفشل اذا كنا نحن الضحايا لسنا اصحابه. ولن تكون الفضيلة هنا مبرراً أو حجة».

ولعلني في تلك اللحظة تصورت ان ما كتبته مجرد ادعاء يفتقر الى الاخلاص. كنت غاضبا من نفسي، وبالتالي كنت غاضبا منها. ولقد مزقت الرسالة اربا رغم كل ما كان بها من رقة، مع انها كانت الرسالة الوحيدة التي

لدي، حيث خيل الي انها تؤنبني على الساعتين اللتين قضيتهما في ذلك المساء مع فتاة الطريق ولكن.. كيف تسنى لها ان تعرف؟

ولعل هذا هو السبب في ان كل الخزعبلات التذكارية التي احتفظ بها مثل بطاقة دخول كازينو مونت كارلو، وثقل الورق الذي جلبته من ميامي، لم يكن فيها قصاصة ورق واحدة منها. ومع ذلك فاني استطيع ان اتذكر خطها بوضوح شديد بحروفه الطفولية المستديرة مع اني لا اكاد اتذكر نبرات صوتها. قلت:

ـ حسن.. نستطيع ان ننزل.

كانت الغرفة التي وقفنا على بابها باردة، وخالية، والصور على الجدران في الاغلب من اختيار وزارة الاشغال.

ـ اذهب انت. لا اود ان ارى هؤلاء الناس.

ـ اذن.. عند تمثال كولمبوس عندما تتحسن حالته؟

ـ أجل.. تمثال كولمبوس..

وفجأة.. وكما لم اكن اتوقع ابدا، القت ذراعيها حولي وهي تهمس:

ـ يا حبيبي المسكين.. يا لها من عودة!

ـ ليست غلطتك على اية حال.

ـ هيا بنا.. اسرع..

قالت ذلك وهي تتمدد على حافة الفراش وتشدني نحوها. سمعت صوت انجيل يهتف عبر الدهليز:

ـ بابا.. بابا

ـ لا تستمع اليه.

قفزت الى مخيلتي وهي تضم ركبتها الى صدرها صورة الدكتور فيليبوت وهو ملقى تحت سلم القفز في قاع حوض السباحة. لماذا يكون الموت والحب والولادة شكل واحد.

وجدتني عاجزا عن الحركة.. فقط سمعت صوت اقدام السفير. قالت:

ـ لا تهتم.. لن يأتي الى هنا.. ولكن لم يكن السفير هو الذي جمد اطرافي. نهضت. قالت.

ـ لا يهم.. كانت مجرد فكرة سيئة من جانبي.. هذا كل شيء.

ـ اذن.. تمثال كولمبوس؟

ـ لا.. سوف اجد شيئا افضل.. اقسم ان افعل.

تقدمتني خارجة من الغرفة. وهتفت:

ـ لويس..

ظهر السفير خارجا من مخدعهما وبين يديه لعبة انجيل.

ـ نعم يا عزيزتي

ـ كنت اطلع مستر براون على حجرات هذا الطابق. يقول اننا نستطيع ان نقبل عددا محدودا من اللاجئين.

لم يكن في صوتها رنة زيف واحدة. كانت طبيعية تماما. وتذكرت غضبها ونحن نتحدث عن الممثلين الكوميديين فبدت لي الآن انها ابرع الممثلين جميعا. فأنا نفسي كنت اقل منها براعة، حيث احسست بالجفاف في حلقي وخانني صوتي بالفعل وانا اقول·

ـ يجب ان اذهب الآن.

قالت مارتا

ـ لماذا؟ ما زال الوقت مبكرا.. ونحن لم نرك منذ زمن طويل.. أليس كذلك يا لويس؟

ـ آسف.. ولكن لدي موعدا لا استطيع ان اخلفه.. لم اكن اعلم لحظتها اني ما قلت الا حقا.

(٣)

اليوم الطويل لا يريد ان ينتهي. ومنتصف الليل مضى عليه ساعة، أو ربما دهر بأكمله درجت بسيارتي على حافة البحر الطريق كله حفر والناس عددهم قليل جدا، وكأنهم لم يعلموا برفع حظر التجول، أو لعلهم يعتقدون أن في الامر فخا من نوع ما. على يميني صف من الاكواخ الخشبية مقامة على مساحات صغيرة جدا من الارض، ومسورة بأسوار منخفضة وتنمو في بعضها اشجار نخيل وثمة شمعة عارضة تلقي ظلالها الباهتة على صحبة صغيرة من الرجال العاكفين على اقداح الروم كأنما ينوحون فوق نعش. ورجل طاعن في السن يرقص في وسط الطريق على نغمة موسيقية متقطعة، ضغطت قدمي على الفرامل بقوة. توقفت السيارة، أقبل نحوي العجوز تسبقه قهقهة من خلال نافذة السيارة، هنا في هذه الليلة يوجد رجل واحد على الاقل في بورتو برنس لا يخنقه الخوف. لم أفهم لماذا يضحك، فاستأنفت السير.

كان قد مضى عامان، أو اكثر منذ زرت بيت ميري كاترين آخر مرة. ولكني كنت في حاجة اليها الآن. كان عجزي يتمدد في داخلي ويحتاج الى ساحر.. أو ساحرة.. لكي تزيحه. مرت بخاطري صورة تلك الفتاة في الشارع الخامس والستين بتبرق نيويورك. ولكني عندما فكرت رغما عني في مارتا التهب

غضبي.. فلو كانت استسلمت لي حينما كانت رغبتي فيها مشتعلة لما حدث لي ما حدث.

قبل بيت ميري كاترين تماما يتفرع الطريق الى شارعين، الاول مسفلت ـ من باب التجاوز ـ لانه ينتهي بعد بضعة أمتار، (ربما لان الميزانية نفدت، وربما لأن بعضهم لم يتقاض المعلوم)..

اما الثاني، والمفروض انه الطريق الاصلي، فكان يتجه جنوبا، ولا يكاد يصلح الا لسيارات الجيب. وقد فوجئت بوجود حاجز، حيث لا يمكن تصور أي غزو قادم من الجنوب، توقفت تحت لافتة كبيرة تقول «الخطة الامريكية الهايتية الخمسية المشتركة ـ الطريق الجنوبي العظيم»، بينما راحوا يفتشون بقوة أدق كثيرا من المعتاد. ولكن الاميركيين لم يتركوا وراءهم من الخطة الخمسية شيئا سوى اللافتة التي تطل على البرك والقنوات الآسنة واكوام الحجارة وجثة كراكة معطلة لم يقم احد بانقاذها من الوحل.

أخيرا اطلقوا سراحي، فأخذت الطريق الايمن حتى وصلت الى بيت ميري كاترين. كان كل شيء هادئا تماما، حتى أني فكرت للحظة ما اذا كان الامر يستحق ان انزل من سيارتي

كان البيت عبارة عن كوخ طويل اشبه بحظيرة جياد، ينقسم الى الكبائن التي تجرى فيها «اللقاءات». وثمة ضوء منبعث من المبنى الرئيسي حيث تستقبل ميري كاترين زوارها وتقدم لهم المشروبات. ولكن لا موسيقى ولا رقص. ومرت لحظة كاد فيها الاخلاص يغويني وكدت بالفعل أواصل المسير. ولكني كنت قد حملت علتي معي طوال الطريق الوعر مسافة اطول من ان اصرف النظر عما اعتزمته الآن، ولذلك فقد تقدمت حذرا على طول المبنى المظلم في اتجاه الضوء، وانا احس بكراهية متزايدة نحو ذاتي.

وبحماقة لا معنى لها ادرت السيارة في اتجاه الجدار حتى تبقى في الظلام،

ولكني اصطدمت بسيارة جيب مطفأة الانوار، وسائقها نائم على عجلة القيادة ومرة اخرى درت بسيارتي لاعود ادراجي. ففي بورتو برنس لا تكاد توجد اية سيارات جيب غير مملوكة لشياطين الطونطون ماكوت. واذا كان الطونطون ماكوت يستمتعون هذه الليلة مع فتيات ميري كاترين، فلا مكان اذن لاي «زبون» من الخارج!

ولكن كراهيتي لذاتي جعلتني اكثر عنادا. فقررت ان ادخل. ودخلت. ويبدو ان ميري كاترين سمعت صوت الاصطدام فخرجت لتلقاني على العتبة، وهي تحمل بيدها مصباحا زيتيا. كان لها وجه راهبة طيبة في فيلم من افلام اقاصي الجنوب، وجسم نحيل رقيق من المؤكد انه كان جميلا ذات يوم. ولم يكن وجهها يختلف عن طبيعتها. فقد كانت اطيب امرأة عرفتها في بورتو برنس. وهي تزعم دائما ان فتياتها جئن من احسن العائلات، وانها انما تساعدهن لكي يكسبن مجرد مصروف جيب. ويكاد المرء يصدقها، لانها تعلم فتياتها كيف يتحلين بأفضل الشمائل والسلوك في حياتهن العامة. وعندما يدخل الزبائن المقصورات يجدون انفسهم مضطرين الى التصرف بمنتهى الادب، بل ان المرء وهو يشاهد الرقص يكاد يتخيل ان هذا هو الحفل الختامي لمدرسة بنات. وذات مرة من ثلاث سنوات شهدتها تنتفض كالنمرة لتنقذ احدى فتياتها من يد احد الوحوش. كنت احتسي قدحا من الروم عندما دوت صرخة ثاقبة من ناصية المكان الذي نسميه الحظيرة. وقبل ان أقرر ما يجب ان افعله كانت ميري كاترين تخطف ساطورا من المطبخ وتطير كالصقر عندما ينقض على فريسته. وكان غريمها مسلحا بسكين، ويفوقها في الحجم مرتين، وسكران للآخر (لا بد انه كان يخفي قنينة في جيبه، لان ميري كاترين لم تكن لتسمح له ابدا بأن يخرج مع فتاة وهو في هذه الحالة). ومع ذلك فما ان رآها مندفعة نحوه حتى دار على عقبيه وولى الادبار.

وبعدها بقليل، رأيتها من نافذة المطبخ وانا في طريقي للانصراف، وهي

تهدهد الفتاة الجالسة على حجرها ورأسها نائم على كتفها النحيل.

همست ميري كاترين محذرة:

ـ الطونطون هنا.

ـ هل اخذوا كل الفتيات؟

ـ كلا. ولكن الفتاة التي تفضلها مشغولة.

لم اكن قد جئت الى هذا المكان منذ اكثر من سنتين. ومع ذلك فهي تذكر، والاكثر غرابة ان الفتاة لا زالت معها، لا بد وانها الآن تقترب من الثمانية عشرة.. ولم اكن اتوقع ان اجدها. ومع ذلك فقد احسست بالسخط. ففي مثل عمري يفضل المرء دائما الصحبة القديمة. حتى ولو كانت في دار بغاء.

سألتها:

ـ هل هم في حالة مزاجية خطيرة؟

ـ لا أظن ذلك. ولكنهم جاءوا بصحبة شخص مهم. وهذا الشخص المهم مع تين تين الآن.. في مقصورتها.

كدت أعود ادراجي. ولكن سخطي على مارتا كان يتمدد في داخلي، فقلت:

ـ سأدخل، فأنا ظمّان. اعطني كأسا من الروم، وزجاجة كوكاكولا.

ـ لا يوجد لدينا كوكولا.

كنت قد نسيت ان المعونة الاميركية انقطعت.

ـ هات لي روم وصودا اذن.

ـ لدي بضع زجاجات سفن أب.

ـ حسن.. فليكن سفن أب.

على باب البهو كان هناك واحد من الطونطـون مـاكـوت نـائما على مقعـده، وعويناته السوداء ساقطة في حجـره، ويبـدو غير مؤذ على الاطـلاق. والـذبـاب يتسلل خارجا وداخلا من عروة مفكوكة في بنطلونه. وفي الـداخـل كـان صمت تام. ومن خلال الباب المفتوح كان بوسعي ان أرى اربع فتيات يرتدين تنـورات حريرية بيضاء منتفخة. ويرشفن عصير برتقال بمصاصات. تحـركت احـداهن بعيدا حاملة بيدها قدحها الفارغ ورداؤها يهفهف كأنه جناح طائر.

ـ ألا يوجد زبائن بالمرة؟

ـ كلهم انصرفوا عندما جاء الطونطون ماكوت.

دخلت، وهنـاك كـان يجلس الى المـائدة ويحدق في وجهي، وكـأن عينيـه لم تفارقاني لحظة واحدة، نفس الرجل الـذي سبق ان رأيتـه في مـركـز الشرطـة، والذي حطم نوافذ سيارة الموتى ليخرج نفس الـوزيـر السـابق. وقبعتـه الليـنـة ملقاة على مقعد، وعلى صدره تتدلى ربطة عنق مخططة بالطول. أحنيت لـه رأسي محيياً وأنا اتخذ مكاني الى طاولة اخرى. كنت مرعوبـا منـه، وأسـأل نفسي من يكون ذلك الطونطون الاكبر، الأكثر اهمية منه الـذي ينفـرد الآن مـع تين تين.. وتمنيت مخلصا ألا يكون رجلا أسوأ. قال الضـابط:

ـ يبدو لي أني أراك في كل مكان

ـ مع أني أحاول ألا يلحظ احد وجودي.

ـ ماذا تريد هنا هذه الليلة؟

ـ مجرد كأس من الروم وزجاجة سفز أب.

قال لميري كاترين التي وصلت في هذه اللحظة بمشروبي على صينية.

ـ ألم تقولي انك لم يعد لديك سفن أب؟

لاحظت وجود زجاجة صودا فارغة الى جوار كأس الروم على الصينية. مد الطونطون ماكوت يده الى مشروبي وتذوقه وقال:

ـ انه سفن أب، تستطيعين ان تحضري لهذا الرجل كأساً آخر من الروم بالصودا.. أما كل ما لديك من السفن أب فيجب ان يبقى ليقدم الى صديقي عندما يعود.

ـ المكان مظلم جدا عند البار، يبدو ان الزجاجات اختلطت.

ـ يجب ان تتعلمي كيف تميزين بين زبائنك المهمين و...

وتمهل لحظة قبل ان يقرر ان يكون أكثر أدبا، فأكمل عبارته قائلا:

ـ ... والناس الأقل اهمية.

ثم وجه حديثه إلّي...

ـ تستطيع ان تجلس.

استدرت على كعبي لكي ابتعد.. ولكنه عاد يقول.

ـ تستطيع ان تجلس . اجلس.

أطعت الأمر. فقال:

ـ هل أوقفت عن مفترق الطرق وتم تفتيشك؟

ـ اجل.

ـ وهنا عند الباب.. هل اوقفت عند الباب؟

ـ اجل.. أوقفتني ميري كاترين.

ـ ألم يوقفك أحد رجالي؟

ـ كان نائما.

ـ نائم؟

ـ اجل نائم..

لم أتردد فى الوشاية. فليأكل الطونطـون مـاكـوت انفسهم. ولكني فـوجئت بالرجل لا يقول شيئا، ولا يتحرك هائجا نحو الباب. وانما اكتفى بـأن نظـر الى الباب من خلال نظارته السوداء ومن خلالي كأني جسم شفاف، ويبدو انه قرر شيئا ولكنه فضل ألا يجعلني اعرف قراره.

جاءت ميري كاترين تقدم لي مشروبي. تذوقته وجدت الروم مختلطا بطعم السفن أب. لا شك انها امرأة شجاعة.

قلت:

ـ يبدو انكم تتخذون احتياطات أمن كثيفة هذه الليلة.

ـ أنا مرافق لشخصية اجنبية مهمة جدا، ولا بد من اتخاذ جميع الاحتياطات اللازمة لضمان أمنه. وقد طلب ان يأتي الى هنا.

ـ هل هو في أمان مع تين تين؟ أم ان هناك حارسا مقيما في مخدعهـا.. يـا.. كابتن؟ أم لعلك ماجور؟

ـ أنا أسمي كابتن كونكاسير.. يبدو انك تميل للفكاهـة. انـا احب الفكـاهـة. واحب النكت ايضـا. النكت عـادة لها مـدلـول سيـاسي. ان النكت هي وسيلـة الهروب للجبناء والعاجزين.

ـ قلت ان معك زائرا اجنبيـا مهما.. ولكني اليـوم في الصبـاح فهمت انك لا

تحب الاجانب.

- أنا رأيي الشخصي في أي رجل ابيض متواضع جدا، بل أني اعترف بـأنني احس بالاستفزاز امام اللون الابيض الذي يذكرني بالديك الـرومي ولكننـا قـد نقبل بعضكم احيانا اذا كنتم مفيدين للدولة.

- تعني مفيدين للدكتور؟

قال برنة فيها شبهة تهكم ضئيلة جدا.

- أنا علم هايتي، واحد لا ينقسم!
ثم أكمل بصوت آخر

- ان بعض البيض ولا شك اكثر تسامحا من غيرهم. الفرنسيون على الاقـل لديهم ثقافة مشتركة معنا. وانا شخصيا معجب بالجنـرال (ديجول). وقـد كتب اليه الرئيس بالفعل يطلب الانضمام الى السوق الاوروبية.

- هل تلقى ردا؟

- هذه المسائل تحتاج الى وقت. فهناك شروط يتعين علينا ان ندرسها.

اننا نفهم العمل الدبلوماسي، ولا نتخبط مثل الاميركيين.. والبريطانيين.

كان اسم كونكاسير لا زال يطن في أذني.. لقد سمعت هذا الاسم من قبل في مكان ما.. المقطع الاول يناسبه تماما.. بل لعل الاسم كله بما يوحي به من قدرة على التكسير كان اسما حركيا، مثل ستالين، أو هتلر..

استطرد الكابتن كونكاسير مثرثرا.

- ان هايتي تنتمي بحق للقوة الثالثة، فنحن القلعة المنيعة لمكافحة الشيوعية. لا احد مثل كاسترو يمكن ان يفلح هنا.. ان فلاحينا مخلصون.

- أو ربما خائفون.

قلت هذا وانا ارشف جرعة طويلة من الروم جعلتني اكثر قـدرة على احتمال جعجعته.. ثم أضفت:

ـ يبدو ان ضيفك المهم يستمتع بوقته.

ـ قال لي انه لم يقرب امرأة منذ فترة طويلة.

ثم التفت فجأة الى ميري كاترين نابحا في وجهها وهو يدق الارض بقدمه:

ـ انا اريد خدمة.. خدمة! لماذا لا يرقص احد؟

قلت:

ـ هذه قلعة للعالم الحر!

نهضت الفتيات الاربع من مقاعدهن حول الطاولة. تـولت احـداهن تشغيـل الجراموفون، وبدأن يرقصن في رشاقة رقصــة كـلاسيكيـة بطيئـة الحـركـات، وتنوراتهن المنتفخة تتطاير لتكشف عن سيقـان بلـون الغـزلان، وهن يتبـادلن الابتسام بلطف كأنهن فراشات أو طيور من نفس الفصيلة، حتى ليصعب فعـلا على المرء ان يصدق انهن للبيع، مثل الاخريات.. قلت:

ـ من المؤكد ان العالم الحر يدفع اكثر، وبالدولار!

رأى الكابتن كونكاسير أين تتجه نظراتي، كان واضحا ان شيئـا لا يفـوتـه وهو ينظر من خلال هذه العدسات السوداء. قال:

ـ دعني استضيفك على احداهن. هذه الفتاة الصغيرة هناك، ذات الوردة على شعرها. لويز . انها لا تنظـر الينـا لانهـا تعتقـد انني يمكن ان احس بـالغيرة.. تصور؟ أنا أغار من نكرة؟ يا للسخف!

سوف تخدمك جيدا اذا اعطيتها كلمتي.

قلت مدركا مدى كرمه . وكأنه يرمي عظمة الى كلب..

ـ أنا لا اريد امرأة

ـ إذن لماذا انت هنا؟

كان من حقه إن يسأل هذا السؤال. ولذلك فقد اكتفيت بالقول أني غيرت رأيي. ثم غيرت الموضوع.

ـ ألا تخاف الشيوعيين أبدا؟

ـ كلا.. هنا لا يوجد أدنى خطر منهم. ولو حدث في أية لحظة واصبحوا خطرا فان الاميركيين سينزلون مشاة البحرية فورا. نعم.. قد يكون ثمة عدد ضئيل من الشيوعيين في بورتو برنس. ولكن اسماءهم معروفة لدينا. ولا يشكلون أي خطر. كل ما يفعلونه انهم يجتمعون في حلقات صغيرة ويقرأون كارل ماركس. قل لي.. هل أنت شيوعي؟

ـ كيف يمكن ان اكون شيوعيا؟ اني امتلك فندق التريانون. واعتمد في دخلي على السياح الاميركيين.. انا رأسمالي من أعلى الرأس الى اخمص القدم.

ـ إذن فأنت تعد واحدا منا. فيما عدا اللون بالطبع.

ـ كفى اهانات.

ـ أوه.. ان لونك ليس خطيئتك.

ـ ما أعنيه لا تقل اني واحد منكم. فعندما تصبح دولة رأسمالية قمعية اكثر مما يجب تصبح معرضة لفقدان الولاء حتى من الرأسماليين.

ـ الرأسمالي سيظل على ولائه دائما اذا حصل على خصم ٢٥ في المائة.

ـ بعض الانسانية مطلوب ايضا.

ـ أراك تتحدث وكأنك كاثوليكي.

ـ اجل. ربما كنت كاثوليكيا فقد ايمانه. ولكن آلا ترى انكم معرضون لخطر أن يفقد الرأسماليون هنا عقيدتهم أيضا؟

ـ هؤلاء، قد يخسرون حياتهم. ولكنهم لا يفقدون عقيدتهم أبداً. إن المال هو عقيدتهم. يحرسونه بأرواحهم حتى النهاية، ثم يورثونه بعد ذلك لاولادهم.

ـ وذلك الرجل المهم «رجلكم» هل هو رأسمالي مخلص أو مجرد رجل سياسة يميني؟

تشاغل عني بتقليب قطع الثلج في كأسه. وفي هذه اللحظة تذكرت اين سمعت اسمه من قبل. كان بيتي بيير هو الذي تحدث عنه بنوع من الرعب، ذاكرا انه سحب كل الحفارات والطلمبات المملوكة لشركة مياه اميركية بعد جلاء موظفيها وسحب السفير الاميركي، وشحنها كلها للعمل في مشروع خاص به بقرية كينسكوف الجبلية. ولكنه لم يوفق كثيرا لان العمال تركوه بعد شهر واحد عندما لم يدفع لهم اجورهم ويقال ايضا انه لم يرتب اموره جيدا مع رئيس الطونطون ماكوت الذي احنقه انه لم يحصل على العمولة المناسبة. وهكذا، فان مشروع كونكاسير لا يزال واقفا على سفح كينسكوف على شكل اربعة اعمدة من الاسمنت وارضية من الاسمنت بدأت تتشقق بفعل الحرارة والامطار. ولعل الرجل «المهم» الذي يلهو مع تين تين الآن ممول جاء له لينقذه من ورطته. ولكن آي ممول مجنون يقدم على احضار امواله الى بلد يهرب منه كل السياح ليساعد على بناء حلقة تزلج على الجليد على سفوح كينسكوف؟

قال كونكاسير.

ـ نحن نحتاج فنيين.. حتى لو كانوا بيضا..

ـ كان الامبراطور كريستوف يعمل بدونهم.

ـ نحن اكثر تقدما من كريستوف.

ـ بمعنى ان تبني حلقة تزلج على الجليد بدلا من قلعة؟

هنا، قال الكابتن كونكاسير.

ـ اعتقد انني تحملتك اكثر مما يجب.

وهنا ادركت أنني ذهبت بعيدا اذ لمست وتره الحساس.

وأحسست بشيء من الخوف. آه لو كانت مـــارتـــا لم تتمنّـع إذن لكـانت ليلتي الآن مختلفة تماما، ولكنت الآن نائما ملء جفوني في فراشي بالفنـدق دون أدنى اهتمام بالسياسة أو بفساد السلطة.

اخرج الكابتن مسدسه من جرابه ووضعه أمامه على الطاولة بجوار كـأسـه الفارغ، وقد تدلت ذقنـه على قميصـــه المخطط بـالابيض والازرق. ومضت فترة صمت كئيب وهو جالس يفكر كما لو كان يزن بدقة المزايا والمخاطر التي يمكن ان تحدث عن طلقة سريعة بين العينين.

وفي هذه اللحظة اقبلت ميري كاتـرين فـوقفت خلفي، ووضعت كـأسـين من الروم قائلة:

ـ صديقك قضى اكثر من نصف ساعة مع تين تين. وهذا يكفي.

قال الكابتن:

ـ يجب ان يتاح له أي وقت يريد. انه رجل مهم. مهم جدا.

ظهرت على شفتيه حبيبات غاضبة. وامتدت اصابعه لتلمس المسدس قبل أن يضيف:

ـ ان التزحلق على الجليد شيء عصري جدا.

تراوحت اطراف اصابعه بين كأس الروم والمسدس. اسعدني جدا ان تكون اللمسة الاخيرة لكأس الروم. رفعه الى شفتيه وهو يردد

ـ التزحلق على الجليد نقلة حضارية..

عادت ميري كاترين تقول:

ـ ما دفعتموه كان في مقابل نصف ساعة فقط.

ـ ساعتي تقول شيئا آخر. ثم انت لن تخسري شيئا. فلا يوجد لديك زبائن في الانتظار.

ـ مستر براون هنا.

أسرعت أقول:

ـ ليس الليلة. لا أدري كيف اكون الثاني بعد هذا الزائر المهم!

سأل الكابتن:

ـ اذن ما الذي يبقيك هنا؟

ـ أنا ظمّان. ثم هناك بعض الفضول. فنحن لا ننعم كثيرا في هايتي بوجود زوار مهمين هل سيمول الرجل حلقة التزلج؟

طارت نظرة من عين الكابتن الى المسدس. ولكن لحظة الخطر الحقيقي كانت قد مرت، ولم يبق منها سوى بعض الاثر، مثلما يتبقى في اعقاب نوبات المرض. قلت بهدوء:

ـ لا أظنك تريد لضيفكم المهم جدا ان يخرج الآن فيجد جثة بيضاء في البهو.. أظن هذا قد يسيء الى عملكم معه.

قال بصدق تام·

ـ هذا أمر يمكن ترتيبه فيما بعد.

وارتسمت على شفتيه ابتسامة عجيبة، فتحت وجهه وكأنها شق في حلقة للتزلج على الجليد.. ابتسامة حضارية، بل يمكن ان تكون متواضعة. ونهض واقفا. واذ سمعت الباب خلفي يفتح التفت لاجد تين تين في ثياب بيضاء هفهافة كأنها عروس على باب كنيسة، وهي تبتسم ابتسامة شبيهة بابتسامة كونكاسير، ومن نفس النوع.. كان الاثنان يبتسمان للضيف العظيم جدا الذي أهل بطلعته البهية من الباب..

وكان الضيف هو مستر جونز!!

4

هتفت غير مصدق

ـ جونز؟

كانت آثار المعركة لا زالت ظاهرة على وجهه ولكنها الآن مغطاة بأناقة بشرائط البلاستر، قال وهو يهز يدي بحرارة شديدة

ـ آكل قبعتي ان لم يكن هذا هو براون! ما اجمل ان يرى المرء واحدا من الصحبة القديمة..

قال ذلك كما لو كنا اثنين من قدامى المحاربين في كتيبة واحدة لم يلتقيا منذ نهاية الحرب قبل الاخيرة.. قلت عامدا.

ـ انت رأيتني امس.

لحت على وجهه لمحة حرج ما لبث ان نسيها.. ثم راح يفسر للكابتن

كونكاسير

ـ مستر براون وأنا كنا رفيقي سفر على متن ميديا..

ثم التفت الي

ـ هيه.. وكيف حال مستر سميث؟

ـ تماما مثلما رأيته امس عندما زارك.. لا زال قلقا عليك

ـ علي انا؟ لماذا؟ آه.. ارجو الا تؤاخذني.. أنا لم اقدم لك صديقتي الصغيرة

ـ تين تين وأنا نعرف بعضنا جيدا..

ـ عظيم.. عظيم.. اجلسي يا عزيزتي.. اجلسي ـ سوف نتناول كأسا معا..

قال هذا وهو يجذب مقعدا لتجلس الفتاة عليه، ثم شدني من ذراعي خطوة جانبا وهو يهمس بصوت غير مسموع

ـ هذا تاريخ مضى وانتهى الآن يا والدي

يسعدني ان اراك في امان الآن

شرح الامر كعادته متعمدا الغموض

ـ ان مذكرتي هي التي صنعتها، كنت واثقا انها ستأتي بنتيجة، لم يخالجني الشك ابدا، كانت الاخطاء متبادلة من الجانبين.. وعلى ذلك فأنا لا احب ان تعرف الفتيات هنا شيئا عن هذا الموضوع.

ـ الفتيات سيتعاطفن معك جدا... ولكن الا يعلم هو؟

ـ اوه؟. نعم.. يعلم، ولكنه ملتزم بالسرية، ربما اخبرك غدا كيف سارت

الامور، ولكني الليلة مشغول.. إذن فأنت تعرف تين تين؟

ـ أجل

ـ انها بنت لطيفة، وانا سعيد بأن يكون اختياري وقع عليها، كان الكابتن يريدني ان آخذ تلك الفتاة صاحبة الوردة..

ـ لا اعتقد انك كنت ستلاحظ اي فارق، فإن ميري كاترين شديدة العناية باختيار فتياتها. ماذا تفعل معه؟

ـ نحن معا في عملية مشتركة.. شغل.. عمل تجاري..

ـ ليس حلقة تزلج على الجليد؟

ـ كلا... لماذا بالذات حلقة جليد؟

ـ احترس يا جونز.. انه رجل خطر..

ـ لا تقلق على صديقك.. انا اعرف الدنيا جيدا...

اقبلت نحونا ميري كاترين حاملة صينية محملة بالروم، وربما بآخر ما لديها من زجاجات السفن اب. تناول جونز احدى الزجاجات وهو يقول

ـ غدا سيأتونني بجواز سفري، وسوف اجيء لزيارتك بمجرد استلامي سيارتي.

رفع كأسه محييا تين تين، والكابتن هاتفا...

ـ في صحتكم. يا سلام!! كم احب هذا المكان!! لقد نزلت واقفا على قدمي..

انصرفت مغادرا البهو، وطعم السفن اب لا زال في فمي، وتعمدت ان اصدم الحارس بكتفي وأنا خارج.. وتحسست طريقي مجتازاً السيارة الجيب إلى

سيارتي..

سمعت صوت اقدام تجري خلفي فانتحيت جانبا خشية ان يكـون الكـابتن قد جاء ليحمي شرف حلقة التزلج.. ولكنها كانت تين تـين، قالت

ـ قلت لهم اني ذاهبة لدورة المياه..

ـ كيف انت يا تين تين؟

ـ في أحسن حال . وأنت؟

ـ لا بأس

ـ لماذا لا تنتظر قليلا في سيارتك؟ فسوف يخرجان حالا.. الرجل الانجليزي مستعجل جدا

ـ لا اشك في ذلك، غير اني مرهق، ويتعين علي ان اذهب. ولكن خبريني.. هل كان سلوكه طيبا معك؟

ـ أوه.. اجل.. لقد احببته.. احببته كثيرا...

ـ ما الذي اعجبك فيه؟

ـ لقد جعلني اضحك كثيرا...

كانت عبارة سمعتها اكثر من مرة في ظروف مختلفة، ولم ترحني ابدا.. فمع اني تعلمت حيلا كثيرة في حياتي الصـاخبـة القلقـة. الا انـه لـلاسف.. لم يكن الاضحاك واحدا من هده الحيل .

الجزء الثاني

الفصل الأول

أختفى جونز عن الانظار فترة، تماما مثلما اختفى وزير الشؤون الاجتماعية الذي لم يعلم أحد أبدا ما جرى لجثته رغم اكثر من محاولة بذلها المرشح الرئاسي لاكتشاف مكانها. فقد وصل الى مكتب الوزير الجديد حيث استقبل هناك بأدب وحفاوة.. والفضل لبيتي بيير الذي بذل كل جهد ممكن لترويج شهرته باعتباره منافس ترومان في الانتخابات.. ولا بد ان الوزير الجديد قد سمع باسم ترومان.

كان رجلا قصيرا بدينا يضع على صدره لسبب ما دبوس جمعية الصداقة، واسنانه كبيرة جدا، وبيضاء ومتفرقة كأنها شواهد قبور صممت من أجل مقبرة اكبر وكان مكتبه يفوح برائحة غريبة كما لو كانت هناك مقبرة مفتوحة.

وقد صحبت مستر سميث عسى ان يحتاج الأمر لمترجم. ولكن الوزير الجديد كان يجيد الانجليزية بلكنة خفيفة كانت الى حد ما متفقة مع دبوس الصداقة (علمت فيما بعد انه كان يعمل في فترة من حياته ساعيا صغيرا بالسفارة الاميركية وقد يكون مثالا نادرا قليلا ما تصادف أية موهبة صاعدة لو لم يكن صاحبنا هذا قد خدم فترة انتقالية في الطونطون ماكوت حيث كان مساعدا خاصا للكولونيل جارسيا المعروف باسم جارسيا البدين.

بدأ سميث ملتمسا عدم المؤاخذة لأن خطاب التقديم الذي جاء به معنون باسم الدكتور فيليبوت. قال الوزير.

ـ مسكين فيليبوت!

تساءلت لنفسي ما اذا كنا أخيرا سنعرف التفسير الرسمي لنهاية الوزير، بينما اطلق سميث سؤالا رائعا بلهجته المباشرة

ـ ماذا حدث له؟

ـ أغلب الظن اننا لن نعرف أبدا. لقد كان رجلا مزاجيا.. ويجب ان اعترف لك يا مستر سميث ان حساباته لم تكن سليمة.. وهناك ايضا حكاية طلمبة المياه في شارع ديزيه.

ـ هل تريد ان نقول انه قتل نفسه؟

أيقنت ساعتها أني لم أكن أحسن تقدير مستر سميث. فها هو الآن يسفر عن مكر لم اكن أتوقعه.. كانما هو لاعب بوكر يضم أوراق لعبه الى صدره

ـ ربما. وربما كان ضحية لعملية ثأرية. فنحن أهل هايتي لدينا اسلوبنا لازاحة أي طاغية.

ـ هل كان دكتور فيليبوت طاغية؟

ـ الناس في شارع ديزيه اكتشفوا انهم كانوا ضحية خدعة في واقعة طلمبة المياه.

هنا سألت أنا ببراءة

ـ اذن.. فالطلمبة ستبدأ في العمل الآن!

ـ هذا سيكون واحدا من أول مشروعاتي..

قال هذا ثم أشار بيده الى عدد من الملفات على الأرفف خلف مكتبه مضيفا:

ـ ولكن كما ترى.. ان لدي اهتمامات جمة.

لاحظت ان الصدأ يعلو الكثير من «اهتماماتـه» نتيجـة تتـابـع العـديـد من المواسم المطرة ولعل هذا كان أحد «الاهتمامات» التي لم يسعفه الوقت للتعامل معها..

ولكن مستر سميث انقض عليه بذكاء قائلا.

ـ اذن فالدكتور فيليبوت لا يزال مفقودا؟

ـ كما تقول بلاغاتكم الحربية مفقود ويعتقد انه لقى حتفه

ـ ولكني حضرت بنفسي جنازته

ـ حضرت ماذا؟

ـ جنازته..

استقرت عيناي على وجه الوزير. لم يبد عليه أي ارتباك. أطلق نبحة قصيرة لعله أراد ان تكون ضحكة بصوت عال. قفزت الى ذاكرتي صـورة كلب فـرنسي من نوع البولدوج كنت أعرف صاحبته من زمن وأنا اسمعه يقول:

ـ لم تكن هناك أية جنازة..

ـ لقد اعترضها بعضهم..

ـ يبدو أنك يا سيدي البروفيسور لا تعلم الاعيب الدعايـة التي يتفنن فيهـا خصومنا.

ـ أنا لست بروفيسورا.. وقد شهدت النعش بعيني هاتين..

ـ كان النعش مملوءا بالحجارة يا بروفيسور.. آسف.. يا مستر سميث.

ـ حجارة؟

ـ بالطوب ان اردت الدقة. جاءوا به من دوفاليفيل حيث نشيد مدينتنا الجديدة الجميلة.. طوب مسروق.. لكم أود أن أريك دوفاليفيل ذات صباح عندما تجد لديك وقتا.. انها ردنا على برازيليا!

ـ ولكن زوجته كانت هناك

ـ يا لها من سيدة مسكينة.. لقد استغلوها.. نعم.. استغلها قوم معدومو الضمير.. على أية حال.. لقد تم اعتقال من شيعوا الجنازة.

منحته الدرجة النهائية في سرعة البديهة والقدرة على التخيل.. أما مستر سميث، فقد خيم عليه الصمت لحظة كأنما يتبين أمره.. أو يستعد للهجوم الثاني.. سألت أنا، لاعطي سميث فرصة أطول لاعداد الهجوم.

ـ متى ستجري محاكمتهم؟

ـ سوف تحتاج التحريات لبعض الوقت. فالمؤامرة متشعبة، ومتعددة التفريعات.

ـ اذن فليس صحيحا ما يعتقده الناس.. ان جثة الدكتور فيليبوت تعيش الآن في القصر على هيئة زومبي (وفقا لعقيدة الفودو المنتشرة في هايتي، فإن روح القتيل يمكن ان تعود الى الحياة على شكل أفقي. . يسمونها زومبي.. وتكون لها قوى خارقة للطبيعة ـ المترجم)

ـ كل هذا ضرب من هرقطة الفودو يا مستر براون. ومن حسن الحظ ان رئيسنا قد خلص بلادنا من الفودو.

ـ اذن فقد نجح فيما فشل فيه الجيزويت.

وهنا تدخل مستر سميث مقاطعا وقد نفد صبره. لقد بذل كل ما في وسعه من أجل الدكتور فيليبوت وآن الأوان لرسالته كي تتطلب كل اهتمامه. وهو حريص بالطبع على ألا يكسب عداوة الوزير بسبب أشياء لا أهمية لها مثل الفودو والزومبي الخ.

واستمع اليه الوزير باحترام ولطف واضحين وهو يعبث بقلم بين أصابعه على ورقة أمامه. ولعل هذا لم يكن دليلا على عدم اهتمامه، لأني لاحظت ان خطوط القلم تأخذ أشكال النسب المئوية وعلامات الضرب والقسمة.. وبقدر ما استطاعت أن أرى، لم تكن هناك علامات طرح.

هذا بينما كان مستر سميث يتحدث عن مجمع كبير يشتمل على مطعم ومطبخ ومكتبة وقاعة محاضرات. واذا امكن فهناك مكان يتسع ايضا لبناء مسرح وسينما في يوم من الأيام والمؤسسة التي يمثلها تستطيع من الآن تزويد المشروع بالافلام الوثائقية. وهو يأمل ان تسنح الفرصة عاجلا لاخراج اعمال مسرحية.. وخلق مدرسة للدراما النباتية.. وختم عرضه الرائع بقوله.

ـ أما في الوقت الحالي فإننا نستطيع الاستعانة ببرنارد شو..

قال الوزير

ـ انه مشروع عظيم..

كان مستر سميث قد قضى هنا أسبوعا كاملا، وشهد فيه خطف جثمان الدكتور فيليبوت، وطفت معه في سيارتي بأفقر أحياء المدينة المهلهلة. وفي ذلك الصباح أصر رغم نصائحي على الذهاب الى مبنى البريد ليشتري بعض الطوابع. وتاه مني في الطريق، وعندما عثرت عليه أبلغني انه لم يستطع بالمرة الاقتراب من شباك بيع الطوابع. فقد حاصره رجلان فقدا ذراعيهما، وثلاثة كل منهم

بساق واحدة، وحاول اثنان منهم ان يبيعا له بطاقات بـريـديـة انتهى تـاريـخ صلاحيتها، بينما الآخرون كانوا يتسولون صراحة. واتخذ سادس ـ وهو مقعـد تماما ـ مكانه تحت قدميه واخذ يفك رباط حذائه تمهيدا لتلميعـه، بينما اغـرى هذا التجمع عددا اكبر بالقتال من اجل اللحاق به. وكان هناك شـاب يحمـل على وجهه حفرة في مكان انفه.. أحنى رأسه كالكبش واخذ يشق طريقه في الـزحـام نحو مركزه. وآخر بلا يدين رفع ساعديـه المبتـورين في الهواء ليبرهن للـرجـل الاجنبي على انه احق بصدقته

والحق ان هذا كان مشهدا مألوفا عند مبنى البريد، لولا ان الاجانب كـانـوا عملة نادرة في هذه الايام. وكان عليّ ان اشق طريقي بالقوة وسط الـزحـام لكي أصل اليه. وفيما انا بصدد ذلك اصطدمت يدي بكـومـة شبـه ميتـة من اللحم الآدمي كأنها كتلة من المطاط فأزحتها جانباً بعنف وأنـا أشعـر بـالسخـط على نفسي كما لو كنت ازيح البؤس عني. وطاف برأسي خاطر مفـاجىء: مـاذا يمكن ان يقول آباء مدرستي اليسوعية لو شاهدوني افعل ذلك؟ وقـد نـاضلت خمس دقائق لكي اخلص مستر سميث، ولكنه كان قد فقد رباط حذائه.. ثم حصل على بديل له قبل ان ندخل على وزير الشؤون الاجتماعية.

قال مستر سميث للوزير:

ـ ان المركز بالطبـع لن يـدار بهـدف الـربـح. ولكني اعتقـد اننـا لا بـد ان نستخدم امين مكتبة، ومحاسب، وطباخ، وجرسونات، وفيما بعد يجب ان يكون لدينا عمال لصالة السينما.. يعني نحو عشرين شخصـا على الاقـل. وعـروض السينما يجب ان تكون تربوية، وبالمجان، اما المسرح.. حسنا.. دعنا لا نتطلع الى المستقبل البعيد.. اما المنتجات النباتية فسوف يورد كلها بسعر التكلفة.. والكتب ستزود بها المكتبة على شكل هدايا..

استمعت إليه مدهوشاً. فالحلم كان كأنه بكر لم تمسسه الحقيقة. حتى المشهـد

في مبنى البريد لم يلطخ رؤياه.. في ان يتخلص اهل هايتي من الحموضة والفقر والانفعال حتى يصبحوا سعداء بما لديهم من شرائح جوز الهند!!

أيقظني صوت مستر سميث.

ـ اعتقد ان مدينتكم الجديدة دوفالييفيل ستكون موقعا رائعا.. انا شخصيا لست ضد الطراز المعماري الحديث.. ابدا بالمرة.. فالافكار الجديدة تتطلب اشكالا جديدة وما اريده هو ان اثري جمهوريتكم بفكرة جديدة.

قال الوزير وهو يخط على الورقة امامه عددا كبيرا من علامات الجمع والضرب..

ـ كل شيء ممكن ترتيبه. هناك اماكن متاحة.. وانتم لديكم مال كثير.. انا واثق من ذلك.

ـ كنت اعتقد انه مشروع مشترك مع الحكومة...

ـ أنت تدرك بالطبع يا مستر سميث اننا لسنا دولة اشتراكية.. وانما نحن نؤمن بالمشروع الحر. ومن ثم، فعملية البناء لا بد ان تتم من خلال مناقصة عامة.

ـ معقول جداً.

ـ والحكومة بالطبع هي التي ستفصل بين مختلف المتقدمين للمناقصة. والمسألة ليست مجرد العطاء الاقل. ولكن يجب ان يوضع في الحسبان الشكل الجمالي للمدينة.. والجوانب الصحية يجب ان تكون لها الاولوية. ولهذا السبب فاني اعتقد ان المشروع يجب ان يكون أولا تحت مسؤولية وزارة الشؤون الاجتماعية.

ـ رائع.. اذن فسوف اتعامل معك؟

ـ سيكون لنا فيما بعد بالتأكيد مناقشات مع وزارة الخزانـة، والجمارك.. ان الواردات كما تعلم مسؤولية الجمارك.

ـ بالتأكيد لا توجد رسوم على مواد غذائية؟

ـ الافلام..

ـ الافلام التعليمية؟

ـ أوه ـ حسن.. فلنرجىء الحديث عن ذلك الى وقت آخر.. ولنبـدأ بمسـألـة الموقع. وتكلفته..

ـ ألا ترى ان الحكومة قد تتجه الى ان تتبرع بالموقع؟ في رأيي انه بالنظر الى استثمارنا في العمالة، فان الارض لن تتطلب ثمنا كبيرا على اية حال.

قال الوزير معاتبا برفق:

ـ الارض ملك للشعب يا سيد سميث.. وليس للحكومة.. على ايـة حـال، لن تجد في هايتي الحديثة شيئا مستحيلا.. وانا شخصيـا سـوف اقترح ـ اذا طلب رأيي ـ ان يكون الاسهام بالموقع مساويا لتكلفة البناء.

قال مستر سميث:

ـ ولكن هذا غير معقول.. فلا علاقة بين هذا وذاك.

ـ بل هناك علاقة العائد عندما يتم العمل.

ـ هل تعني ان الموقع سيكون مجانا!

ـ تماما..

ـ اذن.. فانا لا افهم اين هو التبرع هنا..

ـ لحماية العمال يا مستر سميث.. هناك مشروعات اجنبية كثيرة تتوقف فجأة قبل ان تتم، فاذا بالعامل الذي يعيش من عمله لا يجد شيئا في مظروفه يوم القبض. فتعم الكارثة الاسرة الفقيرة كلها.. ونحن للآن لدينا اسر فقيرة كثيرة في هايتي..

ـ هل ينفع ضمان بنكي؟

ـ الدفع نقدا افضل يا مستر سميث.. وانت تعلم ان عملتنا «الجوردي» ظلت ثابتة على مدى جيل كامل بينما يعاني الدولار من الضغوط..

ـ لا بد لي اذن من الكتابة الى لجنتي.. وان كنت اشك...

ـ اكتب لهم يا مستر سميث. قل لهم ان الحكومة ترحب بكل المشاريع التقدمية وستفعل كل ما تستطيع.

ونهض الوزير من مقعده مشيرا الى ان الزيارة قد انتهت، كاشفا عن ابتسامته الواسعة ذات الانياب... وواضعا ذراعه حول كتفي مستر سميث كأنما ليدلل على انهما شريكان في سبيل التقدم العظيم.

ـ والموقع؟

ـ سيكون امامك العديد من المواقع للاختيار. ربما بجوار الكتدرائية؟ أو الكلية؟ أو المسرح؟ أي شيء لا يتعارض مع الهندسة الجمالية للمدينة. انها مدينة جميلة جدا يا مستر سميث.. سوف اصحبك بنفسي لتشاهدها.. ربما يوم الخميس. فأنا مشغول جدا ولدي مواعيد كثيرة، وانت تعرف بالطبع معنى الديمقراطية...

في الطريق قال لي مستر سميث:

ـ يبدو انه اهتم بالموضوع فعلا.

ـ أفضل ان تكون حذرا في موضوع التبرع.

ـ سوف يكون له عائده.

ـ فقط عندما يتم البناء.

ـ ما قـولك في قصتـه حـول الطـوب في النعش.. هـل تعتقـد انهـا تحتمـل التصديق؟

ـ كلا..

ـ أياً كان الامر.. فان احدا منا لم ير جثة الدكتـور فيليبـوت فـلا ينبغي ان نتسرع في اصدار الاحكام.

2

مضت عدة أيام لم أسمع فيها عن مـارتـا بعـد زيـارتي للسفـارة. تملكني القلق. أدرت في ذهني شريط لقائنا الاخير مرة بعـد اخـرى محاولا ان اجـد ايـة كلمات تشير الى القطيعـة. ولكن لم اجـد. ثم احسست ببعض الارتيــاح ولكن ببعض الغضب كذلك، عندما تلقيت منها اخيرا رسالة موجزة خالية من أي لمسة حنان تقول فيها ان انجيل تحسن. وان الالم قد زال، وانهـا يمكن ان تقـابلني ـ اذا أردت ـ عند التمثال.

توجهت الى الموعد. وكأنما لم يتغير شيء.

ولكن حتى مع عدم وجود أي تغيير، ورغم لطفها، وجدت مبررا للـوم. ذلك، انها مستعدة الآن لمبادلة الحب عندما يروق لها.. هكذا قلت، ثم اضفت:

ـ لا يمكننا العيش في سيارة.

قالت:

ـ كنت أفكر في ذلك الآن.. فهذه السرية سوف تقتلنـا. مـا رأيك؟ نـذهب الى التريانون.. إذا أمكننا تجنب النزلاء؟

ـ الزوجان سميث سيكونان غارقين في النوم الآن.

ـ أفضل ان نذهب في سيارتين.. يمكنني ان اقول اني جئت اليك برسالة من زوجي ـ دعوة أو آي شيء من هذا القبيل. اذهب انت اولا.

سأعطيك خمس دقائق.

كنت أتوقع ليلة من الشجار العنيف. ولكن الباب الذي طالما قاومته من قبل انفتح فجأة فدخلت. غير أني ما ان تخطيت العتبة حتى وجـدت سببـا جـديـدا للسخط. فقد اخذ خاطر خبيث يلح على ذهني قائلا ها انت تراها تفكر بسرعـة، بل أسرع منك.. ها أنت تراها تعرف كل الحيل!

★★★

فاجأني الزوجان سميث عندما وصلت الى الفندق بحضـورهما «المسمـوع» على شكل صلصلة ملاعق وخشخة معلبات ومقاطع اصوات آدمية شبه هامسة. كانا قد اتخذا من شرفة جناحهما مكانا مختـارا لـوجبـة المسـاء من اليستريـل والبارمين. ولعلني كثيرا ما تساءلت ماذا يمكن ان يتحدثا فيه عنـدمـا يكـونـان وحدهما، وهل تراهما يستعيدان معارك الايام الخوالي؟

ركنت السيارة ووقفت لحظة استمع قبل ان ارتقي الدرج.

جاءني صوت مستر سميث يقول:

ـ لقد وضعت ملعقتين بالفعل يا حبيبتي.

ـ كلا بالتأكيد. انا واثقة أني لم اضع ملعقتين..

ـ تذوقيه أولا.. وسوف ترين.

مرت فترة صمت ادركت بعدها انه كان على حق.. ثم جاءني صوته مرة اخرى:

ـ كثيرا ما اتساءل، ما الذي حدث لذلك الرجل المسكين الذي كان نائما في حوض السباحة.. في أول ليلة لنا هنا.. هل تذكرين يا حبيبتي؟

ـ طبعا اتذكر.. ويا ليتني نزلت اليه كما اردت حينذاك. وقد سألت جوزيف في اليوم التالي ولكني اعتقد انه كذب عليّ.

ـ لم يكذب يا حبيبتي.. هو فقط لم يفهم..

ارتقيت درجات السلم. حياني الاثنان بينما قلت انا بغباء:

ـ ألم تناما بعد؟

ـ أراد مستر سميث ان يخطف عشاءه في الشرفة.

فكرت، كيف ابعدهما عن الشرفة قبل وصول مارتا. قلت:

ـ يجب ألا تتأخرا كثيرا. فالوزير سيصحبنا الى دوفاليفيل غدا.. وسوف نتحرك مبكرا.

قال مستر سميث:

ـ حسن حسن.. سوف تبقى زوجتي هنا. فأنا لا اريدها ان تعاني مطبات الطريق ووهج الشمس

ـ انا استطيع ان اتحملها مثلما تتحملها انت.

ـ أنا مرغم على تحملها يا حبيبتي. ولكن ليس هناك ما يضطرك أنت.. ثم.. ستكون هذه فرصة لمواصلة دروسك مع هوجو..

قلت.

ـ ولكنك تحتاج الى النوم ايضا.

ـ قليل من النوم يكفيني جدا.. هل تذكرين يا حبيبتي ليلتنا الثانية في ناشفيل؟

كنت قد لاحظت جيدا ان ناشفيل ترد كثيرا الى ذاكرتهما وربما لانها كانت اكثر معاركهما التاريخية مجدا.

التفت الى مستر سميث قائلا.

ـ هل تعرف من قابلت اليوم في المدينة؟

ـ كلا..

ـ مستر جونز. كان خارجا من القصر برفقة رجل ضخم جدا يرتدي بزة رسمية وقد رفع الحراس ايديهم وهي ترتعش على جبهاتهم على سبيل التحية.. لا اظن انهم كانوا يحيون مستر جونز.

ـ يبدو انه دبر اموره بشكل جيد.. من السجن الى القصر!.. ان هذا لا يقل عن المسيرة من كوخ الغابة الى البيت الابيض!

ـ منذ أول لحظة احسست ان مستر جونز شخصية عظيمة.. وانا سعيد لنجاحه.

ـ بشرط ألا يكون هذا على حساب آخرين..

اغلق مستر سميث فمه في شبه احتجاج على عبارتي النقدية رغم خفتها. وأحسست برغبة عارمة في ان احكي له قصة البرقية التي ارسلت الى قبطان السفينة «ميديا». ولكن انقذني صوت اقتراب سيارة. وان هي لحظة حتى كانت مارتا تخطرعلى درج السلم صاعدة. هتف مستر سميث وهو يقوم من مكانه مفسحا المقعدلها:

ـ من؟.. انها مسز بينيدا الفاتنة..

ألقت نحوي نظرة يائسة ثم قالت:

ـ آسفة.. الوقت متأخر. لا استطيع البقاء. فقط معي رسالة من زوجي.. «وفتحت حقيبة يدها واخرجت منها مظروفا دفعت به الى يدي». قلت:

ـ ألا تتناولين كأسا؟

قالت مسز سميث بشيء من الجفاء، أو لعلني انا الذي خيل الّي ذلك:

ـ لا تعجلي بالانصراف يا مسز بينيدا بسببنا.. وأنا وزوجي ذاهبان من فورنا للنوم.. هيا يا حبيبي.

ـ أنا مضطرة للانصراف على أية حال.. ابني مصاب بالغدة النكفية..

ـ الغدة النكفية! خسارة! في هذه الحالة ينبغي فعلا ان تكوني بجواره..

قلت أنا منهيا الحوار الذي طال اكثر مما يجب:
ـ سأصحبك الى السيارة يا سيدتي..

ركبنا السيارة معا حتى نهاية المشى فتوقفنا سألت مارتا:

ـ ما الخطأ الذي حدث؟

ـ كان يجب الا تظهري مظروفا معنونا باسمك، وبخط يدي شخصيا..

ـ لم اكن مستعدة. وكان هذا هو المظروف الوحيد الذي وجدته في حقيبتي.

ـ ان نظرها قوي جدا.. ليست مثل زوجها.

ـ كم أنا آسفة. ماذا سنفعل الآن؟

ـ نستطيع ان ننتظر حتى يناما..

ـ ثم نتسلل.. وفجأة ينفتح الباب، وتظهر مسز سميث..

ـ غرفتهما في طابق آخر.

ـ إذن فسوف نفاجأ بهما على ناصية السلم!.. لا.. لا استطيع..

ـ .. ها هو لقاء آخر يضيع هباء...

ـ يا حبيبي.. في ذلك المساء ليلة عدت، عند حوض السباحة، كنت اريد...

ـ كان جناح جون باريمون الذي ينزلان به فوقنا مباشرة.. ولا زال هناك.

ـ نستطيع ان ندخل تحت الاشجار. الانوار مطفأة هنا وحتى مسز سميث لن تستطيع ان ترانا في الظلام.

أحسست برغبة شديدة في المقاومة. قلت.

ـ والناموس؟...

ـ فليذهب الناموس الى الجحيم..

آخر مرة تشاجرنا فيها كانت بسبب تمنعها. والآن جاء دوري. كان خاطري الخبيث الآن يقول اذا كان منزلها لا يبغي ان يدنس.. فلماذا يكون منزلي انا اقل قدسية؟ وهنا سألت نفسي: هل يمكن لجثة ميت في حوض السباحة ان تجعله مقدسا؟

تركنا السيارة، وتسللنا بخطى غير مسموعة في اتجاه حوض السباحة. كان ثمة ضوء في جناح باريمور. وشاهدت خيال احد الزوجين سميث خلف شبكة النافذة.. تمددنا تحت اشجار النخيل كأننا جثتين في مقبرة مشتركة. فقفزت الى ذاكرتي صورة مارسيل وهو مدلى مشنوقا تحت النجفة.

ووجدتني اقول لنفسي: لا احد منا، لا هي ولا انا ـ لديه أي استعداد لان يموت في سبيل الحب ممكن ان نأسى عندما ننفصل، ثم يبحث كل منا عن بديل. نحن.. هي وأنا ننتمي الى عالم الكوميديا وليس الى عالم التراجيديا. تملكني الاحساس بأني جثة هامدة.. جاءني صوتها في الظلام.

ـ ما الذي حدث؟ هل انت غاضب من شيء ما؟

ـ كلا..

ـ أنت لا تريدني.

ـ ليس هنا... ليس الآن.

ـ انا اعرف اني اغضبتك في المرة السابقة. ولكني كنت اريد ان ارتب الامور.

ـ انا لم اخبرك ابدا بما حدث في تلك الليلة.. ولماذا جعلتك تذهبين مع جوزيف.

ـ اظن أنك أردت ان تحميني من الزوجين سميث.

ـ كان دكتور فيليب يرقد ميتا في حوض السباحة.. هنا بالتحديد.. هل ترين هذه البقعة الداكنة في ضوء القمر؟

ـ تعني انه كان مقتولا؟

ـ قطع عنقه بيده، ليفلت من الطونطون ماكوت.

ابتعدت عني قليلا وهي تشهق:

ـ فهمت.. يا ربي!! هذا رهيب.. هذه الاشياء التي تحدث هنا اشبه بالكوابيس..

ـ فيما عدا ان الكوابيس هنا حقيقية وليست احلاما. بل هي اكثر واقعية من حلم مستر سميث عن المركز النباتي.. ومنا ايضا، انت وأنا..

قالت:

ـ هل تعلم اني احسدك انت ولويس.. لديكما شيء تؤمنان به.

ـ انا؟ هل تعتقدين أني لا زلت مؤمنا؟

واصلت حديثها:

ـ كان أبي مؤمنا ايضا (هذه أول مرة يرد فيها ذكر ابيها على لسانها).

ـ بماذا؟

ـ بالله طبعا..

ـ من حسن حظه انه كان مؤمنا.

ـ والناس في المانيا ايضا، كانوا يذبحون انفسهم ليفلتوا من عدالته!

ـ اجل.. لا غرابة في ذلك. فهذا جزء من حياة البشر. القسوة اشبه بالضوء الكشاف، يمسح الارض مسحا من موقع الى آخر، ولا نستطيع الفرار منه الا مؤقتا . حتى الآن . ها نحن نحاول ان نختبىء تحت اشجار النخيل.

ـ بدلا من ان نفعل أي شيء؟

ـ اجل.. بدلا من ان نفعل أي شيء.

قالت بعد لحظة صمت:

- أكاد اجدني افضل أبي..

- كلا.. مستحيل.

- هل تعرف شيئا عنه؟

- زوجك قال لي

انه - على الاقل - لَم يكن دبلوماسيا..

- ولم يكن ايضا صاحب فندق يعتمد في رزقه على صناعة السياحة!

- لا يوجد في هذا ما يعيب.

- رأسمالي يصطاد بالدولار الواحد دولارين.

- أراك تتحدث بلغة الشيوعيين.

- أحيانا أتمنى لو كنت كذلك..

- ولكنك كاثوليكي. انت ولويس كاثوليكيان.

- اجل كلانا تربى في مدارس الجزويت وقد علمونا الحكمة، على الاقل حتى نعرف نوع الدور الذي نلعبه الآن .

- الآن؟

مَر بنا الوقت دون ان نحس به. ولعلني لا زلت اقول لنفسي ان هذه كانت اسعد لحظة مرت بنا معا. فلاول مرة كنا نثق في بعضنا البعض وفي شيء اكبر من العناق والقبلات.

3

في اليوم التالي انطلقت بنا السيارة الى دوفاليفيل.. مستر سميث، وأنا، والوزير. ورجل من رجال الطونطون ماكوت على هيئة سائق، ربما ليحمينا، وربما ليراقبنا، وربما لمجرد ان ييسر لنا المرور عبر حواجز الطرق. فهذا هو الطريق الى الشمال الذي ينتظر ان تجيء منه ذات يوم ـ كما يتمنى معظم سكان المدينة ـ دبابات سانتو دومينجو.

ترى؟ ماذا سيفعل رجال الميليشيا الثلاثة المهلهلون هؤلاء حينئذ؟

النساء الفلاحات بالمئات يتدفقن على العاصمة لتسويق منتجاتهن من الحقل، وسيقانهن مدلاة من ناحية واحدة فوق مطاياهن، ونظراتهن تائهة بين الحقول على الجانبين دون ان تعيرنا واحدة منهن أي انتباه. فنحن ننتمي الى عالم غير عالمهن. وبين الحين والحين تمر بنا حافلة ركاب ملونة بالاشرطة الحمراء والصفراء. والزرقاء. نعم، قد لا يكون في هذا البلد وفرة من الغذاء، ولكن من المؤكد ان فيه وفرة من الالوان. فالظلال الزرقاء تمتد بأطيافها الداكنة على سفوح الجبال. والبحر اخضر في لون ريشات الطاووس. الخضرة هنا وارفة بكل درجات ألوانها. عيدان السيزل التي تضاهي خضرتها الداكنة غطيان زجاجات السم في الصيدلية تعانقها خطوط مدلهمة السواد. والخضرة الباهتة لاشجار الموز تتحول الى الصفرة عند قمتها لتذوب في رمال الشاطيء المنبسط كالحصيرة. والارض تصخب بكرنفال الالوان.. وسيارة اميركية تمر بنا في سرعة مستهترة على الطريق غير المرصوف فتغطينا بوابل من التراب.. التراب وحده هنا هو الذي يشكو من قلة الالوان. اخرج الوزير منديلا قرمزيا فاقعا مسح به عينيه وهو يهتف بأعلى صوته.

ـ مع السلامة!

وضع مستر سميث فمه على أذني هامسا.

ـ هل رأيت هؤلاء الذين مروا بنا؟

ـ كلا..

ـ اعتقد ان احدهم كان مستر جونز.. وربما اكون مخطئا..

قلت في غير اهتمام.

ـ لا اظن ذلك.

★★★

على السهل المجعد الممتد بين الكثبان الرملية والبحر كان هناك عدد قليل من البيوت البيضاء. كل بيت من حجرة واحدة وأشبه بصندوق. وثمة ساحة كبيرة مفروشة بالاسمنت، تعلو في جانب منها مقصورة هائلة.. وكأننا أمام ستاد الكوليزيوم! وكأن الاستاد والمقصورة يسبحان في بحر من الغبار الذي هب علينا بمجرد نزولنا من السيارة واخذ يدور حولنا في الحاح كأنما يعلن عن طريقته بالترحيب بنا، أو ليعلن عن ان هناك عاصفة تقترب ولا يلبث المكان كله ان يغوص في الوحل..

سألت نفسي.. وأنا اتأمل كل هذا الاسمنت.. من اين جاءوا بقوالب الطوب التي ملأوا بها نعش المرحوم فيليبوت!

سأل مستر سميث باهتمام.

ـ هل هذا مسرح روماني؟

ـ كلا.. بل هو المكان الذي يذبحون فيه الديكة.

ظهر الامتعاض ناطقا على فم مستر سميث. ولكنه كتم الالم في جنبه.

فالاحساس بالألم قد يفسر على انه نوع من الانتقاد. وقال مغيرا الموضوع:

ـ لا ارى خلقا كثيرا هنا..

قال الوزير متباهيا:

ـ كان هناك مئات من البشر في هذا المكان بالذات يعيشون في اكواخ تعيسة من الطين. وكان يتعين علينا ان نطهر المكان.

ـ وأين ذهبوا؟

ـ اعتقد ان بعضهم نزح الى المدينة، والبعض الآخر صعد الى التلال.. حيث يوجد اقاربهم.

ـ هل سيعودون بعد ان يتم بناء المدينة؟

ـ في الواقع.. نحن نريد لهذا المكان طبقة ارقى..

خلف المقصورة كان هناك اربع بنايات بأجنحة مائلة كأنها فراشات ميتة وتشبه الى حد ما بعض المنازل البرازيلية اذا نظرت اليها من تلسكوب مقلوب...

سأل مستر سميث:

ـ ومن سيعيش في هذه البنايات؟

ـ هذه مخصصة للسياح.

ردد مستر سميث الكلمة دون ان يستطيع اخفاء دهشته.

ـ سياح؟

الآن.. حتى البحر اختفى عن الانظار. لم نعد نرى سوى المقصورة الهائلة وحقل الاسمنت والغبار والطريق الترابي وسفح التل الحجري. وخارج احد

الصناديق البيضاء ظهر رجل اسود جالسا على مقعد خشبي تحت لافتة تقـول لنا انه قاضي الصلح. ولا بد ان يكون متمتعا بنفوذ كبير بحيث حصل على مكان هنا بهذه السرعة. ولم يكن ثمة اثر لعمال البناء، وان كان هناك بـولـدوزر يقف على حافة الساحة الاسمنتية على ثلاث عجلات.. بدون الـرابعـة. قـال الـوزيـر مجيباً مستر سميث وهو يقـودنـا إلى أقـرب البيـوت... بيت لم يكن يختلف عن غيره إلا بهذه الأجنحة المائلة التي ارغمتني على التفكير في ما سيكون عليه حالها عندما يسقط المطر.

ـ اجل، السياح الذين سيأتون لمشاهدة دوفاليفيل (مدينة دوفاليـه).. اعتقـد ان واحدا من هذه البنايات يصلح لتقيم فيه مؤسستك، مع انهـا انشئت على يـد اعظم مهندسيا. ومن ثم، فلن تضطر الى تشييد بنايتك من الصفر..

ـ في الحقيقة.. كنت افكر في شيء اكثر اتساعا.

ـ يمكنك ان تأخذ المجموعة كلها.

سألت:

ـ وماذا ستفعلون بالسياح؟

أجاب:

ـ سوف نبني المزيد.. ان خطتنا ان يتسع المكان لخمسة آلاف نسمة.

ـ وأين سيعملون؟

ـ سوف نأتي لهم بالمصانع.. ان حكومتنا تؤمن باللامركزية.

ـ والكتدرائية؟

قال، وهو يشير ناحية البولدوزر:

ـ سوف نقيمها هناك.

. من خلف ناصية المقصورة ظهر شبح كائن بشري آخـر يترنـح في مشيتـه. إذن فقاضي العدل ليس الساكن الوحيد بالمدينـة الجـديـدة. وانما هنـاك أيضـا شحاذها!! ولا بد انه كان نائما في الشمس حتى ايقظته أصواتنا. ولعلـه تصـور ان حلم المهندس المعماري قد تحقق وان السياح قد بدأوا بالفعل يتـوافـدون على دوفاليفيل. كان بلا ساقين، وذراعاه طويلان جـدا. وراح يقترب منـا زاحفـا على مؤخرته زحفا غير واثق، حتى اذا ما وقعت عيناه على سائقنا ورأى عـوينـاتـه السوداء أجفل وتـوقف عن الحـركـة، وبـدا فمـه يخرج همهمات خـافتـة غير مفهومة. ثم أخرج من تحت خرقته الممـزقـة كبيت العنكبـوت والمفـروض انهـا كانت قميصـا في يوم من الايام تمثالا خشبيا صغيرا رفعه أمام وجوهنـا كـأنما يقول ان هذا هو عنوانه قلت:

ـ أرى ان لديكم متسوليكم أيضـا..

قال الوزير:

ـ هو ليس متسولا.. وانما هو فنان.

وقال للطونطون ماكوت شيئا فأخذ التمثال من يد الكسيح. كان يمثل فتـاة شبه عاريـة لا تختلف عن عشرات من أمثـالها ممن نـراهـا في المحـلات تنتظـر السياح السذج الذين لم يعد لهم وجود الآن. قال الوزير وهـو ينـاول التمثـال للمرشح الرئاسي الذي بدا عليه الارتباك وهو يمسك به.

ـ اسمح لي أن أقدم لك نموذجا للفن في هايتي..

ـ لا بد ان أدفع ثمنه.
ـ لا حاجة بك لذلك. فالحكومة ترعاه.

قادنا الوزير عائدين الى السيارة، ويده ممسكة برسـغ مسترسميث حتى لا

يتعثر على الارض الوعرة بينما الشحـاذ يترنـح الى الخلف والامـام وهـو يطلق اصواتا تعبر عن اليأس والأسى، ولكن بدون كلمات مفهومة.. وربما كان هنـاك عيب ما في فمه أو لسانه. سأل مستر سميث:

ـ ماذا يقول؟

تجاهل الوزير سؤال المرشح الرئاسي قائلا

ـ فيما بعد، سيكـون لـدينـا مـركـز فني يقيم فيـه الفنـانـون على راحتهم ويستلهمون الوحي من الطبيعة. ان هايتي مشهورة بفنها. والاميركيون مولعون باقتناء رسومنا. وفي متحف الفن الحديث بنيويورك نماذج طيبة لاعمال فنانينا.

قال مستر سميث وهو ينتزع يده من قبضة الوزير عائدا في اتجاه الـرجـل المقعد.

ـ لا يهمني ما تقول. ولكني سأدفع ثمن التمثال لهذا الرجل.

أخرج مستر سميث حفنة دولارات من جيبه ودفع بها الى الشحاذ الذي أخذ ينظر الى الاوراق النقدية بخوف وعدم تصديق. حاول السائق ان يتدخل ولكني اغلقت عليه الطريق. وبينما انحنى مستر سميث ليضع الدولارات في يد الـرجـل الكسيح الذي جاهد مستميتا ليعود بسرعة في اتجاه المقصورة ارتسمت علامات الهياج والاستنكار على وجه السائق كما لو كان احـدهم قـد نشـل منـه شيئـا. واعتقد انه كان يفكر في هذه اللحظة في اخراج مسدسه (كانت أصابعـه بـالفعـل تتجه الى حزامه) حتى يتخلص على الاقل من فنان واحد، لـولا ان مستر سميث كان عائدا على خط النار وعلى وجهه ابتسامة راضية قائلا:

ـ ها نحن قد عقدنا صفقة طيبة!

في هذه اللحظة كان قاضي الصلح قد نهض من مقعده ليرى ما يحدث، فبـدا

جسمه ضخما جدا وهو واقف أمام لافتة واضعا يده على عينيه ليتقي انعكاس ضوء الشمس ويرانا بشكل افضل ونحن نأخذ مقاعدنا في السيارة. قال الوزير:

- أين تريد الذهاب الان؟

أجاب مستر سميث باقتضاب

- الفندق.

- دعني أريك الموقع الذي اخترناه لبناء الكلية.

- لقد رأيت ما فيه الكفاية.. وأفضل العودة اذا سمحت.

نظرت للخلف. رأيت قاضي الصلح يقفز قفزات هائلة بساقيه الضخمتين خلف الرجل الكسيح الذي كان جسمه يترنح بشدة فوق فخذيه المقطوعين وهو يحاول الوصول الى المقصورة.. ربما الى المكان الذي يستطيع فيه ان يخفي نقوده. كان أمامه عشرون ياردة على الاكثر ولكن فرصته كانت معدومة..

وعندما نظرت للخلف مرة اخرى بعد نحو دقيقة كانت دوفاليفيل قد اختفت خلف سحابة الغبار التي أثارتها سيارتنا. ولم أقل شيئا لمستر سميث الذي كان مسترخيا في مكانه راضيا وسعيدا للانجاز الذي حققه، ولعله كان يرنب في ذهنه القصة المثيرة التي سيحكيها لمسز سميث لتشاركه سعادته..

بعد بضعة أميال قال الوزير:

- الموقع السياحي بالطبع مسؤولية وزير الاشغال، وان كان لا بد من اخذ رأي وزير السياحة ايضا، ولكنه صديق شخصي لي، فاذا انهينا الترتيبات اللازمة معي استطيع ان اضمن رضا الآخرين.

- رضا؟

قالها سميث بلهجة رجل غير ساذج تماما. فرغم ان واقعة الشحـاذين عنـد مكتب البريد لم تهزه، الا ان مدينة دوفاليفيل فيما يبدو قـد فتحت عينيـه. قـال الوزير وهو يخرج صندوق سيجاره الفاخر من فوق المقعد الخلفي.

ـ أعني انك لن تكون في حاجة الى الدخول في مناقشات لا نهاية لها، فسوف أشرح أنا وجهة نظرك لزملائي.. هل لك في سيجار يا بروفيسور؟
ـ كلا اشكرك. انا لا أدخن.

ولكن السائق كان يدخن وقد رأى ما يحدث وراءه في المرآة، فمدّ يده الطويلة بحركة خاطفة الى صندوق السيجـار المفتـوح واقتبس منـه سيجـارين وضـع احدهما في فمه والثاني في جيبه. أما مستر سميث فقد قال كأنه لم يلحظ شيئا.

ـ وجهة نظري؟ اذا كنت تريدها فسأقولها لك. أولا انا لا أرى ان دوفاليفيل مركز مناسب للتقدم.. انها بعيدة جدا.

ـ لعلك تفضل موقعا في العاصمة؟

ـ في الحقيقة انا بدأت اعيد النظر في المشروع برمته.

قال ذلك بلهجة حاسمة جعلت الوزير نفسه يطبق فمه طول الطريق.

4

ولكن مستر سميث عاد فتردد. ربما بعد ان سرد على مسـز سميث احـداث اليوم والعون الذي قدمه الى الفنان الكسيح فأحيا ذلك لديه الامـل في ان يصنـع شيئا للجنس البشري. وربما لانها عززت ايمانه وكافحت لكي تزيـل شكـوكـه (وواضح انها كمقاتلة اكثر منه صلابة).. فلم تمض ساعة على عودتنـا للفنـدق حتى كان قد بدأ يراجع نفسه كان تصوره انه ربما ظلم الرجـل يؤرقـه. فقـد كان وداعه له جافا للغاية.. وعند السلم توقف فجأة ليقول لي:

ـ اعتقد.. انني ربما أسأت فهم الرجل.. ربما كان لا يتقن المعنى الشائع لكلمة «ارضاء» الوزيرين.

ـ بل كان يقصده..

ـ أنا على اية حال لم اخرج بانطباع متير من زيارتي للمدينة. ولكن تعرف.. ان برازيليا نفسها.. مع انهم هناك لديهم كل الخبرات الفنيه المطلوبة.. على اية حال.. تكفي النية الطيبة حتى ولو لم يتم النجاح..

ـ انا لا أظن انهم ناضجون بما فيه الكفاية للمذهب النباتي..

ـ ربما خطر هذا ببالي لحظة.. وربما..

ـ ربما يتعين أولا ان يكون لدى المرء القدرة على شراء اللحم.. ثم يفكر بعد ذلك في ان يكون نباتيا.

رمقني بنظرة عتاب سريعة قبل ان يقول:

ـ سوف ابحث الامر مع مسز سميث.

وتركني وحدي. او هكذا على الاقل ظننت حتى دخلت مكتبي فوجدت القائم بالاعمال البريطاني هناك يسري عن نفسه بكأسه المفضل من الروم الذي قدمه اليه جوزيف. قال:

ـ جئت أقول وداعا. فأنا راحل في الاسبوع المقبل.

ـ لا اظنك آسفا لمغادرة هذا المكان؟

ـ أوه.. كان مسليا على الاقل.. هناك أماكن أسوأ.

ـ مثل الكونغو؟ لعل الناس هناك يموتون بمعدل أسرع.

قال القائم بالاعمال.

ـ على الاقل، انا سعيد بأن اغادر ولا يوجد احـد من بني وطني في السجن.
واضح ان تدخل مستر سميث كان موفقا.

ـ اشك في ان الفضل كان لستر سميث، فان انطباعي ان جونز كان سيخرج على أية حال بقدراته الخاصة.

ـ بودي ان اعـرف مـاهيـة هـذه القـدرات.. لا اخفي عليك اني قمت ببعض التحريات.

ـ هو ـ مثل مستر سميث ـ كان يحمل معه خطاب تقديم. ولكن خطـابـه ـ مثل مستر سميث ايضا ـ اعتقد انه كان معنونا باسم رجل مرفوض. وهذا هو سبب اعتقالـه فيما اتصـور عنـدمـا اكتشفـوه معـه في المطـار. واغلب الظن ان الخطاب كان معنونا باسم ضابط في الجيش.
قال القائم بالاعمال:

ـ لقد جاء ليراني امس الاول على غير موعد في ساعة متأخرة جدا وكنت على وشك الدخول الى فراشي.

ـ انا لم أره منذ ليلة الافراج عنه. ويبدو ان صديقه الكـابتن كـونكـاسير لا يراني أهلا لثقته بما فيه الكفاية. فقد كنت هناك عندما فض كونكـاسير جنـازة فيلبيوت.

ـ فهمت من جونز انه ارتبط بمشروع ما للحكومة.

ـ أين يقيم؟

ـ لقد أقاموه في فيللا كريولي. لعلك تعلم ان الحكومـة استـولت على المكـان؟ لقد اسكنوا البعثة البولندية فيها بعد ان رحل الاميركيون وهؤلاء هم الضيـوف الوحيدون الذين نزلوا هناك، ثم غادروا بـدورهم بسرعـة. وقـد خصصـوا لـه سيارة وسائقا. وربما كان السائق حارسـه في نفس الـوقت، فهـو من عنـاصر

الطونطون ماكوت. هل لديك فكرة عن المشروع؟

ـ أبدا.. ولكن عليه ان يكون حريصا. فالتعامل مع البارون ساميدي يقتضي ان تكون في منتهى الحذر..

ـ هذا ما قلته له. ولكني اعتقد انه يعرف بما فيه الكفاية. انه ليس غبيا.. هل علمت انه كان في ليوبولدفيل؟

ـ أذكر انه قال ذات مرة...

ـ كان هناك أيام لومومبا. وقد راجعت ذلك مع لندن وعلمت ان قنصلنا هناك ساعده على الافلات بجلده. ولكن هذا لا يعني شيئا محددا. فكثيرون حدث لهم نفس الشيء في تلك الفترة. وقد اعطاه قنصلنا تذكرة سفر الى لندن ولكنه تخلف في بروكسل. وهذا ايضا ليس فيه شيء. اعتقد ان ما كان يريده مني هو التأكد من ان السفارة البريطانية تستطيع ان تمنح حق اللجوء السياسي في حالة حدوث مضاعفات. غير أني اجبته بالنفي.. لا نملك هذا الحق.

ـ هل يعاني حاليا من مشكلة؟

ـ كلا. ولكنه كان يريد ان يتثبت من الارض التي يقف عليها، مثل روبنسون كروزو وهو يتسلق شجرة عالية.. ولكني لم اجد الشخص المرافق له يصلح لدور فرايداي.

ـ من تعني؟

ـ سائقه. رجل بدين مثل جارسيا بطاقم اسنان ذهبية.. لعلها كانت فرصة طيبة" كم أود لو ان صديقك د. ماجيوت خلع هذا الطاقم الذهبي وأودعه خزانته" هاها. شكرا على الروم .

وتجرع ما بقي في كأسه ومضى..

★★★

يبدو أن ظهر ذلك اليوم كان مناسباً للضيوف، فما أن خلوت لنفسي في حمام السباحة تحت الماء حتى اقبل ضيفي الثاني في القائمة يطل عليّ من حافة الحمام.. وهو واقف في نفس المكان الذي نزف فيه دم الدكتور فيلييوت حتى الموت. فوجئت بصوته يصلني مخترقا صفحة الماء.

ـ مسيو براون؟

ـ من؟ فيلييوت؟ لم اكن اعرف انك هنا.

ـ لقد فعلت ما نصحتني به يا مسيو براون. ذهبت الى جونز. وتكلمت معه.

كنت قد نسيت تماما حديثنا السابق، فسألته.

ـ في ماذا؟

ـ أنت لا زلت تذكر بالتأكيد.. المدافع الرشاشة.. البرن.

في الحق أني وقتها لم آخذه مأخذ الجد. كان حديثي عن البرن مجرد اشارة شاعرية الى حد ما. مفتاح رمزي على سبيل مفاتيح قصائد شبابي.. التي ثبت انها لا تصلح للوحات الكهرباء!

ـ انه يقيم في فيللا كريولي مع الكابتن كونكاسير. انتظرت أمس حتى رأيت كونكاسير يخرج، ولكن سائق جونز كان لا يزال جالسا تحت السلالم. الرجل ذو السن الذهبية.. الرجل الذي كسر ساق جوزيف.

ـ هل هو الذي فعل ذلك؟ كيف عرفت؟

ـ لدينا من يسجل كل شيء. وعندنا أسماء كثيرة الآن. كان عمي ـ للاسف على نفس القائمة، بسبب طلمبة المياه في شارع ديزيه.

ـ لا اعتقد انها كانت غلطته بالمرة.

ـ ولا أنا. غير أني قد اقنعتهم على أية حال ان اسمه ينتمي الى القائمة الاخرى.. قائمة الضحايا.

ـ ارجو ان تكون قوائمكم محفوظة في مكان آمن.

ـ هناك صورمنها في الخارج..

ـ وكيف استطعت ان تصل الى جونز؟

ـ تسلقت الجدار ودخلت من نافذة المطبخ ثم صعدت على سلم الخدم وطرقت بابه متظاهرا اني احمل اليه رسالة من كونكاسير.. كان حينذاك في فراشه.

ـ لابد وانه اندهش الى حد ما!

ـ قل لي يا سيد براون.. هل تعرف ما هما بسبيله؟

ـ كلا.. هل تعرف انت؟

ـ لست متأكدا. اعتقد اني اعرف، ولكني لست متأكدا..

ـ ماذا قلت له؟

ـ سألته ان يساعدنا. قلت لهم ان المغيرين عبر الحدود لم يستطيعوا نقل الدكتور فيليبوت. نعم، لقد قتلوا عددا من الطونطون ماكوت، ولكنهم قتلوا جميعا عن بكرة أبيهم. كانوا غير مدربين. ولم يكن معهم رشاشات برن. قلت له كيف استطاع سبعة اشخاص ذات مرة الاستيلاء على ثكنات الجيش لانهم كان معهم سبعة رشاشات تومي جن. فسألني.

لماذا تقول لي ذلك؟ أنت لست مجرد عميل يبغي استفزازي. هل أنت كذلك؟

قلت له كلا. ولكن، لو اننا لم نتمسك بتعقلنا فترة اطول مما يجب لما كان

بابا دوك في قصره الآن. فقال، «لقد رأيت الرئيس».

هتفت غير مصدق:

ـ هل رأى جونز بابا دوك شخصيا؟

ـ هو قال لي ذلك. وانا صدقته. انه وكونكاسير يدبران امرا. وقد قال لي ان الرئيس مهتم ايضا بالسلاح والتدريب. وقال ايضا «ان الجيش قد ذهب مع الريح. ولم يعد يصلح لشيء. وكل ما تبقى لدى الطونطون ماكوت من الاسلحة الاميركية قد علاه الصدأ بسبب عدم الصيانة. وبالتالي، فلا جدوى من حديثك معي ما لم يكن لديكم عرض افضل من عرض الرئيس».

ـ ولكنه لم يقل ماهو عرض الرئيس.

ـ حاولت ان اقرأ الاوراق التي كانت على مكتبه. كانت أشبه بتصميمات مبنى ما. الا انه ازاحها قائلا «دع هذه لحالها» ثم دعاني الى كأس من الشراب ليدلل على انه لا يكن ضدي شيئا شخصيا. قال لي: «على المرء ان يكسب عيشه بأفضل وسيلة يستطيعها». ماذا تعمل؟ «قلت له اني كنت اقرض الشعر، ولكن الآن أريد مدفع برن، والتدريب عليه». فسألني «التدريب أيضاً؟.. هل هناك كثيرون منكم». قلت له العدد لا يهم فلو ان سبعة اشخاص معهم سبعة مدافع برن..

قلت مقاطعا:

ـ مدافع البرن ليست سحرية يا فيليبوت. فهي احيانا تتعطل.. تماما كما ان الرصاصة الفضية يمكن أن تخيب.. يبدو أنك عائد إلى الفودو يا صديقي.

ـ لم لا؟ ربما كان آلهة داهومي هي التي نحتاجها الآن.

ـ ولكنك كاثوليكي، والمفروض انك تؤمن بالعقل.

ـ المؤمنون بالفودو كاثوليك ايضا. ثم اننا لا نعيش في عالم المعقول.

ـ هل كان هذا كل ما قاله لك جونز؟

ـ كلا. وانما قال لي ايضا.. دعنا نتناول كأسا من الويسكي الاسكتلندي. ولكني لا اشرب. فنزلت من الدرج كي يراني السائق. كنت متعمدا ان يراني.

ـ لا اظن انك ستكون في مأمن اذا استجوبوا جونز.

ـ طالما لايوجد معي مدفع برن، فان السلاح الوحيد الذي املكه هو عدم الثقة. وما فكرت فيه هو انهم اذا بدأوا يفقدون الثقة في جونز فقد يحدث شيء ما .

كان صوته مغرورقا بالدموع. دموع شاعر يبكي عالما مفقودا أو دموع طفل يبكي مدفع برن لايريد احد ان يعطيه اياه فسبحت مبتعدا الى الجانب الضحل من حمام السباحة حتى لا أراه يبكي. لقد كان عالمي المفقود هو الفتيات العاريات في الحمام. فماذا كان عالمه؟ تذكرت ذلك المساء وهو ينشد بعض أشعاره لبيتي بيير وأنا والاديبة الشابة الحسناء التى كانت تطمع في أن تصبح أشهر روائية في هايتى. وكان هناك أيضاً رسام متقدم في السن يقود سيارة نقل في الصباح الشرفة كانت تقف آخر لوحاته، عبارة عن ابقار في حقل. ولكنها ليست مثل تلك الابقار التي يبيعونها في جنوب بيكاديلي، وخنزير يحيط طوق برأسه وسط اكوام من ورق اشجار الموز التي اكتسبت خضرتها لونا رماديا بفعل عاصفة تهب من ناحية الجبل. كان فيها شيء لم تسعفني خبرتي الفنية على ادراكه.

★ ★ ★

تمهلت قليلا حتى اعطيه وقتا يجفف فيه دموعه قبل ان الحق به على حافة الحوض البعيدة، سألته

ـ هل تـذكـر تلك الفتـاة الحسنـاء التي كتبت قصـة بعنـوان «الطـريق الى الجنوب»؟

ـ هي الآن في سان فرانسيسكو حيث كـانت تتمنى دائما ان تكـون. تمكنت من الهرب من مذبحة جاكمل..

ـ كثيرا ما تذكرت ذلك المساء حينما انشدت لنا...

ـ أنا لست آسفاً على تلك الايام. كانت كالأحلام.. السواح والرقص والرجل الذي يرتدي روب البارون ساميدي.. مـع ان البـارون سـاميـدي ليس الشيء الـذي يجلب السرور للزوار.

ـ كانت هذه الاشياء تجلب المال للجزيرة.

ـ ومن الذي شهد تلك الاموال؟ البركة في بابا دوك. علمنـا كيف نعيش بـلا مال.

ـ تعـال لتتنـاول معي العشـاء مسـاء السبت يـا فيليبـوت وسترى هنـاك السائحين الوحيدين هنا.

ـ آسف.. لدي ما أفعله ذلك المساء.

ـ كن حذرا على أية حال.. وكم أتمنى لو عدت لكتابة الشعر..

انفرجت شفتاه عن ابتسامة بيضاء وقال:

ـ ان قصيدة هايتي مكتوبة بالفعل يا سيد براون.. هل تريد ان تسمعها؟

★ ★ ★

انفتح باب في الطابق الثـاني وظهـر احـد الضيفين في شرفـة جنـاح جـون باريمور.

ثم ظهر مستر سميث وهو يتناول ثـوب سبـاحتـه من على سـور الشرفـة ويطل على الحديقة منادياً:

ـ مستر براون؟

ـ نعم؟

ـ أنا تحدثت مع مسز سميث. وفي رأيها أنني ربما تعجلت قليلا في قـراري، وربما يكون من الأفضل ان امنح الوزير حق الشك.

ـ وعلى ذلك؟

ـ وعليه فسوف نبقى هنا بعض الوقت ونقوم بمحاولة أخرى.

★ ★ ★

5

كنت قد طلبت من الدكتور ماجيوت ان يلتقي بالزوجين سميث، رغبـة مني في أن يعرفا أن كل اهل هايتي ليسوا بالضرورة امـا سيـاسيين أو جـلادين. ثم اني لم اكن قد رأيت الدكتور منذ تلك الليلة التي تخلصنا فيها من الجثة.

ولم أشأ ان أجعله يتصـور اني ابتعـدت عنـه بـدافـع من الجبن. ووصـل ماجيوت بالفعل عقب انقطاع التيـار مبـاشرة، وبينما كـان جـوزيف على وشك اضاءة مصابيح الغاز. وأشعل جوزيف فتيل احد المصابيح فأنبثق نوره عـاليـا وظهر ظل الدكتور ماجيوت يتدحرج على ارضية الشرفة كـأنـه بسـاط أسـود. وتبادل التحية مع الزوجين سميث بفيض من المجاملة على الطريقة الكلاسيكية، حتى خيل الّي لحظة وكأننا عدنا الى القرن التاسع عشر، عندمـا كـانت قنـاديـل الغاز اكثر ألفة من المصابيح الكهربائية الكشافة، وعندما كانت عواطفنـا أيضـا اكثر رقة وأصـالة

قال الدكتور ماجيوت:

ـ أنا واحد من المعجبين بمستر ترومان لبعض الجوانب في سياسته الداخلية. ولكن لا تؤاخذني اذا كنت لا استطيع ان أتظاهر بتأييده في الحرب الكورية.. على أية حال، اني يشرفني كثيرا ان التقى بمنافسه.

ـ ليس منافسا خطيرا جدا.. في الواقع لم تكن الحرب الكورية بالذات هي نقطة الخلاف، وان كنت ابتداء ضد كل الحروب مهما كانت المبررات التي يتوسل بها السياسيون.. وانما انا رشحت نفسي ضده من اجل المذهب النباتي.

قال الدكتور ماجيوت:

ـ الحق اني لم انتبه الى ان المذهب النباتي كان احد الموضوعات المثارة في الانتخابات.

ـ أخشى أنه لم يكن كذلك بالفعل، ما عدا في ولاية واحدة.

تدخلت مسز سميث:

ـ لقد كسبنا عشرة آلاف صوت.. وظهر اسم زوجي على لوحة الاقتراع..

وفتحت حقيبة يدها وبعد عملية بحث سريعة بين مناديل الكلينكس اخرجت بطاقة اقتراع. وأنا، مثل معظم الاوروبيين لا افهم كثيرا في النظام الانتخابي الاميركي.. ولعل ما اعرفه لا يزيد على انه كان هناك مرشحان أو ثلاثة على الأكثر وان كل الناخبين يدلون بأصواتهم للمرشح الذي يختارونه. ولم أكن أعرف ان اسم المرشح للرئاسة لا يظهر على بطاقات الاقتراع في معظم الولايات، وانما الذي يظهر عليها فقط هو أسماء ناخبي الرئاسة الذين ينتخبون من القاعدة. ومع ذلك، ففي ولاية ويسكونسين ظهر اسم مستر سميث مطبوعا تحت مربع اسود كبير يحيط بشعار ارجح انه كان على شكل ثمرة كرنب. وقد أذهلتني كثرة عدد الاحزاب. فحتى الاشتراكيين كانوا حزبين. وكان هناك

مرشحون ليبراليون ومحافظون للمناصب التانوية.

ولحت في عيني الدكتور ماجيوت نفس الحيرة التي أحسست بها. فاذا كانت الانتخابات البريطانية أقل تعقيدا من الاميركية، فـان من المؤكـد انهـا في هـايتي أبسط كثيرا من الاثنتين.

تداولنا البطاقة الانتخابية من يد ليـد تحت عيني مسـز سميث التي كـانت تتابعها بيقظة شديدة كما لو كانت ورقة بمائة دولار. قال الدكتور ماجيوت:

ـ لا شك ان «النباتية» فكرة طيبة.. وان كنت أشك فيما اذا كـانت منـاسبـة لكل الثدييات.. مثلا، لا اعتقد ان الاسد يمكن ان يعيش على الخضروات..
عقب مستر سميث متباهياً:

ـ كان لدى مسز سميث فيما مضى كلب نباتي من نوع البولـدوج.. طبعـا احتاج ذلك الى بعض التدريب.

قالت مسز سميث وعيناها تتحديان الدكتور ماجيوت ان يجرؤ فيكذبها:

ـ هذا حدث، على مسؤوليتي!

حكيت للدكتور ماجيوت قصة المركز النباتي وزيارتنا لدوفاليفيل، فقال:

ـ ذات مرة جاءني مريض من دوفاليفيل. كان يعمل في موقع البنـاء، اعتقـد في المقصورة، وفصل من العمل لان احد رجال الطونطون ماكـوت كـان يـريـد الوظيفة لواحد من أقاربه. غير ان صاحبنا ارتكب غلطة لا تغتفر. فقد توسل الّي رجل الطونطون ماكوت بحجة انه فقير، فأطلق هذا عليه رصاصتين، واحـدة في بطنه، والاخرى في فخذه وقد انقذت حياتـه. وهـو الآن متسـول مشلـول عنـد مكتب البريد. لو كنت مكانك لما اقمت المركز في دوفاليفيل.. انهـا ليست مكـانـا مناسبا لشخص نباتي

سألت مسز سميث بحدة:

ـ ألا يوجد قانون في هذا البلد؟

ـ الطونطون ماكوت هم القانـون الـوحيـد.. لعلمك، مصطلـح الطـونطـون ماكوت يعني «الاشباح».. أو «الغيلان».

جاء الدور على مستر سميث، فسأل:

ـ ألا يوجد دين؟

ـ أوه.. اجل. نحن شعب متدين جدا. الدين الرسمي للدولة هو الكاثوليكيـة. والاسقف في المنفى. والقاصد الرسولي البابـوي في رومـا، والـرئيس محروم من الكنيسة. اما الدين الشعبي فهو الفودو ـ الذي لم يعد له وجود ظاهر.

ولقد كان الرئيس فودويا شديد الايمان بالفودو ولكنه لا يستطيع ان يقوم بدور الآن في الفودوية طالما هو محروم من الكنيسة، فلا بد ان تكون كاثوليكيا تماما، وغير محروم حتى تستطيع ان تكون فودويا!

هتفت مسز سميث:

ـ ولكن هذه زندقة.

ـ من أنا حتى أستطيع الحكم؟ ان ايماني بالرب المسيحي لا يزيـد كثيرا عن ايماني بآلهة داهومي. والفودويون يؤمنون بالاثنين.

ـ اذن ما الذي تؤمن به يا دكتور؟

ـ اني اؤمن بعدد معين من القوانين الاقتصادية.

قلت متعمدا استفزازه:

ـ الدين آفيون الشعوب!

قال الدكتور ماجيوت في شبه اشمئزاز:

ـ لا أدري متى قال ماركس هذه العبارة... اذا كان قد قالها أصلا. ولكن، بما انك ولدت كاثوليكيا، مثلما ولدت أنا، فسوف يسعدك ان تقرأ ما قاله ماركس عن عهد الاصلاح. فقد أثنى كثيرا على دور الاديرة حينذاك. ان الدين يمكن ان يكون علاجا ناجعا جدا لكثير من الحالات الذهنية، مثل الاكتئاب والجبن.. ثم لاحظ ان الافيون يستخدم في كثير من الادوية.. ومن ثم فأنا لست ضد الافيون. ومن المؤكد انني لست ضد الفودو. والا فماذا يكون عليه حال الناس لو استقر في وجدانهم ان بابا دوك هو القوة الوحيدة في البلاد.. ولا يعلى عليه؟

عادت مسز سميث تقول بالحاح.

ـ ولكنها زندقة.

ـ بل هي الدواء المناسب لاهل هايتي. لقد حاول مشاة البحرية الاميركيون القضاء على الفودو. ومن قبلهم حاول الجزويت. ولكن احتفالات الفودو لا زالت مستمرة بمجرد ان يرى رجل ما، ان لديه من المال ما يكفي لدفع اجر الكاهن، والضريبة. على اية حال، انصحك يا سيدتي ألا تذهبي الى احتفال من هذا النوع.

قال مستر سميث بكبرياء:

ـ انها من النوع الذي لا يخاف بسهولة يا دكتور.. ليتك رأيتها في ناشفيل!

ـ أنا لا اشك في شجاعتها يا سيدي. ولكن هناك اشياء لا يستطيع أي نباتي...

قاطعته مسز سميث بحدة.

ـ هل أنت شيوعي يا دكتور ماجيوت!

كان سؤالا كم تمنيت ان أسأله.. وتساءلت بيني وبين نفسي ماذا ستكون اجابة الدكتور عليه..

ـ اني اؤمن يا سيدتي بمستقبل الشيوعية.

ـ أنا أسأل هل أنت شيوعي؟

قال مستر سميث.

ـ يا عزيزتي.. نحن ليس من حقنا ان...

ولكنه لم يكمل جملته وانما تحول فجأة ليصرف انتباهها قائلا:

ـ دعيني اقدم اليك ملعقة اخرى من اليستريل.

وقال الدكتور ماجيوت بهدوء:

ـ ان يكون المرء شيوعيا هنا ممنوع قانونا. ولكننا، منذ توقف المعونة الاميركية اصبح من المسموح به ان نقرأ الشيوعية. يعني، الدعاية الشيوعية ممنوعة، ولكن اعمال ماركس ولينين ليست كذلك. هناك فارق كما ترين وان كان ضئيلا. ولذلك فأنا أقول اني اؤمن بمستقبل الشيوعية، ولكنها مجرد نظرة فلسفية.

كنت قد شربت كثيرا. فقلت بتهور:

ـ تماما مثلما يؤمن فيليبوت الشاب بمستقبل رشاشات البرن.

قال الدكتور ماجيوت:

ـ لا يستطيع احد وقف من يريد ان يكون شهيدا. وانما يمكن فقط تخفيض

عدد الشهداء. ولو أني تعرفت الى احد المسيحيين في عهد نيرون لكنت قد حاولت انقاذه من انياب الاسود، قائلا: اذهب وعش مع ايمانك بدلا من ان تموت به..

قالت مسز سميث:

ـ اذن فهي دعوة للجبن يا دكتور.

ـ لا استطيع ان اوافقك على ذلك يا مسز سميث. فنحن في نصف الكرة الغربي، سواء في هايتي أو في أي مكان آخر، نعيش في ظل بلادكم العظيمة المزدهرة. ومجرد ان يحتفظ الانسان برأسه يكلف كثيرا من الشجاعة والصبر.. وانا شخصيا معجب بالكوبيين، ولكني أتمنى لو كنت استطيع ان اؤمن برؤسائهم، وبانتصارهم النهائي...

الفصل الثاني

لم أخبرهم اثناء العشاء انه قد تم العثور على رجل ثري، وان احتفالا للفودو سوف يقام هذه الليلة في مكان ما بالجبال فوق قمة كينسكوف. فذلك السر كان ملكا لجوزيف، ولم يفض به اليّ الا لانه كان يحتاج مني توصيله بسيارتي. ولو رفضت فسيكون عليه ان يجر ساقه المكسورة طوال الطريق. وكان الموعد المحدد بعد منتصف الليل. فانطلقنا بالسيارة نحو ١٢ كيلومترا. وعندما تركناها في الطريق خلف جبل كينسكوف وصلت الى اسماعنا دقات طبول خفيفة كأنها نبض سريع، وكأن ذلك الليل الحار يلهث من فرط التعب. وعلى مدى البصر أمامنا كان هناك كوخ بسقف من القش مفتوح للرياح. وينبعث منه ضوء شموع باهت كأنه منديل ابيض..

كان هذا أول وآخر احتفال رأيته للفودو. ففي خلال عامي الازدهار كنت أشاهد رقصات الفودو وهي تؤدى للسياح من باب «الواجب». فقد كانت بالنسبة لي كرجل كاثوليكي بحكم المولد مقززة ولا تقل مدعاة للاشمئزاز من حفل للقداس يقام في باليه بأحد ملاهي برودواي. وانا لا اذهب الآن إلا من باب المجاملة لجوزيف. غير ان حفل الفودو لم يعلق بذاكرتي مثلما علق وجه فيليبوت الشاب. كان جالسا هناك في الجانب الآخر للمذبح بوجهه الاكثر شبابا وشحوبا من كل الوجوه الزنجية المحيطة به، يستمع مغمض العينين الى دقات

الطبول الخافتة وترتيل فتيات الكـورس بمـلابسهن البيضـاء. وبيننـا ينتصب عامود المعبد في وسط المكان كأنـه هـوائي التلفـزيـون لارسـال الابتهـالات الى الآلهة..

وهناك سوط معلق للتذكير بعبوديـة الامس. وللضرورات الـرسميـة كـانت هناك صورة صخمة لبابا دوك ربما للتذكير بعبودية اليوم.

وتذكرت ساعتها ما قاله لي فيليبـوت الشـاب ردا على اتهامي لـه، «ان آلهة داهومي قد تكون هي ما نحتاجه اليوم». اما وان الحكومات قد تخلت عنه، وانـا تخليت عنه. كما تخلى عنه جونز فلم يدبر له مدافـع البرين، فلم يبق لـه الا ان يجلس هنا، يستمع الى الطبول وينتظر ان تؤتى له القوة، ان تؤتى له الشجاعـة لكي يتخذ القرار..

في الطابق الارضي كان هناك حـول نـار صغيرة في مجمـرة نحـاسيـة رسم منقوش بالرماد، لعله يمثل دعوات الى احد القـديسين.. ربما كـان ليجبـا، زيـر النساء المرح، أو ايرزولي الحسناء عذراء الطهارة والحب، أو جـون فيرايـل راعي المحاربين أو البارون ساميدي بثيابه السوداء، وعلى وجهته عوينات الطونطـون ماكوت القاتمة والشوق الدائم لالتهام الموتى. لا شك أن الكاهن يعرف الـرجـل الثري الذي دفع من جيبه نفقات الاحتفال...

استمر الاحتفال اربع ساعات قبل ان يصل الى ذروته، وكان وجه فيليبـوت هو الذي ابقاني يقظا اثناء التراتيل وضربات الطبول الرتيبـة. وأذكـر أني القيت نظرة ذات مرة على ساعتي فوجدتها تشير الى الثالثة.

أقبل الكاهن من حجرته الداخلية يطـوح بيـده مبخـرة.. ولكن المبخـرة التي كان يهـزهـا في وجـوهنـا تبين انهـا ديك مكتـوف راح يحملق في عيني بعينيـه الغبيتين ومن ورائه تتأرجج راية سانت لوسي. وعندما استكمل الكـاهن دورتـه

بالمذبح وضـع رأس الديك في فمه. وبقضمة واحدة قطعها بأسنانه. وبينما كانت اجنحة الديك لا تزال ترفرف والرأس ملقاة على الارض مثل بقايا دمية محطمة، انحنى الكاهن برأسه وهو يعتصر رقبة الديك كـأنهـا أنبـوب معجـون أسـنـان ليلون بلون الدم الاحمر الخطوط المرسومة بالرماد على الارض. وعندمـا التفت نحو فيليبوت لارى مدى قبوله لعقيدة الاجداد لم اجده هناك. وكـان المفـروض ان اذهب انا ايضا. ولكني كنت مرتبطا بجوزيف وجوزيف كان لا يزال مرتبطا بالاحتفال.

★★★

مع تقدم الليل نحو الفجر اصبح الطبالون اكثر استهتـارا، فلم يعـد يعنيهم ان يخفضوا ضرباتهم الايقاعيـة. ويبـدو ان شيئـا مـا كـان يجري في الغـرفـة الداخلية حيث كانت الرايات تتـزاحم حـول المـذبـح، وحيث كـان هنـاك صليب ينتصب شاهدا فوق رأس محرك النار. ثم ظهر الموكب خارجا من الغـرفـة الى منتصف القاعة، وأفراده يحملون بين ايديهم شيئا تصورت في البداية انـه جثـة ملفوفة بكفن ابيض استعدادا لدفنها.. والرأس مغطى، وثمـة ذراع أســود يتـدلى على جنب. وهنا ركع الكاهن قـرب النـار وراح ينفـخ في الجمـرات حتى التهبت. ووضعوا الجثة الى جوارها. وهنا فقط ادركت ان الجثـة التي تصـورتها كـانت رجلا حيا من لحم ودم، لا ادري كيف ادركت ذلك. ولعل الرجل صرخ عنـدمـا الهبت يـده المـدلاة جمرات النـار، وان كنت لم اسمـع صرختـه بسبب ارتفـــاع اصوات الطبول وكورس المنشدين. ولكنني شممت رائحة الجلد المحترق..

ثم حملوا الجسم المسجى الى الخارج، وحل محله آخـر لتمارس عليـه نفس الطقوس، وتكرر هذا عدة مرات. ومن المؤكد ان الجسم الاخير كان لطفل صغير حيث لم يكن طوله يزيد على ثلاثة اقدام.. وفي هذه المرة أمسك الكاهن بيد الطفل مرتفعة فوق الجمرات.

واضح انه لم يكن متحجر القلب على أية حال.

وعندما نظرت مرة اخرى الى مؤخرة القاعـة وجـدت فيليبـوت قـد عـاد الى مكانه. وتذكرت ان احدى أيدي «الجثث» التي تعمدت بالنار كـانت يـد خـلاسي بلون اقل سوادا من المعتاد. غير اني قلت لنفسي انه من المستحيل ان تكـون يـد فيليبوت فالشاب كـان شـاعـرا رقيقـا مثقفـا، وتلقى تعليمـه مثلي في مـدارس الجزويت ودرس في السوربون. ولا زلت اذكر ابيـات الشعـر التي انشـدهـا لي اقتباسا من بودلير عند حافة حمام السباحة. ولو كـان واحـدا ممن يمارسـون هذه الطقوس الشاذة فيا له من انجاز حققه بابا دوك في جر بلاده الى الهاوية.

كـانت ألسنـة اللهب تنعكس على الصـورة المعلقـة على العمـود. والـرئيس بعويناته الثقيلة يحدق في الارض كأنما يحدق في جسم ينتظر التشريح. ذات يوم كان هذا الرجل طبيب ارياف يكافح بنجاح ضد التيفوئيد. وقد كـان هـو الـذي أسس جمعية علم الاجناس. وبما تعلمته على يد الجزويت كان بـاستطـاعتي ان أردد بعض الالفاظ باللاتينية تماما مثل الكاهن (الهونجان الساحر) الذي كـان يتوسل الآن الى آلهة داهومي ان تحضر..

ولكن التي حضرت في تلك الليلة لم تكن ايرزولي الحسنـاء، مـع ان روحهـا بدت للحظة وكأنها تدخل الكوخ وتلمس سيدة كـانت تجلس بجـوار فيليبـوت، لانها نهضت من مكانها وهي تخفي وجهها بيديهـا وتترنـح بخفـة ذات اليمين وذات اليسار. فمشى الكاهن (الهونجان) نحـوهـا، وانتـزع يـديهـا بعيـدا عن وجهها. فظهر وجهها في ضوء الشموع رائع الجمال. ولكن الهونجان لم يـأبـه لجمالها. فايرزولي لم تكن هي المطلوبـة. ونحن لم نجتمـع الليلـة لنلتقي بـآلهة الحب.

وضع الرجل يديه على كتفيها ودفعها دفعـا للخلف الى مقعـدهـا. ولم يكـد يستدير حتى كان جوزيف في داخل الحلقة.

اخذ جوزيف يتحرك بحركة دائرية، وعيناه تتطلعان الى أعلا حتى لم أر فيهما سوى البياض، ويداه ممدوتان كأنما يتسول. مال على فخذه المصاب وُبدا انه يوشك على السقوط. انحنى كل من كان حوله الى الامام بانتباه عظيم كـأنما كانوا ينتظرون اية علامة تدل على ان الآلهة موجودة فعلا هناك. صمتت الطبول. وتوقف الغناء. فقط الهونجان هو الذي كان يتكلم بلغة ما أقدم من الكريولي، وربما أقدم من اللاتينية. توقف جوزيف مصغيا وهو يحملق في العمود الخشبي عبر السوط ووجه بابا دوك، وبالتحديد الى شق كان يتحرك فيه جرذ صغير..

وهنا اتجه الهونجان نحو جوزيف وهو يحمل في يده وشاحا أحمر طوحه فوق كتفي جوزيف. الإله أوجون فيرايلي وصل. احدهم تقدم للامام حاملا مدية وثبتها باحكام في يد جوزيف المتخشبة وكأنه تمثال ينتظر استكماله.

اخذ التمثال يتحرك. رفع ذراعه ببطء، ثم طوح المدية في قوس واسع حتى ان الكل دفنوا رؤوسهم بين اكتفاهم خوفا من ان تطير المدية عبر القاعة التي تشبه النفق. وراح جوزيف يدور بسرعة والمدية في يده تمرق كالبرق وتمزق الهواء، حتى ان الذين كانوا في الصف الامامي تراجعوا للخلف مذعورين. وللحظة ساد المكان رعب شديد، فجوزيف لم يعد هو جوزيف. كان وجهه طافحا بالعرق. وبدت عيناه وكأنهما لا تريان أو ثملتان وهو يطعن ويطوح.. ولكن أين اصابته الآن؟ كان يجري دون ان يعرج أو يتعثر. وذات لحظة توقف ليلتقط زجاجة ألقيت باهمال على الارض بينما كان القوم يتراجعون فشرب منها جرعة طويلة ثم واصل العدو.

وقعت عيني على فيليبوت جالسا وحده على المقعد. كل من كانوا حوله تراجعوا للخلف. اما هو فقد انحنى للامام وهو يراقب جوزيف، وجوزيف يركض الآن في اتجاهه وهو يطوح مديته الضخمة، ثم أمسك بشعره بين يديه.

وخيل اليّ انه يوشك ان يذبحه بمديته. ولكنه دفع برأس فيليبوت الى الخلف ثم صب السائل في حلقه. وسقطت الزجاجة على الارض. ودار جوزيف حول نفسه دورتين ثم سقط فوقها. وعادت الطبول تدق، والفتيات ينشدن..

لقد جاء الإله أوجون فيرايلي.. ومضى..!

كان فيليبوت أحد ثلاثة رجال ساعدوا على حمل جوزيف الى الغرفة الداخلية. اما بالنسبة لي فقد شاهدت ما فيه الكفاية، فخرجت الى الليل الحار واخذت نفسا عميقا امتزجت فيه رائحة الخشب المحترق بالمطر. قلت لنفسي انني لم اترك آلهة الجزويت لاقع في براثن إله افريقي. كانت الرايات ترفرف في القاعة. والترتيل ما زال مستمرا، فعدت الى سيارتي حيث جلست انتظر عودة جوزيف. فما دام يتحرك بكل هذه الرشاقة في الكوخ فانه يستطيع ان يجد طريقه بدون مساعدتي. وبعد فترة جاء المطر. اغلقت النوافذ وجلست في الحر الخانق، بينما المطر يتساقط كأنه مطفأة حريق فوق القاعة المفتوحة. وبدا كأنما اسكت المطر صوت الطبول ونما احساسي بالوحدة كأني في فندق غريب بعد تشييع جنازة صديق.

كان من عادتي ان احتفظ بزجاجة ويسكي في السيارة احتياطا للطوارىء. فتناولت منها جرعة كبيرة.. وانا أشاهد المشيعين يمرون بي خارجين كأنهم اشباح رمادية تخترق المطر الاسود.

لم يتوقف احد عند السيارة. وانما تفرقوا على الجانبين. وخيل اليّ مرة أني سمعت صوت محرك سيارة يدور. واغلب الظن انه كان فيليبوت.. كان المفروض ألا احضر أبدا هذا الجناز. بل كان المفروض ألا آتي الى هذا البلد. فأنا هنا غريب. أمي التقطت عشيقا أسود. ومن ثم فهي قد يكون لها شأن بالامر هنا. اما أنا فقد نسيت منذ سنوات طويلة ان يكون لي شأن بأي شيء. لقد فقدت تماما بطريقة ما، في مكان ما، أي قدرة، على ان أبالي بأي شيء.

نظرت مرة من النافذة. خيل اليّ أني أرى فيليبوت يلوح لي خلال الـزجـاج.. ولكنه كان مجرد وهم.

اما وان جوزيف لم يظهـر فقـد ادرت محرك السيـارة وانطلقت حتى داري وحيدا. كانت الساعة نحو الرابعة، والوقت تأخر جدا ولم يعد يسمـح بـالنـوم. وهكذا، فقد كنت مستيقظا جدا في الساعة السادسـة عنـدمـا قـدم الطـونطـون ماكوت بسيارتهم صاعدين الى درج الشرفة وهم ينادونني ان أنزل.

2

كان الكابتن كونكاسير هو قائد المجموعـة، اوقفني تحت تهديـد مسـدسـه المصوب نحوي في الشرفة بينما راح رجـالـه يفتشـون المطبـخ وجنـاح الخـدم. وصلت الى مسامعي اصوات صفق الدواليب والابواب والزجاج المحطم، سألت

ـ ما الذي تبحثون عنه؟

تمدد على مقعد طويل من القش المجدول ومسدسه في حجره مصوبا نحوي ونحو المقعد الخشبي الذي جلست عليه. لم تكن الشمس قد اشرقت بعـد ومـع ذلك كان يضع عويناته السوداء على عينيه. ولعلني تساءلت عما اذا كان بوسعه ان يرى هدفه جيدا حتى يطلق الرصاص، غير اني فضلت عدم المخاطرة. اما هو فلم يجب على سؤالي. ولماذا يفعل؟ كانت السماء قـد بـدأت تحمـر فـوق كتفـه والاشجار تبدو سوداء واضحة المعالم، وانا جالس في مكاني فوق المقعد القائم ـ كان اصلا من مقاعد غرفة المائدة ـ والناموس يلدغ كاحليّ.. استطردت بكبريـاء ملحوظ.

ـ او.. لعلكم تبحثون عن شخص ما؟ نحن ليس لدينـا اي لاجئين هنـا.. ان رجالك يحدثون جلبة كافية لايقاظ الموتى.. وانا لدى نزلاء هنا.

غير الكابتن كونكاسير وضع مسدسه وهو يغير وضع ساقيـه.. ربما كـان

الرجل يشكو من الروماتيزم. كانت فوهة المسدس مصوبة نحو معدتي، ولكنها الان مسددة الى صدري. تثاءب مائلا برأسه الى الخلف حتى ظننت انه غرق في النوم، ولكن لم يكن بوسعي ان ارى عينيه خلف العدسات السوداء، اتيت بحركة خفيفة كمن يهم بالوقوف فنطق من فوره.

ـ اجلس مكانك.

ـ اطرافي تجمدت.. اريد ان ارخيها.

فوهة المسدس الان مصوبة الى رأسي.. ومع ذلك اضفت

ـ ما الذي انت بسبيله مع جونز؟

كان سؤالا بلاغيا.. مجرد محاولة للتأثير عليه، ولم يكن يهمني الجواب.. لذلك فوجئت عندما اجاب

ـ ماذا تعرف عن الكولونيل جونز؟

قلت، دون ان يفوتني ان جونز قد حصل على ترقية

ـ أقل القليل..

وهنا جاء صوت ارتطام مدو من ناحية المطبخ، حتى خيل الي انهم ربما كانوا يحطمون الفرن. قال كونكاسير.

ـ فيليبوت كان هنا.

التزمت الصمت غير واثق ما اذا كان يعني العم الذي مات او ابن اخيه، حتى استطرد قائلا:

ـ وقبل ان يأتي هنا ذهب لمقابلة الكولونيل جونز.. ما الذي كان يريده من الكولونيل جونز؟

ـ لا اعرف شيئا.. ألم تسأل جونز؟ انه صديقك

ـ نحن نستخدم البيض عندما تكون هناك ضرورة لذلك. ولكننا لا نثق بهم. اين جوزيف؟

ـ لا اعلم.

ـ لقد اخذته معك بالسيارة امس..

ـ اجل..

ـ ثم عدت وحدك

ـ اجل

ـ كنتما على موعد مع المتمردين

ـ ما تقوله هراء... هراء

ـ كان بوسعي ان اقتلك بطلقةواحدة بمنتهى السهولة.. وكان هذا ادعى لسروري.. والسببت جاهز، وهو انك حاولت ان تقاوم اعتقالك..

ـ لا شك عندي في ذلك. فانت لديك كثير من التجارب

كنت خائفا بلا شك. ولكن مصدر خوفي الاكبر كان ان يكتشف الرجل اني خائف. ومثل اي كلب متوحش، كان رجل الطونطون ماكوت اقل خطرا طالما هو ينبح. سألت بهدوء.

ـ ولكن ما هو السبب الذي يجعلك تقتلني! من المؤكد ان السفارة كانت ستطلب معرفة ذلك..

ـ في الساعة الرابعة صباح اليوم هوجم احد مراكز الشرطة. وقتل رجل واحد..

ـ شرطي؟

ـ اجل

ـ عظيم.

ـ لا تحاول التظاهر بانك شجاع. فانت مرعوب جدا.. انظر الى يديك

كنت قد مسحت يدي في سروال بيجامتي مرة او مرتين بسبب الرطوبة. اطلقت شبه ضحكة..

ـ الجو حار هذا المساء. وضميري مستريح جدا. لقد كنت في فراشي في الساعة الرابعة.. ماذا حدث لرجال الشرطة الاخرين! اظنهم ولوا الادبار

ـ اجل..وسوف نرى امرنا معهم في الوقت المناسب، فقد تركوا اسلحتهم خلفهم وهم يهربون.. هذه غلطة كبرى.

وهنا تدفق نهر الطونطون ماكوت من المطبخ.. كان غريبا جدا ان يجد المرء نفسه محاطا برجال يغطون وجوههم بعيونات سوداء في عتمة الفجر.. اشار كابتن كونكاسير الى واحد من رجالي فلطمني هذا على فمي لطمة قطعت شفتي. واستطرد الكابتن قائلا:

ـ مقاومة الاعتقال.. لا بد من وجود دليل على الاشتباك.. واذا كنا مهذبين فسوف نعرض جثتك على القائم بالاعمال.. ما اسمه؟ اني انسى الاسماء بسهولة

كنت استطيع ان احس بجرأتي وهي تهرب مبتعدة عني. فالشجاعة، حتى لدى الشخص الشجاع تنام قبل تناول الفطور. وانا شخصيا لم اكن شجاعا في يوم من الايام. ووجدتني احتاج الى جهد لكي اظل منتصبا في مكاني على مقعدي لاني احسست برغبة جارفة في ان اطير لاسقط تحت قدمي الكابتن كونكاسير.

غير اني كنت اعرف ان حركة كهذه ستكون قاتلة.. فالمرء لا يفكر مرتين لكي يطلق رصاصه على بعض القمامة.

وعاد صوت كونكاسير.

ـ سأقول لك ما حدث. الشرطي المناوب خنقوه. ولعله كان نائما. وبندقيته اخذها رجل يزك بساقه. اما مسدسه فقد اخذه رجل فلاسي.. ثم دفعوا باب العنبر الذي كان فيه الاخرون نائمين.

ـ وتركوهم يهربون؟

ـ انهم يقتلون رجالي.. ولكنهم احيانا يتركون رجال الشرطة لحال سبيلهم..

ـ بورتو برينس فيها كثير من الرجال الذين يزكون بسيقانهم

ـ اذن فاين جوزيف؟ المفروض انه نائم هنا. ولقد تعرف البعض على فيليبوت. وهو ايضا ليس في داره. متى رأيته لاخر مرة؟ وأين؟

اشار الى الرجل نفسه، وفي هذه المرة ركلني بقسوة في قصبة ساقي بينما انتزع اخر المقعد من تحتي فوجدتني في المكان الذي قاومت ان اكون فيه.. اي تحت قدمي كابتن كونكاسير. كان حذاؤه فظيعا.. لونه بني محمر. كنت مدركا انني يجب ان انهض فورا والا كانت هذه هي نهايتي. ولكن ساقي كانت تؤلمني ولم اكن واثقا اني سأستطيع الوقوف.. كنت في وضع سخيف وانا مقعى على الارض كأني في حفل غير رسمي، والكل ينتظرون ان اؤدي «النمرة» المتوقعة مني. وربما لو نهضت لطرحوني مرة اخرى على الارض. لعل هذه هي فكرتهم عن «نمرة» الحفلة.. وتذكرت في هذه اللحظة فخذ جوزيف المكسورة. ولعله كان من الاسلم ان اظل حيث انا ولكني نهضت واقفا، احسست بوخزة ألم شديدة في ساقي اليمنى. ملت الى الوراء لاستند على درابزين الشرفة. غير كابتن كونكاسير وضع مسدسه ليغطيني ولكن دون عجلة من امره. واضح انه مرتاح جدا في

تمديدته فوق المقعد الطويل.. واضح جدا انه يحس بـانـه مـالك المكـان.. وربما كانت هذه هي نيته بالفعل. قلت

ـ ماذا كنت تقول؟ اوه.. اجل.. لقد ذهبت امس مع جوزيف الى حفل فـودو. وكان فيليبوت هناك. ولكننا لم نتبادل اي حديث. وقد غـادرت المكـان قبـل ان ينتهي الحفل.

ـ ماذا؟

ـ احسست بالتقزز

ـ تقززت من الدين الذي يؤمن به شعب هايتي؟

ـ كل واحد وما يتذوقه

اقترب مني ذوو العوينات السوداء، بينما عويناتهم تنظر في اتجاه الكـابتن. آه لو كان بـاستطـاعتي ان ارى ولـو زوجـا واحـدا من العيـون. كـان التعبير المجهول خلف العوينات هو ما يؤرقني.. قال الكابتن

ـ انت مرعوب مني لدرجة انك بللت سروالك..

ادركت من فوري ان ما يقوله صحيح.. احسست بـالبلـل والسخـونـة بين ساقي.. وبالمهانة تزحف حتى كتفي. لقد نال مني بغيته. ولعلني كان افضل لي لو بقيت على الارض تحت قدميه.

قال كابتن كونكاسير للرجل نفسه

ـ اضرب ثانية

فجأة دوى صوت يهدر بالفرنسية

ـ ياللبشاعة.. منتهى البشاعة!!

دهشت، تماما مثلما دهشوا. وفي اذني كان للكنة الاميركية الواضحة في هذه الكلمات رنين حمل في نبراته كل امجاد وقوة نشيد الجمهورية، تفجرت عناقيد الغضب ولمع كالبرق حد سيف هائل سريع.. فتوقف خصمي وتجمدت في الهواء قبضته التي كان يعتزم ضربي بها.

وفي الطرف الآخر من الشرفة، ظهرت مسز سميث خلف الكابتن كونكاسير، وكان عليه ان يتخلى عن موقف الآمر الناهي الكسول حتى يرى من التي تتكلم.. فلم يعد المسدس يغطيني، وتحركت انا بعيدا عن قبضة المهاجم.

كانت مسز سميث ترتدي ثوب نوم عتيق الطراز وشعرها ملفوف في اسطوانات معدنية اضفت عليها جوا تكعيبيا عجيبا. وبدت وهي واقفة شديدة الصرامة وهي تلقي عليهم بلهجة بالغة الحدة عبارات متفرقة جاءت بها ـ بفضل تعليمها الذاتي ـ من فيكتور هوجو. حدثتهم عن الوحشية الرهيبة التي ايقظتها هي وزوجها من نومها. واتهمتهم بالنذالة اذ يضربون رجلا اعزل. ثم امرتهم ان يطلعوها على تصريح النيابة.. واخذت تكرر كلمة تصريح النيابة بالانجليزية حيث لم تسعفها حصيلتها من هوجو.. اروني تصريح النيابة؟ اين هو تصريح النيابة، وكان واضحا ان الكلمة غير المفهومة كانت اشد وقعا عليهم من كل ما فهموه. واخيرا بدأ الكابتن كونكاسير يتكلم.

ـ يا مدام...

ولكنها لم تترك له فرصة.. صوبت نحوه من عينيها ـ قصيرتي النظر ـ نظرة حادة وهي تقول..

ـ آه هذا انت.. لقدر رأيتك من قبل.. انت الرجل الذي ضرب السيدة..

لم يكن في وسع فيكتور هوجو ان يسعفها الان... فاستطردت بلغتها وهي تتقدم نحوه

ـ كيف تجرؤ على المجيء هنا شاهرا مسدسك.. اعطني هذا المسدس.. ومدت يدها نحوه وكأنه طفل يلهو بسكين المطبخ.. واذا كان كابتن كونكاسير لم يفهم ما قالته بالانجليزية الا انه فهم اشارتها.. وكما لو كان يتشبث بشيء غال عليه بعيدا عن امه الغاضبة، اودع مسدسه في الجراب المدلى على فخذه.. بينما استطردت هي بنفس الحدة.

ـ انهض من هذا المقعد ايها الاسود القذر.. قف عندما تتحدث معي..

ثم اضافت.. وكأنها تدافع عن كل ماضيها المجيد، وكأنما ذكرى احداث ناشفيل العنصرية تحرق لسانها.

ـ انت عار على لونك..

-سأل الكابتن كونكاسير بصوت ضعيف

ـ من تكون هذه السيدة

ـ حرم مرشح الرئاسة.. لقد قابلتها من قبل..

في هذه اللحظة ـ ارجح ـ انه تذكر لاول مرة المشهد السابق في جنازة الدكتور فيليبوت.. حيث فقد قبضته على الموقف.. والان ها هم رجاله يحدقون في وجهه من خلال عويناتهم السوداء الثقيلة ينتظرون اوامره التي لم تصدر..

استعادت مسز سميث سيطرتها على محصولها من أدب فيكتور هوجو.. واضح انها قضت ذلك الصباح كله تدرس بجد بينما كنت وسميث نزور دوفاليفيل.. قالت بلكنتها المروعة

ـ انت فتشت.. انت لم تجد.. الان تستطيع ان تذهب فيما عدا بضعة اخطاء بسيطة كانت عباراتها تصلح جداً كمقدمة للدرس التالي.. ولكن الرجل ادرك . جيداً ما تريد أن تقول.. تردد لحظة فعاجلته بقولها:

ـ اذا لم تنصرف فورا سأستدعي زوجي..

وهنا استسلم. فاشار الى رجاله وتقدمهم نازلا من الشرفة وان هي الا لحظة حتى كانوا ينطلقون بسيارتهم في جلبة اكثر صخبا من تلك التي جاءوا بها وهم يطلقون ضحكات جوفاء محاولين ان يداروا بها كبرياءهم الجريح.

ـ من كان ذلك الرجل؟

ـ واحد من اصدقاء جونز الجدد.

ـ سوف اتحدث عن ذلك مع مستر جونز في اول فرصة..ان من يلمس الزفت.. أوه.. ما هذا.. إن وجهك يدمي.. أفضل أن تصعد معي وسأغسله بالليسترين.. مستر سميث وانا لا نسافر ابدا بدون الليسترين

3

سألتني مارتا

هل يؤلمك؟

ـ ليس كثيرا.. الان

لا اذكر اننا كنا في اي وقت وحدنا هكذا وفي مثل هذا السلام. كانت الساعة الطويلة بعد الظهر تتهافت خلف نافذة المخدع المغطاة بشبكة الناموس. وعندما استعيد لنفسي في عصر ذلك اليوم يخيل الي اننا تهيأت لنا حينذاك نظرة من بعيد على ارض موعودة.. واننا نقف الان في نهاية صحراء قاحلة وامامنا ينتظر العسل واللبن.. بنا حاملين عناقيد العنب.-

فلم يحدث ابدا من قبل ان جاءت مارتا من تلقاء نفسها ودون ضغط الى الترياتون. لم يحدث أبداً أن نمنا معاً في فراشي. لم يستغرق الأمر سوى نصف ساعة ولكن النوم كان اعمق من اي مرة سابقة. استيقظت جافلا من فمها فوق

يستغرق الجريحة. قلت:

ـ تلقيت رسالة اعتذار من جونز. قال لكونكاسير انه يعتبرها اهانة شخصية له ان يعامل صديق له بهذا الشكل، وهدد بقطع العلاقات.

ـ اية علاقات؟

ـ الله وحده يعلم. لقد دعاني الى تناول كأس معه الليلة في الساعة العاشرة، ولكني لن اذهب.

كان الغسق قد لفنا. حتى لا يكاد احدنا يرى وجه الاخر. وكلما همت بالحديث ظننت انها ستقول انها لا تستطيع ان تبقى اكثر من ذلك. نعم، ان لويس عاد الى اميركا الجنوبية مستدعى من وزارة الخارجية، ولكن انجيل كان دائما هناك، وكنت اعلم انها دعت بعض اصدقائه لتناول الشاي. اما الزوجان سميث فكانا بالخارج، لاجتماع آخر مع وزير الشؤون الاجتماعية، وكان قد طلب ان يأتياه وحدهما، واخذت مسز سميث كتاب هوجو معها عسى ان يحتاج الامر الى بعض الترجمات.

خيل الي انني سمعت صوت باب يصفق فقلت لمارتا

ـ اعتقد ان الزوجين سميث عادا

قالت وهي تضع يدها على صدري

ـ لا يهمك من الزوجين سميث.. اوه.. كم انا متعبه

ـ هل هو تعب طيب ام سيء..

ـ تعب سيء

ـ ماذا حدث؟

كان سؤالاً غبياً بالنظر إلى وضعينا. ولكني كنت أريـد أن أسمـع الكلـمات التي طالما نطقت بها، تقولها هي بلسانها

ـ انا متعبة من عدم وجودنا وحدنا.. متعبة من الناس.. متعبة من انجيل

هتفت مستغربا

ـ انجيل؟

ـ اليوم اعطيته صندوقا من الاحاجي الجديدة يكفي لشغله اسبوعا كامـلا.. وياليتني اقضي هذا الاسبوع معك

ـ اسبوعا؟

ـ اعرف ان هذا لن يكفي.. ان الامر لم يعد مجرد مغامرة

ـ لم يعد كذلك منذ كنت في نيويورك

ـ اجل

من بعيد جاء صوت طلقات نارية. قلت

ـ بعضهم يقتل الان.

سألت..

ـ الم تسمع؟

جاء صوت طلقتين اخريين.. استطردت

ـ اقصد ما يقال حول اعدام بعض الناس؟

ـ كلا.. بيتي بيير لم يظهر منذ ايام. وجـوزيف اختفى.. وانقطعت عني كـل

الاخبار..

ـ ردا على الهجوم ضد مركز الشرطة اخذوا رجلين من السجن ليعـدمـوهما رميا بالرصاص في المقبرة

ـ في الظلام؟

هذا يكون اشد وقعا. لقد اقاموا انوارا كاشفة واعدوا كاميرا تليفزيونية وكـل اطفال المدارس سيحضرون بناء على اوامر بابا دوك.

ـ اذن يستحسن ان تنتظري حتى يتفرق المتفرجون

ـ اجل.. هذا هو ما يهمنا.. الامر لا يعنينا.

ـ كلا بالطبع.. فنحن لا نصلح كثوار جيدين.. انت وانا

ـ ولا اظن جوزيف يصلح ايضا.. بساقه المكسورة

ـ ولا حتى فيليبـوت بـدون رشـاش بـرين.. تـــرى هـــل يحتفظ في جيب صديريته بديوان بودلير ليقيه من الرصاص؟

قالت

ـ لا تكن قاسياً عليهم، فأنا ألمانية، والألمان لم يفعلوا شيئاً.

حركت يدها فـاستنفـرت رغبتني، ولم اهتم بسؤالها عما تعنيـه بعبـارتها تلك.. لم يكن للسؤال معنى طالمـا لـويس بعيـدا في اميركـا الجنـوبيـة وانجيـل مشغولاً باحاجيه والزوجان سميث بعيـدين عن الأسـماع والأنظـار وخيـل إلي لحظتها انني ادخل الارض الموعودة ولكن نوبـة الامـل مـا لبثت ان ولت. وهي تستأنف الحديث كما لو كانت افكارها لم تحد عن مســارهـا لحظـة واحـدة... قالت

ـ الا يوجد لدى الفرنسيين كلمة للتعبير عن النزول الى الشارع؟

ـ اعتقد ان امي نزلت للشارع، اللهم الا اذا كانت ميدالية المقاومة هدية من احد عشاقها

ـ ابي نزل الى الشارع في ١٩٣٠. ولكنه اصبح مجرم حرب.. ان العمل الثوري خطر.. اليس كذلك؟

ـ اجل.. ونحن تعلمنا من تجربتيهما..

أزف الوقت لكي نرتدي ملابسنا وننزل. وكل درجة سلم تعني درجة أقرب الى بورتو برنس. ظهر باب الزوجين سميث مفتوحا. رفعت مسز سميث بصرها نحونا ونحن نمر، بينما كان مستر سميث جالسا واضعا قبعته بين يديه وهي واضعة يدها على مؤخرة رأسه . قلت ونحن نتقدم في اتجاه السيارة:

ـ حسن.. لقد شاهدانا... هل أنت خائفة؟

ـ بالعكس . في حالة ارتياح..

عدت الى الفندق. نادت عليّ مسز سميث من الطابق الاول. ترى، هل أنا على وشك ان أدان مثل احد سكان القدس القدامى بتهمة الزنا؟ وهل سيتعين على مارتا ان تحمل وشما قرمزيا؟ لم أدر لماذا، ولكنني كنت اتصور انهما لا بد ان يكونا متزمتين طالما نباتيين. ومع ذلك فان عاطفة الحب لا تتولد من زيادة نسبة الحموضة وكلاهما ولا شك عدو للكراهية.

صعدت السلم مترددا. وجدتهما معا. بادرتني مسز سميث بقولها بنبرة تحد غريبة كما لو كانت تقرأ أفكاري:

ـ كنت أود ان أقول مساء الخير لمسز بينيدا..

أجبت بأقصى ما استطعت من نبرة معادية:

ـ كان عليها ان تسرع لمنزلها من اجل طفلها..

لم يطرف لها هدب، وانما قالت:

ـ انها سيدة كنت اتمنى ان اعرفها اكثر..

لماذا كنت اتصور دائما انهما لا يتعاطفان الا مع الاجناس الملونة فقط؟ أم ترى ان احساسي بالاثم هو الذي جعلني اتوهم النفور في قسمات وجهها في تلك الليلة؟ أم لعلها من ذلك النوع من النساء اللاتي متى ما شعرن بالميل نحو رجل ما غفرن له كل شيء؟

سحبت يدها من فوق عنق زوجها لتضعها على شعره. قلت:

ـ لم تضع الفرصة على أية حال. فسوف تأتي في يوم آخر.
قالت:

ـ نحن راحلان غدا.. ان مستر سميث يائس تماما.

ـ من امكانية انشاء مركز نباتي؟

ـ بل من كل شيء هنا.

رفع الرجل رأسه. رأيت الدموع تبلل عينيه الشاحبتين. أي وهم سخيف أغرى هذا الرجل بأن يدخل مضمار السياسة؟ قال:

ـ هل سمعت طلقات النار؟

ـ أجل.

ـ لقد مررنا بالاطفال وهم خارجون من المدرسة.. لم يخطر ببالي يوما...

عندما كنا مع المناضلين من اجل الحرية، مسز سميث وأنا...

قاطعته قائلة:

ـ لا ينبغي للمرء أن يدين أي لون يا عزيزي..

ـ أعرف.. أعرف.

ـ ماذا جرى مع الوزير؟

ـ كان اللقاء قصيرا. لانه كان يريد حضور الاحتفال.

ـ احتفال؟

ـ اجل في المقبرة.

ـ هل يعلم انك راحل غدا؟

ـ أو... اجل، فأنا اتخذت قراري بالفعل قبل الـ... قبل ذلك الاحتفال. وهو كان قد فكر في الامر وتأكد انني في نهاية الامر لست أبله. وما دمت لست كذلك فأنا لا بد ان اكون انسانا غير شريف، مثله تماما، جئت هنا لكي احصل على المال، وليس لكي انفقه. وعلى ذلك فقد تطوع بارشادي الى الطريقة المثلى.. وهي باختصار اقتسام المسألة بين ثلاثة اطراف بدلا من اثنين، على ان تسند عملية الاشغال العامة الى احد الاشخاص. وكما فهمت، فانني يمكن ان أسدد ثمن مواد قليلة، والدفع على أية حال سيكون من نصيبنا من العائدات.

ـ وكيف سيحصلون على العائدات؟

ـ الحكومة ستضمن الاجور، ونحن نستأجر العمالة بأجر اقل بكثير، وفي نهاية كل شهر يتم الاستغناء عن كل العمال. ويبقى المشروع مجمدا لمدة شهرين ثم ينشط باستئجار دفعة جديدة من العمال. طبعا، الاجور المضمونة

من الحكومة سوف تتحول الى جيوبنا في فترة التجميد بعد خصم ما دفعناه ثمنا للمواد، ثم ان العمولة على مشترياتنا هذه ستجعل القائم على وزارة الاشغال العامة سعيدا.. اعتقد ان الطرف الثالث كان وزارة الاشغال. وصدقني. كان الرجل سعيدا جدا بخطته لدرجة انه اكد انها في النهاية يمكن ان يتولد عنها مركز نباتي حقيقي..

ـ الخطة بالنسبة لي تبدو مليئة بالثقوب..

ـ أنا لم أترك له الفرصة ليخوض في التفاصيل، واعتقد انه كان سيسد الثقوب في حال ظهورها، من بند العائدات بالطبع.

قالت مسز سميث بأسى عميق:

ـ عندما جاء مستر سميث هنا كان يحدوه أمل عظيم.

ـ وأنت أيضا يا عزيزتي

ـ يعيش المرء ويتعلم.. هذه ليست النهاية.

ـ التعليم أسهل بالنسبة للشباب، لا تؤاخذني يا سيد براون اذا بدت كلماتي مفعمة بالمرارة. ولكننا لا نريد ان تسيء فهم السبب في رحيلنا عن الفندق. فأنت في الواقع قد اكرمتنا كثيرا.. وكنا سعيدين جدا بالاقامة تحت سقفك.

ـ وانا اسعدني جدا وجودكما هنا. هل ستلحقان بالسفينة ميديا؟ انها ينتظر ان تعود غدا.

ـ كلا.. لن ننتظرها. لقد كتبت لك عنواني في الولاية. غدا سنطير الى سانتو دومينجو حيث سنمكث هناك بضعة ايام على الاقل. فان مسز سميث ترغب في زيارة ضريح كولومبوس. وعلى فكرة، انا اتوقع وصول بعض مطبوعات نباتية مع السفينة المقبلة، فاذا تكرمت، ارجو ان ترسلها اليّ.

ـ أنا آسف على مصير المركز، ولكن ينبغي ان تعلم يا ميستر سميث انه كان لا يمكن ابدا ان يقام.

ـ أنا أدرك ذلك الآن . ربما بدونا في نظرك شخصين كوميديين يا مستر براون .

قلت بصدق.

ـ ليس كوميديين.. بل بطلين.

ـ أوه.. لسنا بالمرة من ذلك النمط. والآن.. دعني أقول لك سعدت مساء يا مستر براون اذا سمحت لي، فأنا احس بالارهاق فعلا هذا المساء.

قالت مسز سميث على سبيل التفسير

ـ كان اليوم حارا ورطبا جدا في المدينة.

ثم مدت اصابعها تتحسس خصلات شعرها مرة اخرى كما لو كانت تلمس قطعة قماش ثمينة جدا..

الفصل الثالث

1

رافقت الزوجين سميث في اليوم التـالي الى المطـار. لم يكن هنـاك اثـر لبيتي بيير، مع ان مغادرة مرشح للرئاسة كانت خبرا كفيلا بأن يحتل فقرة هامـة من «حديث المدينة». وان كان سيضطر بالطبع الى اغفـال المشهـد النهـائي الـرهيب الذي وقع امام مكتب البريد. فقد طلب مستر سميث ان اوقف السيارة في وسط الميدان، وظننت انه يريد التقاط صورة، ولكنه بـدلا من ذلك نـزل من السيـارة حاملا حقيبة يد زوجته. فتـدفق الشحـاذون نحـوه من كـل اتجـاه. وتـرددت همهمات خافتة لعبارات غير واضحة تماما، ثم شاهـدت رجـل شرطـة يـركض نازلا من سلم مكتب البريد.

فتح مستر سميث حقيبة اليد، وأخذ ينثر في الهواء أوراق البنكنوت، جوردات ودولارات بدون تمييز. هتفت: بالله عليك ما الذي تفعله؟

ولكنه لم يجب. صرخ واحد أو اثنـان من الشحـاذين. لمحت عينـاي حـامـد السوري واقفا مذهولا على باب حانوته. ولون الغسق المائل للحمـرة يسبـغ على البرك الصغيرة وتضاريس الوحل لـون مخلفـات المـواشي. والآن.. آخـر الاوراق البنكنوتية تتهادى لتستقر فوق الوحل، ورجـال الشرطـة الـذين ظهـروا فجـأة راحوا يطبقون على الفريسة والرجال الذين لهم ساقان يركلون من كـان بسـاق

واحدة. ومن له ساق واحدة يركل الكسيح بلا ساقين. والذي لـه ذراعـان يشـد مقطوع الذراعين من سرواله ويوقعه على الارض. وفيما أنـا ادفـع مستر سميث دفعا الى داخل السيارة وقعت عيناي على مستر جونز. كـان جـالسـا في المقعـد الخلفي لسيارة يقـودهـا سـائق الطـونطـون، وعلى وجهـه ارتسمت عـلامـات التعجب.. ممزوجة بنظرة قلق.. وكأنما هو لأول مرة في حياته يحس بالضياع.



صحبت الزوجين سميث حتى الطائرة. وتناولت الغـداء وحـدي، ثم انطلقت بسيارتي الى فيلا كريولي. كنت فعلا تواقا الى رؤية جونز.

كان السـائق هناك مسترخيا اسفل الدرج. تابعتني نظراته بارتياب ولكنه لم يتحرك ليعترضني. هتف صـوت غـاضب بـالفـرنسيـة من الـداخـل.. «شغـل شياطين».. وعلى اثره مر بي زنجي ضخم لمع خاتمه الـذهبي في الضـوء وهـو يندفع مسرعا..

استقبلني جونز استقبالا حافلا وكأننا صديقان من أيام الـدراسـة لم نلتق منذ سنوات. قال بلمحة من الرعاية الابوية حيث تغير شكل العلاقـة بيننـا منـذ آخر لقاء:

ـ تفضل.. تفضل يا والدي.. أنا سعيد برؤيتك. تـوقعت ان اراك امس الاول فلا تؤاخذني عن هذا اللبس، جرب هذا المقعد.. ستجده أدعى للراحة.

كان المقعد دافئا بالفعل ومشبعا بسخونـة الـرجـل الغـاضب الـذي لقيتـه خارجا. وعلى المائدة كان هناك ثلاثة اطقم من اوراق اللعب.. والجو معبأ بدخان السيجار وثمة مطفأة سجائر مقلوبة وبعض الاعقاب على الارض. سألت:

ـ من يكون صديقك هذا؟

ـ واحد من وزارة الخزانة. دائما يخسر.

ـ كنتما تلعبان جين رومي؟

ـ كان أولى به ألا يرفع الرهان وهو متقدم. ولكن لا ينبغي للمرء ان يجادل طويلا مع موظف كبير بوزارة الخزانة. أليس كذلك؟ على أية حال.. الاس البستوني جاء في الوقت المناسب وأنهى كل شيء في لحظة واحدة مضيفا الى جيبي ألفين كاملين وان كان الرجل قد دفع بانجو.ردي وليس بالدولارات.. كيف حال الدنيا معك؟

ـ هل لديك ويسكي؟

ـ لدي كل شيء.. ما رأيك في كأس من المارتيني المعتق؟

كنت افضل الويسكي.

ولكن يبدو انه تواق الى ان يقنعني بمدى ثراء رصيده من المشروبات فقلت:

ـ لا بأس.. اذا كان معتقا جدا..

ـ أراهنك عشرة في مقابل واحد يا والدي..

فتح باب الخزانة وأخرج منها علبة سفر جلدية لحفظ المشروبات. كانت علبة انيقة غالية الثمن.. ظهر فيها نصف زجاجة جين، ونصف زجاجة فيرموت، وأربع كؤوس معدنية، وخلاط. وضعها بزهو فوق الطاولة كأنه بائع في مزاد علني يعرض تحفه للناظرين. لم استطع منع نفسي من التعليق:

ـ اسبري؟

ـ أجاب بسرعة وهو يمزج الكوكتيل:

ـ لا تقل عنها جودة..

ـ لا بد وانها تحس بالغرابة لوجودها هنا.. بعيدا جدا عن مكانها الطبيعي..

ـ لقد اعتادت على اماكن اكثر غرابة.. كانت معي في بورما اثناء الحرب.

ـ واضح انها خرجت من الحرب بدون خدش.

ـ انا جددتها..

نهض خارجا ليشغل نفسه بتحضير بعض الصودا. ألقيت على العلبة نظرة اكثر دقة. كانت علامة اسبرى المسجلة ظاهرة جيدا على الغطاء.. عندما عاد وجدني ادقق النظر. قال:

ـ ها أنت ذا يا والدي تمسك بي متلبسا! نعم. انها من اسبرى. كل ما في الامر أني لم أود ان اتفاخر.. الحقيقة ان لهذه العلبة تاريخا.. وأي تاريخ!

ـ قل لي:

ـ جرب كأسك أولا لتتأكد انه يناسب مذاقك.

ـ انه رائع.

ـ هذه العلبة كسبتها في رهان من احد الزملاء في الكتيبة. كان لدى البريجادير واحدة مثلها وكنت دائما احسده عليها. وكثيرا ما كنت احلم باقتناء واحدة مثلها حتى اثناء قيامي بالداورية، ويتردد في سمعي صوت الخلاط وهو يصلصل مع الثلج.. وكان معي زميلان من لندن. لم يذهبا ابدا الى ابعد من بوند ستريت، واعتادا ان يسخرا من حلمي بالعلبة الارستقراطية. وذات يوم، كاد الماء ينفد من زمزمياتنا فتحدياني ان اجد غدير مياه قبل حلول الليل، واذا فعلت فسوف يأتيني احدهما بعلبة مماثلة في أول مرة يعود فيها للوطن... لا اذكر اذا كنت اخبرتك من قبل أني استطيع ان اشم الماء..

سألت:

ـ هل كان ذلك عندما فقدت سريتك بكاملها..

رمقني بنظرة طويلة من فوق حافة كأسه، وتأكد لي بما لا يدع مجالا للشك انه قرأ افكاري . ولكنه اكتفى بالقول

ـ كلا . كانت تلك قصة اخرى.

ثم غير الموضوع دون ان يكمل حكاية العلبة.

ـ كيف حال مستر سميث ومسز سميث؟

ـ هل شاهدت ما حدث عند مكتب البريد؟

ـ أجل .

ـ كان هذا هو القسط الاخير من المعونة الاميركية.. لقد غادرا هذا المساء بالطائرة، وكلفاني بابلاغك تحياتهما.

ـ كم كان بودي ان اعرفهما اكثر. هناك شيء ما في هذا الرجل.. انه يذكرني بأبي ليس من ناحية الشكل بالطبع ولكن.. هذا القدر من الطيبة...

ـ أفهم ما تعنيه.. انا للاسف لا أذكر أبي.

ـ ان اردت الصدق، فأنا ايضا ذاكرتي ضعيفة الى حد ما.

ـ فلنقل انه الآب الذي نتمنى ان يكون

ـ هذا هو القول الصح يا والدي.. تماما! لا تترك كأسك يسخن. هل تعرف؟ كان دائما يخامرني احساس قوي بأن مستر سميث وأنا لدينا شيء ما مشترك.. كما لو كنا جوادين من نفس الاسطبل!

استمعت اليه مدهوشا. أي شيء مشترك يمكن ان يكون بين قديس، وأفاق؟ راقبته ـ متفلسفا ـ وهو يغلق علبة الكوكتيل، ثم وهو يتناول قطعة قماش ويمسح عليها برقة تماما مثلما اعتادت مسز سميث ان تمسح بيدها شعر

زوجها.. وتساءلت. ربما كانت هذه علامة براءة! ايقظني صوته من تصوراتي.

ـ آلمني جدا ما حدث من كونكاسير. وقد افهمته بوضوح انه لو مس شعرة لصديق لي فاني سأنهي كل علاقتي معهم.

ـ كن حذرا فيما تقول. هؤلاء الناس خطرون.

ـ أنا لا أخشاهم. انهم يحتاجونني يا والدي اكثر مما احتاجهم! هل تعلم ان فيليبوت الشاب جاء لزيارتي؟

ـ اجل.

ـ فكر ماذا كنت استطيع ان اصنع له.. وثق انهم يدركون ذلك.

ـ هل لديك مدافع برن للبيع؟

ـ انا لدي نفسي يا والدي. وهي افضل من أي برن. ان كل ما يحتاجه المتمردون انما هو رجل يعرف الامور. وفكر في هذا! انت تستطيع ان ترى بورتو برنس من حدود الدومنيكان في أي يوم صحو..

ـ الدومنيكان لن يزحفوا عبر الحدود ابدا.

ـ لا حاجة لاحد بهم. اعطني خمسين رجلا من هايتي.مع شهر واحد للتدريب وستجد بعدها بابا دوك مشحونا في طائرة الى كينجستون. انا لم اكن في بورما عبثا. لقد فكرت كثيرا في ذلك. ودرست الخارطة. ان تلك الغارات التي وقعت بالقرب من رأس هايتي كانت لعب اطفال. ولكني اعرف جيدا أين ينبغي ان أموّه، وأين ينبغي ان اضرب..

ـ لماذا لم تنضم الى فيليبوت؟

ـ أقول الحق.. كنت أتمنى لو فعلت. الاغراء كان قويا جداً. ولكن لدي

صفقة هنا من النوع الذي لا يسنح للمرء سوى مرة واحدة في العمر. انها تعني ثروة ضخمة لو تمكنت من الافلات بها..

ـ الى أين؟

ـ الى أين؟

ـ أعني تفلت بها الى أين؟

ضحك جزلا وهو يجيب:

ـ الى أي مكان في العالم يا والدي! ذات مرة كدت افوز بها في ستانلي فيل. ولكني كنت اتعامل مع حفنة من المتوحشين.. وقد انتابتهم الشكوك في آخر لحظة.

ـ وهؤلاء القوم هنا.. ألا تنتابهم الشكوك؟

ـ انهم متعلمون.. وأنت تستطيع ان تخدع المتعلمين.

وبينما كان يملأ الكأسين للمرة الثانية كنت اتساءل ترى ما هو نوع اللعبة التي يمارسها الآن؟ كان هناك شيء واحد مؤكد. ذلك انه يعيش الآن افضل كثيرا مما كان في زنزانة السجن، بل لقد ازداد بضعة كيلوجرامات.

وجهت اليه سؤالا مباشرا:

ـ ما الذي تفعله يا جونز؟

ـ أضع أساس ثروة جيدة يا والدي. لماذا لا تأتي معي؟ انه ليس مشروعا طويل الامد. وانا الآن استطيع في أي لحظة ان امسك بالعصفور من ذيله. ولكني يمكن ان افعل ذلك مع وجود شريك.. هذا ما كنت اريد ان اتحدث معك بصدده. هناك ربع مليون دولار، وربما اكثر لو احسنا التصرف..

ـ وما هو عمل الشريك؟

ـ ان انجاز الصفقة سيتطلب مني بعض السفريات.. وانا اريد ان اترك ورائي هنا من استطيع ان اعتمد عليه وانا في الخارج..

ـ ألا تثق في كونكاسير؟

ـ انا لا اثق في اي احد منهم. المسألة ليست مسألة لون. ولكن، فكر في الامر قليلا يا والدي.. ان الربح الصافي لن يقل عن ربع مليون. وانا لا اريد ان اترك شيئا للصدف. طبعا، يجب ان اخصم مبلغا ما في مقابل المصروفات، ولنقل عشرة آلاف دولار مثلا. والباقي سنقتسمه مناصفة. ان الفندق لا يعمل كما يرام.... أليس كذلك؟ فكر اذن فيما يمكن ان تفعله بنصيبك.. هناك جزر كثيرة في الكاريبي تنتظر من يمد يده ليستغلها على شكل بلاج.. فندق.. ممر جوي.. سوف تصبح مليونيرا يا والدي. مليونيرا.

لعل تربيتي الدينية على أيدي الجزويت هي التي جعلتني في تلك اللحظة اتذكر الشيطان وهو منتصب فوق قمة جبل عال يعرض علي ضحيته كل مملكة الارض.. ولعلني كنت دائما اتساءل، هل الشيطان لديه كل هذه المملكة أم انها كانت مجرد خدعة كبيرة؟ دارت عيناي بارجاء تلك القاعة في فيلا كريولي باحثة عما يدل على وجود عروش وممالك. كان هناك جهاز تسجيل لا بد انه اشتراه من حامد.. فمن غير المعقول ان يحمله كل هذه الطريق من اميركا على ظهر السفينة ميديا وخصوصا انه كان من ارخص الانواع. والى جواره كان شريط اديت بياف «لست آسفة على شيء».. لم يكن هناك دليل يذكر على الثراء الذي ينتظره..

ـ حسنا يا والدي؟

ـ أنت لم توضح لي بالمرة ماذا تريد مني؟

ـ أنا لا استطيع ان اطلعك على كل شيء حتى اعرف ما اذا كنت معي..

ـ وكيف اقول لك اني معك دون ان اعرف الامر الذي سأكون معك فيه؟

رمقني بنظرة طويلة جمع فيها بين وجهي، وورقة اللعب الملقاة باهمال فوق الطاولة.. الاس البستوني.. ثم قال:

ـ انها في النهاية مسألة ثقة.. أليس كذلك؟

ـ بالتأكيد.

ـ لو كنا في كتيبة واحدة اثناء الحرب يا والدي لتعلمت كيف تثق.

سألت عرضا.

ـ في أية فرقة كنت؟

أجاب بدون أدنى تردد·

ـ الفيلق الرابع.. اللواء السابع والسبعين.

راجعت ما قاله لي جونز عن تاريخه في بورما عندما عدت الى التريانون استنادا الى كتاب عن حرب بورما تركه احد زبائني وراءه ذات يوم ووجدت البيانات صحيحة. ولكن من يدري؟ الا يحتمل ان يكون لديه نفس الكتاب واستمد مادته منه؟ غير اني لم اكن عادلا معه. فقد ثبت انه كان بالفعل في ايمفال.

عاد يقول في الحاح·

أي أمل لك في هذا الفندق؟

ـ ضئيل جدا..

ـ لن تجد مشتريا اذا حاولت. وفي أي يوم الآن يمكن ان يصادر. سيقولـون انك لا تستخدمه جيدا ويستولون عليه..

ـ هذا جائز جدا.

ـ اذن ما هي المسألة بالضبط يا والدي؟ هل هناك امرأة في الموضوع؟

ويبدو ان عيني كشفتا عن خيبتي لانه أضاف:

ـ انت اكبر سنا من ان تضيع عمرك وفاء لامرأة.. فكر قليـلا فيما يمكن ان يدره عليك مبلغ ١٥٠ الف دولار (لاحظت ان نصيبي زاد فجـأة). سيكـــون في وسعك ان تذهب الى ابعد من الكاريبي. هل تعرف بورا بورا؟ لا يـوجـد هنـاك سوى ممر جوي واستراحة. ولكن برأس مال بسيط وعدد من الفتيات.. يا الله!! لم أر في حياتي اجمل من الفتيات هناك..لقد تم استيرادهن وهن ما زلن طفلات صغيرات منذ عشرين عاما من اميركا..اراهن ان ميري كـاتـرين لا تستطيـع ان تحصل على ما هو افضل..

ـ ماذا ستفعل انت بنصيبك؟

لم يكن قد خطر ببالي قط ان عيني جونـز العسليتين في لـون قطـع النقـود النحاسية لديهما القدرة على السباحة في الاحـلام.. ولكن.. هـا آنـذا اراهما الآن تلمعان بانفعال غريب.. قال:

ـ اسمعني يا والدي.. ان في ذهني بقعة واحدة من الارض ليست بعيـدة عن هنا. شاطىء مرجاني ورملة بيضاء.. بيضاء حقيقية حتى انك تستطيع ان تبني بها قلاعا. وخلفها مروج ممتدة ناعمة كالمخمـل منـاسبـة تمامـا لتكـون ملعب جولف. وسوف اقيم عليها ناديا.. اجنحة وسط الخمائل وحمامات خاصـة. ولا يؤمها الا زبائن من نوع خـاص.. هـل تعلم مـاذا سـأسميـه؟ سـأسميـه دار صاحب..

ـ اتقترح ان اكون شريكك هناك؟

ـ لا يجوز للمرء يا والدي ان يتخذ شريكا في حلمه فلا بد ان تثور نزاعات. انا عندي تصميم المشروع بـالكـامـل حتى ادق التفـاصيـل (لعلـه التصميمات الزرقاء التي رآها فيليبوت). ولقد قطعت شوطا طويلا بالفعل ولكن ها آنذا اراه اخيرا على مرمى البصر. بل اني اكاد ارى اين سيكـون مكـان الحفـرة الثـامنـة عشرة.

ـ هل تجيد لعبة الجولف؟

ـ انا لا العبها. ربما لم يتح لي وقتي ابدا ان العبها في يوم من الايـام. ولكن الفكرة تروق لي. سوف يكون لدي مديرة من الدرجة الاولى.. جميلة، ومن اصل عريق. لقد فكرت في البداية ان استخدم بعض المحترفـات ولكني كلما فكـرت في الامر ازددت يقينا ان هذا النوع من الفتيات لايصلحن لطبقة نوادي الجولف.

ـ هل فكرت في كل هذا وانت في ستانلي فيل؟

ـ اني افكر فيه من عشرين عاما يا والدي.. والآن ها قد حانت لحظة العمل.. هل لك في كأس اخرى؟

ـ كلا.. شكرا. يجب ان اذهب

ـ سيكون لدي بار طويل مصنوع من المـرجـان. ســأسميـه بـار جـزيـرة الصحراء. وسأوقف عليه بارمان متمرس سأستورده من ملهى الريتز، والمقاعد ستكون من خشب البلوط. طبعا سنجعلها مـريحة بـالـوسـائد... ثم ببغـاوات صغيرة على الستائر. وتليسكوب ضخم في الشرفة مركـز على الحفـرة الثـامنـة عشرة.

ـ سوف نتحدث في هذا فيما بعد.

ـ انا لم اتحدث ابدا الى أي احد عن مشروعي هذا.. اقصد أي احد يسعه ان يدرك ما بذهني. احيانا، كنت اتحدث الى خادمي في ستانلي فيل بما يجول في خاطري. ولكن المسكين لم يكن يفهم بالطبع شيئا مما اقول.

ـ شكراً على المارتيني.

ـ لقد سرني ان اعجبتك العلبة.

عندما نظرت خلفي وجدته يتناول قطعة القماش ويمسح عليها بنفس الرقة والعناية.. وجاءني صوته يقول.

ـ سنتحدث في هذا مرة اخرى قريبا.. فقط ارجو ان توافق من حيث المبدأ.

2

لم أشأ ان اعود الى التريانون طالما لم يعد به الآن أي نزلاء. ولم اكن قد تلقيت من مارتا اية كلمة طيلة اليوم. ولذلك فقد وجدتني منجذبا الى الكازينو باعتباره اقرب شيء الى داري. ولكنه كان قد تغير كثيرا منذ تلك الليلة التي قابلت فيها مارتا اول مرة. لم يكن هناك سياح. وقليل جدا من المقيمين في بورتو برنس كانوا يجرؤون على الخروج من منازلهم بعد حلول الظلام كانت هناك طاولة روليت واحدة تعمل، ولايجلس اليها سوى زبون واحد.. مهندس ايطالي كنت اعرفه اسمه لويجي، وكان يعمل في محطة الكهرباء. ولما لم يكن في وسع أي شركة خاصة ان تدير الكازينو لحسابها في تلك الظروف، فقد وضعت الحكومة يدها عليه. ولا يهم ان يخسر الكازينو كل ليلة. فبالخسارة بالعملة المحلية «الجوردي». وتستطيع الحكومة ان تطبع منها المزيد في أي وقت تشاء.

وكان مدير طاولة الروليت جالسا في مكانه مقطب الجبين.. ربما كان يتساءل من أين سيجد راتبه آخر الشهر. سألت لويجي.

ـ هل ربحت؟

ـ مائة وخمسون «جوردي» حتى الآن.. ولا يطاوعني قلبي ان اترك هذا المسكين يتحمل كل هذه الخسارة.

غير انه في الدورة التالية كسب ١٥ «جوردي» اخرى.

ـ هل تذكر هذا المكان في الايام الخوالي؟

ـ لم اكن هنا حينذاك.

من اجل الاقتصاد في الكهرباء كانت معظم المصابيح مطفأة ولذلك فقد لعبنا تحت ضوء شاحب.. ولعبت انا بدون اهتمام. وضعت فيشاتي على اقرب الارقام. وربحت. وشاهدت وجه مدير الطاولة يزداد عبوسا. قال لويجي:

ـ عندي فكرة.. ان اضع كل ارباحي على الاحمر، وبذلك امنحه فرصة استرداد خسارته.

قلت:

ـ ولكنك قد تربح؟

ـ هناك البار دائما. انهم يربحون جيدا جدا من بيع المشروبات.

ابتعنا زجاجتين من الويسكي، كان من الصعب ان نطلب روم، مع أن الويسكي قد يكون خطرا بعد المارتيني. بل اني بالفعل احس الآن ببعض... قطع افكاري المترنحة صوت يهتف من آخر البهو:

ـ اكل قبعتي ان لم يكن هذا هو مستر جونز بنفسه!

التفت لاجد صراف السفينة ميديا يتقدم نحوي باسطا يده في ترحاب شديد.

ـ اخطأت الاسم يا صاحبي. فأنا براون، ولست جونز.

قال بمرح، مشيرا الى طاولة الروليت، والمدير العابس.

ـ هل نسفت البنك؟

ـ لا اظنه يحتاج الى كثير من النسف.. لم اتصور انك يمكن ان تجرؤ على الغوص في عمق المدينة حتى هنا.

ـ انا لا اتبع النصائح.. حتى نصائحي لنفسي!

وغمز بعينه ثم أضاف:

ـ في البداية قمت بزيارة خاصة لميري كاترين. ولكن الفتاة التي اردتها كان لديها بعض متاعب عائلية.. ولن تعود قبل الغد:

ـ ألم تعجبك أي فتاة اخرى؟

ـ انا احب دائماً تناول الطعام من نفس الصحن. كيف حال مستر ومسز سميث؟

ـ رحلا اليوم بالطائرة.. مع خيبة الامل!

ـ أوه.. كان يجب ان يعودا معنا.. هل كانت هناك متاعب بخصوص تأشيرة الخروج؟

ـ حصلنا عليها بعد ٣ ساعات. ولم أر في حياتي مصلحة الجوازات والهجرة تعمل بشكل اسرع. واغلب الظن انهم كانوا يريدون التخلص منه بسرعة.

ـ هل حدثت مشاكل مع الشرطة؟

ـ اعتقد ان وزير الشؤون الاجتماعية وجد افكاره غير مريحة.

شربنا كأسين أو ثلاثة. ولمحت بطرف عيني صديقنا لـويجي يخسر بعض جورديات لترييح ضميره..

ـ كيف حال الكابتن؟

ـ انه يتعجل الرحيل. لا يستطيع ان يطيق هذا المكان. ولن يعتدل مزاجه الا بعد ان نكون في عرض البحر.

ـ والرجل ذو الخوذة المعدنية.. هل تركتموه في سانتو دومينجو؟

احسست بفيض غريب من المشاعر يغمرني وانا اتحدث عن رفـاق رحلتي.. ربما لان هذه كانت آخر مرة احس فيها بمعنى الامان.. آخر مرة ساورني فيهـا امل حقيقي.. وانا عائد الى مارتا موقنا ان كل شيء قد يتغير..

ـ تقول الخوذة المعدنية؟

ـ ألا تذكره؟ ذلك الفتى الذي القى مونولوجاً اثناء احتفالنا..

ـ آه.. ذلك المسكين! نعم! لقد تركناه خلفنا بالفعل... في المقبرة!! اصيب بنوبة قلبية قبل ان نرسو في سانتو دومنجو.

ترحمنا على ذكرى باكستر بفترة صمت دامت نحو دقيقتين، بينما كانت كرة الروليت تقفز من رقم الى رقم لتستقر عند لـويجي مـرة اخـرى، ولتضيف الى رصيده بضعة جورديات.. نهض وعلى وجهه لمحة من اليأس.. وعدت اسأل:

ـ وفرنانديز.. ذلك الرجل الأسود الذي كان يبكي..

ـ لقد اثبت انه لا يقدر بثمن! فقد تبين انه يعرف كل الطقوس. واخـذ الامـر برمته على عاتقه.. هل تعرف؟ لقد اكتشفنا انه حانوتي! والشيء الـوحيـد الـذي حيره كان ديانة مستر باكستر. واخيرا وضعه في مقبرة البروتستانت لانه وجـد

في جيبه مفكرة فيها تقويم العام المقبل وتنبؤات عن المستقبل.

ـ ترى ماذا كانت التنبؤات تعني بالنسبة لمستر باكستر؟

ـ لقد قرأتها. كانت عمومية الى حد ما. عاصفة ستهب وتسبب اضرارا جمة.. وأمراض شديدة في العائلة المالكة وارتفاع ملحوظ في اسهم شركات الصلب.

قلت:

ـ هيا بنا ننصرف. ان كازينو بلا رواد اشبه ما يكون بمقبرة خالية!

كان لويجي في هذه اللحظة يبدل فيشاته. ففعلت نفس الشيء. وكان الليل في الخارج مثقلاً كالعادة بنذر عاصفة. سألت الصراف.

ـ هل لديك تاكسي؟

ـ كلا.. لقد رفض الانتظار.

ـ انهم لا يحبون الانتظار ليلا.. حسن.. سوف اوصلك حتى السفينة.

كانت الانوار الكاشفة فوق الملعب تبرق وتنطفىء على لافتة هائلة تقول «انا علم هايتي، الموحد الذي لا يتجزأ. فرانسوا دوفالييه». (الفاء في فرانسوا سقطت فأصبحت رانسوا). مررنا بتمثال كولمبوس.. ووصلنا الى الميناء. والمركب ميديا.

كان ثمة ضوء يلقي ظلاله على رجل شرطة يقف عند سلم السفينة، وضوء آخر ظاهر من مقصورة القبطان. رفعت ناظري الى سطح السفينة حيث كنت في سالف الايام اجلس ارقب الركاب وهم رائحون غادون اثناء نزهاتهم الصباحية. وبدت ميديا (كانت السفينة الوحيدة بالميناء) صغيرة الحجم بشكل غريب. ولعل البحر المفتوح هو الذي كان يعطيها جلالها وعظمتها.. احسست بشظايا الفحم تتكسر تحت اقدامنا، وبطعم الكسرات بين اسناننا.

ـ تعال معي نتناول كأسا اخيرة.

ـ كلا. ولكن قل لي.. اذا احببت ان ابقى بالسفينة، ماذا ستصنع حينئذ؟

ـ سوف يطلب القبطان ان يرى تأشيرة الخروج اولا.

قلت مشيرا الى رجل الشرطة القابع اسفل سلم السفينة.

ـ وهذا الرجل هناك.. ألن يسأل عن التأشيرة اولا؟
ـ أوه.. انه صديق لي.

وأشار الصراف بيده الى الشرطي ثم رفعها الى فمه كمن يتناول كأسا وهـو يغمز بعينه ويلكزني بكوعه.. فابتسم الشرطي مومئا برأسه.

ـ ارأيت! انه صديقي كما قلت لك. ليس لديه أدنى اعتراض.

ـ سيان وافق أو لم يوافق. انا لن اصعد.. لقد خلطت بين انواع كثيرة الليلة.

غير اني تلكأت عند اسفل السلم. فسأل الصراف.

ـ وكيف حال مستر جونز؟ ماذا جرى له؟

ـ انه في خير حال.

ـ لقد احببت هذا الرجل. رغم كل غموضه، وضعف ثقتنا جميعـا فيـه.. الا انه يملك موهبة كسب محبة الآخرين.

ـ لقد بلغني انه من برج الميزان، فكشفت عنه.

ـ وماذا وجدت؟

ـ مزاج فني. طموح ناجح في المشاريع الادبية. اما فيما يتصـل بـالمستقبـل فلم اجد سوى مؤتمر صحافي للجنرال ديجول وعواصف كهربـائيـة في جنـوب

ويلز.

قال لي انه على وشك امتلاك ثروة لا تقل عن ربع مليون دولار.

ـ مشروع أدبي؟

ـ ابعد ما يكون عن ذلك.. لقد دعاني لمشاركته.

ـ اذن فسوف تصبح غنيا انت ايضا.

ـ كلا.. فأنا رفضت. انا شخصيا كثيرا ما كانت لي احلامي الخاصة لصنع ثروة. وربما حدثتك ذات يوم عن أوّل مشروع اقمته على الاطلاق. ولكن كان لا بد لي من ان انفض يدي منه بسرعة. وهكذا، جئت الى هنا، ووجدت فندقي.. فهل تعتقد اني يمكن ان اتخلى عن ذلك الامان؟

ـ انت ترى الفندق.. امانا؟

ـ إنه اقرب ما استطعت ان اصل اليه.

ـ عندما يصبح مستر جونز ثريا سوف تندم..

ـ ربما ساعتها يعطيني قرضا يعينني على الحياة حتى يعود السياح.

ـ اجل.. انا اعتقد انه رجل كريم، بطريقته الخاصة. لقد اعطانا بقشيشا سخيا جدا. ولكن للاسف بالعملية الكونغولية وقد رفض البنك تغييرها.. اسمع، سوف نبقى هنا حتى مساء الغد على الاقل.. فهات مستر جونز لزيارتنا..

بدأ البرق يداعب سفوح بيشونفيل. وبين الحين والحين يبرق نصل حاد كاف لان يخرج من الظلمات نخلة نائية أو ركن سقف بعيد.. والهواء مثقل برائحة المطر المقبل.. وفي هذا الجو قال كل منا للآخر.. اسعدت مساء.

الجزء الثالث

.

وجدت من الصعب ان انام، ومضات البرق تأتي وتذهب مثل الضوء الكشاف المسلط على اعلان بابا دوك في الحديقة. واخيرا بعد ان توقف المطر بدأ بعض الهواء يتسلل من خلال شبكات الناموس. ولقد فكرت فعلا في عرض جونز.. فلو امكن فعلا الحصول على نصيب من الثروة.. فهل ستقبل مارتا التخلي عن زوجها؟ ولكني اعلم جيدا ان ما يمتعها ليس زوجها. وليس المال. وانما هو انجيل. وكثيرا ما تخيلت نفسي وأنا احاول اقناع مارتا بأن انجيل سيكون سعيدا جدا بهداياي السخية من الاحاجي وبسكوت البربون.

وعندما غلبني النوم حلمت بنفسي وانا صبي راكع على قدمي في كنيسة الكلية بمونت كارلو. وجاء القسيس يمر بالصفوف ويضع في فم صبي قطعة بسكويت مرة اخرى، وللمرة الثانية تجاهلني وانصرف خارجا الى ما يشبه جزيرة، اصطفت فيه صفوف من الببغاوات المقيدة بالسلاسل. وسمعت صوتا يهتف «براون.. براون» ولكن لم اكن واثقا هل هذا كان اسمي أم لا.. ولذلك لم التفت لمصدر الصوت.

وعاد الصوت يهتف. ولكني في هذه المرة استيقظت وايقنت ان الهتاف قادم من ناحية الشرفة تحت غرفتي، وكان يصل الى مسمعي ضعيفا بسبب سقوط بقايا المطر.

نهضت من فراشي وتوجهت نحو النافذة ولكني لم استطع ان ارى شيئا من خلال شبكات الناموس. التقطت من فوق مكتبي السلاح الوحيد الذي وجدته، وكان هو النعش النحاسي المنقوش بالحروف آر.اي.بي، ثم فتحت الباب الجانبي واومضت بطاريتي لاظهر اني موجود. سقط الضوء على الممر المؤدي الى حوض السباحة، فاذا بي أرى جونز يتقدم في دائرة الضوء.

كان مبتلا بالمطر، ووجهه متسخ، ويحمل تحت معطفه لفافة كأنما يريد ان يحميها من المطر. قال:
ـ أطفأ النور وادخلني بسرعة.

تبعني الى المكتب، وهناك اخرج اللفافة من تحت معطفه. كانت علبة المشروبات الفاخرة. وضعها بعناية على مكتبي كأنها جرو أليف.. وربت عليها بلطف قبل ان يقول:

ـ كل شيء انتهى.. مانشيت على ثلاثة اعمدة!

مددت يدي لاضيء النور. هتف:

ـ لا تفعل ذلك. فقد يرون النور من الطريق.

قلت وانا اضغط على المفتاح.

ـ لن يروا شيئا.

ـ يا والدي.. ارجوك.. لو سمحت.. انا سأحس بالامان اكثر في الظلام..

قال ذلك ومد يده ليطفىء النور.

ـ ما هذا الذي بيدك يا والدي؟

ـ كما ترى.. نعش

كان يلهث بشدة، وشممت في فمه رائحة الجن. قال

ـ يجب ان اخرج من هنا بأسرع ما يمكن.

ـ ما الذي حدث؟

ـ لقد بدأوا يتحرون عني. في منتصف الليل جاءتني مكالمة من كـونكـاسير، لم اكن اعلم ان هـاتفي يعمـل. ازعجني رنينـه جـدا وهـو يصرخ في أذني.. لم يسبق ان رن ابدا من قبل..

ـ اعتقد انهم اصلحوه عندما كانوا يضعون الا ... انت تقيم في استراحـة حكومية لكبار الزوار.. أليس كذلك؟

ـ كنا في ايمفال نسميهم كبار الخنازير!

قال ذلك وهو يطلق شبه ضحكة..

ـ يمكنني ان املأ كأسا اذا سمحت لي باضاءة النور.

ـ لا وقت لذلك يا والدي.. انا يجب ان ارحل فورا. لقد تحدث كونكاسير مع ميامي، عندما طلبوا منه ان يتحرى. لم يشك في البداية وان كان قد اخذ. ولكنـه في الصباح، عندما اكتشفوا اني تسللت...

ـ تسللت الى أين؟

ـ اجل هذا هو السؤال!! هذا هو موضوع الاربعة وستين الف دولار...

ـ السفينة ميديا في الميناء..

ـ عظيم.. هذا هو المكان المطلوب.

ـ اعطني فرصة لارتدي ملابسي.

تبعني مثل الكلب، تاركاً بقعا مبللة في موقع خطواته. ووجدتني افتقد عـون مسز سميث ونصيحتها لان رأيهـا كـان عظيما في جـونـز. وفيما كنت ارتـدي ملابسي في النور الضئيل الذي سمح به اخذ هو يتنقـل بعصبيـة من جـدار الى جدار بعيدا عن النافذة. قلت:

ـ لا اعرف ماذا كانت لعبتك ولكن من المؤكد طالما الموضوع يتصـل بـربـع مليون دولار انهم كانوا سيتحرون آجلا أو عاجلا.

ـ أوه.. لقد فكرت في ذلك. وكان المفروض ان اذهب الى ميامي مـع الشخص الذي سيتحرى.

ـ ولكنهم ابقوك هنا؟

ـ ما كانوا ليفعلوا ذلك لو كان لي شريك هنا والحقيقة انني لم اكن ادرك ان الوقت يمر بسرعة، وكان في ظني انني سيكون أمامي اسبوع او اكثر على الاقل
ـ أو لعلني كان يجب ان اقنعك قبل ذلك بوقت كاف.

توقفت يدي ممسكة بأحد ساقي البنطلون وأنا أسأله مدهوشا:

ـ هل تقولها بهذه البسـاطـة.. انني كـان المفـروض ان اكـون كبش الفـداء المغفل؟

ـ كلا.. كلا يا والدي.. انت تبالـغ. تـأكـد انني كنت سـأحـذرك في الـوقت المناسب حتى تلجأ للسفارة البريطانية اذا دعا الامر. ولكن هذا لم يكن ليحـدث. فالمسؤول عن التحريات كان سيقول ان كل شيء على ما يرام، ويـأخـذ نصيبـه بالطبع، ثم تلحق انت بنا فيما بعد.

ـ كم كان النصيب الذي قدرته له؟ طبعا.. هذا مجرد سؤال اكاديمي الآن.

ـ كل شيء كان محسوبا.. صدقني.. ولكن نصيبك يا والدي كنت ستحصـل

عليه صافيا.. بالكامل.. دون اية خصومات..

ـ هذا اذا نفذت بجلدي!

ـ المرء دائما ينفذ بجلده يا والدي!

كان واضحا انه كلما نضب معينه، اصبح اكثر ثقة. قلت مستطردا:

ـ لو ان مشروعك كان له اية علاقة بالسلاح، فانك اذن تكون قد ارتكبت غلطة كبرى.. فقد سبق ان لدغوا من نفس الجحر .

ـ ماذا تعني بقولك لدغوا من نفس الجحر؟

ـ كان هنا رجل في العام الماضي دبر صفقة اسلحة قيمتها نصف مليون دولار يتم دفعها بالكامل في ميامي. ولكن السلطات الاميركية عرفت بالسر، فأمسكوا بالاسلحة، اما الدولارات فقد بقيت في جيب الوسيط. ولم يعرف احد ابدا مقدار الاسلحة التي تم ضبطها.. وبالطبع لم يكن سهلا ان يقعوا في نفس الخدعة مرتين.. كان يجب ان ندرس الامر جيدا قبل ان تأتي..

ـ لم تكن خطتي هكذا بالضبط. في الحقيقة، لم يكن هناك اسلحة بالمرة، فلا اظن انني يبدو على هيئتي ما يدل على اني املك رأسمالا لامر كهذا. ألا ترى ذلك؟

ـ من آين جئت بخطاب التقديم؟

ـ من أي طباع على آلة كاتبة في الطريق. مثل كل خطابات التقديم. ولكنك على صواب في مسألة الدراسة. لقد وضعت اسم الرجل الخطأ على الخطاب.. وكان هذا اول الاخطاء..

ـ أنا جاهز للذهاب..

قلت هذا وانا اتطلع اليه.. كان منزويا في الركن يتململ في عصبية بعينيه

الداكنتين وشــاربــه المقتــول ولكن ليس بنفس طـريقـة بعض ضبـاط الجيش، ووجهه مغبر.. اضفت.

ـ لا أدري لماذا اخاطر هذه المخاطرة من اجلك.. لعلني اقوم بدور المغفل مرة اخرى.

اخرجت السيارة الى الطريق وانوارها مطفأة. وسرنا ببطء في اتجاه المـدينـة، وجونز مطأطىء بوجهه للارض وهو يطلق صفيرا خافتا ليحافظ على شجاعته. اعتقد ان اللحن الذي كان يصفره يـرجــع الى ١٩٤٠. كانت اغنية اسمها «يـوم الاربعاء بعد انتهاء الحرب». وقبل ان نصل الى حـاجـز الطـريق اضـأت انـوار السيارة. كان هناك امل ما في ان يكـون رجـل الميليشيـا نـائما. ولكنـه لم يكن. سألته:

ـ هل مررت من هنا الليلة؟

ـ كلا.. لقد قمت بدورة كاملة عبر حدائق المنازل..

ـ حسن.. لن نستطيع تجنبه على أية حال.

ولكن الرجل كان اقرب الى النعاس من ان يسبب اية مشــاكـل. اقبـل وهـو يترنح ورفع الحاجز. كان ابهام قدمه مـربـوطـا بضمادة متسخـة. وجـزء من مؤخرته ظاهــر من ثقب واســع في بنطلـونــه. ولم يكلف نفســه مشقـة تفتيش السيارة. فانطلقنا ومررنا بمقر مارتا، ثم بـالسفـارة البريطـانيـة. وتعمـدت ان ابطىء السير امامها. كان كل شيء هادئا. ومن المؤكد ان الطونطون ماكوت كانوا سيضعون حراسا على ابواب السفارة لو كان لديهم علم بقرار جونز. قلت:

ـ ما قولك في الدخول هنا؟ ستكون في مأمن.
ـ أفضل ألا أفعل يا والــدي.. لقـد سببت لهم بعض مشــاكـل من قبـل، ولا أظنهم سيرحبون بي..

ـ ولكن ترحيب بـابـا دوك بك سيكـون أسـوأ بـلا شك.. هـذه هي أحسن فرصة..

ـ هناك أسباب يا والدي.

وتوقف لحظة خيل إلي أثناءها انه على وشك ان يفضي إلي بأسراره ولكنه قال فجأة:

ـ رباه! لقد نسيت علبة الكوكتيل.. تركتها في مكتبك..

هل هي مهمة الى هذا الحد؟

ـ اني احبها يا.والدي.. لقد صحبتني في كل مكان.. وفيها كل حظي.

ـ سآتيك بها غدا اذا كانت مهمة عندك الى هذه الدرجة.. إذن هـل تـريـد ان تجرب «الميديا»؟

ـ لو حدثت منغصات يمكن ان نأتي هنا كآخر ملجأ.

غير لحنه الذي يصفره.. اظنه أصبح «العندليب غنى..» ولكنه فجـأة تـوقف ليقول:

ـ صعب ان اتصور بعد كل ما خاضته معي انني يمكن ان اتخلى عنها.

ـ هل هي الرهان الوحيد الذي كسبته؟

ـ رهان؟ أي رهان؟

ـ أنت قلت لي انك كسبتها في رهان.

ـ هل قلت ذلك حقا؟

ثم سرح لحظة وأضاف:

ـ اسمع يا والدي... انت تخاطر من اجلي، ولذلك سأكون صادقا معك. هذه قصة اختلقتها.. في الحقيقة أنا سرقتها.

ـ وبورما؟ هل كانت هذه قصة مختلقة ايضا؟

ـ كلا كلا.. انا كنت في بورما فعلا.. أقسم على ذلك..

ـ هل سرقتها من أسيري؟

ـ ليس بيدي بالتأكيد.

ـ بالفهلوة؟

ـ كنت أعمل في ذلك الحين بشركة ما في المدينة. فاستخدمت احد شيكات الشركة ووقعت عليه باسمي. لم يكن في نيتي ان أزور. وانما كان في الواقع مجرد قرض قصير الاجل، كان حبا من اول نظرة عندما رأيت هذه العلبة وتذكرت علبة البريجادير.

ـ إذن فلم تكن معك في بورما؟

ـ لعلني استعنت ببعض الخيال في هذه النقطة. ولكنها كانت معي في الكونغو

★ ★ ★

تركت السيارة عند تمثال كولمبوس. فرجال الشرطة لا بد قد اعتادوا مشاهدة سيارتي هناك في معظم الليالي.. وان لم تكن وحدها. وسبقت جونز من اجل الاستطلاع كان امرأ اسهل مما تصورت. فلسبب ما لم يكن رجل الشرطة موجودا عند سلم الباخرة الدي بقي منزلا في انتظار المتأخرين بسبب السهر عند ميري كاترين. ولعله ذهب يتمشى او يقضي حاجة. وكان على السطح واحد من طاقم الباخرة للحراسة. ولكنه عندما وجدنا رجلين تركنا ندخل.

ارتقينا درج السلم الى السطح، وارتفعت معنويات جونـز. لم يكن قـد نطق بحرف منذ أدلى باعترافه. وحينما مررنا بالصالون قال: هل تذكر ليلـة الحفـل الموسيقي؟ يا لها من ليلة. هل تذكر باكستر؟ وصفارته؟ و«سانت بـول ستظـل صامدة؟ لندن ستظل صامدة؟ كان طيبـا جـدا ذلك الفتى.. أطيب من ان يكـون موجودا بالفعل».

ـ لم يعد موجودا بالفعل.. فقد مات.

ـ يا للمسكين! هذا يجعله اكثر احتراما أليس كذلك؟

صعدنا السلم الى مقصورة القبطان. ولم اكن متحمسا للقائه. فلا زلت اذكر موقفه بالنسبة لجونز بعد ان تلقى برقية التحري من فيلادلفيا. وكان كـل شيء قد تم بسهـولـة حتى ذلك الحين، ولكن أملي كـان ضئيـلا في ان الحظ الحسن سوف يستمر. طرقت الباب. ولم تمض لحظة حتى كان صوت القبطان الاجش الآمر يأذن بالدخول.

كان واضحا على الاقل اني لم اوقظه من النوم. فالرجل يرتدي قميص نـوم أبيض من القطن وفوق عينيه نظارة قراءة ثقيلة جدا جعلت عينيه تبدوان كأنهما قرصان من الكوارتـز. وفي يـده كتـاب مفتـوح تحت مصبـاح القـراءة، ولمحت العنوان. كان احدى قصص سيمونز. وجعلني هذا اتشجع، فالقبطان في نهـايـة الامر لديه اهتمامات انسانية. هتف من المفاجأة كأنه سيدة عجوز اقتحم عليهـا احدهم غرفة النوم. وكما تفعل أي سيدة عجوز رفع يده في حركة تلقائية يغطي بها فتحة القميص الواسعة..

ـ مستر براون؟

أضاف جونز بمرح وهو يخطو متقدما أمامي.

ـ والماجور جونز أيضا.

غمغم القبطان وفي صوته لمحة عدم ارتياح.

ـ أوه.. ماجور جونز!

سأل جونز مواصلا مرحه الصاخب غير المقنع.

ـ آمل ان يكون لديك مكان لراكب جديد . ولم ينفد بعد ما لديك من مشروبات هولندية كما ارجو؟

ـ ليس بالنسبة لأي راكب. ولكن هل انت راكب؟ وفي هذه الساعة من الليل؟ لا أظن ان معك تذكرة سفر.

ـ معي ما يكفي لشراء واحدة..

ـ وهل معك تأشيرة خروج؟

ـ هذه مجرد رسميات بالنسبة لراكب اجنبي مثلي.

ـ نعم هي مجرد رسميات الا مع طبقات المجرمين.. اعتقد انك في مشكلة يا مستر جونز.

ـ هذا صحيح.. تستطيع ان تقول اني لاجىء سياسي.

ـ إذن لماذا لا تلجأ الى السفارة البريطانية!

ـ فكرت انني قد اكون اكثر ارتياحا على ظهر ميديا العزيزة.

كان لعبارة «ميديا العزيزة» رنين موسيقي.. ويبدو انه طرب له فردده.

ـ أجل.. ميديا العزيزة.

ـ أنت لم تكن ابدا ضيفا مرغوبا فيه يا مستر جونز. لقد تلقيت تساؤلات واستفسارات عديدة بشأنك.

تطلع جونز نحوي. ولكنني لم يكن بوسعي ان امد له يـد المسـاعـدة هنـا. ومع ذلك قلت.

ـ سيدي القبطان.. انت تعلم كيف يعاملون المساجين هنا.. واعتقد انك يمكن ان تجعل القواعد اكثر مرونة..

نظر الينا من علياء سريره كما لـو كـان يطـل من فـوق منصـة، بقميصـه الموشى حول عنقه وحول الاساور ـ ربما بيد زوجته الوفية، فبدا كأنـه محاط بجو محكمة.. قال

ـ اسمع يا مستر براون. انا لي مستقبلي كبحار. وانا اعود الى هنا مـرة كـل شهر على الاقل. هل تعتقد ان الشركة التي اعمل بها يمكن ان تعهـد الي بقيـادة سفينة مرة اخرى على خط آخر بعد الاقدام على حماقة مثل التي تقترحها؟

قال جونز بلطف فاجأني:

ـ أنا آسف. لم افكر ابدا في الامر على هذا النحو..

ويبدو ان المفاجأة لم تكن اقل عند القبطان لانه قال بلهجة من يعتذر:

ـ أنا لا اعرف ما اذا كان لديك عائلة يا مستر جونز.. لكنني لدي عـائلـة في رقبتي.

أجاب جونز معترفا

ـ كلا.. ليس لدي عائلة. لا يوجد لدي عائلة من أي نوع. اللهم الا اذا عثرت على بقية ذيل بعيد هنا أو هناك. اجل يا سيدي القبطان. انت على حق. انا انسان منتهى وأولى بي ان اجد وسيلة اخرى .

وأطرق براسه لحظة كأنما يفكر بينما نحن نتطلع اليه. وفجأة قال مقترحا:

ـ يمكنني ان اسافر متخفيا اذا اغمضت عينك عني..

ـ في هذه الحالة سيتعين عليّ ان اسلمك الى الشرطة في فيلادلفيا. فهل يناسك ذلك يا مستر جونز؟ اني لدي ما يجعلني اعتقد انهم في فيلادلفيا قد يرغبون في سماع اجابتك على بعض الاسئلة.

ـ ليست مسألة خطيرة على اية حال.. مبلغ صغير من المال هـذا كـل مـا في الامر.

ـ على مسؤوليتك؟

ـ بعد التفكير مرة اخرى أرى ان هذا ايضا قد لا يكون مناسبا لي.

اعجبني جدا هدوء جونز. وكأنه هو نفسه القاضي في غرفة المداولة مع اثنين من الخبراء يتداولون الرأي في قضية معقدة.. قال، ملخصا الوضع كله:
ـ ان مجال الاختيار يبدو محدودا للغاية.

قال القبطان بنبرة باردة وكأنه يعرف الاجابـة الصحيحـة، ويتـوقـع عـدم الموافقة.

ـ اذن اسمحوا لي ان اعود لاقتراح السفارة البريطانية.

ـ ربما كنت على صواب. في الواقع، عندما كنت في ليوبـولـدفيـل لم اكن على وفاق مع القنصل هناك. وكلهم في رأيي من نفس الفصيلـة.. وأخشى ان يكـون لديهم تقرير عني هنا ايضا. مشكلة! أليس كذلك؟ ولكن هل صحيح انك ستكون ملزما بتسليمي للشرطة في فيلادلفيا؟

ـ أنا ملزم بذلك.

ـ إذن فهي بالطول مثلما هي بالعرض.. أليس كذلك؟

ثم التفت الّي فجأة.

ـ ما رأيك في سفارة اخرى لا يوجد فيها تقرير عني؟

قلت:

ـ هذه اشياء تحكمها القواعد الدبلوماسية. ولا تستطيع أي سفارة ان تـزعم لنفسها حق منح اللجوء السياسي لشخص اجنبي.

تصاعد وقع اقدام يقترب. وثمة طرقة يد على الباب. امسك جونز أنفـاسـه. واضح انه ليس في حقيقته هادئا تماما كما يحاول ان يتظاهر.

ـ ادخل..

دخل الضابط الثاني. تطلع الينا في غير دهشة كما لو كـان يتـوقـع وجـود ضيوف أغراب.

وتحدث الى القبطان بالهولندية. وسأله القبطـان سؤالا، فـأجـابـه وعينـاه تشيران الى جونز.

التفت القبطان نحونا وهو يضع كتابه جانبا كأنما يئس من امكانية الرجوع اليه. قال:

ـ هناك ضابط شرطة عند مدخل السفينة ومعه ثـلاثـة رجـال.. يـريـدون الصعود الى ظهر السفينة.

اطلق جونز تنهدة تعيسة.. ولعله الآن يرى بخياله «دار صاحب» و«الحفرة الثامنة عشرة» و«بار جزيرة الصحراء».. كل ذلك يتبخر الآن في الهواء الى الابد.

اعطى القبطان لضابطه آمرا بالهولندية فغادر هذا المقصـورة على الفـور، ثم نزل بتثاقل من فوق «منصتـه» وهـو يقـول «يجب ان ارتـدي مـلابسي». هتف جونز:

ـ هل ستدعهم يصعدون الى ظهر السفينـة؟ أين كبرياؤك يـا رجـل؟ هـذه السفينة أرض هولندية.. أليس كذلك؟

ـ ارجوك يا مستر جونز. اذا سمحت ادخل دورة المياه. فسوف يكـون هـذا احسن لنا جميعا.

فتحت بابا في مؤخرة المقصورة ودفعت جونز من خلاله، فدخل وهو يتمنـع قائلا:

ـ ولكني سأكون كفأر في مصيدة هنا.. ثم عاد فأصلح التشبيه قائلا: اقصد مثل ارنب في مصيدة. واطلق في وجهي ابتسامة مرعوبة، وأنا اجلسه قسرا مثـل أي طفل على الحوض

وفي هذه اللحظة كان القبطان يشد بنطلونه، ويدخل فيه قميصه، ثم تنـاول سترة رسمية من فوق المشجب، وارتداها، فاختفى تحتها قميص النـوم.. وهنـا جاء الطرق على الباب.

عرفت ضابط الشرطة لحظة دخوله. كان وغدا بمعنى الكلمة، وبالغ السـوء مثل أي طونطون ماكـوت، ضخم الجثـة في حجم الـدكتـور مـاجيـوت ويـداه ضخمتان بشكل غير عادي. وثمة اسنان كثيرة محطمة في أفواه سكان بـورتـو برنس تشهد على قوة لكماته. وفمه مزدحم بصفين من الاسنان الذهبية.. ولامر ما خطر لي انها ليست اسنانه، وانما هي اسنان آخرين، يحملها معه على سبيـل التذكار مثلما يحمل الهنود الحمر فروات رؤوس ضحاياهم. وراح يتطلـع الينـا بغطرسة بادية بينما مساعده يحوم حوله مثل كلب مستفز.

استقرت عينه على وجهي لحظة قبل ان يقول بصيغة هي مزيج من الاتهام، والاهانة.

ـ أنا أعرفك.

كان القبطان، بحجمه الصغير وقدميه العاريتين يبدو في وضع لا يحسد عليه ومع ذلك اجاب باعتداد:

ـ وأنا لا أعرفك.

قال رجل الشرطة موجها حديثه إليّ:

ـ ماذا تفعل على ظهر المركب في ساعة كهذه؟

قال القبطان لضابطه الثاني بالفرنسية حتى يكون ما يقصده مفهوما من الجميع.

ـ أذكر اني قلت لك انه يجب ان يترك مسدسه خلفه؟

ـ لقد رفض يا سيدي، وازاحني جانبا..

ـ رفض؟ ازاحك؟

انتفض القبطان، شد نفسه على كعبيه حتى طال كتف الضابط. وقال في كلمات باترة كطلقات الرصاص.

ـ لقد سمحت لك بالصعود الى ظهر سفينتي ولكن بشروطي، انا الرجل الوحيد هنا المسموح له بحمل سلاح.. انت الآن لست على أرض هايتي.

أربكت اللهجة القوية التي تحدث بها القبطان رجل الشرطة وبدا عليه الاحساس بعدم الامان.. ادار عينيه في المقصورة وهو يردد في ذهول:
ـ لست في هايتي؟

ويبدو انه لم ير في المقصورة الا كل ما يجعله يتأكد من انه ليس في هايتي.. الشهادة ذات الاطار المذهب «بميدالية الشرف» لانقاذ حياة بعض الناس في البحر، وزجاجة حجرية فيها شيء غامض اسمه «بولز». وصورة سيدة بيضاء

تتخلل الخطوط الرمادية شعرها المقصوص بعناية، وصورة لبعض قنوات امستردام المغطاة بجليد الشتاء، وعاد يردد غير مصدق.. أو ربما وهو يكاد يصدق:

ـ لست في هايتي؟ لست في هايتي؟

قال القبطان، وهو يطلق ضحكة استاذ يعلم الصغار. ويبسط يده ببساطة:

ـ انت الآن في هولندا.. ناولني هذا المسدس.

اجاب الشرطي بصوت تعيس:

ـ أنا عندي أوامري.. انا فقط اؤدي واجبي.

ـ سوف يعيده اليك ضابطي عندما تخرج من السفينة.

ـ اني أبحث عن مجرم..

ـ ليس في سفينتي.

ـ لقد وصل الى هنا.. الى سفينتك..

ـ لست مسؤولا عن ذلك.. والآن.. هات هذا المسدس.

ـ أنا يجب ان افتش المكان.

ـ تستطيع ان تبحث كيفما تشاء على الشاطىء، ولكن ليس هنا. انا هنا المسؤول عن النظام والقانون. فاذا لم تسلمني مسدسك فسوف ادعو بحارتي الى نزع سلاحك بالقوة وبعدها سيلقونك في الميناء.

لم يجد الرجل مفرا من الهزيمة ولعل عينيه اصطدمتا بنظرة زوجة القبطان الصارمة المطلة من صورتها، ففك أزرار الجراب وسلم مسدسه. وضعه القبطان

تحت حمايته وقال:

ـ والآن.. انا مستعد للاجابة على أي سؤال معقول. ما الذي تريد ان تعرفه؟

ـ نريد ان نعرف ما اذا كان لديك مجرم هنا على ظهر السفينة. انت تعرفه. اسمه جونز.

ـ هاك قائمة بأسماء الركاب. تستطيع ان تطلع عليها.

ـ لن يكون اسمه فيها.

ـ اسمع.. انا اعمل قبطانا على هذا الخط منذ عشر سنوات. وانا دائما التزم بالقانون. ولا يمكن ان احمل راكبا اسمه ليس في القائمة. أو راكبا بدون تأشيرة خروج. هل لديه تأشيرة خروج؟

ـ كلا.

ـ إذن فاني استطيع ان اؤكد لك يا حضرة الملازم انه لن يكون ابدا بين ركاب هذه السفينة.

وضح ان صيغة التخاطب الاخيرة اراحت ضابط الطونطون ماكوت نوعا ما، فقال:

ـ قد يكون مختبئا في مكان ما بدون معرفتك.

ـ غدا، قبل الابحار سيتم تفتيش السفينة بكل دقة، فاذا وجدناه سوف انزله الى الشاطىء فورا.

تردد الضابط لحظة ثم قال.

ـ اذا لم يكن هنا، فلا بد انه توجه للسفارة البريطانية.

ـ قد يكون هذا مكانا طبيعيا بالنسبة له اكثـر من شركـة البـواخـر الملكيـة الهولندية.

مد القبطان يده بالمسدس الى ضابطه الثاني قائلا:

ـ سلمه مسدسه عند عتبة باب سلم السفينة.

وأدار القبطان ظهره تاركا يد ضابط الطونطون ماكوت الممـدودة تـائهـة في الفراغ كأنها سمكة سوداء في حوض اسماك الزينة.

ساد بيننا الصمت ونحن ننتظر حتى عاد الضابط الثاني وابلغ القبطـان ان ضابط الطونطون قد رحل مع رجاله. وعندئذ اخرجت جـونـز من الحمام. أراد ان يعبر عن امتنانه فقال:

ـ كنت عظيما جدا يا قبطان!

رمقه القبطان بنظرة خالية من الود، بل حافلة بالازدراء. قال:

ـ أنا لم أقل الا ما هو صدق. فأنا فعلا لو اكتشفت انك تسللت الى السفينـة كنت سأنزلك فورا الي الشاطيء. وأنا سعيد لاني لم اضطـر للكـذب، والا لكـان من الصعب جـدا ان أسـامـح نفسي بسببك. والآن.. ارجـو ان تغـادر سفينتي بمجرد ابتعادهم.

خلع القبطان سترتـه الـرسميـة، ثم اخـرج قميصـه خـارج سرواله حتى يستطيع خلعه وهو أكثر اطمئنانا لحيائه، ثم انصرف.

في خارج المقصورة اتكأت على الدرابزين لارى الحارس وقد عاد الى مكـانـه تحت سلم الباخرة. ولم أر اثرا للملازم الطونطون ماكوت ورجاله. قلت لجونز:

ـ الوقت متأخر جدا بالنسبة للسفارة البريطانية، لا بد ان تكـون الآن تحت حراسة مشددة.

ـ ماذا سنفعل إذن؟

ـ يعلم الله! ولكن علينا ان نغادر السفينة، فلو مكثنا هنا حتى الصباح فـان القبطان سوف يكون عند كلمته.

كان الذي انقذ الموقف هو صديقنا الصراف الذي استيقظ جـذلا من نـومـه العميق (كان نائما على ظهره ووجهه مغطى بابتسامة شهوانية). قال:

ـ لا صعوبة بالمرة في مغادرة مستر براون. فالشرطي الحـارس يعـرفـه من قبل.

اما بالنسبة لمستر جونز فلا يوجـد سـوى حـل واحـد. ان يخرج في لبـاس امرأة.

ـ ولكن... الملابس؟

ـ لدينا هنا صندوق تمثيل نحتفظ به لحفـلات السفينـة. وفيـه ثـوب أنيق لسيدة اسبانية. وزي فلاحي لفتاة من فولندام.

قال جونز بلهجة تدعو للاشفاق:

ـ ولكن.. شاربي؟

ـ يجب أن تزيله.

لم يكن الثوب الاسباني المعد لراقصة الفلامنكو، ولا شال الفلاحة الهولندية وافيا بالغرض، فبذلنا جهدنا لعمل مزيـج من الاثنين بينما راح جـونـز يـزيـل شاربه بمزيد من الاسى والالم، خصوصا ولم يكن هناك ماء سـاخن. الغـريب أن وجهه بدا اكثر جاذبية بدون شارب، وكأنه به كان اقرب الى انسان يرتـدي شيئا لا يلائمه. والاغرب انه ما كاد يقـدم على تلك التضحيـة الكبرى حتى بـدا

اقرب الى المرح، وراح يتساءل بخفة، وثقة زائدة.

ـ ألا يوجد لديكم اصبع روج ولا مسحوق احمر؟

ولكن الصراف لم يكن لديه هذا ولا ذاك. فلجأ جونز الى طلاء وجهه بمعجون الحلاقة مما أضفى عليه بالاضافة الى التنورة الهولندية السوداء وبلوزة الراقصة الاسبانية لونا شاحبا فظيعا... وقال جونز:

ـ يجب ان تقبلني عند مدخل السلم حتى لا يرى الحارس وجهي.

ـ ولماذا لا يقبلك مستر براون؟

ـ انه سيصحبني. ولن يكون من الطبيعي ان يقبلني هو... وعليك ان تتخيل اننا قضينا أمسية ممتعة معا نحن الثلاثة.

ـ أي نوع من الامسيات؟

قال جونز:

ـ أمسية خليعة الى ابعد حد!

ـ سألت.

ـ هل تستطيع مواءمة نفسك مع التنورة؟

اجاب بغموض:

ـ طبعا يا والدي! هذه ليست أول مرة! مع اختلاف الظروف طبعا..

★ ★ ★

نزل السلم مستندا الى ذراعي. كانت التنورة طويلة جدا لدرجة انه اضطر الى لمها بيده مثل أي سيدة فاضلة من العصر الفكتوري تحاول شق طريقها في

شارع موحل. حدق حارس السفينة فينا فاغرا فـاه من الـذهـول. فهـو لم يكن يعرف ان ثمة سيدة كانت في السفينة... وسيدة كهذه بالذات. وبينما كان جونز يمر به اهدى اليه نظرة فاتنة من تحت اهدابـه. وقـد لاحظت كم بـدت نظـرتـه جميلة بل ساحرة من تحت شال الفلاحة الهولندية.. وواضـح ان شاربه الفظيع كان يخفيها.. بل يخنقها خنقا.

وعند آخر خطوة في سلم الباخرة احتضن الصراف وقبله قبلة تركت آثارهـا الجيرية فوق خده، والحارس يرقب ما يجري بفضول الفاهم. واضح ان جونـز لم يكن أول فتاة ليل تترك الباخرة في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل.

★★★

سرنا متأبطين بخطوات بطيئة حتى السيارة. قلت على سبيل التحذير:

ـ أنت ترفع التنورة أكثر من اللازم..

ـ لم اكن ابدا امرأة مؤدبة يا والدي..

ـ ما أعنيه انهم قد يرون حذاءك.

ـ ليس في هذا الظلام.

لم اكن اتصور ان يكون هروبنا بهذه السـهولة. فلم نسمع أي وقع اقدام في أثرنا.

كانت السيارة مطفأة الانوار في مكانها. وكـولـومبـوس يطـل عليهـا بنفس نظرته القديمة. جلست في مقعد القيادة منتظرا حتى سوى جونز تنورته وعندما اغلق بابه قال:

ـ لقد قمت بدور بـواديكـا على المسرح ذات مـرة بتنـورة كهـذه. وكـان بين المشـاهدين بعض افراد الاسرة المالكة..

ـ الأسرة المالكة؟

ـ أجل.. لورد مونتباتن.. ايه.. يـا لها من أيـام! هـل تسمـح فترفـع قـدمك اليسرى من فوق تنورتي؟

ـ أين سنذهب الآن!

ـ فتشني!! الـرجـل الـذي كتبت اليـه، انـه نـائم الآن يشخـر في السفـارة الفنزويلية..

ـ هذه أصعب السفارات على الاطلاق.. انها محاصرة برجال الشرطة من كل مكان.

ـ مستعد للقبول بأي شيء أكثر تواضعا..

ـ وربما هم لن يقبلوك.. فأنت لست لاجئا سياسيا بالمعنى المفهوم.

ـ ألا يعتبر خداع بابا دوك نوعا من المقاومة؟

ـ قد لا يقبلونك كضيف دائم. ألم تفكر في ذلك؟
ـ اصعب من ذلك ان يطـردوني.. أم تعتقـد انهم قـد يفعلـون ذلك بعـد ان ادخل بسلام؟

ـ اعتقد ان بعضهم قد يفعلون ذلك.

ادرت موتور السيارة. وبدأنا السير ببطء الى داخل المـدينـة. لم اكن اود ان اعطي انطباعا بالهرب. ومضيت وعيوني مفتوحة جيدا عند كل منعطف ومتابعا لاضواء اية سيارة، ولكن بورتو برنس كانت هادئة هدوء المقابر.

ـ الى أين تأخذني؟

ـ الى المكان الوحيد الذي يمكن ان افكر فيه. وان كان السفير غائبا.

أحسست بالارتياح ونحن نصعد التل. لا يوجد هنا حاجز طريق عند المنعطف المقبل.

عند البوابة نظر حارس نظرة خاطفة الى داخل السيارة. كان يعرف وجهي جيدا. وجونز بدا امرأة بما فيه الكفاية تحت ضوء بطارية الحارس. وواضح انه لم يكن هناك داع الى أي حالة طوارىء فوق العادة.. فان جونز مجرم فقط، وليس مناضلا وطنيا. ومن المحتمل ان يكونوا قد وضعوا بعض الطونطون ماكوت وحواجز الطرق حول السفارة البريطانية.. ومع مراقبة السفينة ميديا، وربما الفندق، فندقي ـ أيضا يكون كل شيء كافيا لمحاصرة جونز..

طلبت من جونز ان يبقى في السيارة.. ضغطت على جرس الباب، وانتظرت. لا بد ان بعضهم هنا ما زال مستيقظا. فقد لاحظت وجود ضوء في احدى نوافذ الطابق الارضي. ومع ذلك فقد ضغطت على الجرس مرتين، وطال انتظاري حتى سمعت خطوات ثقيلة تتحرك بالداخل. ووصل الى أذني صوت نباح كلب. فاجأني الصوت فلم يسبق لي ان رأيت كلبا في هذا المكان. ثم جاء صوت آخر. اعتقدت انه الحارس الليلي يسأل من هناك؟ قلت:

ـ أريد ان ارى السنيورا بينيدا. قل لها مستر براون.. حالة مستعجلة جدا.

فتح الباب ثم انزلت المزاليج والسلاسل. ولكن الرجل الذي فتح الباب لم يكن الحارس الليلي. وانما كان السفير بنفسه واقفا هناك بعينين نصف مغمضتين. كانت هذه اول مرة اراه في وضع غير رسمي. الى جواره نسخة مصغرة من كلب فظيع الشكل يتدلى شعره حتى الأرض ويبدو وكأنه حشرة سامة. قال

ـ هل تريد زوجتي؟ الآن؟

نظرة واحدة مني الى عينيه المرهقتين الجريحتين اكدت لي انه يعرف كل شيء..

ـ اتريد ان اوقظها الآن؟ هل المسألة عاجلة الى هذا الحد.. انها مع ولدي.. كلاهما نائمان.

قلت بصوت خافت:

ـ لم أكن أعلم انك عدت.

قال وهو يضع اصابعه حيث يجب ان توجد ربطة عنقه.

ـ لقد وصلت بطائرة الليل، هناك عمل كثير ينتظرني هنا. اوراق يجب الاطلاع عليها.. انت تعرف كيف الامر بالطبع.

خيل إلي انه يعتذر. ولم يكن يبقى الا ان يطلعني على جواز سفره.. قلت بشيء من احساس بالخجل.

ـ كلا كلا.. ارجوك. لا توقظها. في الحق انا كنت اريدك انت.

ـ أنا؟

لا اعرف بالتحديد ما الذي فكر فيه السنيور لويس. ولكن نظرة الدهشة الغريبة المأخوذة في عينيه جعلتني اتصور لحظة انه سيصفق الباب في وجهي.. ولعله من ناحيته تصور انني جئت لابلغة بالشيء الذي لم يكن يود ابدا ان يسمعه. قال بضعف:

ـ ألا يمكن تأجيل الامر الى الغد؟ ان الوقت متأخر جدا. واظنه كذلك بالنسبة لك ايضا..

مد يده يتحسس علبة السيجار التي لم تكن هناك. وخطر ببالي انه قد يدس اكثر من سيجار في يدي كما يدس احدهم دولارين في يد شخص يريد ان يرشوه. ليقنعه بالذهاب. ولكنه لم يجد علبة السيجار. فقال مستسلما:

ـ إذن تفضل ما دمت تصر..

قلت.

ـ الكلب لا يحبني فيما يبدو؟

نبح في وجه الكلب المسكين الذي راح يلعق حذاءه.

ـ دون جوان؟!

قلت وأنا أشير ناحية السيارة.

ـ ان معي مرافقا.

تطلع السفير بيأس غير معقول ناحية «جونز». لا بد انه لا يزال يعتقد اني جئت لاعترف بكل شيء، وربما للمطالبة بأن يطلق زوجته.. ولكن ما هو الدور الذي يمكن للسيدة التي في السيارة ان تقوم به؟.. ممرضة لانجيل! أم زوجة بديلة؟ في الكوابيس كل الخواطر يمكن ان تخطر على البال.

★★★

في البداية ظهرت من باب السيارة المفتوح ساقان ملفوفتان بجوربين مقلمين بأقلام زرقاء وسوداء كأنهما ربطة عنق مدرسية ربطت في مكان غير مناسب.. ثم طية بعد طية من تنورة الراقصة الاسبانية، وأخيرا ظهر رأس ووجه جونز المغطى بالمساحيق.. وبينما السفير فاغر فاه راح جونز ينفض نفسه مثلما يفعل الكلب وهو خارج من الماء. ثم تقدم نحونا بالخطوة السريعة. قلت:

ـ هذا هو مستر جونز..

قاطعني مصححا:

ـ ماجور جونز . انا سعيد جدا برؤياك يا صاحب السعادة.

ـ انه يريد ان يلجأ هنا. الطونطون ماكوت يلاحقونه. ولا أمل في وصوله الى السفارة البريطانية لانها محاطة بحراسة شديدة. وقد فكرت ان من الممكن.. مع

انه ليس من اميركا الجنوبية.. الا انه في الواقع في خطر داهم.. وأظن...

اكتسحت موجة من الارتياح وجه السفير، اذن فالمسألة سياسية؟ هذا أمر يستطيع ان يتناوله باتقان. هذا هو عمله اليومي... قال مرحبا:

ـ تفضل بالدخول يا مستر جونز. على الرحب والسعة. ان بيتي تحت تصرفك. سنجهز لك فورا احدى حجراتي...

واضح ان «ياء الملكية» عادت اليه بسرعة مع احساس بالارتياح.. واخذ يغلق الباب والمزاليج والسلاسل. وبدون ان يشعر مد ذراعه الى جونز ـ كما يفعل بروتوكوليا مع اية سيدة ـ ليصحبه الى السلم.. بينما الكلب ـ الميني كلب ـ يمسح الارض تحت اقدامه بشعره الطويل، وهم يتشمم كل فتلة في تنورة مستر جونز.

ـ لويس؟!

هذه مارتا واقفة على قمة السلم مستندة الى الدرابزين، تتطلع الينا في استغراب يغلب عليه النعاس. قال السفير.

ـ يا عزيزتي! دعيني اقدم اليك مستر جونز.. أول لاجئينا. مستر جونز!!

قال جونز مصححا الاثنين وهو يرفع الشال من فوق رأسه كأنه قبعة.

ـ ماجور جونز!!

مالت مارتا على الدرابزين وهي تطلق ضحكة عالية.. وظلت تضحك حتى اغرورقت عيناها بالدموع. كان بوسعي ان ارى نهديها تحت قميص نومها الشفاف.. ومن المؤكد ان جونز رأى ما رأيته. ابتسم لها في مرح قائلا:

ـ في الكتيبة النسائية بالطبع!

تذكرت في هذه اللحظة قول تين تين في دار ميري كاترين عندما سألتها ما الذي اعجبها فيه فقالت: «لقد جعلني اضحك»..

2

لم يبق لي من الليل ما يكفي للنوم. عندما عدت الى التريانون وجدت نفس ضابط الطونطون ماكوت الذي صعد الى سطح السفينة ميديا في انتظاري ليوقفني عند مدخل ممر السيارات ويسألني أين كنت؟ قلت: «انت تعرف تماما اين كنت». فتش السيارة بدقة شديدة جدا على سبيل الانتقام.. مجرد رجل أبله.

لجأت الى البار التمس مشروبا. ولكن مكعبات الثلج كانت كلها جافة ولم يكن هناك سوى زجاجة سفن أب واحدة على الرف. مزجتها بالروم وجلست في الشرفة انتظر شروق الشمس ـ دون ان احس بلدغات الناموس التي تعود عليها جلدي.

بدا الفندق خلفي اخوى من أي وقت مضى. احسست بنفسي افتقد جوزيف كما يفتقد المرء جرحا قديما.. ولعلني كنت اكاد احس معه بالالم وهو يخطو بخطواته العرجاء من البار الى الشرفة أو من الدور الاسفل الى الدور العلوي.. كنت استطيع ان أميز وقع خطواته جيدا.. ترى في أي درب من دروب الجبال تدب خطواته العرجاء الآن؟ أم تراه قد مات بالفعل وتعفنت جثته خلف اية صخرة من صخور هايتي؟ كثيرا ما يدور بخاطري ان هذا هو الصوت الوحيد المألوف الذي اعتدته في اية لحظة من حياتي..

اجتاحني شعور عميق بالأسى على نفسي! لا أدري لماذا قفزت خواطري في هذه اللحظة الى انجيل، وبسكويت البوربون. سألت نفسي.. هل استطيع ان اميز

وقع خطوات مارتا من خطوات اية امرأة اخـرى؟ لا اظنني استطيـع. امـا أمي.. فلم اعرف عنها شيئا يذكر قبـل ان تتركني في مـدرسـة الآبـاء الجـزويت، ولم اعرف عنها شيئا بالمرة بعد ذلك.

ثم.. أبي؟ من يكون أبي الحقيقي؟ لا يوجد في ذاكرتي شيء عنه.. المفـروض انه مات من زمن. ولكني في الواقع لا استطيع ان اجزم بذلك. هـذا عصر يعيش فيه كثير من العجائز سنوات طويلة بعد عمرهم الافتراضي. ومـع ذلك فـأنـا لا احس بأي فضول ازاءه. ولم يخطر ببالي لحظة واحدة ان ابحث عنـه، أو أسـأل اين يمكن ان اجد قبره اذا كان قد مات، وان كان يحتمل.. وليس من المؤكـد ان شاهده يحمل اسم براون.

غير ان عدم فضولي في حقيقتـه كـان مجرد «فـراغ» في مكـان من العقـل لا ينبغي ان يكون فارغا. وانا لم أحاول أبدا ملء هذا الفراغ ولو بشيء بديـل مثلما يفعل طبيب الاسنان عندما يحشو ضرسا حشوا مؤقتـا. ولم يحدث ان جـاءني في يوم من الايـام قس محترم ليقـدم لي أبـا. كما انني لم اكتشف أي مكـان في العالم يمكن ان اقول عنه ان هنا وطني.. وانما انا مجرد مواطن من موناكو.. لا أكثر ولا أقل.



بدأت اشجار النخل تنتـزع نفسهـا من كتلـة الظـلام. ذكـرني ذلك بمنظـر أشجار النخيل خارج الكازينو حيث اقيم شاطىء صناعي كل ما فيه مستـورد حتى الرمال، وهبت نسمة خفيفة اخذت تداعب سعف النخيل فتداعت له أوراقه كأنها اصابع بيانو يعـزف عليهـا عـازف غير مـرئي، يضغط في كـل مـرة على اصبعين أو ثلاثة ثم ينتقل منها الى غيرها فتبدو أوراق السعف وكأنها راقصات باليه ووجدتني اسأل نفسي في قنوط..

ـ لماذا أنا هنا؟

اني هنا بسبب بطاقة بريد مصورة من أمي، كان يمكن ان تضل طريقها بكل سهولة.. ولعل هذا اسهل رهان يمكن ان يراهن عليه المرء في أي كازينو.

ان هناك قوما ينتمون بحكم الميلاد حتما لبلد ما، وحتى عندما يضطرون للرحيل عن هذا البلد يحسون برباط ما يشدهم اليه. وهناك قوم ينتمون الى مقاطعة، أو ولاية، أو حتى قرية. ولكنني لا أحس بالمرة بأي رباط يربطني بالمائة كيلومتر مربع أو نحو ذلك من مجموع الحدائق والطرق العريضة التي تكون مونت كارلو، التي لا تعدو بدورها ان تكون مدينة عابرين. وانما ارتباطي الاكبر هو هنا. في هذه الارض بكل ما فيها من رعب وفزع وظلم.. هذه الارض التي اختيرت لي بمحض الصدفة.

.. وبدأت ألوان الشفق الأولى تمسح على أهداب الحديقة.. واللون الأخضر الداكن ومن بعده الأحمر القرمزي . الألوان هنا أيضا عابرة.. ولكني مقيم. غير ان جذوري لن تكون في يوم من الأيام عميقة بما فيه الكفاية في أي مكان لتجعل منه وطنا لي.. أو تجعلني آمنا في ظل حب عظيم.

الفصل الثالث

الفندق الآن خال من النـزلاء. حتى الطـاهي الـذي جعـل مطبخي مشهـورا بأطباق السوفليه فقد الامل بعـد رحيـل الـزوجين سميث وانتقـل الى السفـارة الفنزويلية حيث كان هناك على الاقل عدد من اللاجئين الذين يستطيع ان يطهـو لهم.

اما بالنسبة لي، فأحيانا أسلق بيضة، أو افتـح علبـة، أو أشـارك البستـاني وخادمة الغرفة الوحيدة الباقية طعامهما الهايتي. وفي احيان ـ غير كثيرة ـ قـد أتناول وجبة لدى الزوجين بينيده، وان كان وجود جونز قد بات يسبب لي توترا غير قليل.

وانجيل الآن التحق بمدرسة تديرها زوجة السفير الاسبـاني. وبعـد الظهـر تقود مارتا سيارتها بلا خفاء الى التريانون، وتترك سيارتها في كـراجي. وكـان واضحا انها لم تعد تخشى اكتشاف امرها. أو ربما اقتنـع الـزوج الطيب بـأن يمنحنا قدرا محدودا من الحرية. وقد كنا نقضي ساعـات طـويلـة نمارس الحب ونتحدث ونتشاجر كثيرا.. كنا نتشاجر حتى حول كلب السفير..

ـ هذا الكلب يجعل جسمي كله يقشعـر.. انـه اشبـه بفـأر يـرتـدي عبـاءة صوفية، أو أم اربعة وأربعين.. ما الذي اغراه بشرائه؟

ـ لعله كان يلتمس صحبة.

ـ لديه انت..

ـ انت تعلم انه لا يملك مني سوى اقل القليل.

ـ هل ينبغي ان احس بالاسى من اجله ايضا؟

ـ لن يضر احدا منا ان نشعر بالاسى لشخص ما.

والحق انها كانت اكثر انتباها مني لرؤية اية سحابة بعيدة للعراك وهي بعد في حجم كف اليد. وكانت دائما تتخذ الموقف المناسب حتى تتجنب المعركة. فالعراك كان ينتهي عادة عندما تنتهي الاحضان..

وذات مرة تحدثت عن امي، وصداقتهما معا.. قالت:

ـ أليس هذا غريبا؟ ان يكون أبي مجرم حرب، وامك واحدة من بطلات المقاومة (ضد النازي)؟

ـ هل تعتقدين انها كانت كذلك حقا؟

ـ اجل.

ـ لقد وجدت ميدالية في حصالة صغيرة. ولكنني ظننتها مجرد تذكار غرامي. فقد كان هناك ميدالية مقدسة ـ أيقونة ـ في الحصالة نفسها وهذا لا يعني شيئا. فهي قطعا لم تكن امرأة على شيء من الورع. وعندما اودعتني عند الجزويت لم يكن ذلك الا لانهم قوم لا يقيمون الدنيا ويقعدونها اذا لم تدفع الفواتير في مواعيدها.

ـ هل كنت في مدارس الجزويت؟

ـ اجل.

ـ الآن اتذكر. لقد اعتدت ان اتصورك.. لا شيء!!

ـ انا فعلا لا شيء.

ـ اجـل اجـل. ولكن كنت اعتقـد انك لا شيء بـــروتســـانتي.. ليس لا شيء كاثوليكي..

ـ انا لا شيء بروتستانتي.

★★★

كان مفهومي العام ان هناك كرات ملونة عديدة تسبح في الهواء. لكل عقيـدة لونها المختلف. حتى عندما لا تكون هناك عقيدة فان هذا يكون له لونه المختلف ايضا. وهناك ايضا كرة وجودية، ربما كانت وضعية منطقية...

ـ لقد خطر ببالي انك يمكن ان تكون لا شيء شيوعيا!

ربما كانَ من المتع ان تضرب بـرفق هـذه الكـرات فترتفـع أو تنخفض أو تطير. ولكن فقط، عندما تسقط احدى الكرات على الارض يكتشف المرء فجأة انه يشعر بحرج ما مع انه لم يصب أحداً..

واستطردت تقول:

ـ الدكتور ماجيوت شيوعي!

ـ اعتقد ذلك وانا احسده. ان من حسن حظه ان يجد شيئا يؤمن به. اما انا فقد خلفت ورائي كل هذه المطلقات على باب كنيسة الجزويت. هل تصدقين انهم ذات مرة اعتقدوا أني مكشوف عني الحجاب؟

ـ من يدري؟ ربما كنت كذلك حقا؟

ـ انا؟ انت تسخرين مني. ولكن ضعي يدك هنا.. هذا شيء ليس فيه حجاب!

وأحسست بنفسي اسخر من نفسي وانـا اقفـز الى خضم المتعـة مثلما يقفـز المنتحر من اعلى الى الرصيف!

★★★

ما الذي جعلنا بعد ذلك نعود الى الحديث عن جونز؟ ان الاحداث في ذاكرتي تتشابك. كثير من اللقاءات في سـاعـات العصر، وكثير من الشجـارات، وكثير من الحب، ثم يتوج هذا دائما بالمشهد الاخير. المعركة الكبرى التي نفترق بعدها..

أذكر ذات مرة انها ارادت الانصراف مبكرا عن الموعد المعتاد فتسـاءلت لـماذا تتعجل الذهاب. وموعد انجيل من المدرسـة لا زال بعيـدا؟ فقـالت انهـا وعـدت جونز بأن تدعه يعلمها لعبة الجين رومي. كان ذلك بعد عشرة ايام من ايـداعي لجونـز تحت سقف بيتهـا. وعنـدمـا قـالت ذلك احسست بهـاجس من الغيرة ينتابني وكأنه أول رعشة تعلن عن مجيء الحمى.

ـ لا بد ان تكون الجين رومي لعبة مثيرة جدا.. لدرجـة انك تفضلينهـا على ممارسة الحب.

ـ يا حبيبي.. لقد مارست الحب بما فيه الكفاية اليوم. وانا لا اريد ان اخـذل الرجل. انه ضيف طيب وانجيل يحبه جدا.. انه يلعب معه كثيرا.

★★★

وذات عصر آخر كانت بداية الشجار مختلفـة نـوعـا مـا.. سـألتني فجـأة، وكانت هذه أول جملة نطقنا بها بعد ان انفصل جسدانا.

ـ ماذا تعني كلمة هاموش؟

ـ الهاموش نوع من الناموس صغير جدا.. لماذا؟

ـ جونز دائما يسمي الكلب هاموش.. الغريب ان الكلب يستجيب لهذا الاسم

مع ان اسمه دون جوان.. ولكنه عادة لا يستجيب لمن يناديه به.

ـ اعتقد انك تريدين ان تقولي لي ان الكلب يحب جونز ايضا؟

ـ انه يحبه بالفعل. اكثر مما يحب لويس، مع ان لويس يطعمه بيده دائما، ولا يسمح حتى لانجيل ان يفعل ذلك. ولكن جونز! مجرد ان يناديه هاموش حتى يهرع اليه.

ـ وانت.. بأي اسم يناديك؟

ـ ما الذي تعنيه؟

ـ انت تهرعين اليه عندما يدعوك.. وتغادرين مبكرا لتلعبي معه الرومي جين.

ـ هذا حدث مرة واحدة من ثلاثة اسابيع ولم يتكرر..

ـ نصف وقتنا ضيعناه في الحديث عن ذلك الافاق اللعين.

ـ انت الذي جئت بالافاق اللعين الى بيتنا.

ـ لم اكن اتوقع ان يصبح صديقا للعائلة على هذا النحو.

ـ يا حبيبي.. انه يجعلني اضحك. هذا كل ما في الامر. لا توجد أشياء كثيرة تجعلنا نضحك هنا.

لم يكن من الممكن ان تختار سببا يقلقني اكثر من هذا. قلت:

ـ هنا؟

ـ انت تلوي كل كلمة اقولها. لا لا اقصد هنا بمعنى هذا المكان. ولكني اعني بورتو برنس كلها..

ـ الحديث بلغتين ينتج عنه سوء الفهم.. كان يجب ان اتلقى دروسا في الالمانية. هل يتحدث جونز الالمانية؟

ـ ولا لويس. يا حبيبي.. لماذا عندما تريدني اكون امرأة. وعندما نتشاجر اصبح المانية؟ من المؤسف جدا ان موناكو لم تكن ابدا دولة كبرى.

ـ كانت دولة كبرى في يوم من الايام. ولكن الاسطول البريطاني دمر اسطول الامير في القنال.. مثلما فعلوا مع السلاح الجوي الالماني.

ـ انا كان عمري عشر سنوات عندما دمرتم السلاح الجوي الالماني.

ـ انا لم ادمر احدا.. كنت فقط اجلس وراء مكتب اترجم الدعايات الموجهة الى حكومة فيشي باللغة الفرنسية.

ـ جونز قضى في الحرب وقتا اكثر اثارة.

ـ هكذا؟

ـ هل كانت البراءة هي التي تطرح اسمه على لسانها بهذه الكثرة أم كان هناك دافع قوي يجعلها لا تنسى اسمه ابدا؟ قالت:

ـ لقد كان في بورما يقاتل اليابانيين!

ـ هل قال لك ذلك؟
ـ حديثه ممتع جدا عندما يتحدث عن حرب العصابات.

ـ كان من الممكن ان تستفيد المقاومة منه هنا. غير انه فضل التعاون مع الحكومة.

ـ ولكنه اختلف مع الحكومة.

ـ أو الحكومة هي التي اختلفت معه. هل اخبرك عن الكتيبة التي فقدها؟

ـ اجل.

ـ وكيف انه يستطيع شم الماء؟

ـ اجل.

ـ احيانا اعجب كيف لم يصل الى رتبة بريجادير.

ـ ما الحكاية يا حبيبي!

ـ عطيل سحر ديدمونة بحكاياته عن مغامراته. انه تكتيك قديم. كان أولى بي ان اقول لك انني كنت مطاردا من الناس.. لعلني بذلك احوز عطفك..

ـ أي ناس؟

ـ لا يهم..

ـ ان تغيير موضوع الحديث في السفارة مسألة مهمة دائما. لدينا السكرتير الاول مثلا. انه خبير في السلاحف. كان هذا ممتعا لفترة حتى اصبح حديث كل يوم. والسكرتير الثاني معجب بسيرفانتس، ولكنه ليس معجبا بدون كيشوت التي يعتبرها تستدر اعجاب الناس اكثر مما يجب..

ـ اعتقد ان حكايات بورما سوف تفقد بريقها بعد حين.

ـ هو على الاقل لا يكرر نفسه مثل الآخرين.

ـ هل حدثك عن علبة الكوكتيل؟

ـ اجل بالتأكيد.. يا حبيبي.. انت تحط من قدره كثيرا. هل تعلم؟ لقد اهداها الى لويس.. برغم كل الذكريات التي تمثلها بالنسبة له. انها شيء فاخر بحق. من اسبري بلندن. قال انها الشيء الوحيد الذي يستطيع ان يعبر به عن امتنانه لكرم ضيافتنا. ثم دفع الى احد الخدم ببعض المال ليأخذها الى حامد حتى يحفر

عليها: الى لويس ومارتا من ضيفهم المتن.. جونز. هكذا، بدون القاب.. بالاسم الاول فقط.

ـ واسمك الاول ايضا.

ـ واسم لويس.. والآن يا حبيبي. آن ان انصرف.

ـ ما اطول الوقت الذي قضيناه معا.. نتحدث عن جونز!

ـ اعتقد اننا سنقضي اوقات في المستقبل اطول. فان بابا دوك لن يسمح له بالمرور سالما ولا حتى للسفارة البريطانية. والحكومة تقدم احتجاجا رسميا كل اسبوع قائلين انه مجرد مجرم عادي. ولكن هذا هراء بالطبع. لقد كان الرجل مستعدا للتعاون معهم ولكن عينيه تفتحتا بفضل فيليبوت الشاب.

ـ هل هذا ما يدعيه؟

ـ لقد حاول ان ينسف صفقة اسلحة للطونطون ماكوت.

ـ قصة بريئة تماما.

ـ وبالتالي فهذا يجعله فعلا لاجئا سياسيا.

ـ انه يعيش على ذكائه.. هذا كل شيء.

ـ ألسنا كلنا كذلك.. بشكل أو آخر؟

ـ ما أسرع انتفاضك للدفاع عنه!

★★★

فجأة ارتسمت امام مخيلتي صورة لهما الاثنين في فراش واحد. مارتا عارية مثلما هي الآن وجونز في ثوبه النسائي. ووجهه مصفر بلون مسحوق قبل الحلاقة، وهو يرفع تنورته السوداء اللامعة الى ما فوق ركبتيه..

ـ حبيبي.. ماذا جرى؟

ـ كان منتهى الحماقة مني ان احضر هـذا الافـاق للعيش معك تحت سقف واحد. والآن ها هو مقيم.. ربما الى ابـد الآبـدين، أو حتى يستطيـع احـدهم ان يقترب ما فيه الكفاية من بابا دوك ومعه طلقة فضيـة جـاهـزة. كم سنـة ظـل الكاردينال ميندزنتي في السفارة الاميركية ببـودابست؟ ١٢ سنة؟ وجونز يراك طول اليوم..

ـ ليس كما تراني

ـ أوه.. ان جونز يعرف كيف ينال امـرأتـه بشكـل دوري! انـا اعـرف ذلك جيدا. وشهدته عمليا. اما انا، فلا استطيع ان اراك الا على العشاء أو في حفـلات الكوكتيل للمدعوين من الدرجة الثانية.

ـ أنت لست الآن على العشاء.

ـ لقد تسلق الجدار. ونزل في الحديقة ذاتها.

قالت

ـ انت كنت تصلح مؤلفا روائيا.. وعنـدئذ كنـا جميعـا سنصبـح شخـوص رواياتك، فلا يستطيع احدنا ان يقول لك اننا لسنا كما تقول. ولا يستطيع احدنا ان يرد أي اتهام.. يا حبيبي.. آلا تدرك انك انما تتـوهم اشيـاء لا وجـود لها.. اشياء تخترعها اختراعا؟

ـ يسعدني على الاقل اني اخترعت هذا الفراش.

ـ ثم نحن لا نستطيـع حتى مجرد التحـدث اليك. فـانت لن تسمـع طـالمـا حديثنا خارجاً عن الشخصية التي رسمتها لـروايتك.. الشخصيـة التي خلقتهـا لتمثلني..

ـ اية شخصية؟ انت المرأة التي احبها. هذا كل ما في الامر.

ـ تماما.. فهذه هي الخانة التي وضعتني فيها.. امرأة تحبها.

★★★

نهضت من الفراش. واخذت ترتدي ملابسها بسرعة. صرخت «اللعنة».. عندما افلت منها المشد.. كانت اشبه بمخلوق يهرب من حريق، حتى انها راحت تبحث عبثا عن فردة شرابها الثانية.. قلت:

ـ انا سأبعد ضيفك بطريقة ما، وبأسرع وقت.

ـ لا يهمني ان تفعل ذلك أو لا تفعل.. طالما هو سيكون في امان.

ـ رغم ان انجيل سوف يفتقده؟

ـ اجل.

ـ ولويس ايضا!

ـ ان لويس سعيد به..

ـ وأنت؟

دفعت بقدميها دفعا في حذائها ولم تجب.

ـ سيسود السلام بيننا عندما يرحل، فلن تجدي نفسك حينذاك ممزقة بيننا نحن الاثنين.

رمقتني بنظرة طالت لحظات كأنما قلت شيئا صدمها. ثم عادت نحو الفراش، وتناولت يدي كما لو كنت طفلا صغيرا لا يفهم معنى كلماته ولكن يجب أن يتعلم الا يرددها، وهي تقول:

ـ يا حبيبي.. آلا تفهم؟ لا شيء هناك الا ما خلقته انت في افكارك. لا انـا، ولا جونز. اننا بـالضبط مـا اردت ان نكـون. واضـح انك من انصـاربيركلي (كـان بيركلي فيلسوفا يعتقد انه كل ما في الكون لا وجود ماديا له وانما هـو فقط من صنع خيالنا ـ المترجم). وأي نصير لبيركلي؟! يـا الهي.. لقـد جعلت من جـونـز المسكين مجرد زير نساء، وجعلت مني معشوقته.. بل انك لا تستطيـع حتى ان تصدق ميدالية والـدتك. هـل تستطيـع فعـلاً؟ لقـد كتبت لها دورا مختلفـا. يـا حبيبي.. حاول ان تؤمن بأننا كائنـات حقيقيـة مستقلـة عنك ولا نعيش فقط في خيالك. وما من واحد منا على النحو الذي تتخيله. ولعل الامر لم يكن له كل هذه الاهمية لولا ان افكارك سوداء بهذا الشكل.. دائما سوداء..

حاولت ان اخفف عنها بقبلة ولكنها ادارت رأسها بعيدا.. وعنـدمـا خـرجت من الباب قالت، وكأنها تتحدث الى الدهليز امامها.. وليس لي:

ـ ان عالم براون الذي تعيش فيه.. معتم.. مظلم.. وكم انا آسفـة من اجلك.. تماما مثلما انا آسفة من اجل ابي.

★ ★ ★

تمددت على فراشي فترة طالت وانا اتساءل.. ترى ما هـو ذلك الشيء المشترك الذي يمكن ان يجمع بيني وبين مجرم حرب مسؤول عن ارواح كل ذلك العـدد من الضحايا المجهولين؟

2

تسللت الاضواء الكاشفة من خـلال اشجـار النخيـل حتى استقـرت فـوق وجهي كأنها فـراشـة ذهبيـة اللـون. وعنـدمـا انطفـأت لم أعـد أرى الاشيـاء بوضوح. فقط كان هناك شبح ضـخم أسود يقترب من الشرفة.

كنت قد عانيت ما فيه الكفاية من «العلقـة» السـابقـة، ولم تكن لي رغبـة في

علقة اخرى. ناديت بأعلى صوتي «جوزيف» ولكن جوزيف لم يكن هناك ليجيب.. واضح ان النوم غلبني بعد كأس الروم الكبير، وجعلني انسى..

ـ هل عاد جوزيف؟

أعاد الي الطمأنينة ان يكون هذا صوت الدكتور ماجيوت. شاهدته يتقدم بكبريائه ووقاره صاعدا درجات الشرفة المتكسرة، كما لو كانت السلالم الرخامية لمجلس الشيوخ، وهو نفسه احد اعضاء المجلس جاء من بعض اطراف الامبراطورية الرومانية النائية ليشهد الاجتماع. اجبت بارتياح:

ـ كنت نائما ولم اكن افكر بشكل سوي. هل تسمح لي بأن اقدم لك شيئا يا دكتور؟ انا الآن الطاهي الوحيد هنا. واعتقد اني استطيع ان أعد لك طبقا من الاومليت.

ـ كلا . شكرا.. لست جائعا. هل يمكنني ان اخفي سيارتي في الجاراج فربما يأتي بعضهم..

ـ لا احد يأتي هنا ليلا..

ـ لا تستطيع ان تثق في ذلك..

أعدت عرض الطعام عليه عندما عاد ولكنه رفض قائلا وهو يختار مقعدا صلبا مستقيما ليجلس عليه

ـ جئت التمس الصحبة . لا اكثر. كثيرا ما كنت اجيء هنا لاتحدث الى والدتك في تلك الايام السعيدة. والآن، يشتد احساسي بالوحدة بعد غروب الشمس.

بدأت ومضات البرق تتوهج وامطار الليل تتساقط، فسحبت مقعدي قليلا تحت سقف الشرفة وسألت

- ألم تعد ترى احدا من زملائك؟

- أي زملاء؟ آه.. هناك عدد قليل من كبار السن مثلي اغلقوا ابوابهم على انفسهم. خلال العشر سنوات الاخيرة، اكثر من ثلاثة ارباع الاطباء المتخرجين فضلوا ان يذهبوا الى أي مكان آخر بمجرد ان يستطيع الواحد منهم شراء تصريح خروج. هنا يشتري المرء تصريح الخروج.. وليس تصريح المهنة. فاذا اردت ان تستشير طبيبا يستحسن ان تذهب الى غانا.

★★★

قال ذلك ثم راح في صمت عميق.. واضح ان ما يريده كان الصحبة فقط وليس تبادل الحديث.. واخذ المطر يتساقط بغزارة اكبر، مرددا رنين قطراته على ارضية حمام السباحة الجاف. وظلمة الليل من الشدة بحيث لا استطع ان ارى وجه الدكتور ماجيوت.. كل ما كنت اراه منه كانت اطراف اصابعه الممتدة على ذراعي كرسيه الصلب كأنها جزء من النقوش الخشبية.. قال:

- أمس الاول، رأيت حلما سخيفا.. غير معقول. دق جرس الهاتف.. تصور؟ الهاتف! كم سنة مضت لم اسمع فيها رنين هاتف؟ المهم.. كان هناك استدعاء لي للمستشفى بسبب وقوع حادث. وعندما وصلت لاحظت راضيا ان العنبر كم هو نظيف، والممرضات فتيات أنيقات في شرخ الشباب - طبعا كل هؤلاء غادرن الى افريقيا الآن - ورأيت زميلي يتقدم نحوي.. كان شابا طالما علقت عليه آمالا كبيرة، وهو الآن يحققها في البرازيل.. ابلغني ان مرشح المعارضة (كم تبدو هذه الكلمات غريبة الآن) قد تعرض لهجوم من جانب بعض مثيري الشغب في اجتماع سياسي. وكانت هناك عدة مضاعفات وعينه اليسرى في خطر. بدأت افحص العين. ولكن تبين ان الاصابة ليست في العين بالمرة وانما هي قطع في الخد وصل الى العظم. وعاد زميلي ليقول ان رئيس الشرطة على الخط. قال هذا انه قد تم اعتقال المعتدين وان الرئيس مهتم بمعرفة نتيجة الكشف الطبي.

وجاءت باقة ورد تحمل اسم حرم الرئيس.

وأخذ الدكتور ماجيوت يضحك بصوت لا يكاد يكون مسموعا في الظلام وهو يضيف:

- حتى في احسن الاحوال.. حتى في عهد الرئيس استيمي لم تكن الامور ابدا هكذا.. بل ان احلام فرويد المعبرة عن الامنيات المكبوتة لا تأتي ابدا بهذا الوضوح.

- لا اظنه حلما ماركسيا جدا يا دكتور ماجيوت، طالما هناك مرشح للمعارضة!

- ربما يصلح حلما ماركسيا للمستقبل البعيد. البعيد جدا. عندما تكون الدولة قد تلاشت ولا تبقى سوى الانتخابات المحلية.. في مقاطعة هايتي!

- عندما زرتك في منزلك ادهشني ان اجد «رأس المال» موضوعا بوضوح في رف المكتبة.. هل هذا يتفق مع الامن؟

- قلت لك من قبل ان بابا دوك يفرق بين الفلسفة والدعاية، فهو يود ان يبقي نافذته مفتوحة على الشرق حتى يعطيه الاميركيون الاسلحة من جديد.

- لن يفعلوا ذلك ابدا.

- دعني اراهنك بعشرة الى واحد على ان العلاقات ستكون على ما يرام، وان السفير الاميركي سيعود في غضون بضعة شهور. أم لعلك نسيت ان بابا دوك قلعة مكافحة الشيوعية؟ لن تكون هنا كوبا، ولا خليج خنازير. طبعا هناك اسباب مختلفة. ان انصار بابا دوك في واشنطن هم انفسهم انصار مطاحن الدقيق المملوكة للاميركيين. (انهم يطحنون الدقيق للشعب من فائض القمح المستورد، وسوف تعجب لمدى الربح الذي يمكن استنزافه من افقر الفقراء بقليل من الذكاء). ثم هناك ايضا احتكار اللحوم الاعظم.. ان الفقراء هنا لا يأكلون من

اللحوم اكثر مما يأكلون من الجاتو.. ولذلك فانهم لا يعانون نقصا يذكر عندما تذهب كل ماشية هايتي الى السوق الاميركية. ولن يهم المستوردين بالطبع انه لا توجد مستويات موضوعة لتربية الماشية فكلها تذهب للمعلبات المصدرة الى البلدان النامية ويسدد ثمنها من المعونة الاميركية بالطبع. ولن يؤثر في أي اميركي ان يتوقف هذا النوع من التجارة.. ولكن الذي سيتأثر بها هو رجل سياسة اميركي معين بالذات يتقاضى واحدا بالمائة من قيمة كل رطل يصدر.

ـ هل انت يائس تماما من المستقبل؟

ـ كلا.. لست يائسا ابدا انما لا اؤمن باليأس. ولكن مشاكلنا لن تحل بواسطة مشاة البحرية. نحن كان لدينا تجربة مع مشاة البحرية. ولست واثقا ما اذا كنت لن احارب في صف بابا دوك اذا جاء مشاة البحرية. فهو من هايتي على الاقل.. كلا يا مستر براون. ان العمل يجب ان يتم بأيدينا نحن. اننا مجرد حي فقير شرير يعوم على مسافة قليلة من فلوريدا. ولن يستطيع أي اميركي ان يساعدنا بالسلاح أو المال أو النصيحة. فقد علمتنا السنوات القليلة الماضية قيمة نصائحهم. ولقد كانت لدينا هنا مجموعة مقاومة على اتصال بشخص ما متعاطف معهم من السفارة الاميركية وقد تلقوا كل انواع الوعود بالعون المعنوي، ولكن المعلومات ذهبت مباشرة الى السي آي ايه، ومنها نزلت مباشرة الى بابا دوك. ولك ان تتصور ماذا كان مصير تلك الجماعة.. لان وزارة الخارجية الاميركية لا تريد اية قلاقل في الكاريبي.

ـ والشيوعيون؟

ـ نحن 'حسن تنظيما واكثر حفاظا على السرية من الآخرين، ولكن كن واثقا اننا لو حاولنا الاستيلاء على السلطة فان مشاة البحرية سوف يجيئون حتما، وسيبقى بابا دوك في السلطة. فنحن في نظر واشنطن بلد مستقر جدا، صحيح انه ليس مناسبا جدا للسياح ولكن السياح كثيرا ما يكونون مصدر ازعاج لا مبرر له. فهم احيانا يرون اكثر مما يجب ويكتبون الى ممثليهم في الكونجرس

بما شاهدوه. صديقك مستر سميث، مثلا، قد ازعجته جدا الاعدامات التي جرت في المقبرة.. على فكرة.. حامد اختفى..

ـ ماذا حدث له؟

ـ ارجو ان يكون قد اختبأ في مكان ما، ولكن سيارته عثر عليها مهجورة قرب الميناء

ـ ان له العديد من الاصدقاء الاميركيين.

ـ ولكنه ليس مواطنا اميركيا. انه يحمل جنسية هايتي. وانت تستطيع ان تفعل ما تشاء مع الهايتيين. لقد قتل تورجيللو ٢٠ الفا منا في وقت السلم في نهر مساكرا. وكانوا مجرد فلاحين جاءوا الى هذا البلد لقطع قصب السكر. رجال واطفال ونساء... فهل جاء احتجاج واحد من واشنطن؟ بالعكس. لقد ظل ما يقرب من عشرين عاما ينهل من المعونة الاميركية.

ـ وما الذي تأمل فيه اذن يا دكتور ماجيوت؟

ـ ربما ثورة قصر (ان بابا دوك لا يتحرك ابدا للخارج ومن ثم فلن تناله الا في داخل القصر). وعندئذ يتحرك الشعب قبل ان يستقر جارسيا البدين في مكانه.

ـ اذن لا امل من وراء الثوار؟

ـ المساكين.. هم لا يعرفون كيف يقاتلون. انهم يذهبون وهم يلوحون ببنادقهم ـ اذا كان لديهم أي بنادق ـ فيهاجمون مركزا هنا او هناك. وقد يكونون ابطالا، ولكنهم يجب ان يتعلموا كيف يعيشون، لا كيف يموتون. هل تظن ان فيليبوت يعرف ابسط الاشياء عن حرب العصابات؟ وصاحبك المسكين الاعرج جوزيف؟ انهم يريدون رجلا ذا خبرة، وربما في غضون عام أو عامين... انت تعرف نحن لا نقل شجاعة عن الكوبيين ولكن الارض هنا قاسية جدا.. فقد

دمرنا كل غاباتنا، وعليك ان تعيش في الكهوف وان تنام على الحجر. ثم هناك مشكلة الماء...

★★★

راح المطر يتدفق وابلا كأنما يعلق على كلماته. حتى لم نعد نستطيع ان يسمع احدنا الآخر. وانطفأت اضواء المدينة. توجهت الى البار واحضرت قدحين من الروم وضعتهما بيني وبين الدكتور، وكان عليّ ان ارشد يده الى كأسه.. وساد بيننا الصمت حتى انفثأ غضب العاصفة.. فقال الدكتور ماجيوت:

ـ انت رجل غريب حقا.

ـ ما وجه الغرابة؟

ـ انت تستمع إلي كما لو كنت رجلا طاعنا في السن يتحدث عن ماض بعيد. وتبدو وكأن الامر لا يعنيك. ومع ذلك فأنت تعيش هنا.

ـ انا من مواليد موناكو.. وهذا يعني انني لا انتمي الى أي مكان.

ـ لو عاشت والدتك لترى هذه الايام لما بقيت غير مبالية ابدا.. واغلب الظن انها كانت ستلوذ بالجبل.

ـ بلا جدوى؟

ـ اجل.. بلا جدوى بالتأكيد.

ـ مع عشيقها؟

ـ من المؤكد انه لم يكن ليتركها تذهب وحدها.

ـ ربما انا أحذو حذو أبي.

ـ من كان أبوك؟

ـ ليس لدي أدنى فكرة عنه. انه مثل بلدي.. شيء لا وجه له.

خفت غـزارة المطـر حتى أصبـح رذاذا. حتى بت استطيـع ان اسمـع وقـع القطرات على الاشجار والعشب واسمنت حوض السباحة الجاف، قلت:

ـ اني آخذ الامور كما هي. وهذا ما يفعله العالم كله تقـريبـا. أليس كـذلك؟ المرء يتعين عليه ان يعيش.

ـ اذن قل لي يا براون، ما الذي تريده من الحياة؟ والدتك كانت تعرف جيـدا كيف تجيب على هذا السؤال

ـ كيف؟

ـ كانت ستضـحك في وجهي لأني اجهل الجواب انه المرح. ولكن المرح لديها كان يشمل كل شيء حتى الموت.

★ ★ ★

نهض الدكتور ماجيوت فجأة ووقف مطرقا بأذنيه على حافة الشرفة. قال:

ـ خيل اليّ اني سمعت شيئا، لعله مجرد وهم. الليـل يجعـل المـرء متـوتـر الاعصاب. تعرف، اني بالفعل كنت احب والدتك حبا جما

ـ وعشيقها، مادا كان رأيك فيه؟

ـ لقد كان قادرا على اسعادها والآن اجب على سؤالي.. ما الذي تـريـده يـا براون؟

ـ اريد ان أدير هذا الفندق. أريد ان أراه كما اعتاد ان يكون قبل مـجيء بابـا دوك، جوزيف لا يكف عن الحركـة خلف البـار، والفتيـات يمـرحن في حـوض السباحة والسيارات تترى على ممر الدخول. والجو معبأ بكل الاصوات الحمقـاء

المعبرة عن الاستمتاع. الثلج في الكؤوس، والضحكات بين الخمائل.. وبالطبع.. رفرفة اوراق البنكنوت.

ـ ثم؟

ـ ثم جسدا لتبادل الحب.. مثلما كان لوالدتي..

ـ وبعد ذلك؟

ـ الله وحده يعلم.. أليس هذا كافيا لما بقي للمرء من عمر؟ انني اقترب الآن من الستين.

ـ كانت والدتك كاثوليكية.

ـ لا اظنها كانت كاثوليكية جدا.

ـ انا شخصيا لدي عقيدتي. حتى ولو كانت مجرد تعبير عن قوانين اقتصادية معينة.. اما انت، فقد فقدت ايمانك .

ـ أنا؟ ربما لم اؤمن ابدا بشيء .

وساد الصمت بيننا مرة اخرى بعض الوقت، وكأسانا فارغان. حتى قطعه قائلا:

ـ لدي رسالة من فيليبوت. انه في الجبل الآن، فيما وراء «أوكايس»، ولكنه يعتزم ان ينتقل الى الشمال. ولديه ١٢ رجلا معه، من بينهم جوزيف.. وارجو الا يكون الآخرون مثله، مقعدين. يكفي جدا وجود اثنين يعانيان من العرج.. وهو يريد ان ينضم الى رجال حرب العصابات المرابطين قرب الحدود مع الدومينكان، يقال ان هناك ثلاثين رجلا.

ـ يا له من جيش عرمرم... اثنان واربعون رجلا!

ـ كاسترو بدأ بأثني عشر رجلا.

ـ لا اظنك تريد القول بأن فيليبوت صورة من كاسترو؟

ـ هو يعتقد ان بامكانه اقامة قاعدة للتدريب على الحدود. فبابا دوك قد طرد الفلاحين هناك وطاردهم حتى عمق عشرة كيلومترات. واذن فان الاحتفاظ بالسرية ممكن، اذا كان تجنيد المقاتلين ليس كذلك.. وهو يريد جونز.

ـ لماذا جونز؟

ـ انه يؤمن به ايمانا شديدا.

ـ افضل له ان يجد لنفسه مدفع برن..

ـ التدريب اهم من السلاح في البداية. فالسلاح يمكن الحصول عليه من القتلى. ولكن يجب اولا أن تتعلم كيف تقتل.

ـ كيف عرفت كل هذا يا دكتور ماجيوت؟

ـ في بعض الاحيان تضطرهم الظروف الى الثقة ولو بواحد منا.

ـ واحد منكم؟

ـ واحد شيوعي يعني

ـ اني لاعجب . كيف احتفظت برأسك فوق كتفيك حتى الآن؟

ـ لو لم يكن هناك شيوعيون ـ وثق ان اسماءنا جميعا موجودة في قوائم السي آي ايه ـ لما كان بابا دوك قلعة العالم الحر! وقد يكون هناك سبب آخر. فأنا طبيب جيد. وقد يأتي وقت... هو ليس معصوما من المرض على اية حال!!

ـ ألا ليتك تستطيع عندها استبدال الدواء الشافي بشيء آخر.. سريع المفعول.

ـ لقد فكرت في ذلك بالفعل. ولكن الارجح اني سأسبقه الى الموت.

ـ الطب الفرنسي شغوف بالتحاميل والدهون.

ـ سوف يجرب ذلك أولا على اشخاص لا اهمية لهم..

ـ ولكن هل تعتقد حقا ان جونز...؟ انه لا يصلح الا لاضحاك النساء.

ـ ان لديه تجربته المعقولة في بورما. واليابانيون هناك كانوا اكثر ذكاء من الطونطون ماكوت

ـ آه.. انه بالفعل كثيرا ما يزعم ذلك متباهيا. وقد سمعت ان هذا هو السحر الذي يستخدمه في السفارة ليسدد به ثمن عشاءه!

ـ لا اظنه يريد ان يقضي طول عمره في السفارة.

ـ ولا اظنه يريد ان يفقد عمره على عتبة بابها.

ـ هناك دائما وسائل للافلات.

ـ لن يقدم على اية مخاطرة.

ـ بل لقد خاطر مخاطرة كبرى عندما حاول ان يحتال على بابا دوك. فلا تبخس الرجل حقه لمجرد انه يفاخر كثيرا.. ثم.. المرء يستطيع ان يصطاد الرجل الذي يفاخر بما لم يفعل.. هذا سهل جدا..

ـ ارجو ألا تسيء فهمي يا دكتور ماجيوت. فانا لا اقل عن فيلبيوت رغبة في ان يغادر السفارة.

ـ ومع ذلك فأنت الذي وضعته هناك؟

ـ لم اكن ادرك وقتها..

ـ ماذا؟

ـ آه.. هذه مسألة اخرى تماما.. على اية حال.. انا مستعد..

★★★

توقفت فجأة. عن اكمال عباراتي. ثمة شخص ما كان يتجه نحونا سائرا في ممر السيارات. كان وقع الاقدام يقترب فوق اوراق الشجر الندية وقشور جوز الهند القديمة. جلسنا صامتين ننتظر. ففي بورتو برنس لا يسير احد ليلا. وتمنيت لو ان الدكتور ماجيوت يحمل مسدسا ولكني اعرف ان هذا ليس من طبعه. توقف وقع الاقدام عند منحنى الممر على حافة الشجر.. وجاء صوت يقول:

ـ مستر براون؟ ألا يوجد عندكم نور؟

ـ من أنت!

ـ بيتي بيير .

تنبهت لحظتها الى ان الدكتور ماجيوت لم يعد موجودا معي.. كان من العجيب جدا ان يتحرك هذا الرجل الضخم بخفة عندما يريد ذلك دون ان يلحظه احد، قلت:

ـ سأبحث عن ضوء.. انا وحدي هنا.

تحسست طريقي الى البار. كنت اعرف اين اجد مصباحا كشافا. وعندما اضأته اكتشفت ان باب المطبخ الخلفي مفتوح. عدت بمصباحي، وصعد بيتي بيير السلم. كانت قد مضت عدة اسابيع منذ رأيته لآخر مرة. كانت سترته مبللة. فعلقها على ظهر مقعد. قدمت اليه كأسا من الروم دون ان اتكلم منتظرا منه تفسيرا، فلم يكن من المعتاد ان أراه هنا بعد الغروب.

ـ تعطلت سيارتي. فانتظرت حتى خف وابل المطر.. لقد تأخرت عودة النور هذه الليلة.

قلت عرضا باعتبار ما اقول حديثا معتادا في بورتو برنس.

ـ هل فتشوك عند حاجز الطريق!

ـ ليس في هذا المطر. لا توجد حواجز عندما يكون هناك مطر. لا تتوقع من رجال الميليشيا ان يعملوا اثناء العواصف..

ـ مضى زمن طويل لم ارك فيه يا بيتي بيير.

ـ كنت مشغولا جدا.

ـ لا بد وان هناك مادة وفيرة لعمودك، حديث المدينة.

قهقه ضاحكا في الظلام.

ـ هناك دائما اشياء تقال يا مستر براون.. اليوم مثلا، كان يوما مشهودا في تاريخ بيتي بيير.

ـ لا تقل انك تزوجت؟

ـ كلا كلا'' خمن مرة اخرى

ـ اذن، فقد ورثت ثروة كبيرة!

ـ ثروة كبيرة في بورتو برنس؟ كلا يا مستر براون.. اليوم، اشتريت جهاز ستريو..

ـ ألف مبروك.. هل يعمل جيدا؟

ـ لم اشتر اية اسطوانات بعد، لذلك لا استطيع القول.·ولكنني طلبت

اسطوانات من حامد لجولييت جريكو وفرانسوا هاردي وجوني هاليداي...

ـ سمعت ان حامد لم يعد معنا هنا.

ـ لماذا؟ ما الذي حدث؟

ـ لقد اختفى.

ـ لاول مرة تسبقني بخبر. من الذي اخبرك؟

ـ انا لا اكشف مصادري.

ـ كان يتردد كثيرا على السفارات الاجنبية. ولم يكن في هذا شيء من الحكمة.

فجأة أضاءت الانوار كلها دفعة واحدة. فأخذت بيتي بيير على غرة لاراه مكتئبا قلقا قبل ان يتفاعل مع الضوء ويقول بمرحه المعتاد:

ـ سيكون عليّ ان انتظر الاسطوانات اذن.

ـ لدي بعض الاسطوانات في مكتبي، ويمكنني ان اعيرك اياها..

ـ كنت في المطار الليلة.

ـ هل طار احدهم؟

ـ في الواقع لم اكن اتوقع ان اراه. فالذين يذهبون الى ميامي لا يعودون بسرعة.. وقد كان في ميامي..

ـ من هو؟

ـ الكابتن كونكاسير.

ادركت لحظتها انه لم يشرفني بهذه الزيارة الليلية من اجل ان يخبرني بشرائه لجهاز الستيريو، وانما جاء يحمل الي تحذيرا.. سألته:

ـ هل هو في مشكلة؟

ـ أي شخص على اتصال بالماجور جونز لا بد ان يكون في مشكلة. والكابتن غاضب جدا. فقد لحقته اهانة شديدة في ميامي، ويقال انه قضى ليلتين في احد مراكز الشرطة. تصور..؟ الكابتن كونكاسير!! وهو يريد ان يرد اعتباره.

ـ كيف؟

ـ بالقبض على الماجور جونز بطريقة أو اخرى.

ـ جونز آمن في احدى السفارات.

ـ عليه ان يبقى هناك اطول وقت ممكن، ويجب الا يطمئن الى اية وسيلة لخروجه. ولكن لا احد يدري ماذا يمكن ان يصنع سفير جديد.

ـ أي سفير جديد؟

ـ ثمة اشاعة تقول ان الرئيس ابلغ حكومة السفير بينيدا انه لم يعد شخصا مرغوبا فيه. قد تكون اشاعة كاذبة.. والآن.. هل استطيع ان ارى الاسطوانات؟ لقد انتهى المطر ويجب ان اذهب.

ـ أين تركت سيارتك؟

ـ الى جانب الطريق.

ـ سوف اوصلك لمنزلك.

نزلت لاحضار سيارتي من الجاراج.. وعندما اضأت الانوار لمحت الدكتور ماجيوت جالسا الى عجلة قيادته في صبر. لم ينبس احدنا ببنت شفة.

أنزلت بيتي بيير عند الكوخ الرث الذي يسميه منزله ، وانطلقت الى السفارة.

أوقفني الحارس عند البوابة ، والقى نظرة فاحصة الى داخل السيارة قبل أن يسمح لي بالدخول. وعندما ضغطت مفتاح الجرس. تناهى الى سمعي صوت نباح الكلب وصوت جونز يقول بلهجة صاحب المنزل.

ـ اهدأ ياهاموش.. اهدأ.

كانوا وحدهم في تلك الليلة. السفير ومارتا و جونز.. وكأنهم في جلسة عائلية. بينيدا وجونز يلعبان الجين رومي ولاجاجة للقول ان جونز كان متقدما جداً ، بينما كانت مارتا جالسة على مقعد فوتيل تحيك ثوبا. لم اكن قد رأيتها ابدا من قبل وفي يدها ابرة حياكة.

ويبدو أن جونز جاء معه الى هذا المنزل ببعض العادات البيئية. بينما كان هاموش مقعيا تحت قدميه. كما لو كان صاحبه.

رفع بينيدا عينيه الجريحتين غير المرحتين قائلا.

ـ ارجو ألا تؤاخذنا حتى ينتهي الدور.

قالت ماريا.

ـ تعال لنرى انجيل.

صعدنا الدرج معا. وفي منتصفه وصل الى مسامعي صوت جونز.

ـ ساكتفي باثنين.

عند اعلى السلم استدرنا يسارا ، الى مكان آخر معاركنا ، قبلتني بطلاقه وسعادة. اخبرتها عن اشاعة بيتي بيير.. قالت

ـ اره... كلا لايمكن أن يكون هذا صحيحا.

ثم اضافت.

ـ كان لويس قلقا حول شيء ما في الايام القليلة الماضية.

ـ ولكن لو فرض وكان صحيحا..؟

ـ سوف يحتفظ به السفير الجديد بنفس الوضع.. لايمكن ان يطرده.

ـ انا لا افكر في جونز انما افكر فينا.... انت وانا.

قلت ذلك وفي ذهني خاطر يلح.. هل تستطيع امرأة ما الاتذكر ابدا اسم رجل الا باسمه الاول الا اذا كانت تشاركه الفراش؟

جلست على طرف السرير تحدق في الجدار بنظرة تعجب كما لو ان الجدار قد اصبح اكثر اقترابا.

ـ انا لا اصدق ذلك .. لن اصدقه..

ـ ومع ذلك لابد ان يحدث ذات يوم.

ـ كنت دائما افكر.. يعني، عندما يكون انجيل قد كبر بحيث يمكن أن يفهم.

ـ كم سيكون عمري حينئذ؟

قالت بصيغة الاتهام.

ـ انت ايضا فكرت في ذلك؟

ـ اجل. انا فكرت في ذلك كثيرا. كان هذا احد اسباب سعي لبيع الفندق في نيويورك. كنت اريد المال حتى اتبعك في اي مكان تذهبين اليه. ولكن لايوجد الان من يشتري الفندق.

قالت

ـ ياحبيبي نحن نستطيع ان ندير الامر بطريقة او اخرى.. ولكن.. جونز؟

انها مسالة حياة او موت بالنسبة اليه.

ـ اعتقد اننا لو كنا مازلنا شابين فانها ستكون ايضا مسألة حياة او مـوت بالنسبة لنا. ولكن الان... «الرجال يموتون وتأكلهم الديـدان، ولكن ليس بسبب الحب».

نادى جونز من تحت.

ـ المباراة انتهت

اقتحم صوته الحجرة كأنما هو غريب قليل الذوق. قالت مارنا

ـ يحسن بنا ان نذهب. لاتقل شيئا حتى نتاكد.

★★★

كان بينيدا جالساً يربت على ظهر الكلب الجالس على ركبتيه والكلب يتحمـل ربته صابرا كأنما يود ان يكون في مكان آخـر، ويـرمق جـونـز بعينين والهتين بينما هذا يحصي ارقامه. قال.

ـ الف ومـائتـان.. سـوف ارسـل لحـامـد غـدا لأشتري بعض البسكـويت البوربون لانجيل.

قالت ماريا.

ـ انت نفس الصبي ـ اشتر لنفسك شيئا لتذكرنا به.

اجاب وهو يتطلع اليها تمامـا مثلما يتطلـع اليـه الكلب الجـالس على ركبتي بينيدا.

ـ وكأني استطيع ان انسـى !؟

كان التعبير في عينيه مندى بالحزن.. وبعض الزيف في الوقت نفسه. قلت

ـ معلوماتك تبدو سيئة. فحاق لم يعد موجودا.

قال بينيدا.

ـ لم اسمع بذلك. لماذا؟

ـ يعتقد بيتي بيير انه كان له عدد كبير من الاصدقاء الاجانب.

قالت مارتا.

ـ يجب ان تفعل شيئا. ان حاق كثيرا ماقدم الينا خدمات متعددة الاشكال.

تذكرت في الحال واحدة من تلك الخدمات.. الغرفة الصغيرة ذات السرير النحاس والملايات الحريرية والمقاعد الشرقية الصلبة المسندة الى الجدار.. وتلك الامسيات التي تنتمي الى بعض من اسعد ايامنا اسعد ايامنا. قال بينيدا.

ـ وماذا استطيع ان افعل؟ سوف يقبل وزير الداخلية سيجارين مني ثم يقول بكل ادب ان حاق مواطن يحمل جنسية هايتي.

قال جونز.

ـ لو عادت الي كتيبتي القديمة. اذن لاقتحمت بها مركز الشرطة ونثرته نثرا كقبضة ملح حتى اعثر عليه.

لم يكن من الممكن ان اسمع اسرع ولا افضل من هذا التعليق. تذكرت قول ماجيوت: من السهل ان توقع بالرجل عندما يجعجع كثيرا.... عندما تحدث كان ينظر الى مارتا بعيني شاب يلتمس الاستحسان. وطافت بخاطري صور عشرات الامسيات المنزلية الهادئة وهو يسامرهم بقصصه عن بورماء نعم. هو ليس صغير السن. ولكن يصغرني بعشر سنوات على الاقل.. قلت.

ـ ان الشرطة عددهم كبير..

ـ لو معي خمسون من رجالي لاستوليت على هذا البلد كله... لقد كان اليابانيون اكثر منا عددا، ويعرفون كيف يقاتلون..

تحركت مارتا في اتجاه الباب ولكن اوقفتها.

ارجو الا تذهب.

كنت اريدها شاهدة. جلست بينما واصل جونز جعجعته دون ان يخامره ادنى شك.

ـ نعم لقد باغتونا في البداية في الملايو. لم نكن نعلم شيئا عن حرب العصابات حينذاك.. ولكننا تعلمنا.

قلت مشجعا. خشيته الا يتمادى.

ـ مع وينتجيت؟

ـ كان واحد من افضلنا، ولكن هناك آخرون استطيع ان اسميهم. ومن دواعي افتخاري ان كانت بعض الحيل من صنعي.

قلت لاستحث ذاكرته.

ـ وانت تستطيع ان تشم الماء؟

ـ هذا شيء لم اتعلمه. ولكنه ولد معي.. حتى وانا طفل كنت قاطعته بسرعة.. فطفولته كانت شيئا بعيدا عما اريده الان.

ـ يالها من مأساة ان يبقى رجل مثلك حبيسا هنا..ان في الجبال هنا رجالا لاينقصهم شيء الا ان يتعلموا . نعم ان معهم فيلبيون، ولكن...

تحول الحديث الى مايشبه ديالوج بيني وبينه.

فاذا به يهتف

ـ فيليبوت؟ انه ليس لديه ادنى فكرة ياوالدي ! هل تعلم انـه جـاء يقـابلني ليطلب مني ان اساعده في التدريب؟ وقدم عرضا بالفعل؟

ـ الم تجد فيه مايغريك؟

ـ اقول الحق.. بلى.. ان المرء ليفتقد ايام بورما الخوالي. انت طبعـا تستطيـع ان تفهم ذلك.. ولكن ياوالدي انا كنت حين جاءني في خدمة الحكـومـة. ولم اكن قد تبينت حقيقتهم بعده ربما كنت ساذجا. ولقد وثقت فيهم ولو عرفت حينذاك ماأعرفه الان..

ترى...أي تفسير قدمه لمارتا وبينيدا لهروبه؟ لابد وأن طور كثيرا في قصتـه التي قالها لي ليلة الفرار.

ـ من المؤسف حقا انك لم تتفق مع فيليبوت.

ـ مؤسف لكلينا ياوالدي. بالتأكيد انا لاأحط من قدر فيليبوت فهو على قـدر كبير من الشجاعة. ولكني كنت استطيع ان اجعل منه فدائيا من الطراز الاول لو اعطينا الفرصة.. تعلم؟ تلك الغارة على مـركـز الشرطـة كـانت عمـلا من اعمال الهواة.. فقد تركوا معظمهم يهربون والاسلحة الوحيدة التي حصلوا عليها....

قاطعته منتهزا الفرصة

ـ واذا سنحت فرصة اخرى؟

وقع في الفخ من فوره.اي فأر معـدوم التجـربـة لم يكن ليهـرع الى رائحـة الجبن في المصيدة بهذه السرعة قال،

ـ انطلق مثل الرصاصة.. الان وفي الحال..

قلت

ماذا لو رتبت لك وسيلة للهرب من هنا حتى تلحق بفيليبوت؟

لم يتردد وعينا مارتا عليه. قال .

ـ فقط دلني على الطريق ياوالدي.. فقط دلني على الطريق...

وهنا قفز الهاموش على ركبتيه وراح يلعق وجهه من الانف حتى الذقن كانما يودع البطل.. واطلق صاحبنا واحدا من نكاته. لم يكن قد ادرك بعد ان المصيدة قد اطبقت عليه. فانفجرت مارتا ضاحكة وعزيت نفسي بان ايام الضحك اصبحت معدودة. قلت له

ـ يجب ان تكون مستعدا للتحرك في اية لحظة.

ـ انا اسافر دائما خفيفا ياوالدي. لم اعد احمل حتى علبة كوكتيل!

واضح انه كان يعرف انه يستطيع المخاطرة بتلك الاشادة.. فالى هذا الحد هو واثق مني.

★★★

قلت للدكتور ماجيوت وهو جالس في مكتبي في الظلام رغم عودة التيار الكهربائي.

ـ التقطته سنارتي.. لم يكن هناك من شيء اسهل من ذلك.

ـ تبدو وكانك احرزت انتصارا عظيما.. ولكن ماهي المسالة في النهاية؟ ان فردا واحدا لايستطيع ان يكسب الحرب.

بلى.. ولكن لدي اسباب اخرى للاحساس بالانتصار.

نشر الدكتور ماجيوت خريطة طرق على مكتبي. ودرسنا بالتفصيل الطريق الجنوبي الى مدينة اوكايس. فاذا كان المفروض انني ساعود وحدي فيجب ان اظهر كمن لم يكن ينقل اي ركاب في سيارته.

ـ ولكن ماذا لو فتشوا السيارة؟

ـ سوف نناقش هذه النقطة.

كان يتعين اولا ان احصـل على تصريـح مـرور من الشرطـة وايجاد سبب للرحلة. قال ماجيوت.

ـ يجب ان تحصل على التصريح ليوم الاثنين ١٢ من هذا الشهر.

ذلك انه سيحتاج الى مايقرب من اسبوع كامل لكي يتلقى ردا من فيليبـوت. ومن ثم ، فان يوم ١٢ هو اقرب موعد ممكن.

واضاف وهو يشير باصبعه.

ـ لن يكون هناك قمر بالكاد. وهـذا من حسن حظك. وعليك ان تتركـه هنـا عند المقبرة قبل ان تصل الى مدينة أكين وتواصل طريقك الى أوكايس.

ـ واذا وجده الطونطون ماكوت قبل فيليبوت..

ـ انت لن تصل هناك قبـل منتصف الليـل. ولا احـد يـذهب الى المقـابـر في الظلام. اما اذا وجده احد بان هذا سيكون من سـوء حظـه لانهم سيجعلـونـه يتكلم.

ـ اعتقد انه لاتوجد طريقة اخرى.
ـ انا لايمكن ابدا ان احصل على تصريح لمغادرة بورتو برنس والا كنت...

ـ لاعليك يادكتور ماجيوت.. انـا لـدي ثـأر شخصي لابـد ان اسـويـه مـع كونكاسير.

ـ كلنا لدينا نفس الثأر. على الاقل هناك شيء واحد نستطيع ان نعتمد عليه.

ـ ماهو؟

ـ الجو..

لا

★★★

في اوكايس كانت هناك بعثة تبشيرية كاثوليكية ومستشفى ملحق بها. وفكرت في اختراع قصة حول حزمة من الكتب الدينية وكمية من الادوية وعدت بالتبرع بها للبعثة. ولكن القصة فيما يبدو لم تكن لها اهمية تذكر. فالشرطة لم يكن يهمهم سوى الحفاظ على هيبة مكتبهم. ومن ثم فان التصريح بالمرور الى اوكايس لم يتطلب سوى ساعات طويلة من الانتظار في غرفة تعبق برائحة حديقة حيوان تحت لقطات مصورة للمتمردين القتلى في يوم حار تصاعدت ابخرته الساخنة. وكان باب المكتب الذي راينا فيه ـ مستر سميث وانا ـ الكابتن كونكاسير لاول مرة مغلقا.. ولعله كان لايزال مغضوبا عليه ، وكان هذا اول بادرة تشير الى ان الحظ بجانبي.

وقبل ان تدق الساعة الواحدة بلحظة نودي على اسمي ، فتوجهت الى شرطي جالس الى مكتب ، وملأت العديد من البيانات والتفاصيل عني وعن سيارتي من مولدي في مونت كارلو الى لون سيارتي الهامبر. وجاء رقيب نظر الي من فوق كتفي قائلا.

ـ انت مجنون.

ـ لماذا؟

ـ لن تستطيع الوصول الى او كايس الا بسيارة جيب؟

ـ بالطريق الجنوبي العظيم؟

ـ انه عبارة من مائة وثمانين كيلو متراً من الأوحال والحفر.. وحتى بالجيب

لن تقطعه في اقل من ثماني ساعات.

★★★

في ذلك المساء جاءت مارتا لتراني. وبينما كنا نستريح جنبا الى جنب قالت.

ـ جونز اخذ الموضوع بجدية.

ـ وانا اريد ان ياخذه بجدية.

ـ ولكنك تعلم انكما لن تتجاوزا اول حاجز بالطريق.

ـ هل انت قلقة عليه؟

قالت.

ـ كم انت احمق ! اعتقد اني لو كنت ذاهبة بعيدا الى الابد بانك سوف تفسد لحظة الوداع.

ـ هل انت ذاهبة بعيدا؟

ـ سيحدث ذات يوم بالتاكيد. اننا نتنقل دائما.

ـ هل ستخبرينني قبلها؟

ـ لا ادري.. ربما لا اجد الشجاعة الكافية.

ـ سوف اتبعك اينما تذهبين.

ـ صحيح؟ ياله من قطار بضاعة.. اصل به الى عاصمة جديـدة ومعي زوج وانجيل وعشيق في آن واحد..

ـ سوف تتركين جونز وراءك على الاقل.

ـ من يدري؟ ربما نستطيع تهريبه بالحقيبة الدبلوماسية. ان لـويس يحبـه اكثر منك، ويقول انه اكثر امانة.

اطلقنا شبه ضحكة جوفاء وانا احس بجفاف حلقي.

ـ امانة؟.. جونز؟...

وكما حدث كثيرا من قبل، هبط علينا الغسق ونحن نتحدث عن جـونـز ولم نتعانق مرة اخرى.. فالموضوع كان كفيلا بابعاد اية شهوة. قلت.

ـ ما ادهش له هنا كيف يستطيع هذا الرجل ان يكسب اصدقـاء بكـل هـذه السهولة؟ لويس وأنت وحتى مستر سميث اولعوا به.. ربما كان الافـاق اقـرب الى كسب الانسان المستقيم.. او ربما هو شأن المذنب مع البريء..

ينجذب اليه مثلما تنجذب الشقراوات الى السود.

ـ هل أنا بريئة؟

ـ اجل.

ـ ومع ذلك فانت تعتقد انى اضاجع جونز.

ـ هذا امر لاعلاقة له بالبراءة.

ـ هل ستتبعني فعلا اذا ذهبنا بعيدا؟

ـ بالتاكيد. وانا استطيع تدبير المبلغ طالما املك فندقا. فليس لي الآن في الدنيا سواك. هل انت راحلة؟ هل تخفين عني سرا ما؟

ـ انا؟ لا. ولكن لويس... ربما.

ـ الايخبرك بكل شيء؟

ـ ربما كان أحرص منك على أن أحس بالتعاسة.. بالحنان. هو اكثر.. حنانا.

ـ ماهو معدل ممارسته للحب معك؟

لم تجب سؤالي، وانما قالت.

ـ انت تعتقد انني شهوانية.. اليس كذلك؟ واني اشتهيك انت ولويس وجونز..

كانت اشجار النخيل والبوانيفيك قد تحولت الى اشباح سوداء. وبدا المطر يتساقط قطرات منفردة كانها بقع زيت ثقيل. وفيما بين وقع القطرات ساد السكون.. حتى بدا البرق يشق الظلام وهزيم الرعد يتردد صداه بين الجبال والمطر ينهمر على الارض كانه جدار جاهز التصنيع.. قلت.

ـ ستكون ليلة كهذه، عندما آتي لآخذ جونز.

ـ كيف ستمر من حواجز الطريق؟

رددت ماقاله لي بيتي بيير من قبل.

في الليالي العاصفة لاتوجد حواجز طرق.

ـ ولكنهم سيرتابون فيك عندما يكتشفون...

ـ انا واثق انك ولويس لن تجعلوهم يكتشفون شيئا. وعليك انت ان تغلقي فم انجيل، والكلب ايضا، فلاتتركيه يدور حول نفسه في المنزل بحثا عن جونز المفقود..

ـ هل انت خائف؟

ـ كنت ارجو لو ان لدي سيارة جيب.. هذا كل شيء.

ـ لماذا تفعل ذلك؟

ـ انا لا احب كونكاسير، ولاالطونطون ماكوت. ولا احب بابادوك. لااحب ان يقلبوا احشائي في الشارع ليتاكدوا من اني ليس معي بندقية. ثم.. ذلك الجسد المسجى في حوض السباحة.. لقد اعتدت ان احتفظ بذكريات مختلفة. ولقد عذبوا جوزيف.. ودمروا فندقي.

ـ واي تغيير يستطيع جونز ان يفعله اذا كان نصابا؟

ـ ربما لايكون. ان فيليبوت يؤمن به. ولعله فعلا قاتل ضد اليابانيين.

ـ لو كان نصابا لما رغب في الذهاب.. اليس كذلك؟

ـ لقد تورط بعيدا امامك.

ـ انا لست مهمة جدا بالنسبة اليه الى هذا الحد.

ـ اذن ماذا يكون السبب؟ هل تحدث اليك ذات مرة عن نادي جولف؟

ـ اجل ولكنك لاتخاطر بالموت من اجل نادي جولف. انه يريد ان يذهب فعلا.

ـ هل صدقتيه؟

ـ لقد طلب مني ان اعيره علبة الكوكتيل. قال انه يتفاءل بها. لقد كانت معه لم تفارقه في بورما وقال انه سوف يعيدها عندما يدخل الفدائيون بورتو برنس.

قلت.

ـ من المؤكد أن لديه أحلاماً. وربما كان بريئاً هو الآخر.

قالت مواسية.

ـ لاتغضب اذا اضطررت للذهاب للمنزل مبكرا. فقد وعدته بحفل.. اقصد بمباراة في الجين رومي قبل ان يعود انجيل من المدرسة. انه طيب جدامع انجيل وكثيرا مايلعبان معا لعبة الفدائيين والاشتباكات غير المسلحة. قد لايكون هناك وقت للمزيد من مباريات الجين رومي. انت تفهم ولاشك.. اليس كذلك؟ انا اريد ان اكون طيبة معه.

كان احساسي بالضجر اكثر من الغضب عندما غادرتني. الضجر من نفسي قبل كل شيء.. هل انا عاجز الى هذا الحد عن الثقة؟ ولكن عندما اعددت لنفسي كاسا من الويسكي واخذت استمع الى طوفان الصمت يغمر كل ماحولي عاد الحقد يحدق بي. فكرت ان الحق هو الترياق الشافي من الخوف.. ثم.. لماذا اثق في امرأة المانية، هي ابنة رجل نفذ فيه حكم الاعدام؟

5

تلقيت بعد بضعة أيام رسالة من مستر سميث، قضت اكثر من اسبوع لتصل من سانتو دومينجو. قال فيها انهما هو وزوجته توقفا عدة أيام للمشاهدة ولزيارة ضريح كولمبوس. ثم.. من اظن انهما لقياه هناك؟ انه مستر فرنانديز بنفسه! فقد تصادف ان كان بالمطار عند وصولهما. (ترى.. هل من دواعي مهنته ان يكون دائما بالمطار مثل سيارات الاسعاف؟). وقد صاحبهما مستر فرنانديز لرؤية اشياء كثيرة وهامة) لدرجة انهما قررا البقاء فترة اطول. وواضح ان محصول مستر فرنانديز من لغة الكلام قد ازداد بشكل ملحوظ. فقد كان وهو على ظهر «ميديا» يعاني من احتمال مصاب فادح، وهذا هو السبب الذي جعله ينهار اثناء الحفل الموسيقي، حيث كانت امه مريضة جدا، ولكنها الآن شفيت، وتبين ان السرطان لم يكن اكثر من ورم ليفي غير خبيث، وقد حولتها مسز سميث الى الغذاء النباتي ثم ان مستر فرنانديز يعتقد ان ثمة فرصة واسعة لاقامة مركز نباتي في جمهورية الدومنيكان.

وأضاف سميث «يجب ان اعترف ان الظروف هنا اكثر امنا وان كان هناك

كثير من الفقر». وقد التقت مسز سميث مع صديقة قديمة لها من ويسكونسن وهو يبعث بأجمل تمنياته القلبية الى الماجور جونز ويشكرني على مساعدته وحسن ضيافتي.

كان مستر سميث بالفعل كهلا حلو الشمائل.. ها آنذا فجأة اكتشف كم افتقده، في كنيسة المدرسة بمونت كارلو كنا نبتهل الى الله كل يوم احد قائلين: «اللهم امنحنا السلام». غير أني اشك كثيرا في ان يكون هذا الدعاء يجد استجابة بالنسبة للكثيرين. اما بالنسبة للمستر سميث فهو لم يكن بحاجة الى الدعاء. لقد ولد بالسلام في قلبه بدلا من قطعة ثلج.

(حامد.. ألم تسمع ابدا عن شخص اسمه حامد؟)

وفي عصر ذلك اليوم عثر على جثة حامد ساقطا من فتحة مجاري في بعض اطراف بورتو برنس.

★ ★ ★

انطلقت بسيارتي الى ميري كاترين (ولماذا لا ما دامت مارتا في بيتها مع جونز؟). ولكن ذلك المساء لم يشهد واحدة من الفتيات جرؤت على الخروج من غرفتها. ويبدو ان قصة حامد كانت قد انتشرت في كل انحاء المدينة والفتيات تخشين ان لا يكتفي البارون ساميدي بجثة واحدة ليوم احتفاله.

وكانت مدام فيليبوت وطفلها قد انضما الى اللاجئين بالسفارة الفنزويلية. ثمة شعور بالترقب سائد في كل مكان. (ولاحظت خلال قيادتي بالسيارة ان على باب سفارة مارتا يقف الآن حارسان).

أوقفت عند حاجز الطريق قبل فندقي وتم تفتيشي مع ان الامطار كانت قد بدأت تتساقط.. ترى.. هل بعض هذا النشاط ناجم عن عودة كونكاسير؟ ورغبته في ان يقدم برهانا يؤكد به ولاءه؟

عندما وصلت الى التريانون وجدت خادم الدكتور ماجيوت في انتظاري ومعه دعوة لي لتناول العشاء معه. كانت الساعة قد تجاوزت وقت العشاء ولكننا انطلقنا بالسيارة الى منزله في صحبة الرعد والمطر. وفي هذه المرة لم يوقفنا احد فالمطر تحول الى وابل شديد الغزارة ورجال الميليشيا فضلوا الاحتماء منها تحت ستراتهم الرثة.

على جانب ممر السيارات كانت شجرة النورفولك تقطر بالمطر كأنها مظلة مكسورة. ووجدت الدكتور ماجيوت ينتظرني في حجرة الجلوس ذات الطراز الفكتوري وعلى طاولته زجاجة بورت.. سألته:

ـ هل سمعت بما جرى لحامد؟

ـ اجل.. مسكين!

ـ ماذا كان لديهم ضده؟

ـ كان واحدا من صناديق بريد فيليبوت. ورفض ان يتكلم.

ـ وهل كنت انت صندوق بريد آخر؟

سكب بعض البورت في الكأسين. ومع اني لا استطيب البورت ابدا كمشروب قبل الاكل الا اني تناولت كأسي دون اعتراض. فقد كنت مستعدا لتناول أي مشروب. ولما لم يجب على سؤالي فقد وجهت اليه سؤالا آخر.

ـ وكيف عرفت انه لم يتكلم؟

رد على سؤالي بالاجابة الواضحة. قال: «لاني هنا».. وسكت.

فتحت الباب السيدة العجوز التي ترعى منزله وتطهو طعامه. قالت ان العشاء جاهز.

كانت ترتدي ثوبا اسود وعلى رأسها قبعة بيضاء. بدا وجودها غريبا بالنسبة لشخص ماركسي، ولكني تذكرت ما سمعت عن الستائر المشغولة بالانتيل ودورات المياه المصنوعة من الصيني في طائرات اليوشن القديمة، فهي مثلها، تعطيك احساسا بالامان.

كان الطعام فاخرا. صينية بطاطس بالكريمة وشرائح ممتازة من لحم البقر. مع لمسة ثوم، وقنينة من نبيذ كلوريت كأحسن ما يمكن ان تجده في بوردو. ولكن الدكتور ماجيوت كان عازفا عن الكلام، وان كان صمته لم يقل بلاغة عن حديثه. وعندما سألني «هل لك في كأس اخرى؟» كان سؤاله أشبه باسم بسيط منقوش على شاهد قبر. وعندما انتهى العشاء قال:

ـ السفير الاميركي عائد.

ـ هل انت متأكد؟

ـ وتقرر ان تبدأ محادثات ودية مع جمهورية الدومينكان.. وهكذا تخلى الكل عنا مرة اخرى.

جاءت السيدة العجوز بالقهوة، وعاد هو الى الصمت. كان وجهه مخفيا عني بالقبة الزجاجية الكبيرة التي تتوج مجموعة منسقة من الزهور الصناعية. احسست اننا بعد العشاء ينبغي ان ننضم الى عدد من اعضاء جمعية براوننج لمناقشة «متتاليات موسيقية من البرتغال».. بينما حامد راقد الآن في المجاري بعيدا جدا عن هذا المكان.. قال الدكتور ماجيوت:

ـ عندي كوراساو.. وهناك ايضا قليل من البندكتين اذا كنت تفضله.

ـ كوراساو لو سمحت..

ـ كوراساو يا مدام فيري.

وعاد الصمت يخيم علينا.. لا يقطعه سوى قصف الرعد بالخارج.. وانا

اتساءل بيني وبين نفسي، عن السبب في دعوته لي. واخيرا، بعد ان جـاءت مـدام فيري ثم ذهبت، قال:

ـ تلقيت ردا من فيليبوت.

ـ من حسن الحظ ان الرد جاء اليك، وليس الى حامد.

ـ يقول انه سيكون في مكان اللقاء لمدة ثلاث ليال متتـاليـة ابتـداء من يـوم الاثنين، الاسبوع المقبل

ـ بالمقبرة؟

ـ اجل لن يكون هناك قمر بالكاد في تلك الليالي.

ـ ولكن. لنفترض انه لن تكون هناك عاصفة ايضا؟

ـ هل حدث ابدا ان شهدت ثلاث ليال متتابعة بدون عاصفة في هذا البلد؟

ـ كلا. ولكن تصريحي ليوم واحد فقط، الاثنين.

ـ هذه تفصيلة غير مهمة. فمن النادر ان تجد رجل شرطـة يعـرف القـراءة. خذ جونز وانطلق في طريقك. واذا حدث أي خلل واصبحت مطلوبـا أو مـوضـع شك سأحاول ان احذرك وانت في أوكايس.. عسى ان تستطيع الفرار ولو بقارب صيد..

ـ اني أتوسل الى الله ألا يحدث أي خلل. فأنا لا أحب ابدا ان اكون مطاردا.. ثم ان حياتي كلها هنا.

ـ لا بد لك من ان تتجاوز بيتي جواف قبل ان تهدأ العـاصفـة والا فسـوف يفتشون سيارتك. وبعد بيتي جواف لن تجد اية مشـاكـل قبـل اكـوين، ولكنك ستكون وحدك عندما تصل الى اكوين.

ـ كم كان بودي لو ان لدي عربة جيب.

ـ كنت اتمنى ذلك انا ايضا.

ـ وماذا عن الحرس عند السفارة؟

ـ لا يهمك امرهم. فهم في اثناء العاصفـة سيكـونـون في المطبـخ يحتسـون الروم.

ـ يجب ان ننذر جونز لكي يكون جاهزا.. وان كنت اخشى ان يتراجع.

قال الدكتور ماجيوت:

ـ افضل الا تزور السفارة من الآن حتى ليلة المغادرة. وسوف اذهب انا غدا لعلاج جونز. ان الغدة النكفية مرض خطير لرجل في مثل عمره. وقـد تؤدي الى العقم والعنة. وقد تبدو فترة العدوى بعد اصابة الطفل طويلة نوعا ما بالنسبـة لاي طبيب ولكن لا اعتقد ان الخدم سوف يلاحظـون ذلك.. ومـا دام مصـابـا فيجب عزله وابقاؤه في حالة هدوء تام. وسوف تعـود من أوكـايس وتبقى فترة طويلة قبل ان يكتشف احد ان جونز غير موجود

ـ وانت يا دكتور؟

ـ انا عالجته طوال الفترة التي كان يحتاج فيها الى عـلاج. وهـذه الفترة هي دليل براءتك. وسيارتي لن تترك بورتو برنس.. وهذا دليل براءتي.

ـ كل ما ارجوه ان يستحق بعض هذا العناء الذي تكلفته في سبيله.

ـ اؤكد لك اني ارجو هذا ايضا.. انا ايضا ارجو نفس الرجاء.

الفصل الثالث

في اليوم الثالث تلقيت من مارتا كلمة تفيد ان جونز مـريض وان الـدكتـور ماجيوت يخشى حـدوث مضـاعفـات، وانهـا تقـوم بنفسهـا على تمريضـه ولا تستطيع في الوقت الراهن مغادرة السفارة. كـانت كلمـة مكتـوبـة لكي يقـرأهـا آخرون.. كلمة مفروض ان اتركها خلفي لمن يريد ان يقـرأهـا. ومـع ذلك فقـد جعلتني احس بقشعريرة. فقـد اطـل علي فجـأة بين السطـور احتمال يشير الى علامة مبهمة للحب. فالخطر ليس على جونز وحده. وانما هو يتهـددني كـذلك. ولكن كل متعة حضورها طوال هذه الايام الماضيـة كـانت من نصيب جـونـز. وتخيلت صورتها جالسة في فراشـة، وهـو يجعلهـا تضحك كما جعـل تين تين تضحك في «اسطبل» ماري كاترين.

وجاء يوم السبت. ومضى. ثم بدأ الاحد مسيرته الطويلة، وانا اتلهف بصبر نافد حتى ينتهي.



يوم الاحد بعد الظهر، وبينما انا جالس في الشرفة اقرأ كتابا، جاء كونكاسير بعربة جيب. حسدته على الجيب، كان السائق الذي خصصوه لجونـز من قبـل بكرشه الضخم وأسنانه الـذهبيـة يجلس بجـواره حـامـلا على وجهـه تكشيرة

متلجة، وكأنه قرد في طريقه لحديقة الحيوان. لم ينزل كونكاسير من السيارة، وانما ظل وصاحبه يحدقان في وجهي من خلال عدساتهم السوداء، فبادلتهما تحديقا بتحديق وان كانا يتفوقان بميزة انه لم يكن بوسعي ان ارى عيونهم وهي تطرف.

بعد لحظة طالت قال كونكاسير

ـ سمعت انك ذاهب الى اوكايس.

ـ اجل.

ـ في أي يوم؟

ـ غدا كما ارجو.

ـ ان تصريحك لرحلة قصيرة فقط.

ـ أعرف ذلك.

ـ يوم للذهاب، ويوم للعودة، وليلة واحدة في أوبرنس.

ـ اعرف.

ـ لا بد ان يكون غرضك مهما جدا حتى تقطع من اجله كل هذه الرحلة المتعبة.

ـ انا ابلغت مركز الشرطة بسبب الرحلة.

ـ فيليبوت في الجبال بالقرب من أوبرنس ورجلك جوزيف ايضا.

ـ انت تعرف اكثر مما اعرف. ولكن هذا عملك.

ـ انت وحدك هنا الآن؟

ـ اجل..

ـ لا مرشح الرئاسة هنا، ولا مدام سميث. حتى قائمكم بالاعمال في اجازة. انت وحيد جدا هنا.. ألا تخاف احيانا اثناء الليل؟

ـ بدأت اعتاد ذلك.

ـ نحن سنراقبك طيلة الطريق، وسنسجل لحظة وصولك عند كل موقع، وسيكون عليك ان تقدم لنا كشف حساب عن كل دقيقة من وقتك.

قال ذلك ومال على أذن مرافقه يقول شيئا فانفجر هذا ضاحكا. ثم وجه حديثه لي مرة اخرى قائلا:

ـ كنت اقول له اننا انا أو هو سوف نسألك بعض اسئلة عن أي تلكؤ في الطريق.

ـ مثلما استجوبتهم جوزيف؟

ـ اجل. بنفس الطريقة تماما. كيف حال الماجور جونز؟

ـ ليس على ما يرام بالمرة، فقد اصيب بالغدة النكفية. انتقلت اليه العدوى من ابن السفير.

ـ يقولون اننا سيكون لدينا قريبا سفير جديد. فحق اللجوء السياسي لا ينبغي ان يساء استخدامه. ولعل احدا ينصح ماجور جونز ان ينتقل الى السفارة البريطانية.

ـ هل أقول له انكم تضمنون له طريقا آمنا.

ـ اجل.

ـ سوف ابلغه عندما تتحسن حالته. فانما اخشى ان اصاب بالعدوى، ولا

ارغب في اية مخاطرة.

قال:

ـ نحن من الممكن ان نكون اصدقاء يا مستر براون. وانـا واثق انك لا تحب مستر جونز اكثر مني.

ـ لعلك على حق . على اية حال، سوف انقل اليه الرسـالة.

تراجع كونكاسير بسيارته نحو شجيرات البوانافيلا محطما اغصانها بنفس المتعة التي يحطم فيها اطراف ضحاياه، ثم استدار وانطلق مبتعدا. كانت زيارته هي الحدث الوحيد الذي قطع رتابة الاحد الطويل.

وفي الموعد المضبوط انطفأت الانوار. وفي نفس اللحظة بدأت العاصفـة تهدر بكل جبروتها على سفوح كينسكوف كأنما هي على موعد مع الانوار. حاولت ان اقرأ في مجلد بغلاف ورقي لمجموعة من قصص هنـري جيمس عنـوانـه: «ذلك المكان الطيب عظيم»، كان احدهم قد تركه وراءه منذ زمن بعيـد. كنت اريـد ان أنسى ان غدا هو يوم الاثنين، ولكني فشلت. هنري جيمس يتحـدث عن «الميـاه الوحشية لزمننا الرهيب». ترى مـا هي فترة الانقطـاع المؤقت في عصر الســلام الفيكتوري الطويل التي ازعجته الى هذا الحد؟ هل قدم اليه كبير خدمـه اشعـارا بتركه العمل؟ انا اقمت حياتي حول هذا الفندق. انه بالنسبة لي يمثل الاستقـرار على أسس اكثر رسوخا من كل التعاليم التي كان آباء الجزويت يأملون مني ان احزمها ولقد حدث في وقت ما ان مثل نجاحا افضل من المعـرض الفني المتنقـل بلوحاته المزورة.. كان فيه شيء اشبه بضريح العائلة..

وضعت «المكان الطيب العظيم» جانبا وصعدت الدرج بمساعدة مشعل، وفي خاطري انه من الممكن ـ اذا سارت الامور على غير ما يرام ان تكون هـذه ليلتي الاخيرة في فندق التريانون.

معظم اللوحات على السلم اما بيعت أو ردت لاصحابها. كـانت آمي. في أول عهدها بهـايتي ـ من الحكمـة بحيث اشترت لـوحـة من رسم هيبـوليت. وقـد احتفظت بها رافضا كل العروض الاميركية في السنوات الحلـوة والسنـوات المـرة كأنها بوليصة تأمين. كان هناك ايضا لوحة بريشة بنوا تمثل اعصـار «هـازل» الشهير في ١٩٥٤.. نهر عظيم في حالة فيضان، وجثة خنزير عائمة على ظهرها، ومقعد، ورأس حصان، وقاع النهر ديكور نباتي متعدد الاشكال والالـوان، بينما على الشط جندي وقس يصليان، والاعصار قد حطم كل الاشجار على الشاطىء فانطرحت صفا واحدا. وعلى البسطة الاولى كان هنـاك لـوحـة لفيليب اوجست تمثل موكب كرنفال.. رجال ونساء وإطفال يرتدون اقنعة زاهية.. وعند الصباح عندما تدخل اشعة الشمس من خلال نوافذ الطابق الاول تعطي الالوان الزاهيـة انطباعا بالمرح حيث يبدو الطبالون وقارعو الدفوف وكأنهم على وشك الارســال على الهواء. وفقط، عندما تقترب من اللوحة ستستطيع ان ترى الاقنعـة كم هي قبيحة كما ترى لابسيها يحيطون بجثة مكفنة بأكفـان المقـابـر.. واذا بـالالـوان البدائية تتلاشى كأن السحب قد تكـاثفت منحـدرة على سفـح كينسكـوف ولن يلبث الرعد حتى يصم الآذان.

ودار في خاطري، انه طالما هذه اللوحة في مكانها هنـا، فـاني احس بهـايتي قريبة جدا مني، وان البارون ساميـدي يمكن ان يكـون الآن في حـالـة تجـول بأقرب مقبرة، حتى لو كانت اقرب مقبرة في توتينج بيك.

دخلت اولا جناح جون باريمور. وعندما نظـرت من النـافـذة لم أر شيئـا. المدينة كانت غارقة في الظلام. فيما عدا كوكبة هائلة من الاضواء بالقصر وصف من المصابيح يحدد مكان الميـنـاء. ولاحظت ان مستر سميث تـرك وراءه كتـابـا نباتيا الى جانب السرير. ترى كم كتاب من هذا النوع حملـه معـه مستر سميث للتوزيع؟ فتحت الكتاب. وجدت على صفحته البيضـاء من الداخل رسـالة مكتوبة بخطه الاميركي المائل. «عزيزي القارىء المجهول. لا تغلق ضفتي هـذا الكتـاب،

وانما اقرأ قليلا قبل ان تنام. وستجد فيه بعض الحكمة.. صديقك المجهول»...

حسدت سميث على ثقته، وطهارة نواياه ايضا. واعطاني التوقيع بالحروف الاولى نفس الانطباع الذي يعطيه انجيل جدعون..

في الطابق الارضي، تحت، كانت غرفة أمي (حيث أنام الآن) وبين العديد من الغرف التي لم تشهد نزلاء منذ زمن بعيد كانت توجد غرفة مارسيل، والغرفة التي قضيت بها أول ليلة لي في بورتو برنس.. وقفز الى ذاكرتي صوت الجرس الرنان والشبح الاسود في البيجاما الحمراء والحرفان المطرزان على الجيب وصوته وهو يقول لي بمزيج من الاسى والاعتذار «انها تريدني».

دخلت الحجرتين، واحدة بعد الاخرى. لم يكن فيها شيء يمت بصلة الى ذلك الماضي البعيد. فقد غيرت الاثاث واعدت طلاء الجدران، بل اني غيرت ايضا من تكوينهما حتى يمكن اضافة حمام لكل منهما. كان الغبار ثقيلا على الادوات الصحية وصنابير المياه الساخنة المتوقفة عن العمل. دلفت الى حجرتي. جلست على السرير الضخم الذي كان سرير والدتي. ولعلني كدت اتوقع بعد كل هذه السنوات ان اجد على الوسائد بعض خيوط من شعرها الاحمر المثير. ولكن الحقيقة انها لم يبق منها شيء الا ما اخترت انا عامدا ان احتفظ به. على الطاولة الملاصقة للسرير علبة من الصدف اعتادت آمي ان تحتفظ فيها ببعض جواهرها المقلدة، تلك الجواهر التي بعتها الي حامد بدون مقابل. ولم يكن في العلبة الآن الا ميدالية المقاومة الغامضة وبطاقة البريد وعلى احد وجهيها القلعة المهدمة وعلى وجهها الآخر الرسالة الوحيدة التي تلقيتها منها والتي تقول فيها «سيكون جميلا ان تمر من هنا»، والتوقيع الذي فسرته باسم «مانون» ثم اللقب الذي لم يتح لها العمر ان تفسره لي: الكونتيسة دي لاسكوت فيلييرز. وكان هناك في العلبة ايضا رسالة بخطها ولكنها ليست موجهة الّي، وقد وجدتها في جيب مارسيل عندما انزلته. ولا أدري لماذا احتفظت بها ولا لماذا اعدت قراءتها مرة أو مرتين لانها لم يكن لها فيه إلا لانها تعمق احساسي باليتم. كانت

الرسالة تقول «مارسيل، اني اعلم اني امرأة عجوز، وكما تقول ان بي شيئا من ممثلة، ولكنني ارجوك ان تستمر في التظاهر. طالما نحن نتظاهر بأننا نهرب. انا اتظاهر بأني احبك مثل عشيقة. وانت تتظاهر بأنك تحبني مثل محب موله. انا اتظاهر بأنني مستعدة للموت في سبيلك، وانت تتظاهر بأنك مستعد للموت في سبيلي»..

قرأت الرسالة الآن مرة اخرى. احسست بأنها مصاغة بشكل مثير للعواطف. ولقد مات هو بالفعل في سبيلها.. اذن فيحتمل جداً انه لم يكن ممثلا كوميديا رغم كل شيء.. فليس بعد الموت دليلا على الاخلاص.

2

رحبت مارتا بي وفي يدها كأس من الويسكي كانت ترتدي ثوبا من التيل ذهبي اللون عاري الكتفين. قالت:

ـ لويس في الخارج وكنت احمل هذا الكأس لجونز.

قلت:

ـ دعيني آخذه له بنفسي، فسوف يحتاجه.

ـ أنت لم تأت من اجله؟

ـ بل من اجله أتيت. ان المطر قد بدأ بالكاد. ولن ينتظر سوى فترة قصيرة قبل ان يلجأ الحراس الى الداخل للاحتماء من المطر.

ـ ماذا يمكن بالله ان يفيد هناك؟

ـ ستكون فائدته عظيمة اذا كان صادقا. ان رجلا واحدا كان كافيا لانهاء الامر في كوبا.

ـ ما اكثر ما سمعت ذلك. ولكنه مجرد ترديد ببغاوات، وانا سئمت هذا.. هذه ليست كوبا.

ـ سيكون أفضل لك ان يذهب.

ـ هل هذا كل ما تفكر فيه؟

ـ أجل اعتقد ذلك.

لاحظت وجود خدش صغير أسفل عظمة الكتف مباشرة. سألت محاولا ان يبدو سؤالي وكأنه مجرد نكتة.

ـ ما الذي كنت تفعلينه بنفسك؟

ـ ماذا تعني؟

قلت وانا ألمس الخدش بأصبعي:

ـ هذا الخدش؟

ـ آه.. هذا؟ لا ادري.. فأنا اخدش بسهولة.

ـ اثناء لعب الجين رومي؟

وضعت الكأس جانبا وادارت ظهرها وهي تقول:

ـ خذ لنفسك كأسا.. سوف تحتاجه انت ايضا.

قلت وأنا اصب لنفسي كأسا.

ـ سوف اعود يوم الاربعاء في الساعة الواحدة اذا غادرت أوكايس عند الفجر. هل ستأتين الى الفندق؟ سيكون انجيل في المدرسة.

ـ ربما.. فلننتظر حتى نرى.

ـ نحن لم نلتق لعدة آيام. ولن يكون هناك جين رومي حتى تتصرفي مبكرا..

التفتت نحوي. كانت تبكي. قلت:

ـ ما لك؟

ـ قلت لك.. انا اخدش بسهولة.

ـ وماذا قلت أنا؟

يا للخوف! انه يفرز اشياء غريبة. عند بعض الناس يضاعف كمية الادرينالين في الدم. عند البعض الآخر قد يجعل رجلا يبلل سرواله.. اما انا، فالخوف يثير عندي رغبة عارمة في الايلام.. قلت

ـ يبدو انك حزينة جدا لفقد جونز.

قالت:

ـ ولماذا لا؟ انت تعتقد انك وحيد هناك في التريانون.. حسن، انا ايضا وحيدة هنا. وحيدة مع لويس الصامت ابدا في السرير المزدوج. وحيدا مع انجيل وانا احل له مسائل الحساب المملة التي لا تنتهي عندما يعود من المدرسة.. نعم. لقد كنت سعيدة بوجود جونز هنا، وبسماع الناس يضحكون من فكاهاته السخيفة وبلعب الجين رومي معه.. اجل. انا سوف افتقد جونز.. سأفتقده بشكل مؤلم.. وكم سأفتقده!!

ـ اكثر مما افتقدتيني عندما ذهبت الى نيويورك؟

ـ كنت اعلم انك ستعود. على الاقل انت قلت لي ذلك. وان كنت لم اعد متأكدة انك قلت ذلك فعلا..

★ ★ ★

ارتقيت درجات السلم ممسكا بكأسي الويسكي كلا في يد حتى اذا ما وصلت الى البسطة العليا أدركت انني لا اعرف أي الحجرات هي حجرة جونز، فناديت بصوت خافت حتى لا يسمعه الخدم.

ـ جونز.. جونز!

ـ أنا هنا..

دفعت الباب بقدمي، ودخلت.. كان جالسا على فراشه مرتديا ملابسه بالكامل بما في ذلك الحذاء الطويل. قال:

ـ سمعت صوتك تحت.. اذن فالليلة موعدنا يا والدي؟

ـ اجل.. ويستحسن ان تحتسي هذا.

قال وقسمات وجهه تقطر مرارة:

ـ هل يكفيني هذا؟

ـ لدي زجاجة كاملة في السيارة.

قال وهو يعد على أصابعه:

ـ لقد حزمت متاعي. لويس أعارني حقيبة منفاخ.. حذاء بديل، غيار للبنطلون، زوجان جوارب، قميص... آه.. ثم هناك ايضا علبة الكوكتيل.. كما ترى.. كان الذي اعطانيها...

ولكنه لم يكمل جملته. توقف فجأة كأنما تذكر انه روى لي قصتها الحقيقية ذات يوم. قلت، لاساعده على الخروج من المأزق

ـ يبدو انك لا تتوقع معركة طويلة..

ـ لا ينبغي ان احمل اكثر من رجالي. اعطني بعض الوقت وأنا كفيل بترتيب

الامدادات والتموين.

ولاول مرة لاحظت انه يتكلم بلغة المحترفين. ترى؟ هل أسأت تقدير الرجل من البداية؟ قال.

ـ وانت، تستطيع ان تساعدنا من مكانك هنا يا والدي عندما ارتب نظاما سليما للاتصال.

ـ فلنفكر الآن في الساعات القليلة القادمة. فسوف يتعين علينا ان نخترق صفوفهم.

ـ لا تدري كم انا شاكر لك..

مرة اخرى ادهشتني كلماته..

ـ انها فرصة عظيمة لي.. أليس كذلك؟ وان كنت مرعوبا حتى ركبي.. لا سبيل الى انكار ذلك..

★★★

جلسنا صامتين جنبا الى جنب نحتسي كأسينا ونستمع الى هزيم الرعد الذي كان يهز السقف هزا. ولقد كنت واثقا تماما ان جونز سوف يتراجع حين تأتي اللحظة الحاسمة حتى اني وجدت نفسي حائرا.. ماذا يمكن ان افعل الآن.. ولكن جونز اخذ زمام المبادرة قائلا وهو ينهض:

ـ اريد ان اقول وداعا ـ اذا اذنت لي ـ لضيفتي العزيزة..

وعندما عاد، لاحظت اثرا خفيفا لروج احمر على زاوية فمه. هل كانت بقايا قبلة على الفم؟ أم على الخد؟ كان من الصعب ان اعرف. قال:

ـ الشرطة آمنون في المطبخ يتجرعون الروم.. وافضل لنا ان ننطلق الآن.

تبللت ثيابنا في اللحظة التي ظهرنا فيها خارج الباب، والتفت انا لاقول وداعا لمارتا. وحتى في هذه اللحظة لم استطع ان اقاوم السؤال.

ـ ألا زلت تبكين؟

ـ كلا.. بل هو المطر.

كان من حقي ان أصدق انه المطر. فقد كانت قطراته تسيل على وجهها مثلما تسيل على الجدار خلفها.. سألت:

ـ ماذا تنتظر؟

قلت:

ـ ألا استحق قبلة مثل جونز؟

فقدمت خطوة، ووضعت فمها على خدي، وتملكني الاحساس بأنها قبلة باردة لا معنى لها.. قلت بصيغة الاتهام.

ـ أنا معرض للخطر أيضا..

قالت:

ـ ولكني لا احب دوافعك..

قلت، وكأنما شخص آخر اكرهه كأقصى ما تكون الكراهية هو الذي يتكلم ناطقا من فمي قبل ان استطيع اسكاته..

ـ هل ضاجعت جونز؟

ندمت على السؤال حتى قبل ان انطق الكلمة الاخيرة فيه. ولكم كان سيسعدني لو ان هزيم الرعد المدوي اغرق السؤال فلم تسمعه. فقد وقفت منتصبة، مسندة ظهرها الى الباب كأنها تواجه كتيبة اعدام. ولا أدري لماذا

تمثلت لي لحظتها صورة ابيها قبل اعدامه.

ترى؟ هل وجه السباب الى قضاته من فوق منصة المشنقة؟ هل كان وجهه ناطقا هكذا بالغضب والاحتقار!. قالت:

ـ منذ عدة أسابيع وانت لا تكف عن توجيه هذا السؤال لي في كل مرة اراك فيها. حسن.. ان الجواب نعم.. نعم.. هذا ما تريد ان تسمعه. أليس كذلك؟ نعم.. انا ضاجعت جونز..

أسوأ ما في الامر انني لم اكن واثقا من انها تقول الصدق.

3

لم تكن هناك أضواء عند ميري كاترين ونحن نمر بماخورها لكي ننطلق في الطريق الجنوبي، أو لعلنا لم نر الاضواء بسبب كثافة الامطار.

كنت أقود السيارة بسرعة عشرين ميلا فى الساعة وكأني معصوب العينين. غير ان هذا كان هو الجزء السهل من الطريق، اقيم بمعرفة مهندسين اميركيين ضمن الخطة الخمسية التي شبعت دعاية واعلانا. ولكن الاميركيين عادوا لبلادهم وتوقف رصف الطريق بعد سبعة أميال من بورت برنس. وهنا كنت اتوقع وجود حاجز طريق. ولكنني فوجئت عندما التقطت انواري الكاشفة عربة جيب خالية الى جانب كوخ للميليشيا. فكرت انه اذا كان رجال الطونطون ماكوت هنا فانهم ولا شك يحتمون من المطر في الداخل، لم تكن امامي فرصة لاضاعف سرعتي ولكن لم يخرج من الكوخ احد. اصغيت السمع متوقعا صوت مطاردة ولكني لم اسمع سوى دقات طبول الامطار. والطريق العظيم لم يعد الآن اكثر من درب ريفي موحل. وتراجعت سرعتنا الى ٨ أميال في الساعة ونحن نقفز من صخرة الى صخرة، ونخوض حفرة موحلة بعد حفرة.. ومرت بنا ساعة وبعض ساعة ونحن صامتان لا نستطيع ان نتكلم من فرط الاهتزاز.

تحطم حجر تحت السيارة بصوت مسموع وخيل الي لحظة ان شيئا قد انكسر، وجاءني صوت جونز.

ـ اين استطيع ان اجد الويسكي؟

وعندما وجد الزجاجة تناول منها جرعة ثم ناولني اياها. وكانت النتيجة ان انزلقت السيارة جانبا وغاصت العجلتان الخلفيتان في بركة عميقة من الوحل، واستغرق الامر منا ساعتين قبل ان نستطيع التحرك.. سأل جونز:

ـ هل سنصل في الموعد؟

ـ أشك في ذلك. ربما تعين عليك ان تختبىء حتى مساء الغد. على أية حال، لقد احضرت بعض السندوتشات معي...

قهقه ضاحكا..

ـ هكذا فلتكن الحياة!! هل تعلم؟ لقد كنت دائما احلم بشيء كهذا.

ـ كنت اعتقد انها الحياة التي اعتدتها دائما.

اخلد الى الصمت مرة اخرى، كأنما ادرك ان فيما يقول شيئا من الحماقة!

★ ★ ★

فجأة، وبدون أي سبب على الاطلاق تحسن حال الطريق واخذ المطر يخف بسرعة وانا ادعو الله الا يتوقف تماما قبل مرورنا بنقطة المرور التالية، فبعدها لا توجد اية مشاكل قبل المقبرة الواقعة على هذه الناحية من بلدة اكوين.. قلت:
ـ ومارتا؟ كيف سارت امورك معها؟

قال بحرص:

ـ انها فتاة رائعة..

ـ انطباعي انها كانت مولعة بك.

كانت علامة منذرة بالسوء، ان اجد الجو يصفو احيانا الى درجة اني كنت استطيع ان ارى ومضات مياه البحر من خلال اشجار النخيل كأنها ومضة عود كبريت.. وقال جونز:

ـ لقد كنا أشبه ببيت اشتعلت فيه النيران.

ـ تعرف؟ اني احيانا كنت احسدك. ولكن ربما لم تكن من الطراز الذي يلائمك..

كان الامر اقرب الى انتزاع ضمادة من فوق جرح دام، كلما شددتها ببطء اكثر كلما استمر الالم وقتا اطول. ولكني لم اكن املك الشجاعة لانتزع الضمادة مرة واحدة، كما اني كان يتعين عليّ ان تظل عيني على الطريق طول الوقت. قال جونز:

ـ يا والدي.. ان كل النساء يلائمنني.. ولكن هذه بالذات كانت شيئا خاصا..

ـ هل تعرف انها ألمانية؟

ـ ان الالمانيات يفهمن بعض الاشياء..

ـ مثل تين تين؟

قلت ذلك محاولا ان يبدو سؤالي مجرد سؤال موضوعي عارض.

ـ تين تين ليست من نفس الطبقة يا والدي.

كنا أشبه بطالبين يناقشان تجربة علمية.. ولم افتح فمي بكلمة اخرى لفترة طويلة.

★★★

الآن نحن نقترب من «بيتي جواف». كنت اعرف المكان منذ الايـام الخـوالي. وتذكرت ان مركز الشرطة يقع على نـاصيـة الطـريق، وان المفـروض ان اقـود السيارة الى هناك لاسجل مروري. وان كنت آمل ان يبقى المطـر ثقيـلا بما فيـه الكفاية حتى يبقى رجال الشرطة داخـل مقـرهـم.. فمن غير المحتمـل ان يـرابط رجال الميليشيا هنا.

على جانبي الطريق تراقصت الاكواخ المنقوعة في المـاء، تحت انـوار السيـارة والطين والقش يتفككان تحت وابل المطر ولا اثر هناك لمصبـاح واحـد مضيء، أو كائن آدمي يرى.. وفي الساحات الصغيرة كانت مقابر الموتى تبدو اكثر صـلابـة من اكواخ الاحياء. فالأموات يحصلون على بيـوت من طبقـة ارقى من الاحيـاء.. بيوت من طابقين ونوافذ لها فتحات حتى توضع فيها الاطعمة والشموع في ليلة الاحتفال بعيد كل القديسين. ولكني لم ادع شيئا يؤثر على تركيزي حتى مضينا بعيدا عن «بيتي جواف».. وعلى ناصية الطريق كشفت انوار السيارة عن ساحـة اصطفت فيها صفوف من الصلبـان الصغيرة التي بـدت اشبـه بخصـلات من الشـعر الاشقر انتزعت انتزاعا من رؤوس نسـاء مدفونات تحت الارض..

هتف جونز.

ـ بحق الاله. ما هذا؟

ـ مجرد ألياف السيزل.. هكذا يجففونها.

ـ يجففونها؟ في هذا المطر؟

ـ من يعلم ماذا جرى لصاحبهـا.. ربما قتـل، وربما هـو في السجن، وربما هرب الى الجبال.

ـ يا له من مشـهد رهيب يا والدي.. شيء أشبه بروايات ادجار آلان بـو انـه أقرب الى الموت من المقابر ذاتها.

لم يكن هناك آثر لمخلوق في الشارع الرئيسي في «بيتي جواف». مررنا بشيء يسمى ملهى يويو ولافتة كبيرة لمشدات ميري كاترين ومخبز صاحبه يدعى بروتوس وكاراج يملكه شخص اسمه كاتو.. وكأن الذاكرة العنيدة لهذا الشعب الاسود متمسكة بذكرياتها عن جمهورية افضل..

★★★

وأخيرا. تنهدت مرتاحا ونحن نخرج الى الخلاء مرة اخرى ونقفز من صخرة الى صخرة.. قلت

ـ لقد نجحنا..

ـ وصلنا تقريبا؟

ـ اجتزنا منتصف الطريق أو نكاد.

ـ اعتقد اني يمكن ان احصل على جرعة ويسكي اخرى، يا والدي:

ـ اشرب ما شئت. ولكن علينا ان نجعلها تكفي كل الطريق.

ـ قد يستحسن ان انتهي منها قبل ان انضم للاولاد. فلن يكون الويسكي مقبولا عندما يبدأ العمل معهم.

تناولت لنفسي جرعة عسى ان تمنحني الشجاعة. ومع ذلك ارجأت السؤال الصريح، وبدلا منه سألته محاذرا:

ـ والزوج؟ كيف سارت امورك معه؟

ـ طيبة.. فأنا لم أسرق شيئا من غلاله.

ـ ألم تفعل ذلك؟

ـ انها لم تكن تنام معه منذ فترة طويلة.

ـ كيف عرفت ذلك؟

قال وهو يتناول جرعة اخرى من الزجاجة بصوت مسموع:

ـ لدي أسبابي..

كان الطريق الآن يتطلب يقظتي التامة، وسرعتنا قد تناقصت حتى اصبحت تعادل سرعة المشي على قدمين، وانا أتلوى بين الصخور لاتحاشى الارتطام كأني مهر في السباق.

قال جونز:

ـ كان أولى بنا ان نسافر بعربة جيب.

ـ واين كنا نستطيع ان نجد عربة جيب في بورتو برنس!.. هل نستعيرها من الطونطون ماكوت؟

وهنا تفرع الطريق، تركنا البحر خلفنا وصعدنا مبتعدين عنه الى التلال. واختفى الدرب في الوحل لفترة حتى لم نعد نستطيع ان نميزه. بعد ان مضى علينا الآن نحو ثلاث ساعات والساعة تقترب من الواحدة بعد منتصف الليل. قلت:

ـ خطر الميليشيا قليل الآن.

ـ ولكن المطر توقف.

ـ انهم يخافون التلال.

قال ساخرا:

ـ التي ستأتي منها نجدتنا..

درجة حرارتي اليوم....

قاطعته

ـ ما هذا الذي تلعب به؟

اجاب قبل ان يوجه الحديث لأمه:

ـ لعبة سحرية.. لغز.. هل هناك احد آخر تحت؟

ـ مسيو حامد.. وهنري..

ـ كنت اود ان يأتيا ليرياني.

ـ ربما لم يصابا ابدا بالغدة.. ولذلك يخشيان العدوى.

ـ هل اصيب مستر براون بالغدة؟

ترددت مارتا. والتقط الصبي ترددها كما يفعل المحقق مع متهم بجريمة قتل. فأسرعت أقول.

ـ أجل.. .

سأل، مغيرا الموضوع بوضوح غير خاف:

ـ هل يلعب مسيو براون الورق؟

اجابت متلعثمة كأنما تخشى الوقوع في كمين:

ـ كلا.. أقصد.. لا اعرف..

قلت.

ـ انا لا احب اوراق اللعب.

ـ ماما تحب اللعب. كانت تذهب تقريبا كل ليلة لتلعب قبل ان تسافر انت.

قالت مارتا.

ـ علينا ان نذهب الآن. سيأتي بابا في غضون نصف ساعة ليقول لك طبت مساء.

ناولني اللعبة قائلا:

ـ ركبها..

كانت عبارة عن علبة مكعبة صغيرة جدرانها زجاجية وبداخلها صورة لمهرج، بها جيبان مفروض ان يكونا عيني المهرج، وحبتان صغيرتان من الصلب وعليك ان تهز العلبة لتستقر الحبتان في الجيبين. فرحت اهز العلبة يمينا ويسارا وكلما نجحت في وضع حبة في احدى الجيبين واخذت احاول الاخرى فرتِ مني الحبة الاولى، والصبي يراقبني بعينين ساخرتين، خاليتين من الود.

ـ آسف.. انا لا اجيد هذا النوع من الالعاب.

قال:

ـ أنت لا تحاول كما يجب.. استمر.

احسست بأن الوقت المتاح لي لأختلي بمارتا يتسرب مثلما تتسرب رمال الساعة الرملية، واكاد اوقن انه ايضا كان يراه كذلك، والحبتان الملعونتان تتسابقان داخل الجدران الزجاجية وتدوران حول الجيبين دون ان تسقطا فيهما.

ـ ها انذا كسبت واحدة..

قال باصرار لا يخلو من الحقد:

ـ لم يكن بها احد.

ـ نحن لا ندري من كان داخل الكوخ يراقبنا..

ـ على أية حال ليس لدينا أي خيار. نحن لا نستطيع ان نخطو خطوة بدون ضوء.. ثم في هذا الطريق سوف نسمع أية سيارة وهي تقترب من على بعد عدة أميال.

عندما وجهت ضوء المصباح الى جانب الطريق ثم على الجـانب الآخـر لم أر الا الصخور والاوحال. قلت:

ـ يجب ألا نفقد الطريق الى المقبرة والا ظللنـا نتخبط حتى اكـوين.. وهنـاك موقع عسكري في اكوين.

سمعت انفاسه الثقيلة تلهث، فعرضت عليـه ان احمل عنـه حقيبتـه المنفـاخ لفترة. ولكنه رفض قائلا.

ـ أنا لست في كامل لياقتي.. هذا كل شيء.
وسكت لحظة. ثم أضـاف:

ـ لقد تفوهت بكثير من الهراء ونحن في السيـارة.. انـا في الحقيقـة لا اقـول الصدق دائما..

بدا لي هذا كما لو كان تصريحا مقصودا لتخفيف التوتـر.. ولكني تعجبت.. لماذا يدلي به في هذا الوقت بالذات؟

اخيرا التقط ضوء الكشاف ما كنا نبحث عنه. مقبرة على يميني تمتد صاعدة على السفح في الظلام. كانت اشبه بمدينة اقزام، شارعا بعد شارع وصفوفا من البيوت الصغيرة.. بعضـها كبير حتى يمكن ان يسعنا، والبعض الآخـر صغير لا يكاد يتسع لطفل رضيع، وكلها مبنية بالحجر الرمادي الذي سقط عنـه الطـلاء

من زمن. أدرت مصباحي للجانب الآخر من الطريق حيث قيل لي اني سأجد كوخا صغيرا مهدما. ولكن الاخطاء دائما تحدث مع المواعيد المضروبة، فقد كان المفروض ان يكون الكوخ المهدم في مواجهة أول زاوية للمقبرة عند وصولنا. ولكن لم يكن هناك للكوخ أي اثر.

سأل جونز:

ـ هل هي مقبرة اخرى غير المقصودة؟

ـ لا يمكن. فنحن الآن لا بد ان نكون قريبين من اكوين.

واصلنا السير في الدرب الموحل، واذا بنا نرى في الطرف الآخر من المقبرة كوخا، ولكنه لم يبد مهدما تحت ضوء الكشاف. كما توقعت. ومع ذلك لم يكن امامنا الا ان نحاول. ولو كان يعيش فيه أي مخلوق فلا بد انه لن يقل عنا رعبا. قال جونز:

ـ كم أتمنى لو كان معي بندقية.

ـ اما انا فسعيد لذلك. ولكن ماذا عن قتالك بدون سلاح؟

غمغم شيئا لم أتبينه ولكنه بدا كأنه يقول «كلام فارغ».

لم يكن هناك احد بداخل الكوخ عندما دفعنا الباب لنفتحه. ومن كوة مفتوحة في السقف بدا لون ظلمة المساء الشاحبة. قلت:

ـ لقد تأخرنا ساعتين. ربما جاء، وذهب.

تهالك جونز فوق حقيبته المنتفاخ قائلا وهو يلهث.

ـ كان يجب ان نبكر اكثر من ذلك

ـ كيف كان يمكننا ذلك، ونحن مرهونون بالعاصفة؟

ـ وما الذي سنفعله الآن؟

ـ عندما يطلع النهار سأعود الى السيارة. ليس هناك أي رجاء في سيارة معطوبة على هذا الطريق. واحيانا، تمر اثناء النهار حافلة تسير بين بيتي جواف واكوين، وربما استطيع ان اجد سيارة تلتقطني من هناك، أو لعل هناك حافلة اخرى يمكن ان تصل الى اوكايس..

قال وفي صوته رنة حسد:

ـ هذا جميل.. ولكن ماذا عني أنا؟

قلت بجفاء:

ـ ستبقى هنا حتى مساء الغد، فأنت في الادغال المألوفة لك الآن..

تطلعت للخارج من المدخل. لم يكن هناك شيء يرى أو يسمع، ولا حتى كلب نابح. قلت:

ـ انا لا احب البقاء هنا. فلنفرض ان غلبنا النعاس، وجاء احد ما؟

الجنود كما تعرف يطوفون احيانا بهذه الطرق.. أو لنفرض ان فلاحا جاء ليعمل. انه سوف يبلغ عنا.. وما الذي يمنعه؟ اننا بيض..

قال جونز:

ـ يمكننا ان نتناوب الحراسة.

ـ هناك طريقة افضل.. ننام في المقبرة. لن يأتي احد هناك اللهم الا البارون ساميدي.

عبرنا ما يسمى بالطريق، وتسلقنا جدارا حجريا منخفضا فوجدنا نفسينا في شارع البيوت الصغيرة حيث لا يزيد ارتفاع المنزل عن مستوى الكتف. وكان

صعودنا للسفح بطيئا بسبب حقيبة جونز المنفاخ. وفي داخل المقبرة احسست بأننا الآن اكثر امانا، ووجدنا منزلا اكثر طولا منا. وضعنا زجاجة الويسكي على رف نافذة وجلسنا بظهرينا الى الجدار. قال جونز بصوت آلي:

ـ كم من ليال قضيتها في اماكن أسوأ!

قلت.

ـ اذا رأيت قبعة عالية بين القبور فسوف يكون هذا هو البارون ساميدي.

ـ هل تعتقد بوجود العفاريت (الزومبي)؟

ـ لا ادري.. هل تؤمن انت بالاشباح؟

ـ دعنا لا نتكلم عن الاشباح يا والدي. ولنتناول جرعة اخرى من الويسكي.

تهيأ لي اني سمعت حركة. اضأت مصباحي الكشاف فظهر في نوره الشارع الممتد بين القبور وانعكس الشعاع على عيني قطة استجابت من فورها للضوء بالقفز فوق سطح قريب، ثم اختفت.

ـ هل من الصواب ان نظهر ضوءا يا والدي؟

ـ لو كان هنا آي مخلوق، فانه هو الذي سيولي الفرار من فرط الرعب. ليس هناك افضل من ان تحفر لنفسك مكانا هنا حتى الصباح..

لم تكن عبارة لائقة بالمرة لكي تقال في مقبرة. ومع ذلك اضفت:

ـ لا أظن احدا يأتي هنا الا لكي يدفن ميتا.

تناول جونز جرعة اخرى، فقلت محذرا:

ـ لم يبق سوى ربع الزجاجة، ولا زال الغد كله امامك.

ـ لقد ملأت مارتا زجاجة علبة الكوكتيل.. لم اعرف في حياتي فتاة حسنة التدبير بهذا الشكل.

سألت:

ـ أو رفيقة مضجع بهذا الشكل؟

ـ اطبقت على كلينا لحظة صمت. دار في خلدي انه يستعيد لذاكرته لحظات المتعة. قال:

ـ اسمع يا والدي.. اللعبة قد تحولت الى جد.

ـ أي لعبة؟

ـ عسكر وحرامية!! الآن اعرف لماذا تشتد بالناس الرغبة في الاعتراف قبل الموت. ان الموت أمر رهيب شديد الجدية. لدرجة ان المرء قد لا يشعر بأنه يستحقه عن جدارة.. وكأنه وسام..

ـ الديك الكثير لتعترف به؟

ـ كلنا لدينا.. ولن يهمني الاعتراف لقس أو إله..

ـ لمن إذن؟

ـ لأي احد كان.. لو كان معي كلب هنا بدلا منك لاعترفت للكلب.

لم أكن اريد ان اسمع اعترافه. لم اكن اريد ان اسمع كم مرة ضاجع مارتا.. قلت ساخرا.

ـ هل اعترفت لهاموش؟

ـ لم تسنح فرصة. فاللعبة لم تكن قد تحولت الى جد حينذاك.

سمعت القطة تقفز فوق الاسطح. ومرة اخرى اضأت مصباحي.. وانعكس نوره على عينيها ولكنها في هذه المرة لم تقفز خائفة وانما تمددت فوق حجر واخذت تلعق اظافرها. فتح جونز حقيبته المنفاخ واخرج منها شطيرة قسمها نصفين وألقى بأحدهما في اتجاه القطة التي فرت هاربة كأنما القى عليها حجرا. قلت:

ـ أولى بك ان تقتصد في زادك.. فأنت في حاجة الى تموين.

قال، وهو يضع نصف الشطيرة جانبا.

ـ الشيطانة المسكينة جائعة

ومرة اخرى يطبق علينا الصمت. جونز، وانا والقطة، حتى قطعه هو بقوله:

ـ اني كذاب بشع يا والدي..

ـ هذا امر اعرفه.

ـ ما قلته عن مارتا. ليس فيه ذرة واحدة من الصدق. انها واحدة من خمسين امرأة لم اجد عندي ابدا الجرأة على لمسهن

ساءلت نفسي.. هل هو يقول الصدق الآن، أم يريد ان يرفع مستوى اكاذيبه الى مرتبة من الكذب اكثر نبالة. لعله استنتج شيئا من سلوكي جعله يدرك الامر كله.. ولعله احس بالاشفاق نحوي؟ يا إلهي!! هل يمكن ان ينزل المرء الى احط من هذا الدرك.. ان يكون محل اشفاق من جونز؟ استطرد قائلا:

ـ انا دائما اكذب فيما يتصل بالنساء. عندما ضاجعت تين تين ارتفع قدرها على لساني عندما اتحدث عنها لتصبح واحدة من نجوم الطبقة الاوستقراطية في هايتي.. هل تعلم يا والدي انني لم اضاجع في حياتي امرأة غير مدفوعة الاجر؟ أو على الاقل بدون وعد بدفع الاجر.. ففي بعض الاحيان قد يضطر المرء الى

ـ لا تستمع اليه.

قفزت الى مخيلتي وهي تضم ركبتها الى صدرها صورة الدكتـور فيليبـوت وهو ملقى تحت سلم القفز في قاع حوض السباحة. لمـاذا يكـون المـوت والحب والولادة شكل واحد.

وجدتني عاجزا عن الحركة.. فقط سمعت صوت اقدام السفير. قالت:

ـ لا تهتم.. لن يأتي الى هنا.. ولكن لم يكن السفير هـو الـذي جمد اطـرافي. نهضت. قالت·

ـ لا يهم.. كانت مجرد فكرة سيئة من جانبي.. هذا كل شيء.

ـ اذن.. تمثال كولمبوس؟

ـ لا.. سوف اجد شيئا افضل.. اقسم ان افعل.

تقدمتني خارجة من الغرفة. وهتفت.

ـ لويس..

ظهر السفير خارجا من مخدعهما وبين يديه لعبة انجيل.

ـ نعم يا عزيزتي

ـ كنت اطلع مستر براون على حجرات هذا الطابق. يقـول اننـا نستطيـع ان نقبل عددا محدودا من اللاجئين.

لم يكن في صوتها رنة زيف واحدة. كانت طبيعية تماما. وتذكـرت غضبهـا ونحن نتحدث عن الممثلين الكوميديين فبدت لي الآن انهـا ابـرع الممثلين جميعـا. فأنا نفسي كنت اقل منها بـراعـة، حيث احسست بـالجفـاف في حلقي وخـانني صوتي بالفعل وانا اقول·

ـ يجب ان اذهب الآن.

قالت مارتا.

ـ لماذا؟ ما زال الوقت مبكرا.. ونحن لم نرك منذ زمن طويل.. أليس كذلك يا لويس؟

ـ آسف.. ولكن لدي موعدا لا استطيع ان اخلفه.. لم اكن اعلم لحظتها اني ما قلت الا حقا

(٣)

اليوم الطويل لا يريد ان ينتهي. ومنتصف الليل مضى عليه ساعة، أو ربما دهر بأكمله. درجت بسيارتي على حافة البحر. الطريق كله حفر والناس عددهم قليل جدا، وكأنهم لم يعلموا برفع حظر التجول، أو لعلهم يعتقدون أن في الامر فخا من نوع ما. على يميني صف من الاكواخ الخشبية مقامة على مساحات صغيرة جدا من الأرض، ومسورة بأسوار منخفضة وتنمو في بعضها اشجار نخيل. وثمة شمعة عارضة تلقي ظلالها الباهتة على صحبة صغيرة من الرجال العاكفين على اقداح الروم كأنما ينوحون فوق نعش. ورجل طاعن في السن يرقص في وسط الطريق على نغمة موسيقية متقطعة، ضغطت قدمي على الفرامل بقوة توقفت السيارة، أقبل نحوي العجوز تسبقه قهقهة من خلال نافذة السيارة، هنا في هذه الليلة يوجد رجل واحد على الاقل في بورتو برنس لا يخنقه الخوف. لم أفهم لماذا يضحك، فاستأنفت السير.

كان قد مضى عامان، أو اكثر منذ زرت بيت ميري كاترين آخر مرة. ولكني كنت في حاجة اليها الآن كان عجزي يتمدد في داخلي ويحتاج الى ساحر.. أو ساحرة.. لكي تزيحه. مرت بخاطري صورة تلك الفتاة في الشارع الخامس والستين بشرق نيويورك ولكني عندما فكرت رغما عني في مارتا التهب

غضبي.. فلو كانت استسلمت لي حينما كانت رغبتي فيها مشتعلة لما حدث لي ما حدث.

قبل بيت ميري كاترين تماما يتفرع الطريق الى شارعين، الاول مسفلت ـ من باب التجاوز ـ لانه ينتهي بعد بضعة أمتار، (ربما لان الميزانية نفدت، وربما لأن بعضهم لم يتقاض المعلوم)..

اما الثاني، والمفروض انه الطريق الاصلي، فكان يتجه جنوبا، ولا يكاد يصلح الا لسيارات الجيب. وقد فوجئت بوجود حاجز، حيث لا يمكن تصور أي غزو قادم من الجنوب، توقفت تحت لافتة كبيرة تقول «الخطة الاميركية الهايتية الخمسية المشتركة ـ الطريق الجنوبي العظيم»، بينما راحوا يفتشون بقوة أدق كثيرا من المعتاد. ولكن الاميركيين لم يتركوا وراءهم من الخطة الخمسية شيئا سوى اللافتة التي تطل على البرك والقنوات الآسنة واكوام الحجارة وجثة كراكة معطلة لم يقم احد بانقاذها من الوحل.

أخيرا اطلقوا سراحي، فأخذت الطريق الايمن حتى وصلت الى بيت ميري كاترين. كان كل شيء هادئا تماما، حتى أني فكرت للحظة ما اذا كان الامر يستحق ان انزل من سيارتي.

كان البيت عبارة عن كوخ طويل اشبه بحظيرة جياد، ينقسم الى الكبائن التي تجرى فيها «اللقاءات». وثمة ضوء منبعث من المبنى الرئيسي حيث تستقبل ميري كاترين زوارها وتقدم لهم المشروبات. ولكن لا موسيقى ولا رقص. ومرت لحظة كاد فيها الاخلاص يغويني وكدت بالفعل أواصل المسير. ولكني كنت قد حملت علتي معي طوال الطريق الوعر مسافة اطول من ان اصرف النظر عما اعتزمته الآن، ولذلك فقد تقدمت حذرا على طول المبنى المظلم في اتجاه الضوء، وانا احس بكراهية متزايدة نحو ذاتي.

وبحماقة لا معنى لها ادرت السيارة في اتجاه الجدار حتى تبقى في الظلام،

ولكني اصطدمت بسيارة جيب مطفأة الانوار، وسائقها نائم على عجلة القيادة ومرة اخرى درت بسيارتي لاعود ادراجي. ففي بورتو برنس لا تكاد توجد اية سيارات جيب غير مملوكة لشياطين الطونطون ماكوت. واذا كان الطونطون ماكوت يستمتعون هذه الليلة مع فتيات ميري كاترين، فلا مكان اذن لاي «زبون» من الخارج!

ولكن كراهيتي لذاتي جعلتني اكثر عنادا. فقررت ان ادخل. ودخلت. ويبدو ان ميري كاترين سمعت صوت الاصطدام فخرجت لتلقاني على العتبة، وهي تحمل بيدها مصباحا زيتيا. كان لها وجه راهبة طيبة في فيلم من افلام اقاصي الجنوب، وجسم نحيل رقيق من المؤكد انه كان جميلا ذات يوم. ولم يكن وجهها يختلف عن طبيعتها. فقد كانت اطيب امرأة عرفتها في بورتو برنس. وهي تزعم دائما ان فتياتها جئن من احسن العائلات، وانها انما تساعدهن لكي يكسبن مجرد مصروف جيب. ويكاد المرء يصدقها، لانها تعلم فتياتها كيف يتحلين بأفضل الشمائل والسلوك في حياتهن العامة. وعندما يدخل الزبائن المقصورات يجدون انفسهم مضطرين الى التصرف بمنتهى الادب، بل ان المرء وهو يشاهد الرقص يكاد يتخيل ان هذا هو الحفل الختامي لمدرسة بنات. وذات مرة من ثلاث سنوات شهدتها تنتفض كالنمرة لتنقذ احدى فتياتها من يد احد الوحوش. كنت احتسي قدحا من الروم عندما دوت صرخة ثاقبة من ناصية المكان الذي نسميه الحظيرة. وقبل ان أقرر ما يجب ان افعله كانت ميري كاترين تخطف ساطورا من المطبخ وتطير كالصقر عندما ينقض على فريسته. وكان غريمها مسلحا بسكين، ويفوقها في الحجم مرتين، وسكران للآخر (لا بد انه كان يخفي قنينة في جيبه، لان ميري كاترين لم تكن لتسمح له ابدا بأن يخرج مع فتاة وهو في هذه الحالة). ومع ذلك فما ان رآها مندفعة نحوه حتى دار على عقبيه وولى الادبار.

وبعدها بقليل، رأيتها من نافذة المطبخ وانا في طريقي للانصراف، وهي

كذلك؟

وهكذا كنت هناك اتأكد من عمليات الانتقال، وبطاقات السفر لطلاب الترفيه من الدرجة الثالثة.. ولكن مستر كوارد كان استثناء. وكان يتعين علي ان اراقب الفتيات جيدا كنت اسميهن البنات، مع انهن كن اقرب الى قدامى المحاربين! وكان مكتبي يفوح برائحة غرف الملابس الملحقة بالمسرح.

قلت.

ـ اذن. فقد غطت رائحة الطلاء على رائحة الماء؟

ـ انت على صواب ولم يكن هذا عدلا.. أليس كذلك! ان كل ما كنت اريده هو ان اعطى فرصة!

خطر ببالي انه في كل حياته الملتوية كان واقعا في حالة حب يائس مقنع بالفضيلة يتابع المحبوبة عن بعد على أمل ان تلحظ وجوده، وربما كان أشبه بطفل يخطىء كي يشد انتباه الآخرين.

قلت:

ـ وها هى الفرصة قد جاءتك.
ـ بفضلك أنت يا والدي.

ـ كنت اعتقد ان أمانيك كلها منحصرة في نادي الجولف.

ـ هذا صحيح . ولكن هذا كان حلمي الثاني.. أوليس من الافضل ان يكون للمرء حلمان؟ فربما يتبخر الحلم الاول؟

ـ آه.. اعتقد ان هذا صحيح.

ان اصنع ثروة كان حلمي الازلي . ترى هل كان لدي حلم ثان؟.. غير أني لم

تكن لي رغبة في هذه اللحظة للبحث عن هذا الحلم وما يمكن ان يكون، فقلت:

ـ يستحسن ان تحاول النوم. فالنوم نهارا لن يكون آمنا.

نام جونز في الحال تحت القبر مكوما على نفسه كالجنين. وكانت هذه ميـزة شارك فيها نابوليون، ولا ادري ما اذا كان هناك آخرون يتمتعون بنفس الميـزة. ولقد فتح عينيه مرة واحدة هامسا «هذا مكان طيب» ثم راح في سبات عميق. اما انا، فلم استطع ان ارى أي شيء طيب في المكان، ومع ذلك، فقد نمت بـدوري في النهاية.

مرت ساعتان قبل ان يوقظني شيء ما، توهمت لحظة انـه صـوت سيـارة، ولكنني ما لبثت ان رجحت انه من المستبعد جدا ان تمر سيارة بهـذا المكـان في وقت مبكر، وان كانت ظلت تلازمني بقايا حلم غريب لعل مصدره الصوت الذي ايقظني، فقد رأيت نفسي وكأني اقود سيارتي عبر نهر فرش قاعه بـالصخـور. تمددت ساكنا ارهف السمع واتطلع الى سماء البكور الرمادية.. وشواهد القبـور منتصبة حولي كعلامات تعجب.. وان هي الا لحظـات حتى تشرق الشمس.. وآن الاوان لكي اعود الى السيارة. وعندما تأكدت من السكون، لكزت جونـز لينهض قائلا:

ـ أفضل ألا تنام بعد الآن.

ـ سوف أمشي قليلا معك.

ـ كلا. يجب الا تفعل. من اجلي ارجـوك. يجب ان تبقى بعيـدا عن الطـريق حتى يحل الظلام. فسرعان ما سيكون الفلاحون في طريقهم لتسويق بضاعتهم، وسوف يبلغون عن أي لون ابيض يرونه.

ـ اذن فسوف يبلغون عنك؟

ـ انا عندي دليل براءتي.. سيارة معطوبة على الطـريق المؤدي الى أوكـايس.. اما انت فعليك ان تقنع بمصاحبة القطة حتى يحل الظلام. وبعـدهـا، اتجـه الى الكوخ وانتظر فيليبوت هناك.

أصر جونز على ان يصافحني. في ضـوء النهـار الادعى الى التفكير العـاقـل وجدت مشاعري التي احسستها نحوه بالليل تتسرب سريعا. وطافت خواطـري حول مارتا. وكأنما قرأ افكاري أو نصفها على الاقل فقال:

ـ ابلغ تحياتي لمارتا، ولويس، وانجيل.

ـ وهاموش؟

ـ كم كانت اياما طيبة.. كما لو كان المرء يعيش بين أسرته..

★★★

خطوت نازلا في الشارع الطويل وسط القبور في اتجاه الطريق العام دون ان اتخذ الحذر. كنت افكر.. ما من سبب يدعو مارتا الى ان تكـذب، أم تـرى كـان لديها سبب؟ وقع بصري على سيارة جيب في مواجهة سور المقبرة. ولكن مرآهـا لم يحول مسار افكاري. بعد لحظة توقفت منتظرا. كان الظلام حالكـا بحيث لم استطع رؤية الجالس الى عجلة القيادة، ولكني كنت اعرف جيدا ما الذي يحدث بعد ذلك.

جاء صوت كونكاسير كفحيح الافعى.

ـ قف حيث انت. لا تتحرك..

نزل من الجيب وفي ذيله سائقه البدين ذو الاسنـان الـذهبيـة. حتى في ذلك الظلام كان يضع على عينيه تلك النظارة السوداء وكأنها زيـه الـرسمي. وعـاد صوت كونكاسير يفح وبيديه مـدفـع تـومي جن من طـراز قـديم مصـوب الى

صدري.

ـ جونز؟ أين هو؟

اجبت بأعلا صوت جرؤت عليه.

ـ جونز؟ أنى لي ان اعرف؟ لقد انكسرت سيارتي. ومعي تصريح مـرور الى اوكايس كما تعرف.

ـ تحدث بصوت خافت. انا سأعود بك انت والماجور جونز الى بورتو برنس على قيد الحياة كما ارحو.. لان الرئيس يريد ذلك. وانا يتعين علي ان اكـون على ود مع الرئيس.

ـ انت تتحدث هراء. لا بد انك شاهدت سيارتي على قارعة الطريق، انا كنت في طريقي الى...

ـ آه اجل.. لقد رأيتها... كنت اتوقع ان اراها.

لاحظت انه حول فوهة المدفع الرشاش الـذي في يـديـه بعيـدا عني نـاحيـة اليسار ولكن هذا لم يـدخـل أي تحسن على مـوقفي. فـالسـائق البـدين لا زال يصوب مدفعه نحوي..

قال:

ـ تعال.. تقدم الى الامام

خطوت خطوة الى الامام صاغرا ولكنه قال:

ـ ليس انت.. بل الماجور جونز.

التفت الى الخلف مبهوتاً. شاهدت جونـز واقفـا ورائي ممسكـا في يـده بما تبقى من المشروب. قلت:

ـ أيها الاحمق اللعين.. لماذا لم تبق حيث كنت؟

ـ آسف.. ولكني ظننت انك قد تحتاج لبعض المشروب.
قال كونكاسير لي.

ـ اركب.

اطعت في الحال. بينما اتجه هو الى جونز فلطمه على وجهه وهو يردد:

ـ ايها الغشاش!

قال جونز.

ـ لقد كان فيها ما يكفينا نحن الاثنين.

لطمه كونكاسير مرة اخرى، والسائق واقف يراقب ما يحدث، وكان الضوء كافيا لكي أرى بريق اسنانه الذهبية وهو يبتسم. قال كونكاسير:

ـ اركب بجوار صاحبك.

وترك السائق يغطينا بمدفعه. بينما استدار هو ليركب من الناحية الاخرى.

فجأة.. جاء صوت ما. صوت لا يكاد يصل الى السمع مع انه كان قريبا.. كان ما احسست به ذبذبة في طبلة الاذن اكثر منها صوت انفجار. فاذا بي أرى كونكاسير يترنح الى الخلف كما لو كان يضرب بقبضة خفية، والسائق ينكفىء على وجهه، وقفزت شطية من جدار المقبرة في الهواء ثم سقطت على الارض بعد لحظة طويلة لتترك اثرها على الطريق. واذا بفيليبوت يقبل من ناحية الكوخ، وخلفه جوزيف يقفز على ساق واحدة، وفي ايديهما رشاشين تومي جن من نفس الطراز القديم كانت عوينات كونكاسير السوداء قد سقطت منه قبل ان يرتطم بالارض. فسحقها فيليبوت بقدم وهو يقول:

ـ لقد تركت السائق لجوزيف

انحنى جوزيف فوق السائق واخذ يعمل في استخراج اسنانه الذهبية.

قال فيليبوت:

ـ يجب ان نتحرك بسرعة. فلا بد ان يكونوا قد سمعوا صوت طلقات الرصاص في اكوين. اين الماجور جونز؟

قال جوزيف:

ـ ذهب الى المقبرة.

قلت:

ـ لا بد انه يحضر حقيبته المنفاخ.

ـ قل له يسرع.

سرت بين القبور الرمادية الى البقعة التي قضينا فيها ليلتنا. شاهدت جونز هناك، راكعا بجوار القبر على هيئة من يصلي. ولكن الوجه الذي التفت به نحوي كان مريضا في لون الزيتون. وكان واضحا انه افرغ امعاءه على الارض.. قال:

ـ أسف جدا يا والدي. هذه واحدة اخرى. ولكن ارجو الا تبلغهم ابدا.. فأنا لم أر في حياتي من قبل شخصا يموت.

الفصل الرابع

1

قدت سيارتي عدة كيلومترات بحذاء سور الاسلاك حتى وجدت منفذا. كان مستر فرنانديز قد زودني في سانتو دومينجو بسيارة رياضية صغيرة بسعر معقول. ربما كانت اقل وجاهة من ان تناسب مهمتي، وكان معي خطاب تقديم من مستر سميث. كنت قد غادرت سانتو دومينجو بعد الظهر، وها هي الشمس تغرب الآن. لم تكن هناك حواجز طرق في جمهورية الدومنيكان، وكل شيء آمن هادىء ولا وجود هنا لزمرة عسكرية حاكمة، فلم تكن مشاة البحرية قد وصلت بعد. ولقد طويت نصف المسافة تقريبا في طريق سريع عريض كانت السيارات تتجاوزني فيه بسرعة مائة ميل في الساعة وكان الاحساس بالسلام عميقا جدا بعد كل هذا العنف في هايتي التي تبدو وكأنها على بعد مئات الاميال من هنا.. وطوال الطريق لم يوقفني احد ليسأل عن اوراقي.

وصلت الى بوابة في السور. وجدتها مغلقة. من الناحية الاخرى من السلك سألني زنجي يرتدي خوذة ورداء قطنيا أزرق اللون عن مطلبي فقلت له اني اتيت لاقابل مستر تشويلر ويلسون

قال بلهجة آمرة.

- آرني اوراقك

أحسست فجأة كما لو كنت عدت الى حيث كنت. قلت بلطف:

- انه يتوقع مجيئي..

توجه الزنجي الى كوخ قريب، ورأيته يتحدث في الهاتف (كنت قد نسيت فعلا ان الهاتف جهاز صالح للعمل). ثم فتح البوابة واعطاني بطاقة قال انني يجب ان اضعها على صدري كما لو كنت في مزرعة الغام. وانني استطيع ان اواصل الطريق بالسيارة حتى الحاجز التالي.

انطلقت بالسيارة أميالا عديدة على طول شاطىء الكاريبي الممتد كالبساط الازرق. مررت بمهبط طائرات صغير مزود بدليل رياح كأنه فردة شراب مصوبة نحو هايتي. ثم ميناء صغير خال من المراكب. وغبار البوكسيت الاحمر في كل مكان، حتى وصلت الى حاجز طريق آخر بزنجي واقف وعلى رأسه خوذة من صفيح. تفحص بطاقتي واخذ اسمي وهويتي ورقم هاتفي، ثم طلب مني ان انتظر حيث أنا، وحتى يأتي بعضهم ليرافقني. انتظرت عشر دقائق.. قبل ان أسأله:

- هل هذا هو البنتاجون؟ أم مقر السي. آي. ايه؟

ولكنه لم يجب. ربما كانت لديه اوامر ألا يفتح فمه ولعل من حسن الحظ انه لا يحمل بندقية.

ثم جاءت دراجة بخارية يقودها رجل ابيض يرتدي نفس الخوذة الصفيح. لم يكن يتحدث الانجليزية وانا لا اعرف الاسبانية فأشار بأن اتبعه بسيارتي. وانطلقنا بضع كيلومترات بين الارض الحمراء والبحر الازرق حتى وصلنا الى أول مباني الادارة، وكانت عبارة عن بنايات مستطيلة الشكل من الاسمنت والزجاج ولا احد يمكن ان تراه.

وفيما بعدها حديقة فخمة يمرح فيها عدد من الاطفال يرتدون ازياء فضائية ويلعبون ببنادق فضائية، ونساء يظهرن من النوافذ وهن مشغولات بمواقد الغاز، والمكان يعبق برائحة الطبخ. وتوقفنا امام واحدة من اكبر البنايات الزجاجية. كان هناك درج من بضعة سلالم عريض بحيث يمكن ان يتسع لبرلمان بكامله وشرفة بها عدد من المقاعد الطويلة، وثمة رجل ضخم بدين بوجه جامد الملامح حليق كصفحة من مرمر كان يقف في قمة الدرج.. كأنه عمدة مدينة يتهيأ لالقاء خطاب في عيد الحرية.

ـ مستر براون؟

ـ مستر تشويلر ويلسون؟

تطلع الي متمهلا بثبات. ربما اخطأت في النطق باسمه. وربما لم تعجبه سيارتي الرياضية، حيث قال بجفاء وهو يومىء الى احد المقاعد الطويلة.

ـ هل لك في قدح من الكوكاكولا؟

ـ مشروب لو سمحت.

قال بدون حماس وهو يسير في اتجاه المبنى الزجاجي الضخم تاركا اياي وحدي.

ـ سأرى ما يمكن عمله.

أحسست كأنما رسمت بالطباشير علامة سوداء. فلعل الزوار من طبقة المديرين والقادة السياسيين فقط هم الذين يحصلون على المشروب. اما أنا فمجرد مشروع مدير مطعم يبحث عن عمل. ومع ذلك فقد جاء بالمشروب، حاملا في يده الاخرى زجاجة كوكاكولا كأنها على سبيل التأنيب! قلت:

ـ أظن مستر سميث كتب لك عني؟

توقفت عن السؤال، مع أني كدت اضيف لقب «مرشح الرئاسة».

ـ اجل. أين التقيتما؟

ـ كان يقيم بفندقي في بورتو برنس.

قال كأنما كان يتحقق من الوقائع ليرى أياً منا يسوق الاكاذيب.

ـ آه.. هذا صحيح.. ولكنك لست نباتيا؟

ـ كلا..

ـ أصل الاولاد هنا يحبون شرائح اللحم والمشويات الفرنسية...

احتسيت رشفة من المشروب الغارق في الصودا، بينما مستر ويلسون يراقبني عن كثب كما لو كان يحسب علي كل قطرة. وتزايد احساسي بأن العمل الذي أنشده لن يجد طريقه الي.

ـ ما هي خبرتك بالمطاعم؟

ـ حسن.. انا كنت امتلك ذلك الفندق في هايتي حتى شهر مضى. وقد سبق لي ان اشتغلت في التروكاديرو بلندن .

ثم اضفت كذبة قديمة.

ـ وفي الفوكيه بباريس.

ـ هل معك شهادات خبرة؟

ـ لا اعتقد اني اكتب شهادة لنفسي. فأنا الآن صاحب عمل منذ عدة سنوات.

ـ صديقك مستر سميث.. اظنه مهووس الى حد ما.. أليس كذلك؟

ـ اني احبه

قال وهو يطلق ضحكة بلا لون ولا معنى كأنما هي مجرد اعلان عن وحش غير ظاهر.

ـ هل اخبرتك زوجته انه رشح نفسه للرئاسة ذات مرة على قائمة النباتيين؟

ـ أظن ان ذلك كان شكلا من اشكال الدعاية.

ـ انا لا احب الدعاية. لدينا هنا منشورات كثيرا ما اجدها مـدسـوسـة تحت الاسلاك وتحاول التأثير في الرجال. ولكننا نـدفـع لهم اجـورا طيبـة ونطعمهم جيدا.. ما الذي دفعك على مغادرة هايتي!

ـ مشاكل مع السلطات. فقد ساعدت رجلا انجليزيا على الهرب من بـورتـو برنس وكانت الطونطون ماكوت وراءه.

ـ ما هي الطونطون ماكوت؟

كنا على مسافة تقل ٣٠٠ كيلومتر عن بورتو برنس، فبدا لي سؤاله غريبـا وان كنت ارجح ان ذكر الطونطون مـاكـوت لم يـرد منـذ فترة طـويلـة في ايـة صحيفة يقرأها. اجبت بقولي:

ـ انها جهاز الشرطة السرية.

ـ ولكن كيف تمكنت انت من الخروج؟

ـ ساعدني اصدقاؤه على اجتياز الحدود.

كانت عبارة موجزة للغايـة اختصرت فيهـا اسبـوعين كـاملين من الارهـاق والاحباط.

ـ من الذين تعنيهم بقولك «اصدقاؤه».

ـ المتمردون.

ـ تعني الشيوعيين؟

بدا لي انه يمتحنني كما لو اني اتقدم للعمل في السي. آي. ايه، وليس كمدير تغذية لشركة مناجم. فقدت هدوئي لحظة قائلا بشيء من الحدة:

ـ المتمردون ليسوا بالضرورة شيوعيين الا اذا جعلتهم انت كذلك.

سره توتري فيما يبدو، فابتسم لاول مرة. كانت ابتسامة رضا عن نفسه كأنما استطاع ان يكتشف باستجوابه الحاذق شيئا خفيا احاول ان ابقيه سرا. قال:

ـ انت خبير جيد..

ـ خبير؟

ـ اعني.. بامتلاكك فندقك الخاص، وبالعمل في ذلك المكان الذي ذكرته بباريس.. اعتقد انك لن تكون سعيدا جدا هنا، فكل ما نريده مجرد وجبات اميركية بسيطة.

قال ذلك ونهض واقفا مشيرا الى ان المقابلة قد انتهت. اكملت احتساء كأسي بينما هو يراقبني بصبر نافد. حتى اذا ما انتهيت قال بأدب متكلف.

ـ اسعدني ان اراك.. سلم البطاقة عند البوابة الثانية.

ثم انصرف دون ان يصافحني. وانطلقت انا بسيارتي مرورا بممر الهبوط الجوي.. والميناء الخاص.. وسلمت بطاقتي عند البوابة الثانية وفي ذهني صورة تصريح الدخول الذي ينبغي على المرء ان يسلمه لادارة الهجرة في ايدلوود.

2

وصلت بسيارتي الى فندق الامباسادور في ضواحي سانتو دومينجو حيث يقيم مستر سميث. لم يكن هذا مقرا مناسبا له.. ولم اجده كذلك بالنسبة لي

ايضا. بعد ان اعتدت الرواق الصغير والسيدة ذات الملامح المتواضعة والشعر الابيض الجالسة في مكان الاستقبال وجو الفقر المحيط بالفندق الذي نزلت فيه.

في ذلك البهو الفسيح المتلألىء بالثريات كان الرجال يضعون في احزمتهم نقوداً بدلا من جرابات المسدسات، ويضعون عويناتهم السوداء لاتقاء الاضواء الساطعة، فكل واحد هنا معه نقوده حتى مستر سميث. الفقر لا وجود له هنا.. اختفى ونزل بعيدا الى المدينة.

اقبلت فتاة بمايوه بكيني زاهي الالوان من ناحية حوض السباحة لتسأل موظف الاستقبال ما اذا كان مستر هوتشسترودل الابن قد وصل..

ـ أنا اعني مستر ديلبور كيه هو تشسترودل..

ـ كلا ولكن يتوقع وصوله في اية لحظة..

أرسلت رسالة للمستر سميث اقول فيها اني موجود تحت، ووجدت لنفسي مقعدا على الطاولة القريبة. كان هناك عدة من الرجال يحتسون الروم في اقداح ضخمة.. وتذكرت جوزيف.. لقد كان يعد بالفعل مشاريب افضل.. وكم افتقده.

★★★

بعد مصرع كونكاسير لم ابق بصحبة فيليبوت سوى اربع وعشرين ساعة. كان مهذبا معي بما فيه الكفاية ولكنه بدا متحفظا.. وبدا لي شخصا آخر يختلف عن ذلك الذي عرفته من قبل. لقد مضى زمن كنت فيه واحدا من المستمعين المستمتعين بأشعاره التي يقلد فيها بودلير. ولكنني الآن اكبر سنا من ان اصلح للحرب. وما يريده هو جونز وصحبة جونز هي ما يسعى اليه. كان معه في مخبئه تسعة رجال، ومع ذلك فلو سمعته وهو يتحدث مع جونز، خيل اليك انه يقود كتيبة كاملة على الاقل. وقد كان جونز يستمع اليه بتعقل شديد ولا يتحدث الا قليلا. غير اني استيقظت ذات مرة اثناء الليلة التي قضيتها معهم

لاسمع جونز يقول:

- يجب ان توطد اقدامك بالقرب من الحدود حتى يأتي اليك رجال الصحافة، وعندها تستطيع ان تطلب الاعتراف بك.

ولقد تساءلت ما اذا كان الاثنان - وهما في هذه الحفرة بين الصخور، والتي تغيرت اكثر من مرة في ليلة واحدة، هل يفكران حقيقة في اقامة حكومة مؤقتة؟ كان كل ما معهم ثلاثة رشاشات - تومي جن قديمة غنموها من مركز الشرطة.. واغلب الظن انها دخلت الخدمة من ايام ال كابوني وبندقيتان من بنادق الحرب العالمية الاولى، وبندقية رش ومسدسان. وكان بينهم رجل لا يحمل سوى منجل. وتذكرت جونز وهو يعلق كرجل عميق الخبرة بهذه الامور قائلا: ان هذا النوع من الحرب اشبه بلعبة ثقة.. ولقد حدث من قبل ان استطعنا خداع اليابانيين...

وهكذا.

لقد فقد طريقه الى ساحة الجولف.. ولكني كنت واثقا انه سعيد جدا هنا. فالرجال يلتفون به. ولعلهم لا يفهمون كلمة واحدة مما يقول. ولكن الامر كان وكأنما الزعيم المنتظر قد وصل الى المعسكر!

في اليوم التالي قادني جوزيف في محاولة لعبور حدود الدومنيكان. كانت سيارتي والجثتان قد اكتشفتا ولم يعد هناك أي امان في بقائي داخل هايتي. ثم انه كان بوسع مجموعة الثوار ان يستغنوا عن جوزيف بسبب ساقه المعطوبة، وفي الوقت نفسه فانه يمكن ان يقوم بمهمة اخرى. وكانت خطة فيليبوت ان أتسلل على الطريق الدولي الذي يفصل ما بين الجمهوريتين لمسافة ٥٠ كيلومترا شمالي مدينة بانيكا. ومع ان المفروض ان الطريق ملغم كله بنقاط مراقبة هايتية ودومينكية على الجانبين، الا ان الجميع كانوا يعرفون ان الجانب الهايتي يخلو من الحراسة ليلا بسبب خوفهم من غارات الفدائيين. وكان جميع الفلاحين قد

طردوا من المنطقة، ولكن يقال ان هناك في الجبال تلك المجموعة المكونة من ثلاثين مقاتلا التي يحاول الآن فيليبوت الاتصال بها. ولذلك فان معلومات جوزيف ستكون مفيدة للغاية اذا قدر له ان يعود. ولعله كان مناسبا لمهمة مرافقتي اكثر من غيره لان ساقه المعطوبة كفيلة بأن تجعل خطوته بطيئة بما فيه الكفاية حتى يكون بوسع رجل في عمري أن يلاحقه.

وكانت آخر عبارة سمعتها من جونز:

ـ أنا يا والدي سأواصل معهم.

ـ ونادي الجولف؟

ـ نادي الجولف يمكن ارجاؤه لسن التقاعد.. بعد ان نحرر بورتو برنس.

اما رحلتنا ـ جوزيف وأنا ـ فقد كانت بطيئة وشاقة ومتعبة، واستغرقت منا احد عشر يوما ما بين الانبطاح على الارض لفترات غير قصيرة ثم الانطلاق عدوا من منطقة الى اخرى أو الالتفاف حول الطريق، ثم بعد ذلك كله يومان من الاعياء التام بسبب الجوع. ولقد كانت فرحتي لا حد لها عندما وقعت ابصارنا ساعة الغسق من مكاننا فوق الجبل المغبر حيث لا ظل ولا شجر ـ على غابة دومنكية وارفة

كانت نفس سلسلة الجبال. ولكن الاشجار لم تعبر ابدا الحدود الى هايتي. وهناك في منتصف السفح كان يوجد موقع لحرس حدود هايتي عبارة عن مجموعة اكواخ متداعية للسقوط. وعلى مسافة مائة ياردة منها حصن بشرفات مفتوحة كأنما هو مستورد من الحصون الاسبانية في الصحراء الغربية. وقبل غروب الشمس بلحظات شاهدنا الحراس الهايتيين يتركون مواقعهم جميعا حتى لم يبق منهم احد للاختفاء في اماكن لا يعلمها الا الله حيث لم تكن هناك طرق أو قرى يمكن ان يحتموا فيها.

وفي هذه اللحظة قلت وداعا لجوزيف، مطلقا نكتة سخيفة حول كؤوس الروم. واتخذت طريقي منحدراً خلال سحابة ضباب خفيفة الى الطريق الدولي. وهو اسم مبالغ فيه جدا لدرب ضيق لا يفضل كثيرا «طريق الجنوب العظيم» المؤدي الى اوكايس.

وفي اليوم التالي وضعني الدومينكايون في عربة جيش تأتي يوميا بمواد التموين. واخيرا وصلت الى سانتو دومينجو في حالة يرثى لها، بوجه مغبر وملابس ممزقة وفي جيبي نحو مائة «جوردي» غير قابلة للتحويل وخمسون دولارا اميركيا على شكل ورقة نقد واحدة كنت قد خيطتها بالابرة في بطانة بنطلوني. وبفضلها استطعت ان اجد غرفة وحماما. وهناك اغتسلت، ثم نمت ١٢ ساعة متواصلة قبل ان اذهب لاتسول من القنصلية البريطانية بعض النقود، واطلب منهم تسفيري.. ولكن الى اين؟

وكان مستر سميث هو الذي انقذني من تلك المهانة فقد حدث انه كان مارا بسيارة مستر فرنانديز عندما شاهدني في الشارع وأنا احاول ان استفسر عن مكان القنصلية من زنجي لا يتحدث سوى الاسبانية. ولقد التمست من مستر سميث ان ينزلني عند القنصلية ولكنه رفض بشدة قائلا ان كل شيء يمكن ان ينتظر الى ان نتناول الغداء سويا. وعندما انتهى الغداء قال لي انه لا مجال لاقتراض نقود من قنصل مجهول طالما هو - أي مستر سميث - معه وفرة من دولارات الاميركان اكسبريس.

وأضاف:

- ألا تذكر كم انا مدين لك؟

غير أني لم اتذكر أي دين ادينه به. فالرجل قد دفع فاتورة اقامته الكاملة بالتريانون. مع انه كان هو الذي كان يزود نفسه باليستريل - غذاءه الاساسي. غير انه دفع بحجته ضدي أمام مستر فرنانديز الذي اصدر الحكم لصالحه

بينما احتجت مسز سميث غاضبــة بقــولها انني كــان يجب ان اكــون معهما في ناشفيل لاعرف جيدا ان زوجها ليس من النوع الذي يمكن ان يتخلى عن صديق في ساعة شدة

والآن، وأنا جالس في انتظاره لا املك الا ان افكر في تلك القارة الكــاملــة من الاختلاف التي تفصل بينه، وبين رجل مثل مستر شويلر ويلسون.

كان مستر سميث وحده وهو يقبل نحوي في بهو فندق الامباسادور. اعتذر عن عدم مجيء مسز سميث «المشغولة بتلقي درسها في الاسبانية على يد مستر فرنانديز».

ـ ليتك تسمعهما وهما يتحدثان بالاسبانية.. ان لدى مســز سميث مــوهبــة عظيمة في اللغات!

قلت له كيف كان لقائي مع مستر شويلر ويلسون ثم اضفت:

ـ لقد افترض الرجل اني شيوعي.

ـ لماذا؟

ـ لان الطونطون ماكوت كانوا يطاردونني. وطبعا انت تذكر ان بــابــا دوك هو الحصن الحصين ضد الشيوعية. ثم ان التمرد بالطبع كلمة بغيضة. ولعلني اعجب الآن كيف كان الرئيس روزفلت يتعامل مع المقاومة الفرنسية.. فالمقاومة ايضا كانت مصابة بتسلل الشيوعيين الى صفوفها. أمي ايضا كــانت متمــردة.. من حسن الحظ اني لم اخبر مستر شويلر ويلسون بذلك.

تطلع مستر سميث نحوي بعينين حزينتين قائلا:

ـ لا افهم أي ضرر يمكن ان يفعله شيوعي يعمل مديرا للتغذية؟.. في الحقيقة لا يسر المرء بالمرة أن يشعر بالخجل من واحد من بني وطنه.

ـ اظنك مررت بهذه التجربة جيدا في ناشفيل؟

ـ كان ذلك مختلفا . هناك كـان الامـر عبـارة عن مـرض.. حمى.. يمكن ان يحس الانسان بالاسف نحو اصحابها. وفي ولايتي، لدينا تقاليد عريقة في حسن الضيافة. وعندما يدق شخص ما على الباب لا نسأله عن رأيه السياسي.

ـ آمل ان استطيع يوما سداد ما أدين لك به.

ـ أنا لست فقيرا يا مستر براون. ولدي وفرة من المال.. اعتقـد انك يمكن ان تأخذ الآن ألف دولار اخرى

ـ كيف ذلك، وانا لا املك أي ضمان للسداد؟

ـ اذا كان هذا ما يقلقك فلنكتب ورقة.. اظن هـذا معقـولا ومشروعـا جـدا، وسيكون ذلك برهن فندقك في بورتو برنس.. انه عقار جميل على اية حال..

ـ ولكنه لا يساوي شيئا الآن.. فأغلب الظن ان الحكومة وضعت يدها عليه.

ـ سوف تتغير الاحوال يوما ما.

ـ انا سمعت عن وظيفة اخرى في الشمال، بـالقـرب من مـونت كـريستي.. مدير مطعم بشركة فواكه..

ـ لن تنزل الى هذا المستوى يا مستر براون.

ـ لقد نزلت الى أدنى من هذا المستوى مرات.. فاذا لم تمانع في ان استخـدم اسمك مرة اخرى انها شركة اميركية ايضا..

ـ كان مستر فرنانديز يقول لي من لحظات انه في حـاجـة الى شريك انجلـو ساكسوني.. وهو لديه هنا عمل طيب وناجح.

ـ لم يخطر ببالي يوما ان اعمل حانوتيا.

ـ انها خدمة اجتماعية لا غنى عنها يا مستر براون. ثم هي مضمونة ايضا.. فهي ليست معرضة للانكماش.

ـ سأحاول موضوع المطعم اولا. فخبرتي في هذا المجال اكبر.. فاذا لم انجح... من يدري؟

ـ هل تعلم ان مسز بينيدا هنا في المدينة؟

ـ مسز بينيدا؟

ـ تلك السيدة الفاتنة التي جاءت ذات مرة للفندق.. من المؤكد انك تذكرها؟

مرة لحظة قبل ان ادرك من يعني..

ـ ماذا تفعل في سانتو دومينجو؟

ـ لقد نقل زوجها الى ليما. وهي هنا لبضعة أيام في مقر سفارتها مع ولدها.. نسيت اسمه.

ـ انجيل.

ـ تماما.. ولد لطيف لعلك تعلم ان مسز سميث وانا مولعان جدا بالاطفال. ربما لاننا لم نرزق اطفالا. ولقد اسعد مسز بينيدا كثيرا ان تعلم بخروجك سليما من هايتي. ولكنها بالطبع كانت بادية القلق على الماجور جونز.. ما رأيك في ان نتناول العشاء معا جميعا غدا حيث تستطيع ان تقص عليها ما حدث.

قلت:

ـ انا اعد نفسي للتوجه شمالا غدا. فالوظائف الخالية لا تنتظر. ولقد تسكعت هنا بما فيه الكفاية. قل لها اني سأكتب لها بكل ما اعرفه عن جونز.

3

حصلت على سيارة جيب من اجل الرحلة الشاقة بسعر مخفض بفضل جهود مستر فرنانديز. فبدونها لن استطيع الوصول الى مونت كريستي ومزرعة الموز ولن يكون بوسعي ان اعرف هنا اذا كان سيتم قبولي بوظيفة مدير المطعم.

وبدأت رحلتي في السادسة صباحا. ومع وقت الافطار وصلت الى سان جوان. وكان الطريق جيدا حتى الياس بيناس. ولكن الطريق الدولي من هناك على طول الحدود كان اكثر صلاحية بالنسبة للبقر والبغال، ربما بسبب اقتصار حركة المرور على حافلة يومية، وبضع عربات عسكرية وعند الموقع العسكري في بيدرو سانتا اوقفت دون ان ادري السبب. وكان الملازم ـ الذي عرفت وجهه لانه هو الذي كان قد استقبلني عندما جئت عبر الحدود منذ شهر مضى ـ مشغولا بالحديث الى رجل بدين بثياب مدنية وهو يطلعه على كمية غير قليلة من المجوهرات البراقة والقلائد والاساور والساعات والخواتم.. واضح ان الحدود مكان صيد مناسب للمهربين.. وبعد ان تم انتقال بعض النقود من يد الى يد اقبل الملازم نحو عربتي الجيب. سألت.

ـ هل هناك أي خطأ؟

ـ خطأ؟ لا خطأ هنا

قال ذلك بفرنسية لا تقل جودة عن فرنسيتي.

ـ رجالك يمنعونني من المرور.

ـ هذا من اجل سلامتك. فهناك اطلاق نار كثيف على الجانب الآخر من الطريق الدولي. ولكن.. انا رأيتك من قبل. أليس كذلك؟

ـ انا جئت عبر الحدود منذ شهر مضى.

ـ آه.. اجل. انا اتذكر الآن. اغلب الظن اننـا سنـرى كثيرين مثلك في الـوقت الراهن..

ـ هل يأتيكم لاجئون كثيرون!

ـ قدم الينا نحو عشرين فدائيا بعدك مباشرة.. وهم يقيمون الآن في معسكـر بسانتو دومينجو. واعتقد انه لم يبق احد.

لا بد انه يقصد الجماعة التي كان فيليبوت يريد الاتصال بهـا.. وتـذكـرت جونز وهو يتحدث في ذلك المساء والرجال يسمعون عن خطتـه الكبرى لاقـامـة موقع قوي لحكومة مؤقتة لاستقبال الصحافيين الزائرين. قلت:

ـ انا اريد الوصول الى مونت كريستي قبل حلول الظلام.

ـ افضل لك ان تعود الى الياس بيناس.

ـ اذن فسوف انتظر . اذا كنت لا تمانع.

ـ مرحبا بك

كان لدي زجاجة ويسكي في السيارة. وقد ساعدتني على ان اجـد تـرحيبـا اكثر. وحاول الرجل الذي يبيع المجوهرات ان يجذب اهتمامي الى بعض الاقراط قائلا انها من السيفر والماس.. واخيرا انطلق في طريق الياس بيناس بعد ان بـاع ساعة للملازم، وقلادتين للرقيب. سألت الرقيب:

ـ لنفس المرآة؟
قال وهو يغمز باحدى عينيه:

ـ لزوجتي!

منتصف النهار. جلست على درجات سلالم ثكنة الحرس في الظل مسائلا نفسي ماذا اصنع لو رفضتني شركة الفواكه.. وفكرت ماذا ستكون عليه هيئتي في زي الحانوتي الاسود؟

ربما كان لمولدي في مدينة مثل مونت كارلو ميزة لا يدركها احد. فان يكون المرء بلا جذور يجعله اكثر قبولا لكل ما تأتي به الايام. فالذين بلا جذور مثلهم مثل غيرهم قد مروا بتجربة الاغراء الذي يقدمه الاحساس بالامان في كنف مذهب ديني أو عقيدة سياسية ما. ولكننا لسبب ما رفضنا الاستسلام لهذا الاغراء. فلم نعد نؤمن بشيء. ولعلنا نعجب جدا للذين ينذرون حياتهم لقضية ما، مثل الدكتور ماجيوت أو مستر ومسز سميث، لشجاعتهم وامانتهم، لاخلاصهم لهدف ما، ولكنه اعجاب جبان يفتقر الى الحماس، ومن ثم فنحن نرى انفسنا الوحيدين الملتزمين التزاما حقيقيا.. ملتزمين بالعالم بأسره بكل خيره وشره، بالحكماء والحمقى، باللامبالين والخاطئين.. فنحن لا نختار شيئا سوى ان نواصل الحياة.. «ندور مع الارض في مدارها الابدي مع الاحجار والصخور والاشجار»

جذبت الفكرة اهتمامي، بل اجرؤ فأقول انها اراحت ضميري الذي لم يعرف الهدوء ابدا والذي انغرس في داخلي رغم انفي وبدون موافقتي عندما كنت اصغر من ان اعرف على يد آباء الجزويت..

وزحفت الشمس على سلالم الدرج فدفعتني الى داخل ثكنة الحرس بسررها الحديدية مثل المحفات، والصور المعلقة على الجدران لعشرات البيوت والزوجات والاطفال، ورائحة المكان الخالي من الهواء. وهناك جاء الملازم ليقول لي:

ـ سيكون في وسعك ان تواصل طريقك حالا.. انهم قادمون.

وظهر بالفعل عدد من الجنود الدومينكيين يدقون الارض بخطواتهم العسكرية في اتجاه الموقع على شكل طابور فردي حتى يتاح لهم الاحتماء

بالاشجار، وبنادقهم مدلاة في سيورها وبين ايديهم اسلحة الرجال الذين جاءوا من تلال هايتي وهم الآن يمشون على بعـد بضـع خطـوات خلف الجنـود وهم يترنحون من فرط الاعياء وقد ارتسمت على وجوههم نظرة خجـولـة كتلك التي تراها على وجه الطفل عندما يكسر شيئا ثمينا. لم اعرف احـدا منهم. ولكن مـع اقتراب الطابور الصغير من النهاية وقعت عيناي على فيليبوت. كان عاريـا حتى وسطه ويبدو انه استخدم قميصه ليربط به ذراعه الايمن. وعنـدمـا رآني قـال متحديا «لم يبق معنا أي ذخائر».. غير اني اشك في انه عرفني لحظتها وانما هو قال ما قال للوجه الابيض الذي تصور انه ينظر اليـه نظـرة اتهام. وفي نهـايـة الطابور جاءت محفة يحملها رجـلان، وعليهـا كـان جـوزيف ممـددا، وعينـاه مفتوحتان ولكنه لم يكن بوسعه ان يرى البلد الاجنبي الذي حملوه اليه.

قال احد الرجلين

ـ هل تعرفه؟

قلت:

ـ اجل.. كان احسن من يعد كوكتيل الروم!

نظر اليّ الرجلان باستياء. ايقنت ان هذا ليس هو القول المناسب للحديث عن رجل ميت. من المؤكد ان مستر فرنانديز كان سيجد قـولا افضـل.. سرت خلف المحفة صامتا كأني واحد من المشيعين.

في داخل الثكنة قدم بعضهم الى فيليبوت مقعدا وسيجارة.

واخذ الملازم يشرح له كيف انهم لن يتوفر لديهم وسيلة انتقال الا في اليـوم التالي، كما انهم ليس لديهم طبيب.. قال فيليبوت:

ـ انه مجرد كسر في الذراع. عندما سقطت وانا انزل على المنحدر الى الوادي..

انه لا شيء بالمرة.. استطيع الانتظار.

قال الملازم بود:

ـ لقد اعددنا مخيما مريحا لكم بالقرب من سانتو دومينجو في مكان كان من قبل مستشفى للمجانين.

انفجر فيليبوت ضاحكا بهستيريا.

ـ مستشفى مجانين؟ أنتم مصيبون تماما.

وفجأة غلب عليه البكاء فوضع كفيه على عينيه ليخفي دموعه. قلت:

ـ معي سيارة هنا. فاذا سمح لنا الملازم لن نكون بحاجة للانتظار.

ـ اميل ايضا مصاب في قدمه.

ـ نستطيع ان نأخذه معنا.

ـ انا لا أود ان انفصل عن رجالي الآن. من انت؟ آه.. بالتأكيد انا اعرفك. ذهني مشوش للغاية.

ـ كلاكما في حاجة الى طبيب، فلا معنى للانتظار هنا حتى الغد. هل تتوقع احدا آخر ليأتي عبر الحدود؟

كنت افكر في جونز.. قال:

ـ كلا.. لا يوجد احد آخر.

حاولت ان استعيد لذاكرتي عدد الذين جاءوا معه عبر الطريق.

سألت.

ـ كل الآخرين ماتوا؟

ـ كلهم ماتوا..

ساعدت الرجلين على ركوب الجيب في وضع مريح قدر الامكان بينما اللاجئون واقفين يراقبوننا وفي أيديهم كسرات من الخبز. كانوا ستة أشخاص، وسابعهم جوزيف ممدداً على المحفة في الظل، وعلى وجوههم جميعا تلك النظرة المذهولة التي تراها على وجوه قوم نفذوا بجلودهم من غابة تحترق وانطلقت بالسيارة مبتعدا بينما مرافقاي يلوحان بأيديهما والآخرون يقضمون كسرات الخبز.

قلت لفيليبوت.

ـ وجونز..؟ هل مات؟

ـ لا بد ان يكون الآن قد مات.

ـ هل أصيب؟

ـ كلا.. ولكن قدمه تعثرت..

كنت كأنما انتزع المعلومات منه انتزاعا.. ولقد ظننت في البداية أنه يريد أن ينسى. ولكنه كان فقط في حالة سرحان.

ـ هل وجدته كما كنت ترجو؟

ـ لقد كان رجلا رائعا وقد بدأنا نتعلم على يديه. ولكن الوقت لم يسعفه. ولقد أحبه الرجال جدا.. فقد كان يجعلهم يضحكون.

ـ ولكنه لا يتحدث اللغة الكريولية؟

ـ لم يكن يحتاج للكلام. كم رجلا هناك في مستشفى المجانين؟

ـ نحو عشرين.. كل الذين كنت تبحث عنهم.

ـ عندما نحصل على السلاح مرة أخرى.. سنعود.

قلت لاسري عنه

ـ طبعا.. بالتأكيد.

ـ أنا أريد أن أعثر على جثته. ولا بد من ان أقيم له ضريحا مناسبا وسوف اضع نصبا في المكان الذي عبرنا فيه الحدود. وفي يوم ما، عندما يموت بابا دوك. سوف نقيم نصبا مماثلا في المكان الذي استشهد فيه. وسيكون هذا المكان مزارا للناس. وسوف أجعل السفير البريطاني، وربما أحد اعضاء الأسرة الملكية..

ـ عسى أنه لا يعمر بابا دوك حتى نموت جميعا قبله.

تركنا الياس بيناس خلفنا، وانطلقنا في الطريق المعبد نحو سان جوان. قلت.

ـ اذن فقد برهن في النهاية انه يستطيع ان يفعلها.

ـ يفعل ماذا؟

ـ يقود كتيبة فدائيين

ـ لقد برهن على ذلك من قبل وهو يقاتل اليابانيين

ـ آه.. لقد نسيت.

ـ كان رجلا داهية.. هل رأيت كيف خدع بابا دوك؟

ـ أجل

ـ هل تعرف أنه كان يستطيع شم الماء من على مسافة بعيدة

ـ حقا؟

ـ بالتأكيد! ولكننا لم نكن بحاجة الى الماء أبدا

ـ هل كان يجيد اطلاق النار؟

ـ كانت أسلحتنا عتيقة جدا وبالتالي من طرازات عفا عليها الزمن وكـان علي ان أعلمه. ولم يكن يجيد اطلاق النار فقد ذهب الى بورمـا بعصـا في يـده ـ كما أخبرني، ولكنه كان يعرف كيف يقود

ـ كيف كانت النهاية؟

ـ جئنا الى الحدود بحثا عن الآخرين. ولكننا وقعنا في كمين ولم تكن غلطته. فقتل اثنان وأصيب جوزيف بجرح بالغ. فلم يبق أمامنا ما نفعله سوى الهرب. ولم نكن نستطيع الجري بسرعة بسبب جـوزيف الـذي مـات ونحن نهبط من آخر جرف الى الوادي.

ـ وجونز؟

ـ كان يتحرك بصعوبة بسبب حالة قدميه. وأخيرا وجـد مـا سماه مكـانـا طيبا فقال انه سوف يشغل الجنود عنا حتى نستطيع الوصول الى الطريق، فلا يوجد فيهم من يتحمس للمخاطرة بحياته قربه. وقـال انـه سـوف يتبعنـا على مهل، ولكني كنت أعلم جيدا انه لن يأتي أبدا.

ـ لماذا؟

ـ ذات مرة قال انه لا يوجد له أي مكانْ خارج هايتي

ـ ترى.. ماذا كان يعني بذلك؟

ـ كان يعني أن قلبه هناك.

فكرت في برقية القبطان التي جاءته من مكتب فيلادلفيـا، والـرسـالـة التي

تلقاها القائم بالأعمال.. لا شك ان ماضيه كان فيه أشياء اكثر من مجرد سرقة علبة كوكتيل من أسبري.. جاءني صوت فيليبوت.

ـ لقد نما حبي له مع الوقت. وأود ان اكتب عنه الى ملكة انجلترا.

4

أقاموا قداسا على روح جوزيف والاثنين الأخرين، وكلهم كانوا من الكاثوليك، وأدخلوا اسم جونز على سبيل المجاملة ضمن القداس مع ان احدا لم يكن يعرف مذهبه، وقد توجهت الى كنيسة الفرانسيسكان الواقعة في شارع جانبي بصحبة مستر ومسز سميث. كانت معبدا صغيرا. ودخل فيليبوت على رأس مجموعة مستشفى المجانين. وفي آخر لحظة ظهرت من الباب مارتا وبجانبها ولدها انجيل، وألقى القداس قس لاجيء من هايتي. وكان مستر فرنانديز هناك بالطبع، كأحسن ما يكون الرجل المحترف الذي اعتاد امثال هذه المناسبات.

كان تصرف أنجيل طيبا. وبدا أقل بدانة من صورته في ذاكرتي. وتعجبت، لماذا كنت لا أتقبله أبدا في الماضي؟ وتعجبت أيضا وأنا انظر الى مارتا المتقدمة عني بخطوتين لماذا كانت حياتنا معا مهمة جدا الى هذا الحد؟ انها تبدو كما لو كانت لا تنتمي الا الى بورتو برنس، الى الظلام، ورعب حظر التجول، والهواتف التي لا تعمل، والطونطون ماكوت بعويناتهم السوداء،

والعنف والظلم، والتعذيب.. وكأن حبنا كان مثل بعض أنواع النبيذ، لا يمكن ان ينضج، أو يسافر.

كان القس شابا في عمر فيليبوت، ولونه في سمرة الخلاسيين الخفيفة. وقد ألقى قداسا موجزا جدا مستعينا ببعض كلماته للقديس توما. قال «فلنصعد الى أورشليم ونموت معه.. ان الكنيسة موجودة في هذا العالم. انها جزء من آلام هذا العالم.. ومع ان المسيح أدان التلميذ الذي ضرب اذن خادم كبير الكهنة فان

قلوبنا تتعاطف مع كل الذين يدفعون دفعا الى العنف بسبب آلام الآخرين. ان الكنيسة تستنكر العنف. ولكنها أشد استنكارا لعدم المبالاة. فالعنف قد يكون أحيانا تعبيرا عن الحب. أما اللامبالاة فلا يمكن أبدا ان تكون كذلك. العنف دليل نقصان في المحبة أما اللامبالاة فهي أنانية كاملة. وفي عصر الخوف والشك والبلبلة كان أحد الحواريين يحبذ الحل السياسي بدافع من اخلاصه وبساطته. ولقد كان مخطئا. ولكنني أفضل ان اكون مخطئا مع القديس توما من ان اكون مصيبا مع الباردين الجبناء.. فلنصعد الى أورشليم ونموت معه!!

هز مستر سميث رأسه بأسى. ولعله لم يجد في القداس ما يرضيه، حيث كان فيه كثير من حموضة الانفعال البشري

تابعت بعيني فيليبوت وهو يصعد الى المذبح ليتلقى التعازي وفي أثره معظم أفراد مجموعته الصغيرة. ترى؟ هل اعترفوا أمام القس بخطايا عنفهم؟

بعد ان انتهى القداس وجدت نفسي واقفا بجانب مارتا والطفل. لاحظت ان انجيل كان يبكي. قالت مارتا «انه كان يحب جونز»، وأخذتني من يدي وقادتني الى كوة جانبية حيث أصبحنا وحدنا مع تمثال مهيب للقديس سانت كلير. قالت

- لدي أنباء سيئة لك.

- أعرفها لويس نقل الى ليما

- هل تعتقد ان هذا فعلا نبأ سيء؟ لقد انتهينا - اعني أنت وانا أليس كذلك؟

- حقا؟ ولكن جونز مات..

- لعله كان يمثل بالنسبة لأنجيل شيئا أهم مما هو بالنسبة لي. أنت أغضبتني تلك اليلة. ولم لم يكن جونز هو الذي شغلك لشغلت نفسك بأي. شخص آخر.

أنت كنت تبحث عن حجة لانهاء، مـا بيننـا. ولكن اعلم أنني لم أضـاجـع جونز أبداً. يجب ان تؤمن بذلك. نعم. أنا أحببت جونز، ولكن على نحـو مختلف تماما..

ـ أجل.. الآن يمكنني أن أصدقك.

ـ ولكنك لم تكن مستعدا لتصديقي حينذاك؟

غير أن حقيقـة انهـا رغم كـل شيء كـانت مخلصـة لي بـدت الآن شـديـدة السخرية.. فهي لم تعد تمثل أهمية خاصة الآن. بـل لعلني كـدت أتمنى لـو أن جونز وجد ما يمتعه.. قلت

ـ ما هي أنباؤك السيئة؟

ـ دكتور ماجيوت . مات

لم يتح لي أبدا أن أعلم اليوم الذي مات فيـه أبي.. اذا كـان قـد مـات، حتى أكون قد جربت مرة من قبل احساس المرء عندما يفقد المرء شخصا كان يمثـل بالنسبة اليه ملجأ أخيرا يمكن ان يعتمد عليه قلت.

ـ متى حدث ذلك؟

ـ البيان الرسمي يقول انه قتل اثناء مقاومتـه للشرطـة أثنـاء القـاء القبض عليه. بتهمة انه شيوعي عميل لكاسترو

ـ اما عن انه شيوعي فهذا صحيح. ولكنني واثق أنه لم يكن عميلا لأحد

ـ أما القصة الحقيقية فهي أنهم أرسلوا فلاحا دق بابه طالبا منه أن يصحبه لعلاج طفل مريض. وما أن خرج الى المر حتى عـاجلـه الطـونطـون مـاكـوت باطلاق النار عليه من سيارة وكان هناك شهود وقد قتلوا الفـلاح أيضـا. ولكن ربما لم يتعمدوا قتله.

ـ كان لا بد لذلك ان يحدث. فإن بابا دوك هو قلعة مكافحة الشيوعية.

ـ أين تقيم؟

ذكرت لها اسم الفندق الصغير الذي اقيم به في المدينة. قالت.

ـ هل آتي لأراك؟ أنا استطيع أن آتي بعد الظهر وانجيل سيكون مشغولا بأصدقائه

ـ اذا كنت تريدين حقا.. تعالي

ـ انا سأغادر غدا الى ليما

ـ لو كنت مكانك لعرفت انني لن آتي

ـ هل ستكتب لي لتخبرني كيف تسير الأمور معك؟

ـ بالتأكيد

★ ★ ★

مكثت في الفندق طوال فترة العصر عسى ان تأتي. ولكنني فرحت عندما لم يحدث ذلك. تذكرت كيف ان الموت سبق ان خرب علاقتنا مرتين. الأولى بوفاة مارسيل، والثانية بموت الوزير السابق. والآن جاء دور الدكتور ماجيوت ليلحق بركب الذاهبين.. كأنما يستنكرون منا طيشنا.

في المساء تناولت طعام العشاء مع الزوجين سميث ومستر فرنانديز وقامت مسز سميث بمهمة الترجمة، فقد تعلمت الأسبانية الآن بما فيه الكفاية ولكن مستر فرنانديز أيضا كان يستطيع التكلم قليلا، وتم الاتفاق على أن أصبح شريكا ثانيا له في مشروعه لدفن الموتى. وأن أتولى مسؤولية التكامل مع الموتى الفرنسيين والانجلاساكسون. وتلقينا وعدا من مستر سميث بأن يكون لنا

نصيب في المركز النباتي عندما يقام.

كان رأي مستر سميث ان هذا في منتهى العدل. طالما أن عملنا قد يتأثر سلبيا بنجاح الدعوى النباتية. وقد كان من المحتمل جدا ان يقام المركز في سانتو دومينجو لولا أحداث العنف التي وقعت بها بعد ذلك ببضعة أشهر.. وكانت من دواعي ازدهار عملنا وان كان معظم الموتى كالعادة في مثل هذه الاحوال جاءوا من نصيب فرنانديز فالملونون أسهل موتا من البيض في مثل هذه الحالات.

في تلك الليلة عندما عدت الى غرفتي بالفندق وجدت خطابا على وسادتي. كان خطابا من وادي الموت. لم يتيسر لي أبدا أن أعرف من الذي أحضر الخطاب. ولم يكن يحمل أي توقيع. ولكن الخط كان معروفا جيدا لي.. كان خط الدكتور ماجيوت..

«صديقي العزيز

أكتب اليك هذا لأني كنت أحب والدتك كثيرا وفي هذه الساعات الأخيرة أحببت أن أتصل بولدها. فساعاتي الآن محدودة. وأتوقع في أية لحظة تلك الطرقة على الباب.. فهم نادرا ما يدقون الجرس، لان الكهرباء عادة تكون مقطوعة.

السفير الاميركي يوشك ان يعود، ويتعين على البارون ساميدي ان يقدم له عربون ولاء. فهكذا تجري الأمور في جميع انحاء العالم. ومن الممكن دائما أن تجد حفنة من الشيوعيين، مثل حفنة من الكاثوليك.. ولعلك تذكر ان شيانج كاي شيك حامي حمى فرموزا البطل جعل منا وقودا لغلايات قاطرات السكة الحديد. والله وحده يعلم أي بحث طبي سيجدني بابا دوك نافعا له. ولكن كل ما أرجوه أن تذكرني أحيانا. هل تذكر ذلك المساء حينما اتهمتني مسز سميث بأني ماركسي؟ لعل لفظ «اتهمت» هنا أقوى مما يجب. فهي سيدة طيبة تكره

الظلم، غير اني بت اكره كلمة ماركسي، انها كلمة كثيرا ما تستخدم فقط لوصف مشروع اقتصادي معين. وأنا بالطبع أؤمن بهذا المشروع، في حالات معينة وأزمنة معينة، هنا في هايتي وفي كوبا وفيتنام وفي الهند. ولكن الشيوعية يا صديقي أوسع من الماركسية، تماما مثلما ان الكاثوليكية ـ تذكر أنني أيضا ولدت كاثوليكيا ـ أوسع من المؤسسة البابوية الرومانية. والأمر هنا فيه من المغالطة بقدر ما فيه من السياسة. فنحن ـ أنت وأنا نزعتنا إنسانية، وقد لا تعترف أنت بذلك. ولكنك ابن والدتك، وقد قمت ذات يوم بالرحلة الخطرة التي يتعين علينا جميعا ان نتخذها قبل النهاية.

نعم، ان الكاثوليك، والشيوعيين ربما ارتكبوا جرائم عظيمة. ولكنهم على الأقل لم يقفوا جانبا غير مبالين. وأنا افضل أن تخضب يدي بالدم ولا تبلل بالماء مثل بيلاطس. أنا أعرفك، وأحبك كثيرا. ولذلك فأنا أكتب اليك هذا الخطاب بعناية لأن هذه قد تكون آخر فرصة للاتصال بك. وقد لا يصل اليك أبدا. ولكني أرسله مع يد آمنة ـ وان كان لا يوجد للأمان ضمان في هذا العالم الذي نعيش فيه (لا اعني بهذا فقط بلدنا المسكين هايتي). اني اناشدك، ثمة طرقة على الباب قد لا تسمح لي بأن أنهي هذه الرسالة ـ أناشدك اذا كنت قد تخليت عن الايمان بشيء ما ألا تتخلى عن الايمان كله. فهناك دائما بديل لأي عقيدة... أو لعلها نفس العقيدة تحت قناع آخر؟».

تذكرت قول مارتا لي، انك مشروع راهب!

ما أغرب المرء في عيون الآخرين! أنا تركت المبالاة ورائي في كلية الجزويت اسقطها مثل فيشة الروليت في صندوق التبرعات. وقد وجدت نفسي لست فقط عاجزاً عن الحب، فكثيرون غيري عاجزون عنه ـ ولكني عاجز حتى عن الاحساس بالذنب ـ عالمي ليس فيه مرتفعات ولا منخفضات. وأنا أرى نفسي في سهل عظيم، أمشي وأمشي على أرض منبسطة لا نهاية لها. ولعلني كدت مرة أن أتجه وجهة أخرى. ولكن الوقت فات الآن.

عندما كنت صبيا قال لي الآباء الجزويت أن احد أدلة الايمان ان يكون المرء مستعدا للموت في سبيله.. وهذا هو نفس الذي يقول الدكتور ماجيوت. ولكن، ما هو الايمان الذي مات جونز في سبيله؟

ولربما كان من الطبيعي في تلك الظروف ان أحلم بجونز. رأيته ممدداً وسط صخور جافة جرداء في تلك السهل المنبسط بجواري قائلا: لا تطلب مني أن أجد ماء.. فأنا لا أستطيع. أنا متعب يا براون. بعد السبعمائة عرض التي قدمتها لم أعد أستطيع الحركة.. قلت له

ـ لماذا تموت يا جونز؟

ـ انه جــزء من دوري يا والدي.. جــزء من دوري. ولكن لدى هذه الجـملة الكوميدية التي ستجعل المسرح كله يضج بالضحك عندما أقولها، والسيدات بنوع خاص..

ـ ما هي؟

ـ هذه هي المشكلة.. لقد نسيتها..

ـ جونز!! جونز؟ يجب ان تتذكر..

ـ آه.. لقد تذكرتها.. المفروض أن أقول: فقط انظروا الى هذه الصخور الملعونة! يا لها من مكان طيب! وعندئذ سيضحك الجميع حتى يشرقوا بالدموع. ثم تقول أنت مكملا

ـ لإيواء الأوغاد؟

فأقول أنا

ـ لم يكن هذا ما أعنيه

***

رنين الهاتف يوقظني من الحلم ويبدو ان النوم كان لا زال غالبا علي.. فالذي يطلبني هو مستر فرنانديز وفيما يبدو فانه يدعوني للقيام بأول مهمة لي في عملنا المشترك.

انتهى

§§§ إصدارات اتحاد كتاب وأدباء الإمارات §§§

● الإصدارات الشعرية:

العنوان	المؤلف	السنة
1 ـ قصائد من الإمارات	لعدد من شعراء الإمارات	1986
2 ـ صلاة العيد والتعب	عارف الخاجة	1986
3 ـ شدو الزمن	سلطان خليفة	1988
4 ـ مدية واحدة لا تكفي لذبح عصفور	سيف الرحبي	1988
5 ـ جغرافية الفردوس	جعفر الجمري	1988
6 ـ وردة للوطن وقبلة للحبيبة	عمر أبو سالم	1989
7 ـ هذا هو الساحل.. أين البحر؟	مؤيد الشيباني	1989
8 ـ بحثاً عن النهر	رايفت السويركي	1989
9 ـ علي بن المسك التهامي يفاجيء قاتليه	عارف الخاجة	1989
10 ـ الفالس الأخير في سنتياغو	أربيل دروفمان ترجمة: كامل يوسف حسين	1990
11 ـ آية للصمت	ضاعن شاهين	1990
12 ـ الشيطان وقصائد أخرى	ليرمونتوف ترجمة: رفعت سلام	1991
13 ـ ليجف ريق البحر	ثاني السويدي	1991
14 ـ شيء من السهو في رئتي	جعفر الجمري	1992
15 ـ ديوان سلطان العويس	سلطان العويس	1992

● الإصدارات القصصية والروائية:

العنوان	المؤلف / الترجمة	السنة
1 ـ كلنا.. كلنا.. كلنا نحب البحر	لعدد من كتاب الإمارات	1985
2 ـ السمكة الصغيرة	تأليف: صمد بهرنجي ترجمة: علي بعد العزيز الشرهان وعمر عدس	1986
3 ـ أطفال آخر الزمان	تأليف: عزيز نيسين ترجمة: عمر عدس	1987
4 ـ الرجل العاشر	تأليف: غراهام جرين ترجمة: مصطفى كمال	1988
5 ـ الأرواح تسكن المدينة	أنور الخطيب	1988
6 ـ فيروز	مريم جمعة فرج	1988
7 ـ 12 قصة قصيرة	لعدد من الكتاب	1989
8 ـ الرحلة العجيبة	تأليف: شوساكو إندو ترجمة: فكري بكر	1989
9 ـ ميادير	ناصر جبران	1990
10 ـ الطحلب	إبراهيم مبارك	1990
11 ـ عندما تدفن النخيل	ناصر الظاهري	1990
12 ـ طفول	سعاد العريمي	1990
13 ـ الصمت	خليل قنديل	1991
14 ـ موعد سري	تأليف: كوبو آبي ترجمة: كامل يوسف حسين	1991
15 ـ هاجر	سلمى مطر سيف	1992
16 ـ عصفور الثلج	إبراهيم مبارك	1992
17 - مدينة للاموات ـ مدينة للاحياء	نادين غورديمر ـ ترجمة صبحي عمر	1992
18 - ممثلو الكوميديا	غراهام غرين ـ ترجمة مصطفى كمال	1992

● أدبـاء وكتاب من الإمارات:

العنوان	الإعداد	السنة
1 ـ سالم بن علي العويس	جمع وإعداد: عبد الإله عبد القادر	1988
2 ـ سلطان العويس تاجر استهواه الشعر	جمع وإعداد: عبد الإله عبد القادر	1988
3 ـ الشاعر الجامح خلفان بن مصبح	إعداد: شوقي رافع	1990
4 ـ الماجدي بن ظاهر دراسة في فكره من خلال فنه الشعري	الدكتور فالح حنظل	1992

● دراسات مختلفة:

العنوان	المؤلف	السنة
1 ـ معجم القوافي والألحان	د. فالح حنظل	1987
2 ـ أبحاث الملتقى الأول للكتابات القصصية والروائية في دولة الإمارات	عبد الحميد أحمد رعد عبد الجليل جواد يوسف خليل	1989
3 ـ تاريخ الحركة المسرحية في دولة الإمارات 1960 ـ 1986	عبد الإله عبد القادر	1989
4 ـ فنجان قهـــوة	عبد الله عبد الرحمن	1989
5 ـ الإتفاقيات السياسية والإقتصادية التي عقدت بين إمارات ساحل عمان وبريطانيا 1806 ـ 1971	علي محمد راشد	1989
6 ـ غانم غباش ـ فارس من هذا الزمان		
7 ـ ندوة الأدب في الخليج العربي	الجزء الأول	1989
8 ـ الصراع حول مضيق هرمز	عبيد طويرش	1990
9 ـ تحولات اللغة الدارجة	د. علي عبد العزيز الشرهان	1990
10 ـ كتيب خاص عن الفائزين بجائزة سلطان العويس	الدورة الأولى	
11 ـ أرجوزة تحفة القضاة	نظم: شهاب الدين أحمد بن ماجد شرح: حسن صالح شهاب	1991

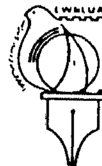
12 ـ ندوة الأدب في الخليج العربي	الجزء الثاني	1991
13 ـ ندوة الأدب في الخليج العربي	الجزء الثالث	1991
14 ـ ندوة الأدب في الخليج العربي	الجزء الرابع	1991
15 ـ بهـدوء	محمد عبد الله المطوع	1991
16 ـ الحداثة الأولى	محمد جمال باروت	1991
17 ـ ذاكرة الشتات	سيف الرحبي	1992
18 ـ الفائزون بالجائزة	(الدورة الثانية)	1992
19 ـ ابحاث الملتقى الثاني للكتابات القصصية والروائية في دولة الإمارات	الجزء الأول	1992
20 ـ ابحاث الملتقى الثاني للكتابات القصصية والروائية في دولة الإمارات	الجزء الثاني	1992
21 ـ ابحاث الملتقى الثاني للكتابات القصصية والروائية في دولة الإمارات	الجزء الثالث	1992

● **تـراث وفنـون:**

1 ـ الألعاب والألغاز الشعبية في دولة الإمارات العربية المتحدة	نجيب الشامسي	1991
2 ـ الندوة العلمية لإحياء تراث ابن ماجد	الجزء الأول	1991
3 ـ الندوة العلمية لإحياء تراث ابن ماجد	الجزء الثاني	1991

هذا الكتاب

جراهام جرين، هو عميد الأدب باللغة الإنجليزية على جانبي المحيط
اعترف به الأمريكيون بعد غياب نجم هيمنجواي وسقوط شتاينبك، وك
يقول عنه البريطانيون أهل بلده: إنه آخر العمالقة بغير نزاع.



منشورات اتحاد كتاب وأدباء الامارات
هاتف 364404 فاكس 364409
ص.ب 4321 الشارقة أ.ع.م

السعر 35 درهماً